سلسلة شرح المتون والرسائل

ثلاثة الأصول — مسائل الجاهلية

فضل الإسلام

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

شرح معالي الشيخ

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

المجلد الأول

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

اسم الكتاب : سلسلة شرح المتون والرسائل ج١
تأليف : صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
القطع : ١٧ X ٢٤
عدد الصفحات : ٥٤٤ صفحة
سنة الطبع : ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م (طبعة جديدة)
الناشر : دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع
طباعة : دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٠١٦/٣٥٧٧
الترقيم الدولي: 9-338-429-977-978

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤١٧٠٤ / ٤٤٧١٥٥٠٦ / ٠٠٢٠٢ ٠١٠٠١٥٩٢٢٧١
E-mail: dar_altakoa@hotmail.com
dar_altakoa@yahoo.com

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمدَ للهِ تَعالَىٰ نَحْمدُه، ونستَعينُه ونستَغفرُه، ونَعوذُ باللهِ تَعالَىٰ مِن شُرورِ أنفُسِنا وسَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَن يَهدِه اللهُ فَلا مُضلَّ لَه، وَمَن يُضلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وَأَشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدهُ لَا شَريكَ لَه، وأشْهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورَسُولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بَعْدُ..

فَهَذَا جَمعٌ طَيِّبٌ لِجُمْلَةِ مُتُونِ العَقِيدَةِ وَالتَّوْحِيدِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، نُقَدِّمُهُ لِطَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، لِيَعْرِفَ كُلُّ مُسْلِمٍ مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَعُلَمَاؤُهَا، فَقَدْ غَابَتْ عَنَّا أُصُولُ اعْتِقَادِهِمْ وَمَنْهَجِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، فَإِنَّ النَّاظِرَ فِي وَاقِعِنَا اليَوْمَ يَجِدُ بَوْنًا شَاسِعًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا، وَمَا يَحْدُثُ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ مِنْ فِتَنٍ وَبَلَايَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ أَحْوَالُ المُسْلِمِينَ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ بُعْدِنَا عَنْ دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَغِيَابِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ السَّائِرِينَ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ.

فَفِي هَذِهِ المُتُونِ تَوْضِيحٌ لِعَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ الَّتِي تَغَافَلَ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ دُعَاةِ المُسْلِمِينَ، فَحَرَفُوا النَّاسَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

يُحْسِنُونَ صُنْعًا، فَإِنَّ هَذِهِ الفِتْنَةِ العَمْيَاءِ الَّتِي عَمَّتْ وَطَمَّتْ وَعَمَتْ وَأَصَمَّتْ بِسَبَبِ غِيَابِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجمَاعَةِ، حَتَّىٰ انْتَشَرَ فِكْرُ الخَوَارِجِ وَاعْتِقَادُهُمْ بَيْنَ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ، وَأَصْبَحَ هُوَ الدِّينَ الَّذِي يَدِينُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ الحَقُّ، فَضَلُّوا عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَانْحَرَفُوا عَنِ المِنْهَاجِ القَوِيمِ، وَهَذَا بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ بِاعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجمَاعَةِ، فَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوُلَاةِ أُمُورِ المُسْلِمِينَ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ جَوْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَلَا يَرَوْنَ الخُرُوجَ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَنَا فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ.

وَلَمَّا غَابَ عَنَّا هَذَا الأَصْلُ حَدَثَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ -وَمَا يَزَالُ يَحْدُثُ- مِنْ هَذِهِ الفَوْضَىٰ الَّتِي عَمَّتْ أَرْجَاءَ البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ، وَالَّتِي بَدَأَتْ نِيرَانُهَا وَشَرَارَتُهَا مِنْ تُونُسَ ثُمَّ مِصْرَ وَمُرُورًا بِالدُّوَلِ الأُخْرَىٰ، وَحَدَثَ مَا هُوَ مُشَاهَدٌ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ مِنَ انْفِلَاتِ الأَمْنِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَانْتِهَاكِ الأَعْرَاضِ وَحَرْقِ المُمْتَلَكَاتِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ وَقَطْعِ الطُّرُقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الفِتَنِ وَالفَوْضَىٰ الهَدَّامَةِ، فَهَذِهِ المُظَاهَرَاتُ لَيْسَتْ مِنْ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجمَاعَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ مَنْهَجِ المَاسُونِيَّةِ وَالصُّهْيُونِيَّةِ، وَلَيْسَتْ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ، وَكُلُّ مَا نَتَجَ عَنْ هَذِهِ المُظَاهَرَاتِ وَالثَّوْرَاتِ وَالإِضْرَابَاتِ وَالاعْتِصَامَاتِ يَتَحَمَّلُهُ كُلُّ مَنْ دَعَا إِلَيْهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالخُرُوجِ لِمِثْلِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّتِي تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَتَهْدِمُ وَلَا تَبْنِي.

وَكَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «وَمَا عُرِفَ قَوْمٌ خَرَجُوا عَلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ حَالُهُمْ بَعْدَ الخُرُوجِ أَسْوَأَ مِنْ حَالِهِمْ قَبْلَ الخُرُوجِ»، وَالوَاقِعُ شَاهِدٌ عَلَىٰ ذَلِكَ. فَالوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَّقِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ فِي دِينِهِ وَفِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَطَنِهِ، وَأَلَّا يَغْتَرَّ بِقَوْلِ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَعْرِضَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، شَرِيطَةَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُوَافِقًا لِفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ.

ترجمة شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نَسَبُهُ:

هُوَ: الإِمَامُ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الوَهَّابِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ رَاشِدِ بنِ بريدِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ مُشرفِ بنِ عُمَرَ التَّمِيمِيُّ الحَنْبَلِيُّ الإِمَامُ المَشْهُورُ المُجَدِّدُ.

مَوْلِدُهُ:

وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ خَمْسَ عَشَرَةَ وَمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الهِجْرَةِ، فَقَدْ عُمِّرَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَقَدْ كَانَ عُمُرًا مَلِيئًا بِالخَيْرِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَالتَّعْلِيمِ وَالإِرْشَادِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

نَشْأَتُهُ:

حَفِظَ القُرْآنَ قَبْلَ بُلُوغِ عَشْرِ سِنِينَ، وَدَرَسَ فِي الفِقْهِ حَتَّىٰ نَالَ حَظًّا وَافِرًا، وَكَانَ مَوْضِعَ الإِعْجَابِ مِنْ وَالِدِهِ لِقُوَّةِ حِفْظِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ المُطَالَعَةِ فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ وَالحَدِيثِ، وَجَدَّ فِي طَلَبِ العِلْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَكَانَ يَحْفَظُ المُتُونَ العِلْمِيَّةَ فِي شَتَّىٰ الفُنُونِ، وَرَحَلَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فِي ضَوَاحِي نَجْدٍ وَفِي مَكَّةَ، وَقَرَأَ عَلَىٰ عُلَمَائِهَا، ثُمَّ رَحَلَ إِلَىٰ المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ فَقَرَأَ عَلَىٰ عُلَمَائِهَا، وَمِنْهُمُ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بنُ إِبْرَاهِيمَ الشّمرِيُّ، كَمَا قَرَأَ عَلَىٰ ابْنِهِ الفَرَضِيِّ الشَّهِيرِ إِبْرَاهِيمَ بنِ الشِّمرِيِّ مُؤَلِّفِ «العَذْبِ الفَائِضِ فِي شَرْحِ أَلْفِيَّةِ الفَرَائِضِ»، وَعَرَّفَاهُ بِالمُحَدِّثِ الشَّهِيرِ مُحَمَّد حَيَاة السِّنْدِيِّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الحَدِيثِ وَرِجَالِهِ، وَأَجَازَهُ بِالأُمَّهَاتِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدْ وَهَبَهُ اللهُ فَهْمًا ثَاقِبًا وَذَكَاءً

مُفْرِطًا، وَأَكَبَّ عَلَىٰ المُطَالَعَةِ وَالبَحْثِ وَالتَّأْلِيفِ، وَكَانَ يُثْبِتُ مَا يَمُرُّ عَلَيْهِ مِنَ الفَوَائِدِ أَثْنَاءَ القِرَاءَةِ وَالبَحْثِ، وَكَانَ لَا يَسْأَمُ مِنَ الكِتَابَةِ، وَقَدْ خَطَّ كُتُبًا كَثِيرَةً مِنْ مُؤَلَّفَاتِ ابنِ تَيْمِيَّةَ وَابنِ القَيِّمِ -رَحِمَهُمَا اللهُ- وَلَا تَزَالُ بَعْضُ المَخْطُوطَاتِ الثَّمِينَةِ بِقَلَمِهِ السَّيَّالِ مَوْجُودَةً بِالمَتَاحِفِ.

وَلَمَّا تُوُفِّيَ وَالِدُهُ سَنَةَ (١١٥٣هـ) أَخَذَ يُعْلِنُ جَهْرًا بِالدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَإِنْكَارِ المُنْكَرِ، وَيُهَاجِمُ المُبْتَدِعَةَ أَهْلَ القُبُورِ (الأَوْثَانِ وَالأَصْنَامِ)، وَقَدْ شَدَّ أَزْرَهُ الوُلَاةُ مِنْ آلِ سُعُودٍ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ وَذَاعَ خَبَرُهُ.

مُؤَلَّفَاتُه:

وَلَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُؤَلَّفَاتٌ نَافِعَةٌ، نَذْكُرُ مِنْهَا: الكِتَابَ الجَلِيلَ المُفِيدَ المُسَمَّىٰ «كِتَابَ التَّوْحِيدِ»، وَقَدْ طُبِعَ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ طَبْعَةٍ، كُلَّمَا نَفِدَتْ طَبْعَةٌ أُعِيدَ طَبْعُهُ.

١- كِتَابُ «كَشْفِ الشُّبُهَاتِ».

٢- كِتَابُ «الكَبَائِرِ».

٣- كِتَابُ «ثَلَاثَةِ الأُصُولِ».

٤- كِتَابُ «مُخْتَصَرِ الإِنْصَافِ وَالشَّرْحِ الكَبِيرِ».

٥- كِتَابُ «مُخْتَصَرِ زَادِ المَعَادِ».

٦- وَلَهُ فَتَاوَىٰ وَرَسَائِلُ جُمِعَتْ بِاسْمِ مَجْمُوعَةِ مُؤَلَّفَاتِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الوَهَّابِ تَحْتَ إِشْرَافِ جَامِعَةِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ.

وَفَاتُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَدْ تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَامَ (١٢٠٦هـ)، فَرَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَزَاهُ عَنِ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاءِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

شرح

ثلاثة الأصول

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

ت ١٢٠٦هـ رحمه الله تعالى

شرح

فضيلة الشيخ

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

[أربع مسائل يجب تعلُّمها]

اعْلَمْ -رَحِمكَ الله- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

الأُولَىٰ: العِلْمُ. وَهُوَ: مَعْرفَةُ اللهِ، ومَعْرفَةُ نَبِيِّه، ومَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيةُ: العَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ فِيهِ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُه تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾(1) [العصر].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لو مَا أَنْزَلَ الله حُجَّةً عَلَىٰ خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَة لَكَفَتْهُمْ».

وقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «بابُ الْعِلْم قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ».

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ(2): ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

الشَّرْح

❑ **قوله:** (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ):

■ ابتدأ رَحِمَهُ اللهُ هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن أول ما يقع عليه

---

(١) أقسم جل جلاله بالعصر -وهو الدهر- لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار وهو أكبر دليل علىٰ الصانع [الدمشقي].

(٢) الذي في «صحيح البخاري» كما في النسخ التي بأيدينا «باب العلم قبل القول والعمل»؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فبدأ بالعلم. اهـ. [الدمشقي].

بصرُك في المصحف، وقبل كل سورة منه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فالبداءة بها في الرسائل، وفي الكتب، وفي المؤلَّفات اقتداءً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك النبي ﷺ كان يكتبها في أول رسائله حينما يكتب إلىٰ الأُمراء والرؤساء، وإلىٰ مَنْ في أقطار الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام، يبدأ كتابته بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

وكان ﷺ يفتتح أحاديثه وكلامه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، مما يدل علىٰ أن البداءة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» سُنَّة الرسول ﷺ، كما أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كتب إلىٰ بلقيس ملكة سبأ بدأ كتابه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل:٢٩-٣١].

ينبغي البدء بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» في كل أمر له أهمية، وكل مؤلَّف له أهمية، وله قيمة، وله رسالة.

وعلىٰ هذا فالذين لا يبدءون مؤلَّفاتهم ورسائلهم بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»؛ هؤلاء تركوا السنة النبوية، والاقتداء بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وربما بسبب ذلك أن كتبهم هذه ورسائلهم ليس فيها بركة، وليس فيها فائدة؛ لأنها إذا خلت من «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإنها منزوعة الفائدة.

لماذا تركوا «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ إنما تركوها لأنها سُنة، وهم يَنْفِرون من السنة، أو يُقلِّدون مَنْ ينفر من السنة، فينبغي التنبُّه لمثل هذا.

فمعنىٰ «بسم الله الرحمن الرحيم»: الاستعانة باسم الله.

فقوله: بسم الله: جار ومجرور متعلَّق بمحذوف، تقديره: أستعين بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، أو أبتدئ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» تبركًا بها واستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ.

فهي مَطْلع عظيم للكلام وللكتب والرسائل، فالإنسان يستعين بالله في بدايتها ويتبرَّك باسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❑ **قوله**: (اعْلَمْ):

■ كلمة تشير إلىٰ الاهتمام بالموضوع، فإذا قال: اعلم؛ فمعناه: أن الأمر الذي سيلقيه عليك أمر مهمٌّ، فهذه الكلمة تدل علىٰ أهمية الموضوع التي يبدأ بها فيه.

ومعنى اعلم: فعل أمر من العلم؛ أي: تعلم، والعلم: هو إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ طبق الواقع.

وإدراك الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ خلاف الواقع فهو الجهل وهو ضدُّ العلم.

❑ **قوله**: (رَحِمَكَ الله):

■ هذا دعاء لطالب العلم، فالشيخ يدعو لطلبة العلم بأن يرحمهم الله، وأن يُلقي عليهم رحمته ﷻ، فهذا فيه التلطُّف من المعلِّم بالمتعلِّم، وأنه يبدأ بالكلام الطيب والدعاء الصالح حتىٰ يؤثر ذلك فيه، ويقبل علىٰ معلِّمه، أما إذا بدأ المعلم بالكلام القاسي والكلام غير المناسب، فإن هذا يُنفِّره.

فالواجب علىٰ المعلِّم وعلىٰ مَنْ يدعو إلىٰ الله، وعلىٰ مَنْ يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر التلطف بمَنْ يخاطبه بالدعاء والثناء عليه والكلام اللَّين فإن هذا أدعىٰ للقبول.

أما المعاند والمكابر فإن هذا له خطاب آخر، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت:٤٦].

فالذين ظلموا من أهل الكتاب وعاندوا وكابروا، هؤلاء لا يخاطبون بالتي هي أحسن بل يخاطبون بما يردعهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة:٧٣]، المنافقون لا يجاهدون بالسلاح، وإنما يجاهدون بالحُجَّة والكلام والرد عليهم بالغِلْظة ردعًا لهم وتنفيرًا للناس عنهم، وقال تعالىٰ فيهم: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء:٦٣]، هؤلاء لهم خطاب خاصٌّ؛ لأنهم أهل عناد ومكابرة، ولا يريدون الحق بل يريدون

تضليل الناس، فهؤلاء يخاطبون بما يليق بهم.

أما الطالب المسترشد فهذا يخاطب بالرِّفق والرحمة واللُّطف؛ لأنه يريد الحق ويريد العلم والفائدة.

❏ **قوله**: (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ):

■ دعاء لك بالرحمة، فإذا رحمك الله، فإنك تكون سعيدًا بها في الدنيا والآخرة، إذا دخلت في رحمة الله، وهذا دعاء ومن عالم جليل، ورجل صالح يُرْجىٰ له القبول إن شاء الله.

❏ **قوله**: (يَجِبُ):

■ **الواجب**: هو ما يُثاب فاعله ويُعاقب تاركه، والمستحبُّ: هو ما يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه، والمباح: لا ثواب في فعله، ولا عقاب في تركه.

فقوله: (يجب)، يعني: أن هذا الأمر ليس من المستحب، ولا من المباح؛ بل هو من الواجب العيني.

فإذا تركنا تعلُّمَ هذه المسائل فإننا نأثم؛ لأن هذا شأن الواجب، لم يقل: يستحب لنا أو يستحسن لنا، بل قال: يجب علينا وجوبًا، والوجوب معناه: الحَتْم، مَنْ تركه يأثم، ولأن العلم لا يحصل عليه إلا بالتعلُّم، والتعلم يحتاج إلىٰ عناية وجُهْد ووقت، ويحتاج إلىٰ فَهْم وإلىٰ حضور قلب، هذا هو التعلُّم.

❏ **قوله**: (أَرْبَعِ مَسَائِلَ):

■ **يعني**: مباحث، سُمِّيت مسائل؛ لأنها يجب أن يُسأل عنها، وأن يُعنىٰ بها.

❏ **قوله**: (العِلْمُ):

■ المراد بالعلم هنا: هو العلم الشرعي؛ لأنه هو الذي يجب تعلُّمه، وهذه المسائل يجب تعلُّمها علىٰ كل مسلم من ذكر أو أنثىٰ، أو حرٍّ أو عبدٍ، أو غني أو فقير، أو ملك أو صعلوك، كل مسلم يجب عليه أن يتعلم هذه المسائل الأربع.

وهذا ما يسميه العلماء بـ«الواجب العَيْنِيِّ»، وهو الذي يجب علىٰ كل أحد من

المسلمين، فالصلوات الخمس علىٰ الرجال والنساء، وصلاة الجماعة في المساجد علىٰ الرجال، هذا واجب علىٰ كل فرد من المسلمين أن يتعلَّمها؛ ولذلك قال: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ بعضنا، وإنما قال: يجب علينا، يعني: معشر المسلمين، فهذا من العلم الذي يجب تعلَّمه علىٰ الأعيان؛ لأن العلم علىٰ قسمين:

الأول: ما يجب تعلُّمه علىٰ الأعيان، فلا يُعذَرُ أحد بجهله، وهو ما لا يستقيم الدِّين إلا به، مثل أركان الإسلام الخمسة التي هي: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، لا يجوز لمسلم أن يجهلها، بل لابدَّ أن يتعلمها.

لأن تعلم معنىٰ الشهادتين: إنما هو تعلُّم العقيدة، يتعلم المسلم العقيدة من أجل العمل بها، ويتعلم ما يضادُّها من أجل أن يتجنبه، هذا مضمون الشهادتين.

كذلك يتعلم أركان الصلاة، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وسُنن الصلاة، لابد أن يتعلم بالتفصيل هذه الأمور، ليس مجرد أنه يصلي وهو لا يعرف أحكام الصلاة. كيف يعمل الإنسان عملًا وهو لا يعلم هذا العمل الذي يؤديه؟ كيف يُؤدِّي الصلاة وهو جاهل بأحكامها؟ فلا بد أن يتعلم أحكام الصلاة، ومُبْطلات الصلاة، لا بد من تعلم هذا.

كذلك يتعلم أحكام الزكاة، ويتعلم أحكام الصيام، ويتعلم أحكام الحج، فإذا أراد أن يحُج وَجَبَ عليه تعلم أحكام الحج، وأحكام العمرة، من أجل أن يُؤدِّي هذه العبادات علىٰ الوجه المشروع.

وهذا القسم لا يعذر أحد بجهله، وهو ما يسمىٰ: بالواجب العيني علىٰ كل مسلم.

القسم الثاني من أقسام العلم: فهو ما زاد عن ذلك من الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأُمة بمجموعها، وقد لا يحتاجه كلُّ أحد بعينه مثل: أحكام البيع، وأحكام المعاملات، وأحكام الأوقاف، والمواريث، والوصايا، وأحكام الأنكحة، وأحكام الجنايات، هذه لا بدَّ منها للأُمة؛ لكن لا يجب علىٰ كل فرد من الأُمة أن يتعلمها؛ بل

إذا تعلمها مَنْ يحصل به المقصود من العلماء كفىٰ هذا؛ ليقوموا بحاجة المسلمين من قضاء، وإفتاء، وتعليم وغير ذلك، هذا يسمىٰ واجب الكفاية الذي إذا قام به مَنْ يكفي سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثموا جميعًا.

فلابد للأُمة من أُناس يتعلمون هذا القسم؛ لأنهم بحاجة إليه، لكن ما يقال لكل واحد: يجب عليك أن تتفقه في هذه الأبواب؛ لأنه قد لا يتأتىٰ هذا لكل أحد، وإنما يختص هذا بأهل القدرة، وأهل الاستطاعة من الأُمة؛ ولأنه إذا تعلم هذا بعضُ الأمة قام بالواجب، بخلاف القسم الأول فكل واحد مسئول عنه في نفسه؛ لأنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال إلا عن علم؛ ولهذا قال الشيخ: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ المسلمين، أو يجب علىٰ بعضهم، بل قال: يجب علينا؛ أي: علىٰ كل واحد منا وجوبًا عينيًّا.

ولنعلم -أيضًا- قبل الدخول في المسائل: أن المراد بالعلم الذي يجب علىٰ الأمة؛ إما وجوبًا عينيًّا، أو كفائيًّا، أنه العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ.

أما العلم الدنيوي كعلم الصناعات، والحِرَف، والحساب، والرياضيات، والهندسة، فهذا العلم مباح، يباح تعلُّمه، وقد يجب إذا احتاجت الأُمة إليه، يجب علىٰ مَنْ يستطيع؛ لكن ليس هو العلم المقصود في القرآن والسنة، والذي أثنىٰ الله -تعالىٰ- علىٰ أهله ومدحهم، والذي قال فيه النبي ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[(١)]، المراد: العلم الشرعي.

وأما العلم الدنيوي فمَنْ جهلَه فلا إثم عليه، ومَنْ تعلَّمه فهو مباح له، وإذا نفع به الأُمَّة فهو مأجور عليه ومُثابٌ عليه، ولو مات الإنسان وهو يجهل هذا العلم لم يُؤاخذ عليه يوم القيامة، لكن مَنْ مات، وهو يجهل العلم الشرعي خصوصًا العلم الضروري، فإنه يسأل عنه يوم القيامة، لِمَ لَمْ تتعلم؟ لماذا لَمْ تسأل؟ الذي يقول: إذا وضع في قبره:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه العلَّامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

ربي الله والإسلام ديني ونبيي محمد ﷺ هذا ينجو، يقال له: من أين حصَّلت هذا؟ يقول: قرأت كتاب الله وتعلمته.

أما الذي أعرض عن ذلك؛ فإنه إذا سئل في قبره فإنه يقول: هاه هاه!! لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فهذا يُؤجّج عليه قبره نارًا -والعياذ بالله- ويضيِّقُ عليه فيه حتىٰ تختلف أضلاعه، ويصبح في حُفْرة من حُفَر النار؛ لأنه ما درىٰ وما تلا، فيقال له: «لا دريت ولا تليت، -أو: لا تلوت-»[١]. فهو لم يتعلم، ولم يَقْتَدِ بأهل العلم، وإنما هو ضائع في حياته، فهذا الذي يئول إلىٰ الشَّقاء -والعياذ بالله.

فقوله: (العلم): هذا هو العلم الشرعي المطلوب منا جماعةً وأفرادًا، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقَّه علينا، وهو عبادته وحده لا شريك له، فأولُ ما يجب علىٰ العبد هو معرفةُ ربه عَزَّوَجَلَّ وكيف يعبده.

❑ **قوله**: (وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ):

■ كيف يعرف العبد ربه؟ يعرفه بآياته ومخلوقاته، فمن آياته: الليل والنهار، ومن مخلوقاته الشمس والقمر، كما يأتي بيان هذا -إن شاء الله-.

يعرف الله بآياته الكونية وآياته القرآنية، إذا قرأ القرآن، عرف الله تَعَالَىٰ أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنه هو الذي سخَّر ما في السماوات والأرض، وأنه هو الذي يُحيي ويميت، وهو علىٰ كل شيء قدير، وأنه الرحمن الرحيم، فالقرآن يُعَرِّف بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه هو الذي أنعم علينا بجميع النعم، وأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، فإذا قرأت القرآن عرفت ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته وأفعاله.

وإذا نظرت في الكون عرفت ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه هو الذي خلق هذا الخَلْق، وسَخَّر هذا الكون وأجراه بحِكْمته وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو العلم بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) مختصرًا، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❑ **قوله**: (ومَعْرفَةُ نَبِيِّه):

■ هو محمد ﷺ؛ لأنه هو المُبلِّغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الواسطة بيننا وبين الله عَزَّوَجَلَّ في تبليغ الرسالة، لا بد أن تعرفه، تعرف من هو؟ وتعرف نسبه وتعرف بلده، وتعرف ما جاء به ﷺ، تعرف كيف بدأه الوحي؟ وكيف قام بالدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في مكة والمدينة، تعرف سِيرة الرسول ﷺ ولو باختصار.

الرسول ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلىٰ آخر النسب النبوي الذي ينتهي إلىٰ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وتعرف كيف عاش قبل البعثة، وكيف جاء الوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، وماذا عمل -عليه الصلاة والسلام- بعد بعثته، تعرف ذلك بدراسة سِيرته ﷺ، ولا يليق بالمسلم أن يجهل الرسول ﷺ، كيف تتبع شخصًا، وأنت لا تعرفه؟! هذا غير معقول.

❑ **قوله**: (ومَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ):

■ الذي هو دين هذا الرسول ﷺ، بل هو دين الله عَزَّوَجَلَّ الذي أمر به عباده، والذي أمرك باتباعه، وأنت مطالب به لا بدَّ أن تعرف هذا الدِّين، والإسلام هو دين جميع الرسل.

كل الرسل دينهم الإسلام بالمعنىٰ العام، فكلُّ من اتبع رسولًا من الرسل، فهو مسلم لله عَزَّوَجَلَّ، منقادٌ له، موحِّدٌ له، هذا الإسلام بمعناه العام، إنه دين الرسل جميعًا، فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص[1] من الشرك وأهله.

أما الإسلام بمعناه الخاص: فهو الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ لا دين إلا دينه -عليه الصلاة والسلام-، والإسلام انحصر في اتباعه ﷺ، فلا يمكن لليهودي أن يقول: أنا مسلم، أو النصراني يقول: أنا مسلم، بعد بعثة

---

(١) انظر: هامش رقم (١٢٠).

النبي ﷺ وهو لا يتبعه، فالإسلام بعد بعثة النبي هو اتباعه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] هذا هو الإسلام بمعناه العام وبمعناه الخاص.

❑ **قوله**: (بالأَدِلَّةِ):

■ لا بالتقليد، وإنما بالأدلة من القرآن، ومن السنة؛ هذا هو العلم.

قال ابن القيم في «الكافية الشافية»:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان

هذا هو العلم، العلم هو: علم الكتاب والسنة، أما أقوال العلماء فهي تشرح وتوضح فقط كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وقد يكون فيها أو في بعضهما خطأ، والأدلة ليست كلام العلماء إنما الأدلة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأما كلام العلماء فهو شارح وموضِّح ومُبيِّن لذلك لا أنه دليل في نفسه.

هذه هي المسألة الأولىٰ، وهي الأساس، بدأ بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنها هي الأساس، وإنما يُبدأ بالعقيدة وبالأساس بالتعلُّم والتعليم والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، يبدأ بالعقيدة؛ لأنها هي الأصل وهي الأساس.

❑ **قوله**: (العَمَلُ بِهِ):

■ **أي**: بالعلم؛ لأنه لا يكفي أن الإنسان يعلم ويتعلم بل لا بد أن يعمل بعلمه، فالعلم بدون عمل إنما هو حُجَّة علىٰ الإنسان، فلا يكون العلم نافعًا إلا بالعمل، أما مَنْ عَلِمَ ولم يعمل فهذا مغضوب عليه؛ لأنه عرف الحقَّ وتركه علىٰ بصيرة.

والناظم يقول:

وعالِم بعلمه لَم يعملَنْ ... معذبٌ من قَبْل عُبَّاد الوثن

وهذا مذكور في الحديث الشريف: «**إن مَنْ أول مَنْ تُسعِّر بهم النار يوم القيامة،**

عالِم لم يعمل بعلمه»(١). العلم مقرون بالعمل، والعمل هو ثمرة العلم، فعِلْمٌ بلا عمل كشجرة بلا ثمر، لا فائدة فيها، والعلم إنما أُنزل من أجل العمل.

كما أن العمل بدون عِلْم يكون وبالًا وضلالًا علىٰ صاحبه، إذا كان الإنسان يعمل بدون علم فإن عمله وبال وتعب علىٰ صاحبه، قال ﷺ: **«مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**(٢).

ولهذا نقرأ في الفاتحة في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦،٧].

فسمىٰ الله الذين يعملون بدون علم: الضالين، والذين يعلمون ولا يعملون: بالمغضوب عليهم، فلنتنبه لذلك فإنه مهمٌّ جدًّا.

❑ **قوله:** (الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ):

■ **أي:** لا يكفي أن يتعلم الإنسان ويعمل في نفسه، ولا يدعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، بل لا بد أن يدعو غيره، فيكون نافعًا لنفسه، ونافعًا لغيره؛ ولأن هذا العلم أمانة، ليس بمِلْك لك تختزنه وتحرم الناس منه، والناس بحاجة إليه، فالواجب عليك التبليغ والبيان، ودعوة الناس إلىٰ الخير، هذا العلم الذي حمَّلك الله إياه ليس وقفًا عليك؛ وإنما هو لك ولغيرك، فلا تحتكره علىٰ نفسك وتمنع الناس من الانتفاع به، بل لابد من تبلِّيغه ولا بد من بيانه للناس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران:١٨٧].

هذا ميثاق أخذه الله علىٰ العلماء أن يُبيِّنوا للناس ما علَّمهم الله من أجل أن ينشروا الخير، ويخرجوا الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهذا عمل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومن اتبعهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨] هذه طريقة الرسول ﷺ وطريقة أتباعه، العلم والعمل والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَنْ لم يدع وهو قادر علىٰ الدعوة وعنده عِلْمٌ وكتمه، فإنه يُلْجم بلجام من نار يوم القيامة كما في الحديث[(١)].

❑ قوله: (الصَّبْرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ فِيهِ):

■ معلوم أن مَنْ دعا الناس، وأمر بالمعروف، ونهىٰ عن المنكر، فإنه سيتعرض للأذىٰ من الأشرار؛ لأن كثيرًا من الناس لا يريدون الخير؛ بل يريدون الشهوات، والمحرمات والأهواء الباطلة، فإذا جاء مَنْ يدعوهم إلىٰ الله، ويردهم عن شهواتهم، فلا بد أن يكون منهم ردُّ فعل بالقول أو بالفعل.

فالواجب علىٰ من يدعو إلىٰ الله، ويريد وَجْه الله أن يصبر علىٰ الأذىٰ، وأن يستمر في الدعوة إلىٰ الله، وقدوته في ذلك الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وخيرتهم وخاتمهم محمد ﷺ.

ماذا لقي من الناس؟ وكم لقي من الأذىٰ بالقول والفعل؟ قالوا: ساحر وكذَّاب، وقالوا: مجنون، وقالوا فيه من الأقوال التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن، وتناولوه بالأذىٰ؛ قذفوه بالحجارة حتىٰ أدموا عقبه ﷺ لما دعاهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وألقوا سَلَا جزور علىٰ ظهره، وهو ساجد عند الكعبة، وتوعَّدوه بالقتل وهدَّدوه، وفي غزوة أُحُدٍ، جرىٰ عليه وعلىٰ أصحابه ما جرىٰ -عليه الصلاة والسلام-، كسروا رُبَاعيته وشجُّوه في رأسه ﷺ، ووقع في حفرة، وهو نبيُّ الله، كل هذا أذىٰ في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، لكنه صبر وتحمل، وهو أفضل الخَلْق -عليه الصلاة والسلام-، فلا بد للذي يقوم بهذه الدعوة أن يتعرض للأذىٰ علىٰ حسب إيمانه ودعوته؛ ولكن عليه أن يصبر، ما دام أنه علىٰ حقٍّ، فإنه يصبر ويتحمل فهو في سبيل الله وما يناله من الأذىٰ، فهو في كَفَّة حسناته أجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

❑ **قوله:** ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾:

■ هذه المسائل الأربع يجب أن تتعلمها بالتفصيل، هل من دليل علىٰ ما قاله الشيخ؟ إن هذه المسائل الأربع يجب علينا تعلُّمها، وهو وعدنا أنه لا يقول شيئًا إلا بدليل، فأين الدليل؟

قال: الدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

هذه هي المسألة الأولى: العلم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا بعِلْمٍ، وهو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومعرفة نبيِّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

المسألة الثانية: وعملوا الصالحات، هذا العمل بالعلم.

المسألة الثالثة: وتواصوا بالحق، فهذه الدعوة إلىٰ العلم والعمل.

المسألة الرابعة: وتواصوا بالصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ العلم والعمل.

فقوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾:

الواو: واو القسم.

والعصر: اسم مقسم به مجرور وعلامة جره الكسرة، والمراد به: الوقت والزمان.

أقسم الله تعالىٰ بالزمان والوقت وهو مخلوق، والله -جل وعلا- يقسم بما شاء من الخَلْق، والمخلوق لا يقسم إلا بالله، والله لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه آية من آياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا الزمان فيه عِبْرة وله أهمية؛ ولذلك أقسم الله بالعصر، وبالليل إذا يغشىٰ، وأقسم بالضحىٰ.

أما المخلوق فإنه لا يقسم إلا بالله، ولا يجوز لنا أن نحلف بغير الله، قال ﷺ: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ٦٧)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلَّامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وقال: «مَنْ كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»(١).

فالله يقسم بما شاء، ولا يقسم إلا بما له أهمية، وفيه عِبْرة، ما هي العِبْرة في هذا الزمان؟ العِبَر عظيمة: تعاقب الليل والنهار، وتقارضهما، هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، يطول هذا، ويقصر هذا، تعاقبهما علىٰ هذا النظام العجيب الذي لا يتخلَّف ولا يتغير.

هذا دليل علىٰ قدرة الله ﷻ، ثم ما يجري في هذا الوقت من الحوادث والكوارث ومن المصائب ومن النعم ومن الخيرات، ما يجري في هذا الوقت هذا من العِبَر.

وكذلك فإن الليل والنهار مجال للعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان:٦٢]؛ أي: يتعاقبان يخلف هذا هذا: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان:٦٢]، وفي بعض القراءات: ﴿لمَنْ أراد أن يَذْكُرَ﴾(٢).

فالليل والنهار كسب عظيم لمن استغلهما في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ومجال العمل هو الليل والنهار، ما عندك غير الليل والنهار، هما مجال العمل والكسب الطيب للدنيا والآخرة، في الليل والنهار عِبَر وفوائد لذلك أقسم الله بالعصر.

ما هو جواب القسم؟

هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر:٢] الإنسان؛ جميع بني آدم لم يستثن أحدًا لا الملوك ولا الرؤساء، ولا الأغنياء، ولا الفقراء، ولا الأحرار، ولا العبيد، ولا الذكور، ولا الإناث، فـ «أل» في الإنسان للاستغراق، كل بني آدم في خُسْر؛ أي: في خسارة وهلاك إذا ضيَّعوا هذا الوقت الثمين، واستعملوه في معصية الله، وفيما يضرهم.

وهذا الوقت الذي هو رخيص عند كثير من الناس، يطول عليهم الوقت، يملُّون ويقولون: نريد قَتْل الوقت، يأتون بالملهيات، أو يسافرون للخارج لقضاء العُطْلة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) هي قراءة حمزة والكسائي «السبعة» (ص٤٦٥، ٤٦٦).

والوقت، أو يضحكون ويمزحون لقطع الوقت، فهؤلاء الذين قطعوه وضيعوه سيكون خسارة وندامة عليهم يوم القيامة، وهو مصدر سعادتهم لو حافظوا عليه.

فجميع بني آدم في خسارة وهلاك إلا من اتصف بأربع صفات هي: العلم، والعمل، والدعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ الأذىٰ.

فمن اتصف بهذه الصفات الأربع نجىٰ من هذه الخسارة.

ولا يمكن الإيمان بالله إلا بالعلم الذي هو معرفة الله.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:٢]؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات، فاستغلوا وقتهم بعمل الصالحات بما يفيدهم في دينهم ودنياهم، حتىٰ العمل للدنيا فيه خير، وفيه أجرٌ إذا قصد به الاستعانة علىٰ الطاعة، فكيف بالعمل للآخرة، المهمُّ أنك لا تضيع الوقت بل تستعمله في شيء يفيدك وينفعك.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر:٣]: أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وعلَّموا العلم النافع، ونشروا العلم، والخير في الناس، أصبحوا دُعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[العصر:٣]: صبروا علىٰ ما ينالهم، والصبر في اللغة: الحبس، والمراد به هنا: حَبْس النفس علىٰ طاعة الله، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: صبر علىٰ طاعة الله.

الثاني: صبر عن محارم الله.

الثالث: صبر علىٰ أقدار الله.

فالأول: صبر علىٰ طاعة الله؛ لأن النفس تريد الكسل وتريد الراحة، فلا بد أن يصبرها الإنسان علىٰ الطاعة، وعلىٰ الصلاة، وعلىٰ الصيام، وعلىٰ الجهاد في سبيل الله، وإن كانت تكره هذه الأمور، يصبرها ويحبسها علىٰ طاعة الله.

والثاني: صبر عن محارم الله، النفس تريد المُحرَّمات والشهوات، تميل إليها وتنزع إليها، فلابد أن يربطها ويحبسها عن المُحرَّمات، وهذا يحتاج إلىٰ صبر، وليس

من السهل منع النفس عن الشهوات المحرمة، مَنْ ليس عنده صبر، فإن نفسه تتغلب عليه وتجنح إلىٰ المحرمات.

الثالث: الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة: المصائب التي تصيب الإنسان من موت قريب، أو ضياع مال، أو مرض يصيب الإنسان.

لا بد أن يصبر علىٰ قضاء الله وقدره لا يجزع، ولا يتسخط بل يحبس اللسان عن النياحة والتسخُّط ويحبس النفس عن الجزع، ويحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشقِّ الجيوب. هذا هو الصبر علىٰ المصائب.

أما المعائب فلا يصبر عليها، بل يتوب إلىٰ الله وينفر منها، ولكن عند المصائب التي لا دخل لك فيها، بل هي من الله عَزَّوَجَلَّ قَدَّرها عليك ابتلاءً وامتحانًا، أو عقوبة لك علىٰ ذنوب فعلتها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾[الشورىٰ:٣٠].

فإذا حصلت للمسلم مصيبة في نفسه، أو ماله، أو ولده، أو قريبه، أو أحد إخوانه من المسلمين فعليه بالصبر والاحتساب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾[البقرة:١٥٦،١٥٧] هذا هو الصبر.

ومن ذلك: الصبر علىٰ الأذىٰ في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا من المصائب، فعليك أن تصبر علىٰ ما تلقَّىٰ من الأذىٰ في سبيل الخير، ولا تنثني عن فعل الخير؛ لأن بعض الناس يريد فعل الخير، لكن إذا واجهه شيء يكرهه، قال: ليس من الواجب عليَّ أن أدخل نفسي في هذه الأمور، ثم يترك التعليم إن كان معلمًا، يترك الدعوة إلىٰ الله، يترك الخطابة إن كان خطيب مسجد، يترك إمامة المسجد، يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا لم يصبر علىٰ ما ناله من الأذىٰ.

وإذا كنت مخطئًا عليك بالرجوع إلىٰ الحق والصواب، أما إن كنت علىٰ حقٍّ، ولم تخطئ فعليك بالصبر والاحتساب، واستشعر أن هذا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وأنك مأجور

عليه، وتذكَّر ما حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الأذىٰ وكيف صبروا وجاهدوا في سبيل الله حتىٰ نصرهم الله عَزَّوَجَلَّ.

❑ **قوله**: (الشَّافِعِيُّ...):

■ هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي نسبة إلىٰ جَدِّه الرابع اسمه: شافع، وهو من قريش، من بني المطلب، تُوفي سنة ٢٠٤هـ، وهو أحد الأئمة الأربعة، وقال هذه المقالة؛ لأن الله بيَّن في هذه السورة أسباب الشقاوة وأسباب السعادة.

فأسباب السعادة: أن يتصف الإنسان بهذه الصفات الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ، فقامت الحُجَّة من الله علىٰ خَلْقه بهذه السورة، إن الله سبحانه يقول لهم: إنِّي قد بينت لكم أسباب السعادة في هذه السورة القصيرة المختصرة.

والقرآن كله والسنة هما تفاصيل لهذه المسائل الأربع، لكن هذه السورة بيَّنت أسباب السعادة مجملة، فقامت بها الحُجَّة علىٰ الخَلْق، وبقية نصوص القرآن والسنة مفصِّلَة ومبيِّنة لهذه المسائل الأربع.

وليس معنىٰ كلام الشافعي أن هذه السورة تكفي الناس، لو ما أنزل الله غيرها؛ لكنها أقامت الحُجَّة عليهم؛ لأن الله بيَّن فيها أسباب السعادة وأسباب الشقاوة، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لا أعرف أسباب السعادة، ولا أعرف أسباب الشقاوة وهو يقرأ هذه السورة المختصرة الوجيزة.

❑ **قوله**: (البُخَارِيُّ):

■ هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، نسبة إلىٰ بُخَارىٰ بلدة في المشرق، إمام أهل الحديث وجَبَل الحِفْظ رَحِمَهُ اللَّهُ، صاحب «الصحيح» الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب الله.

❑ **قوله**: (الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ):

■ لأن العمل لا ينفع إلا إذا كان مبنيًّا علىٰ علم، أما العمل المبني علىٰ جهل فإنه

لا ينفع صاحبه بل يكون وبالًا وضلالًا عليه يوم القيامة، فلا بد أن يُقدَّم تعلم العلم قبل العمل.

❑ **قوله**: (وَالدَّلِيلُ):

■ **أي**: على هذه الترجمة قوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]؛ حيث بدأ بالعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ هذا هو العمل فبدأ سبحانه بالعلم قبل العمل؛ لأن العمل إذا كان علىٰ جهل فإنه لا ينفع صاحبه، فيبدأ الإنسان بالعلم أولًا، ثم يعمل بما علمه، هذا هو الأساس.

[ثلاث مسائل يجب تعلُّمها]

اعْلَمْ -رَحِمَكَ الله-: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأولَىٰ: أَنَّ الله خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَل أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا. فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل:١٥،١٦].

الثَّانِيةُ: أَنَّ الله لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ الله لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] [المجادلة:٢٢].

---

(١) معنىٰ الآية -والله أعلم-: لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر؛ أي: البعث والنشور -وهو يوم القيامة- يوادون مَنْ حاد الله ورسوله؛ أي: «يجعلون مودة بينهم وبين مَنْ حادَّ وشاقَّ الله ورسوله وعاند شرعه»، ولو كانوا من الأقربين، قيل: نزلت هذه الآية الشريفة في أبي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، وكان من المحادين المعاندين لرسول الله ﷺ ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جعل الأمر شورىٰ بعده في أولئك الستة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته، ويكون من اتصف بذلك =

الشَّرح

❏ **قوله**: (اعْلَمْ):

■ هذه الكلمة قلنا فيما سبق: أنها كلمة يؤتىٰ بها للاهتمام بما بعدها ومعناها: تعلم وافهم وتيقن.

❏ **قوله**: (رَحِمَكَ الله):

■ هذا دعاء لك بالرحمة، وهذا -أيضًا- كما سبق في أن المُعلِّم ينبغي أن يتلطَّف مع المتعلِّم، وأن يدعو له ويرغِّبه، فإن هذا من أعظم وسائل التعليم، ولا ينبغي له أن يقابل المتعلِّم بالقسوة والشدة والغِلْظة؛ لأن هذا يُنفِّرُ عن العلم، ثم هذا -أيضًا- يدل علىٰ النُّصح من الشيخ، وأنه يريد النصيحة والمنفعة والتوجيه السديد.

❏ **قوله**: (أَنَّهُ يَجِبُ):

■ الوجوب معروف عند الأصوليين، والواجب هو الشيء الذي لا بد منه، وقد عرَّفه الأصوليون بأنه: ما يثاب فاعله، ويعاقب تاركه.

وأصل الوجوب في اللغة: الثبوت والاستقرار يقال: وجب كذا أي: ثبت واستقر، قال تعالىٰ في البدن: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج:٣٦]؛ أي: سقطت علىٰ الأرض واستقرت ميتة بعد ذكائها ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾ [الحج:٣٦].

فقوله: (يجب)، يدل علىٰ أن الأمر ليس من باب الاستحباب، مَنْ شاء فعل، ومَنْ شاء ترك، بل الأمر من باب الإلزام من الله ﷻ، ليس هذا الإيجاب من قِبَل الشيخ، وإنما هو من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ فيما أنزل في الكتاب والسنة من إلزام العباد بهذه المسائل.

= ممن كتب الله في قلبه الإيمان والسعادة وقررها في قلبه بقوة منه وزيَّن الإيمان في بصيرته، فهَلَّا فعل علماؤنا ذلك بمن انقلب منهم علىٰ عقبيه وحاد الله ورسوله، وعاند شرعه ورد علىٰ القرآن والسنة بزعمه الفاسد، ونشر المقالات في الجرائد والمجلات ضد الإسلام وأهله، كما يفعلون فيما إذا نزلت درجاتهم وخفضت مرتباتهم ولو نقص من أحدهم رغيف من جرايته لقام وتخبط وأرغىٰ وأزبد، فما لهم عن الحق معرضون؟!![الدمشقي].

❏ **قوله**: (عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ):

▪ **أي**: يجب علىٰ كل ذكرٍ وأنثىٰ من المسلمين؛ سواء كانوا أحرارًا أو عبيدًا، أو ذكورًا أو إناثًا؛ لأن المرأة تشارك الرجل في كثير من الواجبات إلا ما خصَّه الدليل بالرجال، فإنه يختص بهم مثل: وجوب صلاة الجماعة في المساجد، وصلاة الجمعة ومثل زيارة القبور فإنها خاصَّة بالرجال، ومثل الجهاد في سبيل الله فإنه خاصٌّ بالرجال.

فما دلَّ الدليل علىٰ اختصاصه بالرجال فإنه يختص بهم، وإلا فإن الأصل أن الرجال والنساء سواء في الواجبات، وتجنب المحرمات وسائر التكاليف.

ومن ذلك: أن تعلُّم العلم واجب علىٰ الرجال والنساء؛ لأنه لا يمكن عبادة الله -جل وعلا- التي خلقنا من أجلها إلا بتعلُّم العلم الذي نعرف به عبادة ربنا، فهذا واجب علىٰ الرجال والنساء أن يتعلموا أمور دينهم، لا سيما أمور العقيدة.

❏ **قوله**: (تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ):

▪ **التعلُّم هنا معناه**: التلقي عن العلماء والحفظ والفهم والإدراك، هذا هو التعلُّم، ليس المراد مجرد قراءة أو مطالعة حرة -كما يسمُّونها-، هذا ليس تعلُّمًا، إنما التعلُّم هو: التلقي عن أهل العلم مع حفظ ذلك وفهمه وإدراكه تمامًا، هذا هو التعلم الصحيح، أما مجرد القراءة والمطالعة، فإنها لا تكفي في التعلُّم، وإن كانت مطلوبة، وفيها فائدة، لكنها لا تكفي، ولا يكفي الاقتصار عليها.

ولا يجوز التتلمذ علىٰ الكتب، كما هو الواقع في هذا الوقت؛ لأن التتلمذ علىٰ الكتب خطير جدًّا يحصل منه مفاسد وتعالم أضرُّ من الجهل؛ لأن الجاهل يعرف أنه جاهل، ويقف عند حدِّه، لكن المتعالم يرىٰ أنه عالِم، فيحلُّ ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويتكلم ويقول علىٰ الله بلا عِلْم، فالمسألة خطيرة جدًّا.

فالعلم لا يؤخذ من الكتب مباشرة إنما الكتب وسائل، أما حقيقة العلم فإنها تُؤخذ عن العلماء جيلًا بعد جيل، والكتب إنما هي وسائل لطلب العلم.

❑ **قوله**: (الأولىٰ: أَنَّ الله خَلَقَنَا):

■ **أي**: أوجدنا من العدم، فنحن من قبل أن يخلقنا لم نكن شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٩]، كان الإنسان قبل أن يخلق ليس بشيء، والذي أوجده وخلقه هو الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥].

❑ **قوله**: (وَرَزَقَنَا):

■ لما كنا نحتاج إلىٰ الرزق، إلىٰ الطعام والشراب، والملابس والمساكن، والمراكب والمصالح، علم سبحانه حاجتنا فسخَّر لنا ما في السماوات والأرض كله لمصالحنا من أجل بقائنا علىٰ قيد الحياة، ومن أجل أن نستعين بذلك علىٰ ما خلقنا لأجله، وهو عبادة الله تَعَالَىٰ.

❑ **قوله**: (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا):

■ **الهَمَلُ**: هو الشيء المهمل المتروك الذي لا يُعبأ به، فالله خلقنا ورزقنا لحِكْمة، ما خلقنا عبثًا ولا سُدًى، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة:٣٦-٣٨].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

الله إنما خلقنا وخلق لنا هذه الأرزاق والإمكانيات لحِكْمة عظيمة وغاية جليلة، وهي أن نعبده تَعَالَىٰ ولم يخلقنا كالبهائم التي خلقت لمصالح العباد، ثم تموت وتذهب؛ لأنها ليست مكلفة ولا مأمورة ولا منهية، إنما خلقنا لعبادته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ

﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، ولم يخلقنا لهذه الحياة الدنيا فقط نعيش فيها، ونسرح ونمرح، ونأكل ونشرب ونتوسع فيها، وليس بعدها شيء، وإنما الحياة مزرعة وسوق للدار الآخرة نتزود فيها بالأعمال الصالحة، ثم نموت وننتقل منها، ثم نبعث، ثم نحاسب ونُجازىٰ بأعمالنا.

هذه هي الغاية من خَلْق الجن والإنس، والدليل علىٰ ذلك آيات كثيرة تدل علىٰ البعث والنشور والجزاء والحساب، والعقل يدل علىٰ هذا، فإنه لا يليق بحِكْمة الله ﷻ أن يخلق هذا الخَلْق العجيب، وأن يسخِّر هذا الكون لبني آدم، ثم يتركهم يموتون ويذهبون بدون نتيجة، هذا عَبَثٌ، فلا بد أن تظهر نتائج هذه الأعمال في الدار الآخرة.

ولهذا قد يكون من الناس من يفني عمره في عبادة الله وفي طاعته، وهو في فقر وفي حاجة، وقد يكون مظلومًا مضغوطًا عليه ومُضيِّقًا عليه، ولا ينال شيئًا من جزاء عمله في هذه الدنيا، وعلىٰ العكس يكون من الناس كافر ملحد شرير يسرح ويمرح في هذه الحياة، ويتنعم ويُعْطَىٰ ما يشتهي، ويرتكب ما حرَّم الله، ويظلم العباد ويعتدي عليهم، ويأكل أموالهم، ويقتل بغير حقٍّ، ويتسلط ويتجبر ثم يموت علىٰ حاله، ما أصابه شيء من العقوبة، هل يليق بعدل الله ﷻ وحكمته أن يترك هذا المطيع بدون جزاء، وأن يُترك هذا الكافر بدون مجازاة، هذا لا يليق بعدله ﷻ ولذلك جعل دارًا أخرىٰ يُجازىٰ فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فتظهر فيها ثمرات الأعمال.

فالدنيا دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء؛ إما جنة وإما نار، ولم يتركنا هملًا، كما يظن الملاحدة والدهريون، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجاثية:٢٤]، هذه مقالة الملاحدة الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

وقد أنكر الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم:٣٥،٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية:٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨]. فهذا لا يمكن ولا يكون أبدًا.

❑ **قوله**: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا):

■ لمَّا كانت العبادة لا يجوز أن نأخذها من استحساننا أو تقليد فلان وعلان من الناس، أرسل الله إلينا رسلًا تُبين لنا كيف نعبده؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز أن يُعبد الله بشيء إلا بما شرعه.

فالعبادات توقيفية علىٰ ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالحِكْمة من إرسال الرسل أن يُبيِّنوا للناس كيف يعبدون ربهم، وينهونهم عن الشرك والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

هذه مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ ولهذا يقول -عليه الصلاة والسلام-: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»(١)، فالعبادة توقيفية، والبدع مردودة، والخرافات مردودة، والتقليد الأعمىٰ مرفوض، لا تؤخذ العبادات إلا من الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

❑ **قوله**: (رَسُولًا):

■ هو محمد ﷺ خاتم النبيين، أرسله ليبيِّن لنا لماذا خُلقنا؟ ويبيِّن لنا كيف نعبد الله عَزَّوَجَلَّ، وينهانا عن الشرك والكفر والمعاصي، هذه مهمة الرسول ﷺ وقد بلَّغ البلاغ المبين، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأُمَّة -عليه الصلاة والسلام-، وبيَّن ووضح، وتركنا علىٰ المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

❑ **قوله**: (فَمَنْ أَطَاعَهُ):

■ **أي**: فيما أمر به، دخل الجنة.

---

(١) سبق تخريجه.

❑ **وقوله**: (وَمَنْ عَصَاهُ):

■ **أي**: فيما نهىٰ عنه، دخل النار.

وهذا مصداقه كثير في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النساء:٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور:٥٦]، فمَنْ أطاعه اهتدىٰ ودخل الجنة، ومَنْ عصاه ضلَّ ودخل النار، قال ﷺ: «**كلُّكم يدخل الجنة إلا من أبىٰ**»، قالوا: يا رسول الله، ومَنْ يأبىٰ؟ قال: «**مَنْ أطاعني دخل الجنة، ومَنْ عصاني فقد أبىٰ**»[1].

فقوله: أبىٰ؛ أي: أبىٰ أن يدخل الجنة.

وقال: «**لا يسمع بي يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار**»[2]. فمَنْ أطاعه دخل الجنة ومَنْ عصاه دخل النار، وهذا هو الفارق بين المؤمن والكافر.

❑ **قوله**: (والدَّلِيلُ...):

■ **أي**: علىٰ إرسال الرسول ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ [المزمل:١٥، ١٦].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ﴾: الضمير راجع إلىٰ الله ﷻ، وهذا ضمير المعظم نفسه؛ لأنه عظيم ﷻ.

﴿أَرْسَلْنَا﴾ كذلك هذا ضمير العظمة، ومعنىٰ أرسلنا: بعثناه وأوحينا إليه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣١٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِلَيْكُمْ﴾: يا معشر الثقلين الجن والإنس، خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالة هذا الرسول عامة لجميع الناس إلىٰ أن تقوم الساعة.

﴿رَسُولًا﴾: هو محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: أي: عند الله تعالىٰ يوم القيامة بأنه بلَّغكم رسالة الله وأقام الحُجَّة عليكم، كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لم أدر أني مخلوق للعبادة، أنا لم أدر ماذا يجب عليَّ، ولم أدر ماذا يحرم عليَّ، لا يمكن أن يقول هذا؛ لأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد بلغتهم، وهذه الأمة المحمدية تشهد عليهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

فهذه الأُمة تشهد علىٰ الأمم السابقة يوم القيامة أن رسلها بلغتها رسالات الله، بما يجدونه من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله قصَّ علينا نبأ الأمم السابقة والرسل وما قالوه لأممهم.

كل هذا عرفناه من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾: وهو محمد ﷺ؛ عليكم، يا أُمَّة محمد شهيدًا، يشهد عليكم عند الله أنه أقام عليكم الحُجَّة وبلَّغكم الرسالة، ونصحكم في الله، فلا حُجَّة لأحد يوم القيامة بأن يقول: ما بلغني شيء، ما جاءني من نذير، حتىٰ الكفار يعترفون عندما يلقون في النار، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾[الملك:٨، ٩]، يقولون للرسل: أنتم في ضلال، فهم يكذِّبون الرسل ويُضلِّلونهم.

هذه الحِكْمة في إرسال الرسل؛ إقامة الحُجَّة علىٰ العباد، وهداية مَنْ أراد الله هدايته، الرسل يهدي الله بهم مَنْ يشاء، ويقيم الحُجَّة علىٰ مَنْ عاند وجحد وكفر.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [المزمل:١٥]: الرسول هو موسىٰ -عليهم الصلاة والسلام-، وفرعون هو الملك الجبار في مصر الذي ادعىٰ الربوبية، وفرعون: لقب لكل من ملك مصر يقال له: فرعون، المراد به هنا: فرعون الذي ادعىٰ الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات:٢٤].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٦]: هو موسىٰ، كفر به فرعون، كما قصَّ الله في كتابه ما جرىٰ بين موسىٰ وفرعون، وما انتهىٰ إليه أمر فرعون وقومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ [المزمل:١٦]؛ أي: أخذنا فرعون بالعقوبة وهو أن الله أغرقه هو وقومه في البحر، ثم أدخلهم النار: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]. فصار في النار في البرزخ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]. هذا في البَرْزخ قبل الآخرة، يعرضون علىٰ النار صباحًا ومساءً إلىٰ أن تقوم الساعة، وهذا دليل علىٰ عذاب القبر، والعياذ بالله، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٦]؛ أي: شديدًا قويًّا، لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢].

هذه ثلاث عقوبات:

الأولى: أن الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنهم يُعذَّبون في البرزخ إلىٰ أن تقوم الساعة.

الثالثة: أنهم إذا بُعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب -والعياذ بالله.

وكذلك مَنْ عصىٰ محمدًا ﷺ فإن مآله أشد من مآل قوم فرعون؛ لأن محمدًا هو أفضل الرسل، فمَنْ عصاه تكون عقوبته أشدَّ.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ [المزمل:١٦]؛ أي: شديدًا قويًّا، لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢].

فهذه الآية دليل علىٰ مِنَّة الله علينا بإرسال الرسول محمد ﷺ إلينا، وأن الغرض

من إرساله أن يُبيِّن لنا طريق العبادة، فمَنْ أطاعه دخل الجنة، ومَنْ عصاه دخل النار، كما دخل آل فرعون النار لما عصوا رسولهم موسىٰ -عليه الصلاة والسلام-.

وكذلك أعداء الرسل كلهم هذا سبيلهم وهذا طريقهم.

❏ **قوله**: (الثَّانِيةُ):

■ هذه المسألة متعلِّقة بالمسألة الأولىٰ؛ لأن الأولىٰ: هي بيان وجوب عبادة الله واتباع الرسول ﷺ، وهو معنىٰ الشهادتين، معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

والمسألة الثانية: أن العبادة إذا خالطها شِرْكٌ فإنها لا تُقبل؛ لأنه لا بد أن تكون العبادة خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ.

فمَنْ عبد الله وعبد معه غيره فعبادته باطلة، وجودها كعدمها؛ لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص والتوحيد، فإذا خالطها شِرْك فسدت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨]. فالعبادة لا تُسمَّىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسمَّىٰ صلاة إلا مع الطهارة، فإذا خالط الشرك العبادة أفسدها، كما أن الطهارة إذا خالطها ناقض من نواقض الوضوء أفسدها وأبطلها، ولهذا يجمع الله في كثير من الآيات بين الأمر بعبادته والنهي عن الشرك.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

فقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [النحل:٢]، فيه أمران: فيه نفي الشِّرْك، وفيه إثبات العبادة لله تعالىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. قرن بين عبادة الله واجتناب الطاغوت؛ لأن عبادة الله لا تكون عبادة إلا مع اجتناب الطاغوت وهو الشرك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٦٥].

فالإيمان بالله لا يكفي إلا مع الكفر بالطاغوت، وإلا فالمشركون يؤمنون بالله لكنهم يشركون به، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦].

بيَّن سبحانه أن عندهم إيمانًا بالله، ولكن يفسدونه بالشرك -والعياذ بالله.

هذا معنىٰ قول الشيخ، أن مَنْ عبد الله وأطاع الرسول فإنه لا يشرك بالله شيئًا؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد في عبادته.

قال ﷺ في حديث يرويه عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشِرْكه**»[١].

هناك قوم يصلون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويكثرون من ذلك ويصومون ويحجُّون لكنهم يدعون الأضرحة، ويعبدون الحسن، والحسين، والبدوي، وفلانًا، وعلانًا، ويستغيثون بالأموات، هؤلاء عبادتهم باطلة؛ لأنهم يشركون بالله عَزَّوَجَلَّ يخلطون العبادة بالشِّرْك، فعملهم باطل حابط حتىٰ يُوحِّدوا الله عَزَّوَجَلَّ ويخلصوا له العبادة ويتركوا عبادة ما سواه.

وإلا فإنهم ليسوا علىٰ شيء، فيجب التنبُّه لهذا؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يشرك معه في عبادته أحد كائنًا مَنْ كان، لا يرضىٰ سبحانه بمشاركة أحد مهما كان؛ لئلا يقول أحد: أنا أتخذ من الأولياء والصالحين والطيبين شفعاء، أنا لا أعبد الأصنام والأوثان كما هو في الجاهلية، أنا أتخذ هؤلاء شفعاء لا أعبدهم، فنقول له: هذه مقالة الجاهلية اتخذوهم شفعاء عند الله؛ لأنهم صالحون وأولياء من أولياء الله، والله لا يرضىٰ بهذا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❑ **قوله:** (لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ):

■ **الملك المقرب:** هو أفضل الملائكة مثل: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحملة العرش ومَنْ حوله، والملائكة المقربون من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فمع قُرْب المكان من الله عَزَّوَجَلَّ وقُرْب العبادة والمكانة عند الله، لو أشركهم أحد مع الله في العبادة فإن الله لا يرضىٰ بأن يشرك معه ملك مُقرَّب ولا نبيٌّ مرسل كمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ -أُولي العزم- لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد ولو كان من أفضل الملائكة، ولو كان من أفضل البشر.

فهو لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد من الملائكة ولا من الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين، فغير الملائكة والرسل من باب أولىٰ لا يرضىٰ الله بإشراكهم معه في العبادة، وهذا ردٌّ علىٰ أولئك الذين يزعمون أنهم يتخذون الصالحين والأولياء شفعاء عند الله؛ ليقربوهم عند الله زلفىٰ، كما قال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

وإلا فهم يعتقدون أن هؤلاء لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا يملكون موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، وإنما قَصْدُهُم التوسط عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك صرفوا لهم شيئًا من العبادة تقربًا إليهم، ذبحوا للقبور، ونذروا للقبور، واستغاثوا وهتفوا بالأموات.

❑ **قوله:** (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ...):

■ لا يرضىٰ الله بمشاركة أحد كائنا من كان، وهذا صريح في القرآن والسنة، لكن لمَنْ يعقل، ويتدبر، وينبذ التقليد الأعمىٰ، والتعلل الباطل، ويتنبه لنفسه، والدليل علىٰ أن الله لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد كائنًا من كان: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾[الجن:١٨]. المساجد: هي بيوت الله، وهي المواطن المُعدَّة للصلاة، وهي أحب البقاع إلىٰ الله، وهي بيوت أذن الله أن تُرْفع ويُذْكر فيها اسمه، يجب أن تكون هذه المساجد مواطن لعبادة الله وحده، لا يحدث فيها شيء لغير الله، فلا تُبْنىٰ عليها القبور والأضرحة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن مَنْ فعل ذلك، وأخبر أن هذا هو

فعل اليهود والنصارىٰ، ونهانا عن ذلك في آخر حياته، وهو في سكرات الموت -عليه الصلاة والسلام- بقوله: «**ألا إن مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد** -هذا يقوله وهو في سكرات الموت-، **ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**»(١).

ويقول ﷺ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٢).

فالمساجد يجب أن تطهر من آثار الشرك والوثنية، وألَّا تقام علىٰ القبور، أو يدفن فيها الأموات بعد بنائها، بل تكون مواطن عبادة الله وحده، تُقام فيها الصلاة، ويذكر فيها اسم الله، ويُتلىٰ فيها القرآن، وتُقام فيه الدروس النافعة، ويعتكف فيها للعبادة هذه هي وظيفة المساجد.

أما أن تقام فيها أوثانٌ تُعبد من دون الله، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد شِرْك، وإن سماها أهلها مساجد؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾؛ أي: لا لغيره؛ ولأن المساجد هي محل اجتماع الناس وتلاقيهم، فيجب أن تكون طاهرة من الشرك والبِدَع والخُرَافات؛ لأن الناس يتلقون فيها العلم والعبادة.

فإذا وجدوا في المساجد شيئًا من الشرك والخرافات تأثروا بذلك، ونشروه في الأرض، فيجب أن تكون المساجد مطهرة من الشرك.

وأعظمها: المسجد الحرام، كما أمر الله -جل وعلا- بتطهيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]، طهره من ماذا؟ طهره من الشرك والبدع والخرافات، كما أنه -أيضًا- يطهر من النجاسات والقاذورات.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾؛ لا: ناهية، وتدعو: فعل مضارع مجزوم بـ: لا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تدعون، فدخل عليه الجازم، وهو لا الناهية.

فلا تدعوا أيها الناس، مع الله أحدًا، لا تستغيثوا بأحد مع الله، كأن يقول: يا الله، يا

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٥٨)، وغيرهما من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١)، وغيرهما من حديث عائشة، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

محمد، يا الله، يا عبد القادر، أو يقول: يا عبد القادر، يا محمد، أو ما أشبه ذلك، فإن الله لا يرضىٰ بذلك، ولا يقبله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَحَدًا﴾: نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد، لا يستثنىٰ أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صنم، ولا وثن، ولا قبر، ولا شيخ، ولا ولي، ولا حي، ولا ميت كائنًا من كان.

فهي تعمُّ كل مَنْ دُعي من دون الله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، فدلت هذه الآية علىٰ أن العبادة لا تنفع إلا مع التوحيد، وأنها إذا خالطها الشرك، فإنها تبطل وتكون وبالًا علىٰ صاحبها، ثم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾؛ يجب أن تُبنىٰ بنية خالصة، لا يكون القصد من بنائها الرِّياء والسُّمْعة وتخليد الذِّكْر -كما يقولون- وتكون آثارًا إسلامية هذا كله باطل.

المساجد تُبنىٰ للعبادة، وبقصد العبادة، وتكون النية فيها خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، وأيضا تُبنىٰ من كسب طيب، لا تبنىٰ من كسب حرام؛ لأنها لله عَزَّوَجَلَّ و«**إن الله لا يقبل إلَّا طيبًا**»(١)، فتُبنىٰ المساجد من نفقة حلال، وتكون نية بانيها خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، لا يريد من بنائه مدحًا من الناس، أو تخليدًا لذِكْره، أو رياء، أو سُمْعة؛ فإن بناء المساجد عبادة، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله عَزَّوَجَلَّ.

❑ **قوله**: (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ...):

■ لا يجوز لمَنْ فعل ذلك موالاة من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

هذه مسألة الولاء والبراء، وهي تابعة للتوحيد، من حقوق التوحيد: الولاء لأولياء الله، والبراء من أعداء الله، والموالاة والولاء بمعنىٰ واحد، والولاء يُراد به المحبة بالقلب، ويُرَاد به المناصرة والمعاونة، ويُراد به الإرث والعَقْل في الدِّيات.

فالمسلم يُوالي أولياء الله بمعنىٰ: أنه يحصر محبته علىٰ أولياء الله ويناصرهم،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالمسلم يكون مع المسلمين بعضهم من بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٧٥].

فالتعاقل في ديات الخطأ يكون بين المسلمين، وهو ما يسمىٰ بالتكافل، كل هذا يدخل في الولاء -فلا يكون بين مسلم وكافر- والمحبة، والنُّصْرة، والميراث، والعقل، وولاية النكاح، وولاية القضاء إلىٰ غير ذلك.

فلا يكون بين مسلم وكافر، وإنما يكون هذا بين المسلمين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾[النساء:١٤١]، هكذا يجب أن يتميز المؤمنون عن الكفار، فلا يجوز لمَنْ وحَّد الله، وأطاع الرسول ﷺ موالاة مَنْ حادَّ الله.

والمحادة معناها: أن يكون الإنسان في جانب، والله ورسوله والمؤمنون في جانب، ويكون المحادُّ في جانب الكفار هذه هي المحادَّة.

❑ **قوله:** (وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ):

■ **أي:** نسبًا، فإذا كان قريبك محادًّا لله ورسوله، فيجب عليك محادَّته ومقاطعته، ومن كان وليًّا لله ورسوله وجب عليك أن تحبه وتواليه، ولو كان بعيدًا من النسب عنك، لو كان أعجميًّا أو أسود أو أبيض أو أحمر يجب عليك أن تواليه، وأن تحبه سواء كان من بلدك أو من أقصىٰ الشرق أو من أقصىٰ الغرب، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١]؛ أي: بينهم المحبة والتناصر والتعاون، وبينهم الألفة -هذا بين المؤمنين.

❑ **قوله:** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

■ قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ﴾: هذا خطاب للنبي ﷺ؛ أي: لا يقع هذا ولا يكون موجودًا أبدًا، أن يكون مؤمن بالله ورسوله يحب الكفار، فإن أحبهم، فإنه ليس بمؤمن، ولو كان يدعي ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الكافية الشافية»:

أتحبُّ أعداءَ الحبيب وتدعي حبًّا له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه أين المحبَّة يا أخا الشيطان

فهذا لا يمكن أبدًا أن يحب الكفار، يقول: أنا أحب الله ورسوله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:١-٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤]. هذه ملة إبراهيم تبرأ من أبيه، أقرب الناس إليه لما تبين له أنه عدوٌّ لله.

ودلت الآية -أيضًا- علىٰ أن محبة الكافر تتنافىٰ مع الإيمان بالله واليوم الآخر؛ إما مع أصله أو مع كماله، لكن إن كانت محبتهم معها تأييد لمذهبهم وكفرهم، فهذا خروج عن الإسلام، أما إن كان مجرد محبة من غير مناصرة لهم، فهذا يعتبر منقصًا للإيمان وفسقًا ومُضْعِفًا للإيمان.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما قُتل أباه يوم بدر؛ لأن أباه كان علىٰ الكفر، وكان يريد أن يقتل ابنه أبا عبيدة، فقتله أبو عبيدة؛ لأنه عدوٌّ لله، ولم يمنعه أنه أبوه، لم يمنعه ذلك من قتله غضبًا لله تَعَالَىٰ.

❑ **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾:

■ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين يبتعدون عن محبة ومودة مَنْ حادَّ الله ورسوله.

وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ أي: أثبت الله في قلوبهم، ورسخَّ الله في قلوبهم الإيمان.

❑ **قوله**: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

■ **التأييد معناه**: التقوية، قواهم بروح منه، والروح لها عدة إطلاقات في القرآن، منها الروح التي هي النفس التي بها الحياة، ومنها: الوحي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢] ومنها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه روح القدس، والروح الأمين.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل:١٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء:١٩٣]، ومنها: ما في هذه الآية، وهي القوة.

فأيدهم بروح منه؛ -أي: بقوة منه- ﷻ، قوة إيمان في الدنيا، وفي الآخرة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [المجادلة:٢٢] جمع جنة، والجنة في اللغة: البستان، سُمِّي جنة؛ لأنه مُجتنٌّ بالأشجار؛ أي: مستتر ومغطًّى بالأشجار الملتفة؛ لأن الجنة ظِلَال وأشجار وأنهار وقصور وأعلاها وسقفها عرش الرحمن- ﷻ.

❑ قوله تعالىٰ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

■ **أي**: باقين فيها لا يتحولون عنها، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٨]، لا يخافون من موت، ولا يخافون من أحد يخرجهم ويطردهم، مثل ما في الدنيا، قد يكون الإنسان في الدنيا في قصور؛ لكن لا يسلم من الموت، فيخرج منها، ولا يسلم من الأعداء يتسلَّطون عليه ويخرجونه، الإنسان في الدنيا دائمًا خائف.

❑ **قوله**: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾:

■ لما أغضبوا أقرباءهم من الكفار، وعادوهم منحهم الله الرضا منه ﷻ جزاءً لهم، فهم عُوضوا بإغضابهم لأقاربهم الكفار، عوضوا برضا الله ﷻ -رضي الله عنهم ورضوا عنه.

❑ **قوله**: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾:

■ **أي**: جماعة الله، وأما الكفار فهم حزب الشيطان، كما قال الله تعالىٰ عنهم:

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة:١٩]؛ أي: جماعة الشيطان وأنصار الشيطان، أما هؤلاء فهم أنصار الربِّ.

فهذه المسألة تتعلق بعداوة الكفار، وعدم موالاتهم، وهي لا تقتضي أننا نقاطع الكفار في الأمور والمنافع الدنيوية، بل يستثنىٰ من ذلك أمور:

الأول: أنه مع بغضنا لهم وعداوتنا لهم يجب أن ندعوهم إلىٰ الله ﷻ، يجب أن ندعوهم إلىٰ الله ولا نتركهم، ونقول: هؤلاء أعداء الله وأعداؤنا، يجب علينا أن ندعوهم إلىٰ الله لعل الله أن يهديهم، فإن لم يستجيبوا فإنا نقاتلهم مع القدرة، فإما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يبذلوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارىٰ أو المجوس وهم صاغرون، ويخضعون لحكم الإسلام، ويتركون علىٰ ما هم عليه؛ لكن بشرط دفع الجزية وخضوعهم لحكم الإسلام.

أما إن كانوا غير كتابيين وغير مجوس، ففي أخذ الجزية منهم خلاف بين العلماء.

الثاني: لا مانع من مهادنة الكفار عند الحاجة، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم؛ لكون المسلمين لا يقدرون علىٰ قتالهم، ويخشىٰ علىٰ المسلمين من شرهم، لا بأس بالمهادنة إلىٰ أن يقوىٰ المسلمون علىٰ قتالهم، أو إذا طلبوا هم المهادنة: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١] فيهادنون؛ لكن ليس هُدْنة دائمة، إنما هُدْنة مؤقتة مؤجلة إلىٰ أجل حسب رأي إمام المسلمين، لما فيه من المصلحة.

الثالث: لا مانع من مكافأتهم علىٰ الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين، لا مانع أن يكافئون علىٰ إحسانهم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة:٨].

الرابع: الوالد الكافر يجب علىٰ ولده المسلم أن يبر به؛ لكنه لا يطيعه في الكفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ...﴾ [لقمان:١٤، ١٥]

الوالد له حقٌّ، وإن كان كافرًا؛ لكن لا تحبه المحبة القلبية، بل تكافئه علىٰ تربيته لك، وأنه والد وله حقٌّ تكافئه علىٰ ذلك.

الخامس: تبادل التجارة معهم والشراء منهم، شراء الحاجات منهم، واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن؛ لا بأس بذلك، وقد كان النبي ﷺ يتعامل مع الكفار، وكذلك عامل ﷺ أهل خيبر، وهم يهود علىٰ أن يزرعوا الأرض بجزء مما يخرج منها، ليس هذا من الموالاة والمحبة، وإنما هو تبادل مصالح. يجب أن نعرف هذه الأمور، وأنها لا تدخل في الموالاة، وليس منهيًّا عنها.

كذلك الاستدانة منهم؛ فالنبي ﷺ استدان من اليهودي طعامًا، ورهن درعه عنده، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله، لا مانع من هذا؛ لأن هذه أمور دنيوية ومصالح، ولا تدل علىٰ المحبة والمودة في القلوب، فلا بد أن نفرق بين هذا وهذا؛ لأن بعض الناس إذا سمع نصوص العداوة للكفار وعدم محبتهم، قد يفهم أنه لا يتعامل معهم، ولا يتصل بهم نهائيًّا، وأن تكون مقاطعة نهائية.

لا! هذا محدد بأحكام وبحدود وبشروط معروفة عند أهل العلم، مأخوذة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

السادس: أباح الله التزوج من نساء أهل الكتاب، بشرط أن يكنَّ عفيفات في أعراضهن، وأباح الله لنا أكل ذبائحهم.

السابع: لا بأس بإجابة دعوتهم، وأكل طعامهم المباح، كما فعل النبي ﷺ.

الثامن: الإحسان إلىٰ الجيران من الكفار؛ لأن لهم حقَّ الجوار.

التاسع: لا يجوز ظلمهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

[الحنيفية مِلَّة إبراهيم]

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ الله وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] ومَعْنَىٰ يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ: التَّوْحِيدَ وَهُوَ: إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ: الشِّرْكَ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

الشَّرْح

❑ **قوله**: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله):

■ هذا كأنه بداية رسالة ثالثة؛ لأنه مضىٰ رسالتان:

الرسالة الأولى: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة (العصر).

والرسالة الثانية: المسائل الثلاث التي سبقت.

والرسالة الثالثة: هي هذه، وستأتي الرسالة الرابعة، وهي ثلاثة الأصول.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اعلم): تقدم الكلام علىٰ لفظها وبيان معناها، والمقصود من الإتيان بها.

❑ **قوله**: (أَرْشَدَكَ الله):

■ هذا دعاء من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكل مَنْ يقرأ هذه الرسالة متفهمًا لها يطلب العمل بها بأن يرشده الله، والإرشاد: هو الهداية إلىٰ الصواب والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

والرُّشْد ضدُّ الغيِّ، قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، وقال

تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف:١٤٦] والرُّشْد هو دين الإسلام، والغيُّ دين أبي جهل وأمثاله.

❑ **قوله**: (أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ):

■ هذا دعاء عظيم، فإن المسلم إذا أرشده الله لطاعته فقد سعد في الدنيا والآخرة.

والطاعة: هي امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهىٰ الله عنه، هذه هي الطاعة: أن تطيع الله في أوامره فتفعلها، وفي نواهيه فتجتنبها امتثالًا لأمر الله وابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ ترجو ثوابه، وتخاف عقابه، فمَنْ وُفِّقَ لطاعة الله، وأرشد لطاعة الله، فإنه يسعد في الدنيا والآخرة.

❑ **قوله**: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ):

■ **أي**: الذي يجب أن تعلمه، وأن تعرفه أن الحنيفية مِلَّةُ إبراهيم.

والحنف في اللغة: الميل.

فمعنى الحنيفية: هي المِلَّة المائلة عن الشرك إلىٰ التوحيد، وإبراهيم -عليهم الصلاة والسلام- كان حنيفًا مسلمًا، حنيفًا أي: مائلًا عن الشرك، ومعرضًا عنه إلىٰ التوحيد، والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠].

فالحنيف من أوصاف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعنىٰ: أنه معرض عن الشرك ومائل عنه بالكلية إلىٰ التوحيد، متوجِّه بكل وجهته إلىٰ التوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل:١٢٣] وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧].

هذه أوصاف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ العظيمة، منها أنه كان حنيفًا، وأن ملَّته الحنيفية هي المِلَّة الخالصة لله عَزَّوَجَلَّ التي ليس فيها شرك، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتبع هذه المِلَّة بقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وأُمرنا نحن كذلك أن نتبع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨] وهي دين جميع الرسل.

ولكن لكون إبراهيم -عليهم الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ لاقىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ التوحيد من التعذيب، ومن الامتحان ما لم يلقه غيره، فصبر علىٰ ذلك. ولكونه أبا الأنبياء، فإن الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم من ذريته -عليهم الصلاة والسلام- فالحنيفية ملة جميع الأنبياء، وهي الدعوة إلىٰ التوحيد والنهي عن الشرك، هذه مِلَّة جميع الرسل؛ لكن لمَّا كان لإبراهيم مواقف خاصة نحو هذه الملة نُسبت إليه ولمَنْ جاء بعده، والأنبياء كلهم من بعده كانوا علىٰ ملة إبراهيم، وهي ملَّة التوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

ما هي هذه الملة التي أمر نبينا ﷺ باتباعها وأمرنا باتباعه؟ يجب علينا أن نعرفها؛ لأن المسلم يجب عليه أن يعرف ما أوجب الله عليه من أجل أن يمتثله، ومن أجل ألَّا يخلَّ به، لا يكفي الانتساب بدون معرفة، لا يكفي أن ينتسب للإسلام، وهو لا يعرفه، ولا يعرف ما هي نواقض الإسلام، وما هي شرائع الإسلام، وأحكام الإسلام، ولا يكفي الانتساب لملة إبراهيم، وأنت لا تعرفها، وإذا سئلت عنها تقول: لا أدري، هذا لا يجوز، يجب أن تعرفها جيدًا من أجل أن تسير عليها علىٰ بصيرة، وألا تُخِلَّ بشيءٍ منها.

❑ **قوله**: (أَنْ تَعْبُدَ الله وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ):

■ هذه مِلَّة إبراهيم، أن تعبد الله مخلصًا له الدين. تجمع بين الأمرين: العبادة والإخلاص، فمَنْ عَبَدَ الله، ولم يخلص له الدين لم تكن عبادته شيئًا، فمَنْ عبد الله، فصام، وحجَّ، وصلىٰ، واعتمر، وتصدَّق، وزكَّىٰ، وفعل كثيرًا من الطاعات؛ لكنه لم يخلص لله عَزَّوَجَلَّ في ذلك؛ إما لأنه فعل كل ذلك رياء أو سُمْعة؛ أو أنه خلط عمله بشيء من الشرك، كالدعاء لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، فإن هذا لم يكن

مخلصًا في عبادته، بل هو مشرك، وليس على ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم يقعون في الشرك الأكبر، من دعاء غير الله وعبادة القبور، والأضرحة، والذبح لها، والنذر لها، والطواف بها، والتبرُّك بها، والاستغاثة بالأموات، وغير ذلك، وهم يقولون: إنهم مسلمون، هؤلاء لم يعرفوا ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي عليها نبيهم محمد ﷺ لم يعرفوها، أو عرفوها وخالفوها على بصيرة -والعياذ بالله-، وهذا أشد.

فملَّة إبراهيم لا تقبل الشرك بأيٍّ وجه من الوجوه، ومَنْ خلط عمله بشِرْك، فليس على ملة إبراهيم، وإن كان ينتسب إليها، ويزعم أنه مسلم، فالواجب أن تعرف ملة إبراهيم، وأن تعمل بها، وأن تلتزمها بأن تعبد الله مخلصًا له الدين، لا يكون في عبادتك شيء من الشرك الأصغر أو الأكبر.

هذه مِلَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -الحنيفية- التي أعرضت عن الشرك بالكُلِّية، وأقبلت على التوحيد بكليتها، أن تعبد الله مخلصًا له الدين.

❑ **قوله**: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله):

■ الإشارة ترجع إلى قوله: أن تعبد الله مخلصًا له الدين؛ أي: وبعبادة الله مخلصًا له الدين، أمر الله جميع الخلق، أمر الله جميع الناس عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كل الناس من عهد آدم إلى آخر بشر في الدنيا، كلهم أمرهم الله بعبادته مع الإخلاص في العبادة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١،٢٢] ؛ أنه لا ندَّ له، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفؤ له، فهذا نهيٌ عن الشرك الأكبر وعن الشرك الأصغر، أمر الله بذلك جميع الناس من أولهم إلى آخرهم.

❑ **قوله**: (وَخَلَقَهُمْ لَـهَا):

■ أي: لعبادته وحده لا شريك له سبحانه، خُلقوا من أجلها، ذلك كما في قوله

تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦]. وأُمروا بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[البقرة:٢١].

هذا معنىٰ قول الشيخ: (خلقهم لها وأمرهم بها)، جمع الأمرين في قوله: «وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها»، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦].

فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾؛ الله هو الخالق، هو الذي خلق الأشياء كلها، ومن ذلك أنه خلق الجن والإنس، وأعطاهم العقول، وكلَّفهم بعبادته وحده لا شريك له، خصَّهم بالأمر بعبادته؛ لأن الله أعطاهم عقولًا، وأعطاهم ما يميزون به بين الضارِّ والنافع، والحق والباطل، وخلق الأشياء كلها لمصالحهم ومنافعهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣] كل مسخَّر لبني آدم من أجل أن يستعينوا به علىٰ ما خُلقوا من أجله، وهو عبادة الله ﷻ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

والجنُّ عالم من عالم الغيب لا نراهم، وهم مكلفون بالعبادة، ومنهيون عن الشرك وعن المعصية مثل بني آدم، لكن يختلفون عن بني آدم في الخِلْقة.

أما من ناحية الأوامر والنواهي، فهم مثل بني آدم مأمورون ومنهيون، والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم؛ لكنهم موجودون، والإنس هم بنو آدم، سُمُّوا بالإنس؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، يجتمعون ويتآلفون، والجن سُمُّوا جِنًّا من الاجتنان وهو الاختفاء، ومنه الجنين في البطن؛ لأنه مختفٍ، وجنَّه الليل إذا ستره، والمِجَنُّ: الذي يتخذ دون السهام، فالاجتنان والجنان هو الشيء الخفي المستتر، فالجِنُّ مستترون عنا لا نراهم.

وهم عالم موجود مَنْ أنكرهم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ورسوله ولإجماع المسلمين، فقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته لا لشيء آخر، فهو لم يخلقهم لأجل أن ينفعوه أو يضروه، أو يعتز بهم من ذلَّة، أو يتكثر بهم من قلَّة؛ لأنه

غنيٌّ عن العالمين، وما خلقهم لحاجة إليهم، ما خلقهم لأجل أن يرزقوه، أو يكتسبوا له الأموال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٧، ٥٨].

فالله ليس بحاجة إلىٰ الخَلْق، وإنما خلق الجن والإنس لشيء واحد فقط وهو أن يعبدوه، وهو ليس بحاجة إلىٰ عبادتهم، وإنما هم المحتاجون إليها؛ لأنهم إذا عبدوا الله أكرمهم وأدخلهم الجنة، فمصلحة العبادة راجعة إليهم، ومضرة المعصية عائدة إليهم، أما الله -جل وعلا- لا تضره طاعة المطيع ولا معصية العاصي.

قال ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[إبراهيم:٨]، الله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما هذا راجع إلىٰ الخَلْق أنفسهم، إن أطاعوه انتفعوا، وإن عصوه تضرروا بمعصيته.

❑ **قوله**: (وَمَعْنَىٰ يَعْبُدُونِ يُوَحِّدُونِ):

■ يُوحِّدون؛ أي: يفردوني بالعبادة، فالعبادة والتوحيد بمعنىٰ واحد، التوحيد يفسر بالعبادة، والعبادة تفسر بالتوحيد، ومعناهما واحد، ففي هذا ردٌّ علىٰ مَنْ فسَّر التوحيد بأنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المُدبِّر، فهذا ليس هو التوحيد الذي خلق الخَلْق من أجله، وإنما خلق الخَلْق من أجل توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية.

أما مَنْ أقر بتوحيد الربوبية فقط، فإنه ليس موحِّدًا، وليس من أهل الجنة، بل هو من أهل النار؛ لأنه لم يأت بالتوحيد الذي خلق من أجله والعبادة.

❑ **قوله**: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ التَّوْحِيدُ):

■ هذا مهمٌّ جدًّا، إن التوحيد أعظم ما أمر الله به، كل الأوامر التي أمر الله بها كلها بعد التوحيد.

الدليل على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦] إلىٰ آخر الآية.

هذه الآية فيها عشرة حقوق؛ ولهذا تسمىٰ آية الحقوق العشرة، أول هذه الحقوق: حقُّ الله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ هذا هو الحق الثاني، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هذا هو الحق الثالث.

وذوو القربى: هم الذين تجمعك بهم قرابة نسبية من جهة الأب أو الأم، كالآباء والأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، وأولاد الإخوة والأخوات، وأولاد الأعمام والعَمَّات، هؤلاء هم ذوو القربىٰ، لهم حق القرابة.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الأيتام من المسلمين، وهم كل مَنْ مات أبوه وهو صغير، ولم يبلغ، وصار بحاجة إلىٰ مَنْ يسد مسدَّ أبيه في رعاية هذا الطفل تربية وإنفاقًا والقيام بمصالحه، ورفع ما يضره؛ لأنه ليس له أبٌ يحميه، وينفق عليه، ويدافع عنه، فهو بحاجة إلىٰ مَنْ يساعده؛ لأنه فقد أباه وعائله، وله حقٌّ في الإسلام.

المهمُّ أن الله بدأها بحقه سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لم يقتصر علىٰ قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ لأن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تنفع، ولا تسمىٰ عبادة إلا إذا كانت خالصة لله عزوجل إن كان معها شِرْك، فإنها لا تكون عبادة مهما أتعب الإنسان نفسه فيها؛ لذلك قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك؛ إذ لا تصح العبادة مع وجود الشرك أبدًا.

هذا دليل علىٰ قول الشيخ: «أعظم ما أمر الله به التوحيد»؛ حيث إن الله بدأ به في آيات كثيرة منها هذه الآية، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فبدأ سبحانه وتعالى بالتوحيد، وهذا يدل علىٰ أنه أعظم ما أمر الله به.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١].

هذا دليل علىٰ ما يأتي أن أعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك، إذا كان أعظم ما أمر الله به التوحيد، فإنه يجب أن يبدأ الإنسان بتعلُّم العقيدة قبل كل شيء، العقيدة هي الأساس، فيجب أن يبدأ بها بالتعلُّم والتعليم، وأن يداوم علىٰ تدريسها وبيانها للناس؛ لأنها هي

أعظم ما أمر الله به، فليس من المناسب أن تجعلها آخر الأشياء، أو لا يؤبه بها؛ لأن الآن هناك دُعَاة يزهدون في تعليم التوحيد والعقيدة، هناك أُناس ابتلوا بهذا؛ ولأن الإخلال بها إخلال بالدِّين كله فيجب العناية بها.

وما هو التوحيد؟ هل هو أن تقرَّ بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؟ لا.

التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال أهل التفسير: يعبدون؛ أي: يوحِّدون، ففسروا التوحيد بالعبادة.

إذن فالتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر؛ لأن هذا موجود في الفِطر، موجود في عقول العقلاء، لا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن أحدًا خلق السماوات والأرض غير الله ﷻ، لا يوجد أحد في العالَم كله وما فيه من الكفار والملاحدة يعتقد أن أحدًا خلق بشرًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

لا يوجد عاقل في العالم يعتقد أن بشرًا يخلق بشرًا إنسانًا يمشي علىٰ الأرض ويتكلم ويأكل ويشرب، هل يوجد عاقل يعتقد هذا؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾[الطور:٣٥،٣٦]. توحيد الربوبية موجود في الفِطَر والعقول؛ لكنه لا يكفي بدون توحيد العبادة: وهو إفراد الله بالعبادة.

ولهذا قال الشيخ: التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو إفراد الله بالخَلْق والرزق والإحياء والإماتة؛ لأن هذا شيء معروف، ولا يكفي توحيد الربوبية في تعريف التوحيد.

❑ **قوله:** (وَأَعْظَمُ مَا نَهىٰ عَنْهُ الشِّرْكُ):

■ هذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن هناك أشياءَ هي أعظم الجرائم، وأعظم ما نهىٰ الله عنه، فيقول: الربا هو أعظم المحرمات، الزنا هو أعظم المحرمات؛

ولذلك يُركِّزون علىٰ النهي عن الربا، وعن الزنا، وعن فساد الأخلاق؛ ولكن لا يهتمون بأمر الشرك، ولا يحذرون منه، وهم يرون الناس واقعين فيه، فهذا من الجهل العظيم بشريعة الله تَعَالَىٰ.

فأعظم ما نهىٰ الله عنه هو الشرك، فهو أعظم من الربا، وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من أكل أموال الناس بالباطل، وأعظم من القمار والميسر، هو أعظم المحرمات؛ والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلىٰ آخر الآيات [الأنعام:١٥١، ١٥٢]، وهذه الآيات تسمّىٰ بالوصايا العشر، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

هذه المُحرَّمات بدأها الله بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فدل علىٰ أن الشرك هو أعظم ما نهىٰ الله عنه.

وفي سورة (الإسراء): قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء:٢٢].

بدأ بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٩].

فدل علىٰ أنه أعظم ما نهىٰ الله عنه، هذا يدل علىٰ قول الشيخ: وأعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك.

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ سُئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

وأنزل الله تَصْدِيق ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

فبدأ بالشرك في قوله: أن تجعل لله ندًّا -أي: شريكًا- وهو خلقك، وقال: هو أعظم الذنوب؛ لأنه سئل: أي الذنب أعظم؟ فبدأ بالشرك.

وقال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات!**» قيل: وما هن يا رسول الله؟! قال: «**الشرك بالله، والسِّحْر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق...**»[1]. إلخ الحديث.

بدأها بالشرك؛ فدل علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب؛ ولذلك فالمشرك لا يدخل الجنة أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢]، المشرك لا يغفر الله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

فدل ذلك علىٰ تحريم الجنة علىٰ المشرك، وأن الله لا يغفر له، ودل هذا علىٰ أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الذنوب ما عدا الشرك قابلة للمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والربا كله داخل تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذَّبه.

أما الشرك فإنه لا يغفر، حكم الله أنه لا يغفره، وكذا العاصي وإن كان عنده كبائر دون الشرك، فإنه لا تحرم عليه الجنة، مآله إلىٰ الجنة؛ إما أن يغفر الله له من أول وَهْلة، ويدخله الجنة، وإما أن يخرج من النار بعد تعذيبه ويدخل الجنة، المؤمن مهما كان منه من الفِسْق والمعاصي التي دون الشرك فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يحرم من الجنة، وهو داخل تحت المغفرة بمشيئة الله ﷻ.

أما المشرك فإنه محروم من ذلك كله -والعياذ بالله-، فدل علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨] ، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦] ، كل هذا يدل على أن الشرك أعظم الذنوب، وإذا كان الشرك أعظم الذنوب، فإنه يجب على العلماء والمتعلِّمين النَّهي عنه والتحذير منه، وألَّا يسكتوا عن التحذير من الشرك، وأنه يجب جهاد المشركين مع القدرة، كما جاهدهم رسول الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥]، فيجب التحذير من الشرك وبيانه للناس حتى يجتنبوه، هذا الذي يجب.

أما أن يسكت عن الشرك، ويترك الناس يهيمون في عبادة غير الله، وهم يدعون الإسلام، ولا أحد ينهى ولا أحد يحذر، فالأمر خطير جدًّا، هناك ناس يتجهون إلى النهي عن الربا والزنا وفساد الأخلاق، هذه أمور نعم محرَّمة وفساد؛ لكن الشرك أعظم، فلماذا لا يهتم بالنهي عن الشرك، والتحذير من الشرك، وبيان ما يقع فيه كثير من الناس في الشرك الأكبر وهم يدعون الإسلام؟!!

لماذا هذا التساهل في أمر الشرك والتغافل عنه، وترك الناس يقعون فيه، والعلماء موجودون، بل يعيشون مع هؤلاء ويسكتون عنهم؟!!

الواجب: أن يتجه أولًا إلى النهي عن هذا الخطر العظيم الذي فتك بالأُمة فتكًا ذريعًا، كل ذنب دونه فهو أهون منه، والواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم.

❑ **قوله**: (وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ):

■ هذا تعريف الشرك: هو دعوة غيره معه، بمعنى: أن يصرف شيء من العبادة لغير الله من ملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء، أو صالح من الصالحين، أو بنية من البنيات، أو غير ذلك من كل المخلوقات، فمَنْ صرف شيئًا من العبادة لغير الله، فهذا هو أعظم ما نهى الله عنه، هذا هو الشرك.

فاعرفوا تفسير التوحيد وتفسير الشرك؛ لأن هناك من الناس مَنْ يفسر التوحيد

بغير تفسيره، ومَنْ يفسر الشرك بغير تفسيره.

من الناس من يقولون: إن الشرك هو الشرك في الحاكمية، وهذا ظهر الآن مع الأسف، الحكم بغير ما أنزل الله نوع من أنواع الشرك يُسمَّىٰ: شِرْك الطاعة، لا شك أن طاعة المخلوق في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله هذا نوع من الشرك؛ لكن هناك ما هو أعظم منه، وهو عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ بالذبح والنَّذْر والطواف والاستغاثة، **فالواجب**: أن يحذر من الشرك كله لا يُؤْخذ منه، ويترك ما هو أعظم وأخطر منه، فلا يفسر الشرك بأنه شِرْك الحاكمية فقط، أو الشرك السياسي، ويقولون: الشرك بالقبور هذا شِرْك ساذج؛ أي: هيِّن، هذه جراءة علىٰ الله -تَعَالَىٰ-، الشرك أعظم ما نهىٰ الله عنه، وهو دعوة غيره معه، هذا هو الشرك.

ومنهم مَنْ يقول: الشرك هو محبة الدنيا ومحبة المال. المال جعله الله محبوبًا حبًّا طبيعيًّا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر:٢٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٨] أي: المال، ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم﴾ [التوبة:٢٤].

قال: أحب إليكم، ما أنكر عليهم أنهم يحبونه؛ لكن أنكر عليهم أنهم يُقدِّمون محبته علىٰ محبة الله، محبة المال ليست شركًا؛ لأن هذه محبة طبيعية، الناس يحتاجون إلىٰ المال ويحبونه، محبة المال ليست شركًا؛ لأنه من محبة المنافع التي ينتفع بها الإنسان؛ لكن هؤلاء الذين يقولون هذه المقالات؛ إما أنهم جُهَّال لم يتعلموا التوحيد والشرك، وإما أنهم معرضون يريدون صرف الناس عن هذه الحقائق إلىٰ أشياء هم يريدونها، ومآرب يريدونها، والله أعلم بالمقاصد.

المهم: أن هذا ليس هو الشرك، الشرك هو دعوة غير الله معه، أو صَرْف شيء من أنواع العبادة لغير الله: كالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والالتجاء، والخوف، والرجاء، وغير ذلك، هذا هو الشرك الذي هو أعظم الذنوب، دعوة غيره معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الدعاء هو أعظم أنواع العبادة، كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ

يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد:١٤]. وقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر:١٤]. فدعاء غير الله هو الشرك الذي حرمه الله ورسوله.

أما هذه الجزئيات التي يجعلونها هي الشرك فليس كذلك؛ لكن يقال: إن بعضها جزء من الشرك؛ وإن هناك ما هو أخطر منه وأهم منه؛ لأن الشرك يتفاوت، بعضه أشد من بعض والعياذ بالله.

❑ **قوله**: (والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾):

■ **قلنا**: إن الدليل على أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، ثم ذكر بقية الحقوق، فكونه بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك، هذا دليل على أن التوحيد هو أعظم ما أمر الله به؛ لأنه قال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وأتبَعه بقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾، فهذا نهيٌ، فبدأ الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدل على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك؛ لأن الله بدأ بذلك، ولا يبدأ سبحانه إلا بالأهم فالأهم، هذا وجه الدلالة من الآية.

❊❊❊

[الأصول الثلاثة]

فَإِذَا قِيل لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ الإنسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟
فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، ودِينَهُ، ونَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

الشَّرْح

❑ **قوله**: (الأُصُولُ):

■ جمع أصل، **والأصل**: ما يُبنىٰ عليه غيره.

والفرع: ما يُبنىٰ علىٰ غيره، فهذه سُمِّيت بالأصول؛ لأنها يُبنىٰ عليها غيرها من أمر الدين؛ فلذلك سُمِّيت أصولًا؛ لأنها يُبنىٰ عليها أمر الدِّين. وكلُّ الدِّين يدور علىٰ هذه الأصول الثلاثة.

❑ **قوله**: (مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ):

■ ربه: منصوب؛ لأنه مفعول لمعرفة؛ لأن المصدر: معرفة، أُضيف إلىٰ اسم الفاعل (العبد)، والمصدر إذا أُضيف يعمل عمل فعله عند النحويين، فالمصدر هنا أضيف فيعمل عمل الفعل.

❑ **قوله**: (ودِينَهُ ونَبِيَّهُ):

■ معطوف عليه؛ أي: علىٰ المنصوب، هذه أصول الدين إجمالًا. وسيأتي تفصيلها في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن شاء الله.

لماذا خص هذه الأصول الثلاثة؟

لأنها هي الأساسات لدين الإسلام؛ ولأنها هي المسائل التي يسأل عنها العبد حين يُوضع في قبره؛ لأن العبد إذا وضع في قبره وسُوِّي عليه التراب، وانصرف عنه الناس راجعين إلىٰ أهلهم جاءه ملكان في القبر، فتُعَاد روحه في جسده، ويحيا حياة بَرْزَخِيَّة،

ليست حياة مثل حياة الدنيا، حياة الله أعلم بها، فيجلسانه في قبره، فيقولان له: مَنْ ربك، وما دِينك، ومَنْ نبيك؟

فالمؤمن يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمد ﷺ نبيي، فيقال له: كيف عرفت؟ يقول: قرأت كتاب الله فدريت وعرفت، فينادي منادٍ: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة، ويوسَّع له في قبره مدَّ البصر، فيأتيه من ريح الجنة وروحها، فينظر إلىٰ مسكنه في الجنة، فيقول: يا رب أقم الساعة؛ حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي.

وأما المُرْتاب الذي عاش علىٰ الريبة والشك وعدم اليقين، وإن كان يدعي الإسلام، إذا كان عنده شكوك وعنده رَيب في دين الله كالمنافق، فإنه يتلجلج، فإذا قالوا له: مَنْ ربك؟ يقول: لا أدري، وإذا قالوا: ما دينك؟ يقول: لا أدري، وإذا قيل: مَنْ نبيك؟ يقول: لا أدري، هاه هاه!! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[1].

يعني: أنه في الدنيا يقول ما يقوله الناس من غير إيمان، هذا المنافق -والعياذ بالله-، هذا المنافق الذي أظهر الإسلام، وهو لا يعتقده في قلبه، وإنما أظهره من أجل مصالحه الدنيوية، فيقول في الدنيا: ربي الله، وهو غير مؤمن بها، قلبه منكر -والعياذ بالله!!

يقول: ديني الإسلام، وهو لا يؤمن بالإسلام، قلبه منكر!!

يقول: نبيي محمد ﷺ، وهو لا يؤمن برسالة محمد في قلبه!!

إنما يقول بلسانه فقط، هذا هو المنافق، فيقال له: لا دريت ولا تَلَيْتَ، فيضرب بمِرْزبة من حديد يصيح بها صَيْحة لو سمعه الثَّقَلان لصعقوا، يسمعها كل شيء إلا الإنسان، لو سمعه لصعق؛ أي: لمات من الهَوْل، ويضيق عليه في قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، ويفتح له باب إلىٰ النار، فيأتيه من سمومها وحرِّها، فيقول: يا رب لا تقم

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وغيرهما من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلَّامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

الساعة، هذه عيشته وحالته في القبر -والعياذ بالله-؛ لأنه ما أجاب بالجواب السديد.

ولذلك ينادي منادٍ: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا من النار -والعياذ بالله.

فإذا كانت هذه المسائل بهذه الأهمية وجب علينا أن نتعلَّمها، وأن نعتقدها، ولا يكفي التعلم فقط، بل نتعلمها ونعتقدها، ونؤمن بها، ونعمل بها ما دمنا علىٰ قيد الحياة، لعل الله أن يثبتنا عند السؤال في القبر.

يقول الله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

فهذه الأصول الثلاثة لها أهمية عظيمة؛ ولهذا ركز عليها الشيخ في هذه الرسالة ووضحها من أجل أن ندرسها، ونتمعَّن فيها ونعتقدها ونعمل بها، لعل الله أن يُثبِّتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

[الأصل الأول: معرفة العبد ربه]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ الله الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّىٰ جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِه. وَهُو مَعْبُودِيْ، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، وَكُلُّ مَا سِوَىٰ الله عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَم.

الشَّرح

❑ **قوله**: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟):

■ لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصول الثلاثة مجملة أراد أن يُبيِّنها مُفصَّلة واحدًا واحدًا بأدلتها من الكتاب والسنة، ومن آيات الله في الكون، ومن الأدلة العقلية، وهكذا يجب أن تبنىٰ العقائد علىٰ أدلة الكتاب والسنة، وعلىٰ النظر في آيات الله الكونية من أجل أن ترسخ، وتثبت في القلب، وتزول جميع الشُّبه.

وأما العقائد المبنيَّة علىٰ الشُّبهات، وعلىٰ الشكوك، وعلىٰ أقوال الناس، والتقليد الأعمىٰ، فإنها عقائد زائلة لا تثبت، وهي عُرضة للنقض، وعُرْضة للإبطال.

فلا تثبت العقيدة، ولا سائر الأحكام الشرعية إلا بأدلة الكتاب والسنة، وبالأدلة العقلية المسلمة؛ ولهذا أكثر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سياق الأدلة علىٰ هذه الأصول الثلاثة، فلا يمر أصل منها إلا وقد دعمه بالأدلة والبراهين اليقينية التي تطرد الشكوك والأهواء، وترسخ العقيدة في القلب.

❑ **قوله**: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ):

■ **أي**: سئلت مَنْ ربك؟ وهذا سؤال وارد ستسأل عنه في الدنيا والآخرة، فلابد أن تعرف ربك عَزَّوَجَلَّ، وأن تجيب بجواب صحيح مبنيٍّ علىٰ اليقين والبرهان، فقل: ربي الله

-هذا هو الجواب- الذي رباني، وربَّىٰ جميع العالمين بنعمه، هذا استدلال عقليٌّ.

فالربُّ -جل وعلا- هو الذي يربي جميع عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه، يخلقهم -بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا- في بطون أمهاتهم خَلْقًا من بعد خَلْق في ظلمات ثلاث، ويوصل إليهم الرزق حتىٰ في بطون أمهاتهم؛ ولذلك ينمو جسم الجنين في بطن أمه ويكبر؛ لأنه يصل إليه الرزق من الله ﷻ، ويصل إليه الغذاء.

ثم تنفخ فيه الروح، فيتحرك، ويحيا بإذن الله، هذه تربية في البطن، ثم إذا خرج، فإن الله سبحانه يربيه بنعمه بالصحة والعافية، ويدرُّ عليه لبن أمه، فيتغذَّىٰ إلىٰ أن يأكل الطعام، ويستغني عن الحليب، ثم ينمو شيئًا فشيئًا، عقله وسمعه وبصره، ينمو شيئًا فشيئًا حتىٰ يبلغ الحلُم، ثم ينمو وينمو حتىٰ يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة، ويكون في غاية القوة.

فمن الذي يُغذِّيه من يوم أن خلقه في بطن أمه إلىٰ أن يموت؟ من الذي يغذيه؟ ثم من الذي يسوغ هذا الطعام وهذا الشراب في جسمه، فيصل إلىٰ كل خلية وعضلة، وإلىٰ كل مكان في جسمه؟ من الذي يُشهي إليه الطعام والشراب؟ من الذي يصرفه ويخرج منه ضرره؟ من الذي يفعل هذا ويربي هذا الإنسان؟ أليس هو الله ﷻ؟ هذا هو الربُّ ﷻ الذي يربي، الذي ربَّاني وربَّىٰ جميع العالمين بنعمته.

كل ما علىٰ وجه الأرض من العوالم الآدمية والحيوانية، وعالم البر والبحر، من أكبر مخلوق إلىٰ أصغر مخلوق، في البرّ والبحر، كلها تتغذَّىٰ بنعمه ورزقه، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾[الملك:٢١]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود:٦]، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[العنكبوت:٦٠].

هذا هو الربُّ سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[يونس:٣] أما غير الله -جل وعلا- فلا يملك من ذلك شيئًا، لا الأصنام ولا غيرها، لا أحد يملك من الرزق شيئًا، وإنما هو مرزوق، مخلوق مثلك.

❑ **قوله**: (وَهُوَ مَعْبُودِي):

■ الربُّ الذي هذا شأنه هو الذي يستحق العبادة مني ومن غيري، ثم -أيضًا- نبَّه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يكفي الإقرار بالربوبية، لا يكفي أن تقول: ربي الله الذي ربَّاني بنعمه.

هذا لا يكفي، لا بد أن تعترف له بالعبودية، وأن تخلص له بالعبادة، وهذا هو الفرق ما بين الموحِّد والمشرك، فالموحِّد يقرُّ بربوبية الله عَزَّوَجَلَّ وبعبوديته وحده لا شريك له، والمشرك يقرُّ بربوبية الله؛ ولكنه مشرك في عبادته، يشرك معه غيره في عبادته، يشرك معه من لا يخلق، ولا يرزق، ولا يملك شيئًا، هذا هو الفرق ما بين الموحِّد والمشرك؛ الموحِّد يقول: ربي الله، وهو معبودي، وليس لي معبود سواه، أما المشرك فيقول: ربي الله؛ لكن العبادة عنده ليست خاصة بالله، فيعبد مع الله الأشجار، والأحجار، والأولياء، والصالحين، والقبور؛ فلذلك صار مشركًا، ولم ينفعه الإقرار بالربوبية، ولم يدخله في الإسلام.

فقوله: «وهو معبودي» أي: الإله الذي أعبده.

❑ **قوله**: (لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ...):

■ لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الصالحين، ولا من الأشجار، والأحجار، ولا من أي شيء، ليس لي معبود سواه ﷻ، هذا تقرير التوحيد بالدليل، وهذا دليل عقلي، ثم ذكر الدليل النقلي من القرآن.

والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢].

هذه الآية هي أول القرآن في المصحف، ليس قبلها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، وهي آخر كلام أهل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس:١٠]، والله -جل وعلا- افتتح بها الخَلْق.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]. وختم بها الخَلْق، قال تعالىٰ: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر:٧٥] فتح بها الخَلْق وختم بها، فهي كلمة عظيمة.

فقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: الثناء علىٰ المحمود مع محبته وإجلاله، و«أل»: في الحمد للاستغراق؛ أي: جميع المحامد لله مُلْكًا واستحقاقًا، فهو المستحقُّ للحمد المطلق، وأما غيره فيحمد علىٰ قدر ما يفعل من الجميل ومن الخير، وأما الحمد المطلق الكامل فهو لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النِّعم كلها منه.

وحتىٰ المخلوق إذا أسدىٰ إليك شيئًا من الإحسان، فإنه من الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سخَّر لك هذا المخلوق، وهو الذي مكَّنه من أن يحسن إليك، فالحمد يرجع إلىٰ الله تَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ أي: الحمد كائن أو مستقرٌّ لله عَزَّوَجَلَّ.

والله: معناه: ذو الألوهية والعبودية علىٰ خَلْقه أجمعين، وهذا الاسم لا يُسمَّىٰ به غيره سبحانه، لا أحد تسمَّىٰ بـ«الله»، حتىٰ فرعون ما قال: أنا الله، لكنه قال: أنا ربكم، فهذا الاسم خاصٌّ بالله، لا أحد يتسمَّىٰ به أبدًا، ولا أحد يجرؤ أن يقول: أنا الله.

رب: نعت لاسم الجلالة، وهو مجرور، وهو مضاف.

العالمين: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

فواضح أن الحمد كله، والثناء كله لله رب العالمين.

وعالم الملائكة، وعالم الجمادات، والطيور، وعالم السباع، وعالم الحيوانات، وعالم الحشرات، والذَّرِّ، عوالم في البر والبحر لا يعلمها إلا الله، ولا يحصيها إلا الله، كلها الله ربُّها.

ربّ العالمين: وهذا لا يقال إلا علىٰ الله -سبحانه عَزَّوَجَلَّ- لا يمكن لأحد أن يقال له: رب العالمين.

فإذا قيل: الربُّ: فهذا لا يُطلَق إلا علىٰ الله -جل وعلا- ولا ينصرف إلا إليه، أما المخلوق فيقيد، فيقال: ربُّ الدار، ربُّ البهيمة؛ أي: مالكها وصاحبها.

☐ **قوله**: (وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَم):

■ ثم بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه الاستدلال بهذه الآية؛ فيكون الله ربي؛ لأن الله ربُّ العالمين، وأنا واحد من العالمين، فلا أحد يستطيع أن يقول: أنا لي ربٌّ غير رب العالمين، لا الكافر ولا المسلم، هذا لا يمكن أبدًا، ولا يقوله عاقل، هذا دليل علىٰ ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، وما دام أنه ربُّ العالمين، فهو المستحقُّ للعبادة، وهذا يبطل عبادة غيره تَعَالَىٰ؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

وهذا يفيد الحَصْر؛ لأن تقديم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ وتأخير العامل ﴿نَعْبُدُ﴾ يدل علىٰ الحصر، فإياك نعبد يختلف عن نعبدك؛ لأن نعبد هذا إثبات فقط؛ لكن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتضمن النفي والإثبات؛ أي: لا نعبد غيرك، والعبادة لا تصحُّ إلا مع النفي والإثبات، وهو معنىٰ لا إله إلا الله، فيها نفيٌ وإثبات، نفي الألوهية عما سوىٰ الله، وإثباتها لله عَزَّوَجَلَّ.

[دليل الأصل الأول]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا(١) وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا(٢) وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً(٣) وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا(٤) وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١،٢٢].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخَالِقُ لِهذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

---

(١) أي: مسرعًا [الدمشقي].

(٢) أي: ذلَّلها لكم ولم يجعلها نائية، لا يمكن الاستقرار عليها [الدمشقي].

(٣) أي: جعل السماء كالقُبَّة المضروبة، أو أنها كالسقف للأرض [الدمشقي].

(٤) الأنداد: جمع نِدٍّ -بكسر النون-: هو المثل والنظير [الدمشقي].

الشَّرح

❏ **قوله**: (فَإذَا قِيلَ لَكَ بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟):

■ أنت قلت: الله ربي، أو ربي الله الذي رباني بنعمه، ما هو الدليل علىٰ أن الله ربك الذي رباك بنعمه؟

جاء الشيخ بأدلة من الوحي ومن العقل كما سيأتي، فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ لأن من ادعىٰ شيئًا فلا بد أن يقيم الدليل علىٰ دعواه:

والدَّعاوى إذا لم يُقيموا عليها بينات أهلُها أدعياءُ

لا بد لكل مدعٍ أن يقيم الدليل علىٰ دعواه، وإلا كانت دعواه غير صحيحة، أنت قلت: ربي الله الذي ربَّاني، وربَّىٰ جميع العالمين بنعمه، ما الدليل؟ **فقل**: الدليل آياته ومخلوقاته. **الآيات**: جمع آية، والآية في اللغة: العلامة علىٰ الشيء، والدلالة علىٰ الشيء، كما قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث**»[1]. أي: علامته.

❏ **قوله**: (فَقُلْ: بِآيَاتِهِ):

■ أي: العلامات والدلالات الدالة عليه ﷻ. فجميع هذه الكائنات التي ترونها كلها كانت معدومة، ثم إن الله أوجدها وخلقها بقدرته ﷻ.

ومنها: خَلْق يتجدد مثل النبات والمواليد وأشياء ما كانت موجودة ثم وجدت، وأنتم تنظرون إليها، من الذي يخلقها؟ هو الله ﷻ. هل تخلق نفسها، هل أحد من البشر خلقها؟ لا أحد ادعىٰ هذا ولا يستطيع أن يدعي.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور:٣٥،٣٦]. هذه الأشياء ما أوجدت نفسها، أو أوجدها غيرها من المخلوقات أبدًا لم ولن يخلق أحدٌ شجرة، أو بعوضة، أو ذبابًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[الحج:٧٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذا الخَلْق يدل علىٰ الخالق ﷻ؛ ولهذا لما قيل لأعرابي علىٰ البديهة: بم عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل علىٰ البعير والأثر يدل علىٰ المسير، ألا يدل هذا الكون علىٰ اللطيف الخبير.

إذا رأيت أثر قدم علىٰ الأرض أما يدلك هذا علىٰ أن أحدًا مشىٰ علىٰ هذه الأرض، إذا رأيت بَعْر بعير، ألا يدلك هذا علىٰ أن هذه الأرض فيها إبل، أو مر عليها بعير، البعرة تدل علىٰ البعير، والأثر يدل علىٰ المسير.

❑ **قوله**: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ):

■ فالآيات علىٰ قسمين:

القسم الأول: آيات كونية تشاهد مثل: السماوات، والأرض، والنجوم، والشمس، والقمر، والجبال، والشجر، والبحار، سُمِّيت آيات؛ لأن بها دلالات علىٰ خالقها ﷻ؛ ولهذا يقول أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلـ ... ـهُ أم كيف يَجحدُهُ الجاحدُ
وفي كلِّ شيء له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ
ولله في كل تحريكةٍ ... وتسكينة في الورى شاهدُ

فكيف يجحد أحدٌ الله -جل وعلا- ويقول: ليس هناك ربٌّ، هذا الكون كله، وهذه المخلوقات وجدت من غير خالق، وإن وجدت بخالق، فمَنْ هو هذا الخالق غير الله -جل وعلا- بيِّنْ لي؟ لا تجد خالقًا غير الله ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾[الرعد:١٦].

القسم الثاني: الآيات القرآنية التي تُتلىٰ من الوحي المنزل علىٰ الرسول ﷺ، هذه كلها أدلة علىٰ وجود الربِّ ﷻ، وعلىٰ كماله وصفاته وأسمائه، وعلىٰ أنه مستحقٌّ للعبادة وحده لا شريك له، كلها تدل علىٰ ذلك، الآيات الكونية والآيات القرآنية.

الآيات الكونية تدل علىٰ خالقها وموجدها ومدبرها، والآيات القرآنية فيها الأمر بعبادة الله ﷻ، وفيها تقرير توحيد الربوبية، والاستدلال به علىٰ توحيد الألوهية، والأمر

بعبادة الله ﷻ، كل القرآن يدور على هذا المعنىٰ، وأنزل من أجل هذا المعنىٰ.

ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، هذه من أعظم آياته ﷻ، الليل المظلم الذي يُغطِّي هذا الكون، والنهار المضيء الذي يضيء هذا الكون، فينتشر الناس لأشغالهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[القصص:٧١-٧٣] .

هذا من أعظم آيات الله، هذا الليل وهذا النهار، لا الوقت كله ليل، ولا الوقت كله نهار؛ لأنه لو كان كذلك تعطلت مصالح العباد وتعبوا.

جعل الله لهم الليل والنهار يتعاقبان، ثم إن الليل والنهار منتظمان، لا يتخلف واحد منهما ولا يتغير، علىٰ نظام واحد، مما يدل علىٰ حِكْمة الحكيم ﷻ .

أفعال العباد وصناعاتهم تخرب وتختلف مهما كانت وتتعطل، وأما مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ فإنها لا تخرب إلا في وقت يأذن الله فيه بخرابها.

فالليل والنهار مستمران، لم يتعطل أحد فيهما، بينما صناعة الخَلْق تتعطل وتخرب وتفنىٰ، وإن كانت قوية أو ضخمة.

كم تشاهدون من السيارات المرمية والطائرات والبواخر، مع أنها قوية ومعتنىٰ بها؛ لكنها تخرب وتتعطل، هل تعطل الليل أو تعطل النهار؟ لا؛ لأن صانعه قدير حكيم جل وعلا: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل:٨٨] .

❑ **قوله**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾:

■ هذا دليل علىٰ ربوبيته وإلاهيته ﷻ : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

﴿وَٱلشَّمْسُ﴾: الشمس الكوكب العظيم الذي يضيء الكون سراجًا وهاجًا، كما

قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾[النبأ:١٣] .

﴿وَٱلْقَمَرُ﴾: نور يضيء الليل، ويضيء الطريق للناس.

ومن مصالحهما أيضًا: إصلاح الكون بأشجاره وثماره وبحاره، فلو اختفت الشمس عن الكون لتضرر الكون وفسدت كثير من معايش الناس ومصالحهم، ولو اختفىٰ القمر كذلك، القمر -أيضًا- فيه منافع للثمار والأشجار، مع ما فيه -أيضًا- من معرفة الحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[يونس:٥] ، وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة:١٨٩] .

ففي الأهلة مصلحة لمعرفة المواقيت والآجال: آجال الديون وآجال العِدَدِ للنساء، ومواقيت العبادات والصيام والحج، كلها تعرف بالحساب المبني علىٰ هذين النيرين: الشمس والقمر، فالحساب الشمسي والحساب القمري فيهما مصالح للخلق أجمعين.

ومن مخلوقاته السماوات السبع، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[الطلاق:١٢] ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[الملك:٣] ، بعضها فوق بعض، السماء الدنيا، ثم التي تليها إلىٰ السابعة، وفوق الجميع عرش الرحمن سبحانه وتعالى .

والأرضون سبع كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فهي سبع طباق أيضًا، وكل طبقة من طبقات السماوات السبع والأرضين لها سكان وعمار، ما في السماوات من الكواكب والأفلاك والشمس والقمر، وما في الأرض من المخلوقات من الدوابِّ باختلاف أنواعها، ومن الجبال والأشجار والأحجار، ومن المعادن، ومن البحار، هذه من آيات الله سبحانه وتعالى الآيات الكونية التي تُرىٰ وتُشاهد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧] .

من آياته الليل: يعني: من علاماته الدالة علىٰ الربوبية وقدرته، واستحقاقه للعبادة دون سواه: الليل الذي يظلم، والنهار الذي يضيء الكون كله، هذا من عجائب آيات الله ﷻ.

فمن الذي يجعل الكون كله مظلمًا في آنٍ واحد؟ ثم يجعل الكون كله مضيئًا في آنٍ واحد؟ هو الله ﷻ لو اجتمع الخَلْق علىٰ أن يضيئوا بقعة من الأرض ما استطاعوا أن يضيئوا إلا بقعة محدودة، لو جاءوا بمكائن الكهرباء التي في الدنيا كلها لا تضيء إلا جزءًا محدودًا من الأرض.

أما الشمس والقمر فهما يضيئان الأرض كلها، الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر كذلك.

قال تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

هذا إبطال للشرك، لا تسجدوا للمخلوقات؛ لأن من أعظم المخلوقات الشمس والقمر؛ ولأن المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها، ومنهم مَنْ يعبد القمر والكواكب، مثل قوم إبراهيم، يبنون لها هياكل علىٰ صورة الكواكب ويعبدونها، فقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ السجود معناه: وضع الجبهة علىٰ الأرض خضوعًا للمعبود، وهو أعظم أنواع العبادة، ورسول الله ﷺ يقول: «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد**»(١).

فأعظم أنواع العبادة السجود علىٰ الأرض؛ لأن وجهك الذي هو أعزُّ شيء عندك وضعته لله علىٰ الأرض تعبدًا لله وتذللًا بين يديه ﷻ، هذا هو السجود الحقيقي، ولا يليق التعبد به إلا لله.

أما السجود للشمس والقمر فهو سجود لمخلوق لا يستحقُّ، فلا يجوز السجود

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

للمخلوقات، وإنما السجود لخالق المخلوقات، أما المخلوقات فهي مثلك مخلوقة مدبَّرة متصرف فيها، وهل تسجد لمخلوق مثلك عاجز مثلك، هذا لا يجوز، أين ذهبت العقول؟!

السجود إنما يستحقه الخالق سبحانه وتعالى الذي لا يعجزه شيء، فالسجود حقٌّ لله عز وجل وليس حقًّا للمخلوق مهما كان، هذا المخلوق من العظم والكبر، فإنه مخلوق ضعيف مدبَّر متصرَّف فيه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

فالواجب: ألا نعبد إلا الله، فإذا سجدتم له وسجدتم لغيره فإنكم لا تكونون عابدين لله العبادة الصحيحة، بل تعبدونه مع الشرك، والشرك يفسد العبادة.

❑ **قوله**: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:

■ ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، وهي موطئة للقسم يقدر قبلها قسم تقديره: والله.

﴿رَبَّكُمُ﴾: فهي في جواب قسم مقدَّر؛ أي: خالقكم ومربيكم بالنعم.

﴿اللَّهُ﴾: لا غيره سبحانه وتعالى.

ثم ذكر الدليل على ذلك فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، هذا هو البرهان على ربوبية الله عز وجل أنه خلق السماوات والأرض، ولا أحد خلق شيئًا منهما، ولا أحد أعانه سبحانه وتعالى على ذلك، بل هو المنفرد بخلقه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هل أحد من المشركين أو الملاحدة عارض هذا وقال: ما خلق الله السماوات والأرض، الذي خلقها هو فلان، أو أنا الذي خلقتها، أو خلقها الصنم الفلاني؟ هل قال هذا أحد من العالم قديمًا وحديثًا، مع أن هذه الآية تُتلى ليلًا ونهارًا؟ ولا أحد عارض فيها، ولا يستطيع أن يُعارض أبدًا.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هذه المخلوقات الهائلة العظيمة خلقها الله في ستة أيام، وهو قادر على أن يخلقها في لحظة؛ ولكنه خلقها في ستة أيام لحِكْمة يعلمها سبحانه وتعالى، وستة الأيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ففي يوم الجمعة تكامل الخَلْق؛ ولذلك

صار هذا اليوم أعظم أيام الأسبوع، وهو سيد الأيام وعيد الأسبوع، وهو أفضل الأيام.

قال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة**»[١]؛ لأنه تكامل فيه خَلْق المخلوقات، وخُلق فيه آدم، وأُدخل الجنة وأُهبط منها، وفيه تقوم الساعة، كل ذلك في يوم الجمعة، فهو أفضل الأيام، وهو آخر أيام الخَلْق، خلق السماوات والأرض وما فيهن.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حرف عطف وترتيب؛ أي: أن استواءه علىٰ العرش جاء بعد خلق السماوات والأرض؛ لأنه من صفات الأفعال التي يفعلها الله متىٰ شاء.

ومعنى استوى: ارتفع وعلا.

العرش: هو سقف المخلوقات.

وهو في اللغة: السرير، وهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو أعظم المخلوقات وأعلىٰ المخلوقات.

الاستواء: صفة من صفات الله الفعلية كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ليس كاستواء المخلوق علىٰ المخلوق، وليس هو بحاجة إلىٰ العرش؛ لأنه هو الذي يمسك العرش وغيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[فاطر:٤١].

فالعرش محتاج إلىٰ الله عز وجل؛ لأنه مخلوق، والله غنيٌّ عن العرش وغيره، لكنه استوىٰ عليه لحِكْمة يعلمها سبحانه وتعالى، والاستواء نوع من العلوِّ، لكن العلو صفة ذات، وأما الاستواء فهو صفة فعل يفعله إذا شاء سبحانه وتعالى.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[الأعراف:٥٤] يُغشي الليل بالنهار، ويُغطِّي النهار بالليل، فبينما ترون الكون مضيئًا يغطيه الليل فيصبح مظلمًا، والليل يغطيه النهار فيصبح مضيئًا.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يأتي هذا بعد هذا مباشرة ولا يتأخر، فإذا أدبر الليل جاء النهار،

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤)، والترمذي (٤٨٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا أدبر النهار جاء الليل مباشرة، لا يتأخر هذا عن هذا، وهذا من كمال قدرته ﷻ، لا يفتر هذا عن هذا.

والشمس هي الكوكب العظيم المعروف، والقمر كذلك كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وكلٌّ منهما يجري ويدور علىٰ الأرض، والأرض ثابتة مستقرة، جعلها قرارًا؛ أي: قارة ثابتة لمصالح العباد، والشمس وسائر الأفلاك تدور عليها، لا كما يقوله المتخرصون الآن من الذين يدعون المعرفة يقولون: إن الشمس ثابتة والأرض تدور عليها هذا عكس ما في القرآن ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس:٣٨]، وهم يقولون: الشمس ثابتة، يا سبحان الله!

والنجوم: هي الكواكب.

مسخَّرات بأمره: مسخرات في الجريان والدوران دائمًا لا يفترن، وهذا ردٌّ علىٰ الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب بأنها مسخرة بأمر الله مأمورة، الله الذي يجريها، والله الذي يوقفها إذا شاء ﷻ، فهي مسخرة مدبرة، ليس لها من الأمر شيء.

يأمرها سبحانه فتجري وتدور وتضيء بأمره الكوني ﷻ، يطلع هذا ويغرب هذا ويتعاقبان، نصب الشمس والقمر والنجوم علىٰ العطف؛ لأن السماوات: منصوبة؛ لأنها مفعول وعلامة نصبها الكسرة نيابة عن الفتحة، لأنها جمع مؤنث سالم، والأرض معطوفة علىٰ السماوات منصوبة بالفتحة، ثم قال: والشمس والقمر معطوف علىٰ المنصوب، والمعطوف علىٰ المنصوب منصوب.

مسخرات: منصوب علىٰ الحال؛ أي: حال كونها مسخرات، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾.

﴿أَلَا﴾: أداة تنبيه وتقرير. له: ﷻ لا لغيره.

﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾: وهو الإيجاد؛ فهو القادر علىٰ الخلق إذا أراد ﷻ يخلق ما شاء.

﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾: أمره ﷻ، وهو كلامه ﷻ الكوني والشرعي.

أمره الكوني: الذي يأمر به المخلوقات فتطيعه وتستجيب له مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا

﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١] أمرهما سبحانه، وهذا أمر كوني أمر به السماوات والأرض فتكونت ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢] هذا أمر كونيٌّ.

أما الأمر الشرعي: فهو وحيه المنزل الذي يأمر به عباده، يأمرهم بعبادته، يأمرهم بالصلاة، يأمرهم بالزكاة، يأمرهم ببرِّ الوالدين، هذا أمره الشرعي يدخل فيه الأوامر والنواهي التي في القرآن الكريم وفي السُّنة النبوية، هذا من أمر الله ﷻ.

إذا كان له الخَلْق والأمر فماذا بقي لغيره ﷻ؟!!

ولهذا يقول ابن عمر لما قرأ هذه الآية، قال: «من له شيء فليطلبه».

ودلت الآية علىٰ الفَرْق بين الخلق والأمر، ففيه ردٌّ علىٰ مَنْ يقولون بخلق القرآن؛ لأن القرآن من الأمر، وأمر الله ليس مخلوقًا؛ لأن الله غاير بين الخَلْق وبين الأمر، فجعلهم شيئين متغايرين، والقرآن داخل في الأمر فهو غير مخلوق.

وهذا ما خصم به الإمام أحمد الجهمية لما طلبوا منه أن يقول بخَلْق القرآن، قال: هل القرآن من الخَلْق أو من الأمر؟ قالوا: القرآن من الأمر، قال: الأمر غير مخلوق، الله غاير بينه وبين الخَلْق، فجعل الخلق شيئًا والأمر شيئًا آخر.

الأمر كلام، وأما الخلق فهو إيجاد وتكوين، يوجد فرق بينهما.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تعاظم الذي هذه أفعاله ﷻ، وهذه قدرته، وهذه مخلوقاته تبارك وتعالىٰ.

وتبارك: فعل خاصٌّ به سبحانه، فلا يُطلق علىٰ غيره، والبركة هي كثرة الخير ونماؤه، وبركات الله -جل وعلا- لا تتناهىٰ، أما المخلوق فلا يقال له: تبارك، إنما يقال له: مبارك يعني: بارك الله فيه، وجعله مباركًا، والبركة كلها من الله ﷻ.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مثل ما سبق، ففي هذه الآية تقرير التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية كما سبق.

❑ قوله: (وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ):

■ أي: هو الذي يستحق العبادة، وأما غيره فلا يستحق العبادة؛ لأنه ليس ربًّا، هذا وجه كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الربُّ هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، ثم -أيضًا- لا يكفي أن الإنسان يقرُّ بالربوبية، بل لا بد أن يقرَّ بالعبودية لله ﷻ، ويفعلها مخلصًا له ﷻ، فمادام أقر أنه الربُّ، فإنه يلزمه أن يقرَّ أنه هو المعبود، وأن غيره لا يستحقُّ شيئًا من العبادة.

والدليل على أن العبادة خاصة بالربِّ: قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١،٢٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا نداء من الله لجميع الناس، المؤمنين والكفار؛ لأن الله ذكر في هذه السورة، -سورة البقرة-، انقسام الناس إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب، ويؤمنون باليوم الآخر، ووصفهم بأنهم هم المفلحون في قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة:٥].

القسم الثاني: الكفار الذين أظهروا الكفر والعناد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة:٦].

القسم الثالث: المنافقون الذين ليسوا مع الكفار وليسوا مع المؤمنين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]. فهم مؤمنون في الظاهر؛ لكنهم كفار في الباطن، وهؤلاء شرٌّ من الكفار المجاهرين بكفرهم؛ ولهذا أنزل فيهم بضع عشرة آية، بينما أنزل في المؤمنين آيات قليلة وفي الكفار آيتين.

أما المنافقون فبدأ ذكرهم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [البقرة:٨-٢٠].

هذا كله في المنافقين لشدة خطرهم وقُبْح فعلهم، ولما ذكر هذه الأصناف الثلاثة، قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهذا دعاء لجميع الأصناف المؤمنين والكفار والمنافقين.

قال العلماء: أول نداء في المصحف هو هذا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

اعبدوا: فعل أمر؛ أي: أخلصوا له العبادة، لماذا؟ لأنه ربُّكم، والعبادة لا تصلح إلا للربِّ ﷻ، ثم ذكر الدليل علىٰ ذلك وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: من الأمم كلهم، خلق الله ﷻ الملائكة والجن والإنس، وجميع المخلوقات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إذا تدبرتم هذا، فلعل هذا أن يسبب لكم التقوىٰ إذا تدبرتم أنه الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقونه ﷻ في عبادته؛ لأنه لا يقي من عذابه إلا طاعته ﷻ، لعلكم تتقون عذابي وتتقون النار؛ لأنه لا يقيكم منها إلا عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

ثم واصل الاستدلال علىٰ ربوبيته وعبوديته ﷻ بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾؛ أي: بساطًا، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ [نوح:١٩]؛ أي: مبسوطة، وفراشًا؛ أي: تفترشونها، تنامون عليها، تبنون عليها، تزرعون علىٰ ظهورها، تسيرون عليها في سفركم أينما تريدون، فالأرض فراش ومهاد: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات:٤٨] لأجل مصالحكم.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: فالسماء سقف الأرض، وفيها مصالح للعباد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

❑ **قوله**: (قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: الخَالِقُ لِهذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ):

■ لما بيَّن الشيخ أن الربَّ هو المعبود، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ استشهد بكلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية، وأراد أن يُبيِّن أنواع العبادة وأدلة كل نوع، فالعبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، ومنه طريق معبَّد؛ يعني: مُذلَّل مخضع بالمشي عليه.

والعبادة قسمان:

القسم الأول: عبادة عامَّة لجميع الخَلْق، كلهم عباد الله، المؤمن والكافر، والفاسق والمنافق، كلهم عباد الله، بمعنىٰ: أنهم تحت تصرفه وقهره، وأنهم تجب عليهم عبادته ﷻ، هذه عبادة عامة لجميع الخَلْق، مؤمنهم وكافرهم، كلهم يُقال لهم: عباد الله، بمعنىٰ: أنهم مخلوقون له، مذللون، لا يخرج أحد منهم عن قبضته وسلطانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

هذا يشمل كل مَنْ في السماوات والأرض؛ المؤمن والكافر، كلهم يأتون يوم القيامة منقادين لله ﷻ، ليس لأحد منهم شركة مع الله ﷻ في ملكه.

القسم الثاني: عبودية خاصة بالمؤمنين، كما قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، قال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٤٠]. هذه عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة والتقرب إلىٰ الله بالتوحيد.

والعبادة في الشرع اختلف العلماء في تعريفها، يعني: اختلفت عباراتهم في تعريفها، والمعنىٰ واحد.

فمنهم من يقول: العبادة غاية الذل مع غاية الحبِّ، كما قال ابن القيم في «النونية»:

وعبـــادةُ الـــرَّحمَن غايـــة حبـــه ... مـــع ذُلِّ عابـــده همـــا قطبـــان

فعرفها بأنها غاية الحبِّ مع غاية الذل.

ومنهم مَنْ يقول: العبادة هي: ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي؛ لأن العبادة توقيفية، لا تثبت بالعقل ولا بالعُرْف، وإنما تثبت بالشرع، وهذا تعريف صحيح.

ولكن التعريف الجامع المانع هو ما عرفه بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال: **«العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»**.

هذا التعريف الجامع المانع، وهو أن العبادة اسم لجميع ما أمر الله به، ففعل ما أمر الله به طاعة لله، وترك ما نهىٰ الله عنه طاعة لله، هذه هي العبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ما نهىٰ الله عنه فتركه، سواء كان ذلك ظاهرًا علىٰ الجوارح أو كان باطنًا في القلوب؛ لأن العبادة تكون علىٰ اللسان، وتكون علىٰ القلب، وتكون علىٰ الجوارح.

تكون علىٰ اللسان مثل: التسبيح، والذكر، والتهليل، والنطق بالشهادتين، كل أقوال اللِّسان المشروعة من ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ فإنها عبادة.

وكذلك كل ما في القلب من التقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فإنه عبادة: كالخوف، والرجاء والخشية، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والإنابة، والاستعانة، كل هذه أعمال قلب، اللجوء إلىٰ الله بالقلب، وخشية الله، وخوفه، والرغبة إليه ومحبته سبحانه والإخلاص له، والنية الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ؛ كل ما في القلوب من هذه الأنواع فهو عبادة.

وكذلك تكون العبادة علىٰ الجوارح مثل: الركوع، والسجود، والجهاد في سبيل الله، والجهاد بالنفس والهجرة، كل هذه عبادات بدنية، والصيام عبادة بدنية تظهر علىٰ الجوارح.

فإذن العبادة تكون علىٰ اللسان، وعلىٰ القلب، وتكون علىٰ الجوارح، ثم هذه العبادة تنقسم إلىٰ عبادة بدنية، وإلىٰ عبادة مالية.

العبادة البدنية: هي الثلاثة الأنواع التي قلنا، تكون علىٰ اللسان وعلىٰ الجوارح وعلىٰ القلب.

وتكون مالية: مثل إخراج الزكاة، مثل الإنفاق في سبيل الله، وهو الإنفاق في الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[التوبة:٢٠]، قدَّم الأموال علىٰ الأنفس، فالجهاد بالمال عبادة مالية.

الحجُّ يتكون من عبادة بدنية، وعبادة مالية، فأداء المناسك: الطواف، والسعي، ورمي الجمار، والوقوف بعَرْفة، والمبيت بمُزْدلفة، عبادة بدنية، أما الإنفاق فيه فهو عبادة مالية؛ لأن الحج يحتاج إلىٰ نفقة.

[أنواع العبادة]

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحسَانِ.

وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، والرَّجَاءُ، والتَّوَكُّلُ، والرَّغْبَةُ، والرَّهْبَةُ، والخُشُوعُ، والخَشْيَةُ، والإِنَابَةُ، والاستِعَانَةُ، والاستِعَاذَةُ، والاسْتِغَاثَةُ، والذَّبْحُ، والنَّذْرُ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِن أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا للهِ تَعَالَىٰ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]، فَمَنْ صَرَفَ مِنهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧].

وَفِي الحَدِيثِ: «**الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»[(١)][(٢)].

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

الشَّرح

❑ **قوله:** (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا):

■ والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد أمثلةً للعبادة من باب التمثيل لا من باب الحصر؛ لأنها أكثر مما ذكره، ولا يمكن استيعابها في رسالة مختصرة؛ لكن ذكر أمثلة، ولشيخ الإسلام

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: «مخُّ الشيء خالصه، وإنما كان مخُّها لأمرين:
أحدهما: أنه امتثال أمر الله تعالىٰ حيث قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فهو محض العبادة وخالصها.
الثاني: أنه إذا رأىٰ نجاح الأمور من الله قطع أمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة؛ ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها وهو المطلوب بالدعاء» [الدمشقي].

(٢) سبق تخريجه.

رسالة مستقلَّة اسمها «العبودية» تبحث في العبادة، وأنواع العبادة، وبيان الانحرافات التي حصلت من الصوفية وغيرهم في العبادة، وهي رسالة قيمة يحتاج طالب العلم أن يقرأها.

❑ **قوله**: (مِثْلُ الإسْلَام، وَالإِيمَانِ، وَالإِحسَانِ):

▪ هذه الأنواع الثلاثة أعظم أنواع العبادات، الإسلام، والإيمان، والإحسان، وسيأتي شرحها في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأصل الثاني، وذكر هاهنا؛ لأنها من أنواع العبادة، فالإسلام بأركانه الخمسة: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، هذه كلها عبادات مالية وبدنية، وكذلك الإيمان بأركانه الستة، وهو من أعمال القلوب: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذه عبادة قلبية.

كذلك الإحسان، وهو ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا أعلىٰ أنواع العبادة؛ لأن الإحسان هو أعلىٰ أنواع العبادة، وهذه تُسمَّىٰ مراتب الدين؛ لأن مجموعها هو الدين؛ لأن جبريل لما سأل النبي ﷺ بحضرة أصحابه وأجابه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان قال: «**هذا جبريل أتاكم يُعلِّمكم أمر دينكم**»(١)، فسمِّي هذه الثلاثة الدين.

❑ **قوله**: (وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، والرَّجَاءُ...):

▪ **أي**: ومن أنواع العبادة الدعاء، بدأ به؛ لأنه أعظم أنواع العبادة.

والدعاء علىٰ قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة:

دعاء العبادة: هو الثناء علىٰ الله ﷻ كما في أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ١-٥] هذا كله دعاء عبادة، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] إلىٰ آخر السورة هذا دعاء مسألة.

---

(١) سبق تخريجه.

ودعاء المسألة: هو طلب شيء من الله عَزَّوَجَلَّ كطلب الهداية، وطلب الرزق، وطلب العلم من الله، وطلب التوفيق.

❑ **قوله**: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾):

■ **المساجد**: تطلق ويُراد بها أماكن السجود والبقاع التي يُصلَّىٰ فيها، وهي أحبُّ البقاع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، قد جاء الترغيب في بنائها وإعدادها، قال ﷺ: «**مَنْ بنىٰ مسجدًا لله كمِفْحَص قَطاةٍ أو أصغر بنىٰ الله له بيتًا في الجنة**»(١).

يقول الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[التوبة:١٨] والمراد بالعمارة: العمارة الحسية والمعنوية، عمارتها بالطين، وما تحتاج إليه حتىٰ تأوي المصلين وتظلهم من الحرِّ وتُكنّهم من البرد، وعمارتها بالعبادة بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وتطلق المساجد ويُراد بها أعضاء السجود السبعة: وهي الجبهة، والأنف، واليدان، والركبتان، ورءوس القدمين؛ لأنها تسجد لله، والآية تشتمل المعنيين:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾؛ أي: البقاع التي يُصلَّىٰ فيها، وأعضاء السجود لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، لا تجعلوا هذه المساجد وهذه البقاع مَحَلًّا للشرك ودعوة غير الله، بل يجب أن تطهَّر المساجد من الشرك، فلا يكون فيها قبور، ولا يكون فيها دعاء لغير الله، ولا يكون فيها بدع ومحدثات، وحلقات صوفية مبتدعة.

يجب أن تُطهَّر المساجد عن البدع والشرك والمعاصي؛ لأنها لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يكون فيها إلا ما يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تدعوا مع الله أحدًا في هذه المساجد، أو تستخدموا أعضاءكم بالسجود لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن هذا شِرْك أكبر كالذي يسجد للصنم، أو للقبر، أو يسجد للوثن، فهذا يسجد لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

الشاهد في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، أمر بإخلاص الدعاء له وحده.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٣٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأحمد (١/ ٢٤١)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلَّامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾؛ يعمُّ كل مدعو من دون الله؛ سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو حجرًا، يعمُّ كل من دُعِيَ من دون الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون شركًا أكبر.

❑ **قوله**: (﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾):

■ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾: أي: أمركم ربُّكم، وقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، أمر بدعائه سبحانه ووعد بالاستجابة، وهذا من كرمه تَعَالَىٰ؛ لأنه غنيٌّ عن دعائنا؛ ولكننا محتاجون لدعائه سُبْحَانَهُ، فهو يأمرنا بما نحتاج إليه وبما يصلحنا، وهو -سبحانه- يغضب إذا تركت سؤاله بينما المخلوق يغضب إذا سألته؛ ولهذا يقول الشاعر:

الله يغضبُ إن تركتَ سؤالَه   وبُنَيَّ آدمَ حين يُسأل يَغضَبُ

ويقول آخر:

فلو سُئِلَ الناسُ التُّرَابَ لَأوشَكُوا   إذا قِيلَ هاتوا أَن يَملُّوا وَيَمنَعوا

فالناس أقسام ثلاثة:

الأول: مَنْ لا يدعو الله أصلًا، فيكون مستكبرًا عن عبادة الله.

الثاني: مَنْ يدعو الله، ولكن يدعو معه غيره فيكون مشركًا.

الثالث: مَنْ يدعو الله مخلصًا له الدعاء، فهذا هو الموحِّد.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء مخُّ العبادة**».

وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**» فهذا يدل علىٰ عظيم الدعاء، وأنه أعظم أنواع العبادة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**مخُّ العبادة**».

وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**»، والرواية الثانية أصحُّ من رواية: «**الدعاء مخُّ العبادة**»، والمعنىٰ واحد.

فالحديث بروايتيه يبيِّن عِظَمَ الدعاء، وأنه هو النوع الأعظم من أنواع العبادة، كما قال ﷺ: «**الحجُّ عرفة**»[1].

(١) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وغيرهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصحَّحه العلَّامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

بمعنى أن: الوقوف بعرفة في الحج هو الركن الأعظم من أركان الحج، وليس معناه: أن الحج كله هو عرفة، ولكن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج، كذلك ليست العبادة محصورة في الدعاء، ولكن الدعاء هو أعظم أنواعها؛ ولهذا قال: «**الدعاء هو العبادة**»، من باب تعظيم الدعاء وبيان مكانته.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة أنواع العبادة التي ذكرها وهي: الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها له عَزَّ وَجَلَّ.

[دليل: الخوف - الرجاء - التوكل - الرغبة - الخشية]

وَدَلِيلُ الخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣]، وقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والْخُشُوْعِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

ودَلِيلُ الخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠].

الشَّرْح

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الخَوْفِ):

■ الخوف نوع من أنواع العبادة وهو عبادة قلبية، وكذلك الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، والتوكل؛ كل هذه عبادات قلبية.

والخوف: هو توقع المكروه، وهو نوعان:

خوف العبادة، والخوف الطبيعي.

النوع الأول: خوف العبادة، هذا صرفه لغير الله شِرْك، وذلك بأن يخاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف أحدًا أن يمرضه، أو أن يقبض روحه، أو يميت ولده، كما يفعل كثير من الجُهَّال، يخافون علىٰ حمل زوجاتهم وعلىٰ أولادهم من الجن، يخافون من السَّحَرة، أو من الموتىٰ، فيعملون أعمالًا شركية لأجل أن يتخلصوا

من هذا الخوف، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، الأمراض والموت والرزق وقطع الأجل، هذه أمور لا يقدر عليها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك إنزال البركة أو غير ذلك، هذه أمور لا تكون إلا من الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا خاف أحدًا في شيء لا يقدر عليه إلا الله فهذا شِرْك أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ كالذين يخافون من القبور، ومن الأضرحة، ومن الجن، ومن الشياطين؛ أن تمسهم بسوء أو أن تنزل بهم ضررًا، فيذهبون يتقربون إلىٰ هذه الأشياء لدفع ضررها أو خوفًا منها، هذا شِرْك أكبر، يقول: أخاف إن لم أذبح له؛ أن يصيبني، أو يصيب أولادي؛ أو مالي، أو ما أشبه ذلك، كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤] يهددونه بآلهتهم ويخوفونه بآلهتهم ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود:٥٤-٥٦] هذا هو التوحيد، تحداهم كلهم هم وآلهتهم.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ لا تمهلوني بل من الآن فكيدوني، ولم يقدروا عليه بشيء، بل نصره الله عليهم.

فالذي يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذا يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا يسمىٰ خوف العبادة.

وخوف الشرك كثير في الناس، يخافون من القبور أو من الأولياء، يخافون من الشيطان، يخافون من الجن؛ ولذلك يقومون بتقديم القُربَات لهم، يقدمون لهم الذبائح والنذور والأطعمة وغير ذلك من النقود يلقونها علىٰ أضرحتهم من أجل أن يسلموا من شرِّهم، أو ينالوا من خيرهم، فهذا هو خوف العبادة.

النوع الثاني: الخوف الطبيعي: وهو أن تخاف من شيء ظاهر يقدر علىٰ ما تخافه منه، كأن تخاف من الحية، أو العقرب، أو من العدو، هذه أمور ظاهرة ومعروفة، فالخوف منها لا يسمىٰ شِرْكًا هذا خوف طبيعي من شيء ظاهر معروف؛ لأنك تخاف من سبب ظاهر ومطلوب الوقاية منه، والحذر منه، تأخذ السلاح، تأخذ العصا لقتل

الحية والعقرب وقتل السبع؛ لأن هذه أمور محسوسة، وفيها ضرر معلوم، فإذا خفت منها فهذا لا يسمىٰ شِرْكًا بل يسمىٰ خوفًا طبيعيًّا.

ولهذا قال الله في موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾[القصص:٢١]، أي: من البلد ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:٢١] خائفًا من أعدائه؛ لأنه قتل منهم نفسًا.

وهرب -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ مَدْيَنَ، وكان يترقب ويخشىٰ أن يلحقوه، فهذا خوف طبيعي، لكن تَعَلَّم الإنسان أن يعتصم بالله عَزَّوَجَلَّ، ويأخذ بالأسباب التي تدفع عنه الضرر، ويعتمد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويتوكل علىٰ الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾، هذه الآية في سورة (آل عمران) في قصة النبي ﷺ مع المشركين يوم أُحدٍ لما توعدهم المشركون، وقالوا: نرجع إليهم ونستأصلهم، فالله -جل وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾؛ أي: أن هذا التهديد وهذا الوعيد إنما هو من الشيطان؛ أي: يخوفكم أولياءه أو يخوف من انقاد له من الناس وخاف منه، فإنه يتسلط عليهم.

❏ **قوله**: (وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾):

▪ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا﴾؛ يعني: يطمع في ثواب الله عَزَّوَجَلَّ ورؤيته عيانًا يوم القيامة، مَنْ كان يطمع في أن يرىٰ الله عيانًا يوم القيامة فليعمل عملًا صالحًا.

يأتي بالسبب الذي يؤهله لحصول هذا المطلوب، وهو الثواب بدخول الجنة والنجاة من النار، والنظر إلىٰ وجه الله؛ لأن هذا متلازم؛ لأن من دخل الجنة فإنه يرىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، هذا يدل علىٰ أن الرجاء وحده لا يكفي، لابد من العمل.

أما أنك ترجو الله؛ ولكنك لا تعمل فهذا تعطيل للسبب، فالرجاء المحمود هو الذي يكون معه عمل صالح، أما الرجاء غير المحمود فهو الرجاء الذي ليس معه عمل صالح.

والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص له عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان: أن يكون خالصًا لوجه الله ليس فيه شِرْك، وأن يكون صوابًا علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ ليس فيه بدعة، فإذا توفر فيه الشرطان فهو صالح، وإن اختلَّ فيه شرط فإنه يكون عملًا فاسدًا لا ينفع صاحبه.

فالعمل الذي فيه شِرْك يُردُّ علىٰ صاحبه، كذلك العمل الذي فيه بدعة يُردُّ علىٰ صاحبه، قال ﷺ: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[1]، فهذه الآية فيها الرجاء، وأنه عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وفيها أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل الصالح.

❑ **قوله**: (وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾):

■ **التوكل:** هو التفويض والاعتماد علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتفويض الأمور إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا هو التوكل، وهو من أعظم أنواع العبادة؛ ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، قدَّم الجار والمجرور علىٰ العامل ليفيد الحصر.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، أي: عليه لا علىٰ غيره، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فجعل من شرط الإيمان التوكل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودلَّ علىٰ أن مَنْ لم يتوكل علىٰ الله فليس بمؤمن، فالتوكُّل عبادة عظيمة، فالمؤمن دائمًا يتوكل علىٰ الله، ويعتمد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والله من أسمائه الوكيل؛ أي: الموكول إليه أمور عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالتوكل لا يكون إلا علىٰ الله، ولا يجوز أن يقول: توكلت علىٰ فلان؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

أما إذا أسندت إلىٰ أحد من الخَلْق تصرفًا، فهذا لا يسمىٰ توكُّلًا إنما يسمىٰ توكيلًا، والوكالة معروفة أنك توكل أحدًا يقضي لك حاجة، وقد وكَّل النبي ﷺ مَنْ

(١) سبق تخريجه.

ينوبون عنه في بعض الأعمال، فالتوكيل غير التوكل، فالتوكُّل: عبادة لا يكون إلا لله، ولا يجوز أن تقول: توكلت علىٰ فلان، وإنما تقول وكَّلتُ فلانًا.

ومع هذا أنت توكله ولا تتوكل عليه، وإنما تتوكل علىٰ الله ﷻ، فلاحظوا الفرق بين الأمرين التوكل والتوكيل.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢]، هذه من صفات المؤمنين، فالتوكل عبادة عظيمة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه هو القادر علىٰ كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو الذي يقدر أن يحقق لك مطلوبك، أما المخلوق فإنه قد لا يقدر أن يحقق لك مطلوبك، فإنك توكله في قضاء شيء من الأمور؛ لكن تتوكل علىٰ الله في حصول ذلك الشيء.

ثم -أيضًا- لنعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فيجمع المسلم بين التوكل علىٰ الله والأخذ بالأسباب، ولا تنافي بينهما، فأنت تعمل الأسباب التي أُمِرْتَ بعملها؛ ولكن لا تعتمد علىٰ الأسباب، وإنما تعتمد علىٰ الله، أنت تزرع الزرعَ في الأرض، هذا سبب، ولكن لا تعتمد علىٰ زرعك وفِعْلك، بل اعتمد علىٰ الله في نمو هذا الزرع وتثميره وحمايته وإصلاحه؛ ولهذا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة:٦٣،٦٤] فالزارع الحقيقي هو الله. أما أنت فقد فعلت سببًا فقط قد ينتج هذا الزرع وينبت وقد لا ينتج، وإذا نبت قد يصلح وقد لا يصلح، قد يصاب بآفة، فيذهب.

❑ **قوله**: (ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾):

■ **الرغبة**: هي طلب الشيء المحمود.

الرهبة: هي الخوف من الشيء المرهوب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠]، وهي نوع من الخوف، الرهبة والخوف بمعنىٰ واحد.

الخشوع: نوع من التذلل لله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع والذل بين يديه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وهو من أعظم مقامات العبادة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ﴾الضمير يرجع للأنبياء؛ لأن سورة (الأنبياء) قد ذكر الله قصص الأنبياء فيها، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾؛ فقوله تعالىٰ: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يتسابقون إليها، ويبادرون إليها، هذه صفة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتكاسلون ولا يتعاجزون، وإنما يسارعون إلىٰ فعل الخيرات ويتسابقون إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ أي: طمعًا لما عند الله عَزَّوَجَلَّ، طمعًا في حصول المطلوب.

قوله تعالىٰ: ﴿وَرَهَبًا﴾؛ أي: خوفًا منا، فيدعون الله أن يرحمهم، ويدعونه ألَّا يعذبهم، وألَّا يؤاخذهم، وألا يعاقبهم، فهم يطمعون في رحمة الله ويخافون من عذابه، كما قال تعالىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧].

فهم يدعون الله خوفًا منه، ويدعونه -أيضًا - طمعًا فيما عنده، يدعون الله أن يُقدِّر لهم الخير ويدفع عنهم الشرَّ ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾؛ أي: خاضعين متذللين متواضعين للهعَزَّوَجَلَّ، فجمعوا بين الصفات الثلاث: الرغبة والرهبة والخشوع، هذه صفات الأنبياء صلىٰ الله عليهم وسلم، وهذه الأنواع الثلاثة من أنواع العبادة لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رغبة في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وإنما نعبده محبة له فقط، هذا كلام باطل؛ لأن الأنبياء يدعون الله رغبًا ورهبًا وهم أكمل الخَلْق.

❑ **قوله**: (ودَلِيلُ الخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾):

▪ **الخشية**: نوع من الخوف، وهي أخصُّ من الخوف، وقيل: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بخشيته وحده.

وقال تعالىٰ في الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾[البقرة:١٥٠]، فأمر بخشيته ﷻ، وقال في صفة المصلِّين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾[المعارج:٢٧]؛ أي: خائفون، هؤلاء خواصُّ الخَلْق يخافون الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[النحل:٥٠] خواصُّ الخَلْق من الملائكة والرسل والأولياء والصالحين يكونون علىٰ غاية عظيمة من خشية الله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه ﷻ والرهبة منه، فالرَّهْبة والخوف والخشية، كلها بمعنىٰ واحد وإن كان بعضها أخصَّ من بعض.

إلا أنها يجمعها الخوف من الله ﷻ، وهذه من صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين، وهي أنواع عظيمة من أنواع العبادة، وهي من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

[دليل: الإنابة - الاستعاذة - الاستغاثة - الذبح - النذر]

ودَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤].

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٥].

وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا استَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله»[١][٢].

وَدَلِيلُ الاستِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [الفلق:١]، وَقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [الناس:١].

وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ الآية [الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

وَمِنَ السُّنَّة: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله»[٣][٤].

وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا[٥] ٧﴾ [الإنسان:٧].

---

(١) المعنىٰ: إذا أردت طلب المعونة في تحمل المئونة المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة فاستعن بالله؛ إذ لا معين سواه، ولا فاتح باب، ولا مانح عطاء إلا إياه، فلا بد من قطع الواسطة في مقام قُرْبه كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ أي: ما نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك[الدمشقي].

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وصحَّحه العلَّامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣) اللعن: البعد عن مظانِّ الرحمة ومواطنها، واللعين والملعون: مَنْ حقَّت عليه اللعنة[الدمشقي].

(٤) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، وأحمد (١/ ١٠٨)، وغيرهما من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) أي: منتشرًا عامًّا علىٰ الناس، نسأل الله حُسن الخاتمة[الدمشقي].

الشَّرح

❏ **قوله**: (ودَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾):

■ **الإنابة**: الرجوع وهي بمعنىٰ: التوبة، والتوبة والإنابة بمعنىٰ واحد.

ولكن بعض العلماء يقول: الإنابة أخصُّ من التوبة؛ أي: آكد؛ لأنها توبة مع إقبال إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: توبة خاصة، والإنسان قد يتوب ويترك الذنب ولا يعود إليه، ويندم عليه؛ ولكن قد يكون في الإقبال علىٰ الله إقبال ضعيف.

أما الإنابة فهي إقبال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: ارجعوا له، وأقبلوا عليه سُبْحَانَهُ: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾، فإذا جاء العذاب المهلك الماحق فإنها لا تقبل توبة مَنْ تاب عند ذلك: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ [يونس:٩٨] هذا مستثنىٰ وإلا فإنه إذا نزل العذاب المهلك فإنها لا تقبل التوبة، ولهذا قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

فالتوبة والإنابة لهما أجل ولهما حدٌّ، فهي لا تقبل توبة مَنْ غَرْغَرَ أو مَنْ حضره الموت، ولا تقبل توبة مَنْ نزل به العذاب الماحق المُهْلك، ولا تقبل التوبة إذا خرجت الشمس من مغربها قبل قيام الساعة، لا تقبل التوبة حينئذٍ؛ فالله يحثُّ العبد علىٰ التوبة والإنابة قبل انتهاء أجله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

الشاهد: قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ دلَّ علىٰ أن الإنابة نوع من أنواع العبادة؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾فهذا يدل علىٰ أنها نوع من أنواع العبادة.

❏ **قوله**: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله»):

■ **الاستعانة**: طلب العون، وهي علىٰ نوعين:

النوع الأول: الاستعانة بشيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذه صرفها لغير الله شِرْك، من

استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا الله فإنه قد أشرك؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله عَزَّ وَجَلَّ.

النوع الثاني: الاستعانة فيما يقدر عليه المخلوق، فأنت تستعين بأحد أن يبني معك الجدار، أو أن يحمل معك متاعك، أو أن يُعينك على مطلوب مباح، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢].

فالاستعانة في الأمور العادية التي يقدر عليها الناس، هذا النوع لا بأس فيه؛ لأنه من التعاون على البِرِّ والتقوى، وقال ﷺ: «**والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»(١).

أما الاستعانة بالمخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا الله؛ مثل: جلب الرزق ودفع الضرر، فهذا لا يكون إلا لله، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالجن والشياطين، والاستعانة بالغائبين، وهم لا يسمعونك تهتف بأسمائهم، هذا شِرْك أكبر؛ لأنك تستعين بمَنْ لا يقدر على إعانتك.

فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: هذا فيه تقديم المعمول على العامل، المعمول (إياك) في محل نصب، ونعبد هذا هو العامل الذي نصب (إياك)، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر.

فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد غيرك، فحَصْر العبادة في الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: حصر الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تَعَالَىٰ.

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، براءة من الحول والقوة، وأن الإنسان لا قوة له إلا بالله ولا يقدر إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ وهذا غاية التعبد لله إذا تبرأ من الشرك، وتبرأ من الحول ومن القوة، فهذا غاية التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَدَلِيلُ الاستِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾):

■ **الاستعاذة**: طلب الالتجاء إلىٰ مَنْ يمنعك من محذور تخافه من أجل أن يدفع عنك هذا الشيء، هذه هي الاستعاذة.

والاستعاذة نوع من أنواع العبادة، لا يجوز أن تستعيذ بغير الله عَزَّوَجَلَّ، فمن استعاذ بقبر أو بوثن أو بأي شيء غير الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن:٦].

كان العرب في جاهليتهم إذا نزلوا في مكان من الأرض يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي؛ أي: كبير الجن، يستعيذ به من شرِّ سفهاء قومه.

فقال النبي ﷺ مبطلًا لذلك ومبينًا لما يشرع بدله: «**مَنْ نزل منزلًا، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضرَّه شيء حتىٰ يرتحل من منزله ذلك**»(١).

هذا هو البديل الصحيح، الاستعاذة بكلمات الله التامات بدلًا من الاستعاذة بالجن.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.

الفلق: هو الصبح، وربُّ الفلق: هو الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦] أي: مظهر نور الصبح في ظلام الليل. من الذي يقدر علىٰ هذا إلا الله ﷻ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ أي: ربُّ الصبح إذا أصبح، المالك المتصرف فيه القادر عليه.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾: هذا يشمل شرَّ جميع المخلوقات، يستعيذ بالله من شر جميع المخلوقات. هذا يكفيك عن كل استعاذة أو تعوذ مما يفعله الناس.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

الغاسق: هو ظلام الليل؛ لأن ظلام الليل تخرج فيه الوحوش والسباع، فأنت تقع في خطر، تستعيذ بالله من شر هذا الظلام وما تحته من هذه المؤذيات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٩)، وأبو داود (٣٨٩٨)، وغيرهما من حديث خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ وهي: السواحر تستعيذ بالله من السِّحْر وأهله؛ لأن السِّحْر شرٌّ عظيم.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

الحاسد: هو الذي يتمنىٰ زوال النعمة عن الغير، إذا رأىٰ علىٰ أحد نعمة فإنه يغتاظ ويتمنىٰ زوال هذه النعمة حسدًا وبغيًا -والعياذ بالله-، وهو من أعظم الخِصَال المذمومة؛ لأن فيه اعتراضًا علىٰ الله، وفيه إساءة إلىٰ الخَلْق.

ويدخل فيه العائن، الذي يصيب بنظرته؛ لأن الإصابة بالعين نوع من الحسد، فأنت تستعيذ بالله من هذه الشرور، فدل علىٰ أن الاستعاذة عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله، فلا تستعيذ بالمخلوق ومن استعاذ بمخلوق فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والنبي ﷺ يقول لعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**وإذا استعنت فاستعن بالله**».

❑ **قوله**: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾):

■ وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس]. أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاستعاذة بربِّ الناس ملك الناس إله الناس، هذه كلها أسماء وصفات لله عَزَّوَجَلَّ وفيها أنواع التوحيد الثلاثة؛ توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

استعذ بالله، وبهذه الأسماء والصفات، استعذ من شر الوَسواس وهو الشيطان، أما الوِسواس بالكسر فهو مصدر وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ، أما الوَسواس فهذا اسم من أسماء الشيطان؛ لأنه يوسوس للإنسان ويُخيِّل إليه ويشغله من أجل أن يُلقي في قلبه الرعب والتردد والحيرة في أموره خصوصًا في أمر العبادة، فإن الشيطان يوسوس للإنسان في العبادة حتىٰ يلبس عليه صلاته أو عبادته، ثم ينتهي به الأمر إلىٰ أن يخرج من الصلاة ويعتقد أنها بَطُلَت، أو يصلي ثم يعتقد أنه علىٰ غير وضوء، أو أنه ما قام لكذا أو أنه ما فعل كذا، ويصبح في وسواس ولا يطمئن إلىٰ عبادته.

فالله -جل وعلا- أعطانا الدواء لهذا الخطر، وذلك بأن نستعيذ بالله من شرِّ هذا الوسواس.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي يتخلف ويبتعد، فهو يوسوس إذا غفلت عن ذِكْر الله، ويخنس؛ أي: يتأخر إذا ذكرت الله عَزَّوَجَلَّ فهو وسواس مع الغفلة، وخناس عند ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: كأن المعنىٰ -والله أعلم-: أن هناك موسوسين من الجن ومن الإنس يوسوسون للناس، يأتون الناس ويشككونهم، فكما أن للجن شياطين يوسوسون، فكذلك للإنس شياطين يوسوسون، فأنت تستعيذ بالله من شر القبيلين.

ولهذا يقول النبي ﷺ: «**ما تعوذ متعوِّذ بمثلهما**»[(١)] أي: هاتين السورتين، فينبغي للمسلم أن يقرأهما في أدبار الصلوات ويكررهما ويقرأهما عند النوم مع آية (الكرسي)، وسورة (الإخلاص).

يقرأ آية (الكرسي)، وسورة (الإخلاص) و(المعوذتين)، يقرؤهما دُبُرَ كل صلاة ويكررهما ثلاثًا بعد المغرب وبعد الفجر، وكذلك يقرؤهما عند النوم من أجل أن يبتعد عنه الشيطان فلا يكدر عليه نومه ويزعجه بالأحلام.

الشاهد من هاتين السورتين: أن الله أمر بالاستعاذة به وحده، فدل علىٰ أن الاستعاذة بغيره من الجن أو من الإنس، أو من أي مخلوق أنه لا يجوز؛ لأنها نوع من أنواع العبادة.

❑ **قوله:** (وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ):

■ **الاستغاثة:** هي نوع من أنواع العبادة، وهي طلب الغَوْث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغَوْث من الله، والنجاة من هذه الشدة.

---

(١) أخرجه النسائي (٥٤٢٩)، وفي «الكبرىٰ» (٧٧٨٩)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال العلَّامة الألباني في «صحيح سنن النسائي»: «صحيح الإسناد».

والاستغاثة على نوعين:

النوع الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ وهذا شِرْكٌ، فمن استغاث بغير الله من جنٍّ أو إنس أو غائبين أو أموات فإن هذا شِرْك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فالاستغاثة بالأموات، وبالغائبين من الشياطين والجن هذا شِرْك بالله عَزَّوَجَلَّ.

النوع الثاني: الاستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي فيما يقدر عليه، هذا جائز، قال- تعالىٰ- في قصة موسىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:١٥].

❑ **قوله**: (وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ ومن السنة: «لعن الله مَنْ ذبح لغير الله»):

■ **الذبح على أربعة أقسام:**

الأول: الذبح علىٰ وجه التقرُّب والتعظيم لأحد ما، وهذا لا يجوز إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه من العبادات المالية، فلا يجوز الذبح للجن ولا للشياطين ولا للملوك والرؤساء تعظيمًا لهم؛ لأن هذه عبادة، لا تجوز إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

فالذين يذبحون للجن من أجل السلامة من شرِّهم، أو من أجل شفاء المرضىٰ، كما يفعله الكُهَّان والمنجمون الذين يدعون العلاج ويقولون للناس: اذبحوا كذا لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسم الله عليه، هذا شِرْك أكبر مخرج من المِلَّة، وهذا الذي قال الله -تعالىٰ- محذِّرًا من فعله لغير الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾[الكوثر:٢]، أي: واذبح لربك.

الثاني: الذبح من أجل أكل اللحم، هذا لا بأس به؛ لأنه ما ذبح من أجل التقرُّب والتعظيم لأحد، وإنما ذبح لحاجة، والأكل منه، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس نوعًا من العبادة ويذبح لبيع اللحم.

الثالث: الذبح علىٰ وجه الفرح والسرور، بمناسبة زواج، أو مناسبة نزول مسكن جديد، أو قدوم غائب، أو ما أشبه ذلك بجَمْع الأقارب، ويذبح من باب إظهار الفرح والسرور بما حصل له، هذا لا بأس به؛ لأنه ليس فيه تعظيم لأحد ولا تقرب لأحد،

وإنما هو من باب الفرح والسرور في شيء حصل.

الرابع: الذبح من أجل التصدُّق باللحم على الفقراء والمساكين والمعوزين هذا يعتبر سُنَّة وهو داخل في العبادة.

❑ **قوله**: (وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾):

■ **النذر**: هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذر أن يصوم، أو ينذر أن يتصدق بكذا، فيلزمه الوفاء بنذره؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه**»، والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز إلا لله، فمَنْ نذر لقبر أو صنم أو غير ذلك فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو نذر معصية وشِرْك، وقد قال النبي ﷺ: «**ومَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

❀ ✡✡✡ ❀

[الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام]

الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ،بالأَدِلَّةِ.

وَهُوَ: الاستسلَامُ لله بِالتَّوحِيدِ، والانقيَادُ لَهُ بالطَّاعَةِ، والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ.

وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلَامُ، والإِيمَانُ، والإِحْسَانُ، وكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

الشَّرح

❑ **قوله:** (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ، بالأَدِلَّة):

▪ لما فرغ الشيخ من بيان معرفة الأصل الأول وهو معرفة الله -سبحانه وتعالى- بالأدلة، انتقل إلىٰ بيان الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

فقال: الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، ثم عرفه وبيَّن معناه، ثم ذكر مراتبه.

❑ **قوله:** (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ):

▪ الدين يُراد به: الطاعة، يقال: دان له إذا أطاعه فيما أمر وترك ما نهىٰ.

ويُطلق الدين ويراد به الحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤] ويقال: دانه إذا حاسبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار:١٧، ١٨] أي: يوم الحساب ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار:١٩].

❑ **قوله:** (بالأدلة):

▪ **أي:** أن معرفة دين الإسلام لا تكون بالتقليد، أو تكون بالتخرُّص من عند الإنسان، الدين لابد له مسن أدلة من الكتاب والسنة.

أما الإنسان الذي لا يعرف دينه وإنما يقلد الناس، ويكون إمعة مع الناس فهذا لن يعرف دينه وَحَرِيٌّ به أنه إذا سئل عنه في القبر أن يقول: «هاه، هاه!! لا أدري، سمعت

الناس يقولون شيئًا فقلته»، فواجب علىٰ الإنسان أن يعرف دينه بالأدلة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ولا يعرف هذا إلا بالتعلُّم.

❑ **قوله**: (وَهُوَ: الاستسلَامُ لله بِالتَّوحِيدِ...):

■ الإسلام مأخوذ من: أسلم للشيء إذا انقاد له، أسلم نفسه للقتل؛ أي: خضع للقتل، فأسلم نفسه للشيء إذا انقاد له.

فالإسلام هو إسلام الوجه والقصد والنية له عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النساء:١٢٥]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾[البقرة:١١٢]؛ أي: أخلص عمله لله عَزَّوَجَلَّ وانقاد لله عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة.

الاستسلام لله بالتوحيد: وهو إفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، وهذا هو معنىٰ التوحيد، فمَنْ عبد الله وحده لا شريك له فقد استسلم له.

قوله: «والانقياد له سبحانه بالطاعة»: فيما أمرك به وما نهاك عنه، فما أمرك به تفعله، وما نهاك عنه تجتنبه طاعة لله تَعَالَىٰ.

❑ **قوله**: (والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ ...):

■ **البراءة معناها**: الانقطاع والاعتزال، والبُعْد عن الشرك وأهل الشرك، بأن تعتقد بطلان الشرك فتبتعد عنه، وتعتقد وجوب عداوة المشركين؛ لأنهم أعداءٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فلا تتخذهم أولياء، إنما تتخذهم أعداء؛ لأنهم أعداء لله ولرسوله ولدينه فلا تحبهم ولا تواليهم، وإنما تقاطعهم في الدين وتبتعد عنهم، وتعتقد بطلان ما هم عليه، فلا تحبهم بالقلب ولا تناصرهم بالقول والفعل؛ لأنهم أعداءٌ لربك وأعداء لدينك، فكيف تُواليهم وهم أعداء الإسلام؟!

لا يكفي أنك تستسلم لله وتنقاد له بالطاعة، وأنت لا تتبرأ من الشرك ولا من المشركين، هذا لا يكفي، ولا تعدُّ مسلمًا حتىٰ تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

ثالثًا: البراءة مما يضادُّ التوحيد ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخَّص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنىٰ الإسلام؛ لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا.

❑ **قوله:** (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلَامُ...):

■ **معنى المراتب:** الدرجات؛ لأننا قلنا: إن الدين ثلاث درجات بعضها أعلىٰ من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان؛ فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.

فدائرة الإسلام واسعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلىٰ الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهرًا، إذا صلوا مع المسلمين وزكُّوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما علىٰ المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

❑ **قوله:** (الإِيمَانُ):

■ هذه هي المرتبة الثانية، والمؤمنون يتفاوتون: منهم المقربون، ومنهم الأبرار، والمقربون هم أصحاب أعلىٰ الدرجات، والأبرار دونهم، ومنهم الظالم لنفسه وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشرك، فهو مؤمن فاسق، أو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢].

❑ **قوله**: (الإِحْسَانُ):

■ هذه هي المرتبة الثالثة، وهي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله، في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وذكر النبي ﷺ الإحسان فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١)؛ أي: يكون عندك علمًا يقينيًّا أن الله يراك أينما كنت.

❑ **قوله**: (وكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ):

■ والأركان جمع ركن، وهو ما يقوم عليه الشيء.

فأركان الشيء: جوانبه التي يقوم عليها ولا يقوم بدونها، وتكون بداخل الشيء، خلاف الشروط فهي تكون خارج الشيء، مثل شروط الصلاة فهي خارج الصلاة قبلها، وأما أركان الصلاة فإنها بداخلها، مثل تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة، فإذا اختلَّ شيء منها فإن الصلاة لا تصح، كما لو فُقِدَ شيء من أركان البنيان فإنه لا يقوم ولا يعتمد.

---

(١) سبق تخريجه.

[المرتبة الأولى: الإسلام وأركانه]

فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨].

ومَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهَ؛ «لَا إِلهَ» نَافيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِن دُونِ الله «إِلَّا اللهُ» مُثْبِتًا العِبَادَةَ لله وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى(١) فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾(٢) [آل عمران:٦٤].

---

(١) أي: خلقني وأوجدني من العدم [الدمشقي].

(٢) هو خطاب لليهود والنصارىٰ حسب ظاهر النَّظْم القرآني ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسَّرها بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا غير ذلك، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه هي دعوة جميع الرسل إلىٰ الله تعالىٰ ذِكْره وتنزَّهت صفاته، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تَبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير، وإشارة إلىٰ أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم، وإزراء بمَنْ قلَّد الرجال في دين الله فحلَّل ما حللوه وحرم ما حرموه عليه، فإن مَنْ فعل ذلك فقد اتخذ مَنْ قلده ربًّا، ومنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن جريج: لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله.

وقال عكرمة: لا يسجد بعضنا لبعض ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن التوحيد ﴿فَقُولُوا۟﴾، أي: أنت يا محمد والمؤمنون لهم: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: موحِّدون لما لزمتكم الحُجَّة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم [الدمشقي].

الشَّرْح

❑ **قوله:** (فَأَرْكَانُ الإِسْلَامُ خَمْسَةٌ...):

■ لا يقوم الإسلام إلا على هذه الأركان، إذا فُقِدَتْ فإن الإسلام لا يستقيم، وبقية الطاعات مكملات لهذه الأركان، كل الطاعات وأفعال الخير كلها مكملات لهذه الأركان، ولهذا سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله ﷺ بحضرة الصحابة، قال: «**أخبرني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**».

ففسر الإسلام بأنه هذه الأركان الخمسة، لكن حديث ابن عمر بيَّن أن هذه الخمسة هي مباني الإسلام، فقال: «**بُني الإسلام على خمس**» أي: أن هذه الخمس ليست هي الإسلام كله، لكنها أركانه ومبانيه التي يقوم عليها وبقية المشروعات مكملات ومتممات لهذه الأركان.

❑ **قوله:** (فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾):

■ قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ﴾؛ أي: حكم وقضىٰ وأعلم وبيَّن وألزم، فالشهادة من الله تدور علىٰ هذه المعاني الخمسة: الحكم، والقضاء، والإعلان، والبيان، والإلزام.

فمعنى شهد: أي: قضىٰ -سبحانه- وأعلم وأخبر وألزم عباده بذلك، أنه لا إله إلا هو.

لا إله: (لا) نافية تنفي جميع ما عُبِدَ من دون الله.

إلا هو: مثبت العبادة لله وحده.

ومعنى أنه لا إله إلا هو؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله تَعَالَىٰ، أما مَنْ عبد غير الله فإن عبادته باطلة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[الحج:٦٢].

شهد لنفسه تَعَالَىٰ بالوحدانية وهو أصدق القائلين، وشهادته تَعَالَىٰ أصدق الشهادات؛ لأنها صادرة عن حكيم خبير عليم، يعلم كل شيء فهي شهادة صادقة.

والملائكة: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهم عالَم خلقهم الله لعبادته، ملائكة كرام عباد مكرمون خلقهم الله لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأيضًا خلقهم الله لتنفيذ أوامره في الكون، وكَّل إليهم تنفيذ ما يأمر به سبحانه وتعالى من أمور الكون، فكل مَلَك منهم موكَّل بعمل، وشهادتهم شهادة صدق؛ لأنهم أهل علم وعبادة ومعرفة بالله عز وجل وهم من أفضل الخَلْق علىٰ الخلاف، هل صالح البشر أفضل من الملائكة أو الملائكة، أفضل من صالح البشر؟ علىٰ خلاف.

وأولو العلم: صنفان: الملائكة، والصنف الثاني: أولو العلم من البشر، وأولو العلم لا يشهدون إلا بما هو حقٌّ، بخلاف الجُهَّال لا اعتبار بشهادتهم، وكل عالم من خلق الله يشهد لله بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وهذا فيه تشريف لأهل العلم؛ حيث إن الله قرن شهادتهم مع شهادته سبحانه وتعالى وشهادة ملائكته، اعتبر شهادة أهل العلم من الخَلْق ودلَّ علىٰ فضلهم وشرفهم ومكانتهم، علىٰ أعظم مشهود به وهو التوحيد.

والمراد بأولي العلم: أهل العلم الشرعي لا كما يقوله بعض الناس: إن أهل العلم المراد بهم: أهل الصناعة والزراعة، فهؤلاء لا يقال لهم: أهل العلم علىٰ وَجْه الإطلاق؛ لأن علمهم محدود مقيد، بل يقال: هذا عالِم بالحساب، عالِم بالهندسة، عالِم بالطب، ولا يقال لهم: أهل العلم مطلقًا؛ لأن هذا لا يطلق إلا علىٰ أهل العلم الشرعي.

وأيضًا أكثر هؤلاء أهل علم دنيوي، وفيهم ملاحدة يزيدهم علمهم -غالبًا- جهلًا بالله عز وجل، وغرورًا وإلحادًا كما تشاهدون الآن في الأمم الكافرة، مُتقدِّمون في الصناعات وفي الزراعة لكنهم كفار، فكيف يقال: إنهم أهل العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:١٨] هذا غير معقول أبدًا.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] المراد: علماء الشرع الذين يعرفون الله حقَّ معرفته، ويعبدونه حقَّ عبادته، ويخشونه.

أما هؤلاء فأغلبهم لا يخشون الله عز وجل؛ بل يكفرون بالله ويجحدونه، ويدعون أن العالَم ليس له ربٌّ، وإنما الطبيعة هي التي توجده وتتصرف فيه، كما هو عند

الشيوعيين، إنهم ينكرون الربَّ ﷻ مع أن عندهم علمًا دنيويًّا!! كيف نقول: إن هؤلاء هم أهل العلم؛ هذا غلط، فالعلم لا يطلق إلا علىٰ أهله، وهو لقب شريف لا يطلق علىٰ الملاحدة والكفار، ويقال: هؤلاء أهل العلم.

فالملائكة وأولو العلم شهدوا لله بالوحدانية.

إذن لا عِبْرة بقول غيرهم من الملاحدة والمشركين والصابئين الذين يكفرون بالله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء لا عِبْرة بهم ولا بقولهم؛ لأنه مخالف لشهادة الله وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم من خَلْقه.

وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ منصوب علىٰ الحال من شهد؛ أي: حالة كونه قائمًا ﷻ

والقسط: العدل؛ أي: أن الله ﷻ قائم بالعدل في كل شيء والعدل ضد الجَوْر، وهو ﷻ حكم عدل، لا يصدر عنه إلا العدل في كل شيء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيد للجملة الأولىٰ.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: اسمان لله عَزَّوَجَلَّ يتضمنان صفتين من صفاته وهما العزة والحِكْمة.

❑ **قوله**: (وَمعنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا الله...):

■ **أي**: معنىٰ لا إله إلا الله ليس - كما يقول أهل الباطل: لا خالق ولا رازق إلا الله؛ لأن هذا توحيد الربوبية يقرُّ به المشركون، وهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات:٣٥، ٣٦] آلهتنا، أي: معبوداتنا ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾، يعنون: الرسول ﷺ وصفوه بالشِّعْر والجنون؛ لأنه قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام.

ولما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥] يحسبون الآلهة متعددة.

فدل علىٰ أن معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله، ولو كان معناها: لا خالق، ولا رازق

إلا الله، فإن هذا يقرُّون به ولا يمارون فيه، فلو كان هذا معناها ما امتنعوا من قول: لا إله إلا الله؛ لأنهم يقولون: إذا سئلوا مَنْ خلق السماوات والأرض يقولون: الله، إذا سئلوا من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يحيي ويميت؟ ويدبر الأرض؟ يقولون: الله، هم يعترفون بهذا، فلو كان هذا معنىٰ لا إله إلا الله لأقروا بهذا، لكن معناها: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله.

لو قلت: لا معبود إلا الله، هذا غلط كبير؛ لأن المعبودات كلها تكون هي الله - تعالىٰ الله عن هذا- لكن إذا قيدتها وقلت: بحقٍّ؛ انتفت المعبودات كلها إلا الله ﷻ، لابد أن تقول: لا معبود حقٌّ، أو لا معبود بحق إلا الله، ثم بيَّن ذلك علىٰ لفظ الكلمة.

لا إله: النفي، نفي للعبودية عما سوىٰ الله.

إلا الله: هذا إثبات للعبودية لله وحده لا شريك له.

فلا إله إلا الله تشتمل علىٰ نفي وإثبات، ولابد في التوحيد من النفي والإثبات لا يكفي الإثبات وحده، ولا يكفي النفي وحده، بل لابد من النفي والإثبات، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٦٥]، ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

فلو قلت: الله إله، هذا لا يكفي، اللات: إله، والعزىٰ: إله، ومناة: إله، كل الأصنام تُسمَّىٰ آلهة.

فلابد أن تقول: لا إله إلا الله، فلابد من الجمع بين النفي والإثبات حتىٰ يتحقق التوحيد وينتفي الشرك.

□ **قوله:** (وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾):

■ خير ما يفسر القرآن القرآنُ، فلا إله إلا الله فسرها الله في القرآن، وذلك في قول الخليل -عليه الصلاة والسلام- فيما ذكر الله عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ [الزخرف:٢٦] هذا النفي، لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٧] يعني: إلا الله، هذا الإثبات.

فهذه الآية تفسير معنىٰ لا إله إلا الله تمامًا.

❑ **قوله**: (﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾):

■ هذه الآية من سورة (آل عمران) نزلت في وفْد نجران النصارىٰ الذين قدموا علىٰ النبي ﷺ، وناظروه وسألوه، وحصل بينهم وبينه كلام طويل، وهم نصارىٰ من نصارىٰ العرب، وفي النهاية طلب النبي ﷺ منهم المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١].

فلما طلب منهم المباهلة خافوا ولم يباهلوه -عليه الصلاة والسلام-، ودفعوا له الجزية؛ لأنهم يعلمون أنهم علىٰ باطل، وأنه رسول الله ﷺ.

نبتهل؛ أي: ندعو باللعنة علىٰ الكاذب منا، وكانوا يعلمون أنهم هم الكاذبون، ولو باهلوه لنزلت عليهم النار وأحرقتهم في مكانهم، فقالوا: لا، لكن ندفع الجزية ولا نباهلكم، فقبل النبي ﷺ منهم الجزية، لقد تبين أن الله أمره بما في هذه الآية.

وهذه الآية فيها معنىٰ لا إله إلا الله، قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾، هذا النفي، وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الإثبات، وهذا هو العدل الذي قامت له السماوات والأرض، فالسماوات والأرض قامت علىٰ التوحيد والعدل، لا نشرك في عبادته شيئًا؛ لا المسيح الذي تزعمون أنه ربٌّ، وتعبدونه من دون الله، ولا غير المسيح، ولا محمد -عليه الصلاة والسلام-، ولا أحد من الأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الأولياء، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، كما اتخذتم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[التوبة:٣١]، واتخاذ الأحبار والرهبان من دون الله بيَّنه رسول الله ﷺ في أن طاعتهم في تحليل ما

حرم الله، وتحريم ما أحل الله، هذا معنىٰ اتخاذهم أربابًا من دون الله، إذا كانوا يُحلِّلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل، فإذا أطاعوهم في ذلك، فقد اتخذوهم أربابًا؛ لأن الذي يشرع للناس ويُحلِّل ويحرم هو الله ﷻ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: ولم يقبلوا دعوة التوحيد ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، أشهدوهم علىٰ أنكم موحدون وأنهم كفار، بيِّنوا لهم بطلان ما هم عليه، ففي هذه الآية البراءة من دين المشركين والمصارحة بذلك، اشهدوا بأنا مسلمون ففي هذا وجوب إعلان بطلان ما عليه المشركون وعدم السكوت عن ذلك، والإعلان عن بطلان الشرك والرد علىٰ أهله.

والخلاصة:

أن لا إله إلا الله لها ركنان: هما النفي والإثبات، فإذا قيل لك: ما هي أركان (لا إله إلا الله)؟، فتقول: النفي والإثبات.

وشروطها سبعة لا تنفع إلا بهذه الشروط نظَّمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك ... مع محبة وانقياد والقبول لها

فالعلم: ضده الجهل، فالذي يقول: لا إله إلا الله بلسانه ويجهل معناها هذا لا تنفعه: لا إله إلا الله.

واليقين: فلا يكون عنده شَكٌّ؛ لأن بعض الناس قد يعلم معناها ولكن عنده شَكٌّ في ذلك، فليس عِلْمه بصحيح، لابد أن يكون عنده يقين بلا إله إلا الله، وأنها حقٌّ.

والإخلاص: ضده الشرك، بعض الناس يقول: لا إله إلا الله، ولكنه لا يترك الشرك، مثل ما هو الواقع الآن عند عُبَّاد القبور، هؤلاء لا تنفعهم لا إله إلا الله؛ لأن من شروطها تَرْكُ الشرك.

والصدق: ضده الكذب؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا الله، لكنهم كاذبون في قلوبهم، لا يعتقدون معناها، قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً

فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون:١، ٢].

والمحبة: أن تكون محبًّا لهذه الكلمة وليًّا لأهلها، أما الذي لا يحبها، أو لا يحب أهلها؛ فإنها لا تنفعه.

والانقياد: ضد الإعراض والترك، وهو الانقياد لما تدل عليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، ما دمت اعترفت وشهدت أنه لا إله إلا الله يلزمك أن تنقاد لأحكامه ودينه، أما أن تقول: لا إله إلا الله، ولا تنقاد لأحكام الله وشرعه؛ فإنها لا تنفعك: لا إله إلا الله.

والقبول: القبول المنافي للرد، بألَّا ترد شيئًا من حقوق: لا إله إلا الله، وما تدل عليه بل تقبل كل ما تدل عليه لا إله إلا الله، تتقبله تقبلًا صحيحًا.

وزيد شرط ثامن:

وزيد ثامنها الكفران بما ... مع الإله من الأشياء قد أُلها

أي: البراءة من الشرك، فلا يكون موحِّدًا حتىٰ يتبرأ من الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف:٢٦].

هذه شروط لا إله إلا الله، ثمانية شروط.

الركن الأول من أركان الإسلام مكون من شيئين:

الأول: شهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: شهادة أن محمدًا رسول الله.

فهما ركن واحد، الشِّقُّ الأول؛ يعني: الإخلاص في العبادة، والشق الثاني: يعني: متابعة الرسول ﷺ.

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

[شهادة أن محمداً رسول الله]

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ(١) عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨].

ومَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وألَّا يُعْبَدَ اللهُ إلَّا بِمَا شَرَعَ.

الشَّرح

❑ **قوله:** (وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ...):

■ وأدلة شهادة أن محمدًا رسول الله كثيرة: من الكتاب، والسنة، والمعجزات الباهرات الدالة علىٰ رسالته ﷺ.

ومن الكتاب هذه الآية، يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨]، **فهذه شهادة من الله لهذا الرسول ﷺ بالرسالة وبيان صفاته.**

---

(١) الخطاب للعرب عند جمهور المفسرين و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم في كونه عربيًّا قرشيًّا مثلكم تعرفون نسبه وحسبه؛ وقرئ (أنفس) أفعل تفضيل من النفاسة، والمراد: الشرف؛ أي: أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (ما): مصدرية، والعنت: التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار أو بمجموعهما، والمعنىٰ: شاقٌّ عليه عنتكم؛ لكونه من جنسكم ومبعوثًا لهدايتكم ﴿حَرِيصٌ﴾ شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، أو حريص علىٰ إيمانكم وهدايتكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فسمَّاه الله -تعالىٰ- رءوفًا رحيمًا، ولم يجمع لأحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه -تعالىٰ- إلا للنبي محمد ﷺ، وإذا كانت صفة النبي ﷺ هكذا ألم يكن عندنا رحمة وشفقة في دينه من العمل به وحث الناس علىٰ اتباعه والذب عن شريعته والمحافظة علىٰ أوامره ونواهيه؟ اللهم أهد الأُمة ووفِّقها لدينك المستقيم[الدمشقي].

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ (اللام): هذه لام القسم، ففيها قسم مقدر، تقديره: والله لقد جاءكم.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق وتأكيد بعد تأكيد.

﴿جَآءَكُمْ﴾: أيها الناس، هذا خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالته ﷺ عامة لجميع الثقلين: الإنس والجن.

﴿رَسُولٌ﴾: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، سُمِّي رسولًا؛ لأنه مرسل من قِبَل الله سبحانه وتعالى.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، وهذه سُنَّة الله سبحانه وتعالى أنه يرسل إلىٰ البشر رسلًا منهم من أجل البيان، ومن أجل أن يتخاطبوا معهم، ولأنهم يعرفونه.

لو أرسل إليهم ملكًا ما استطاعوا أن يتخاطبوا معه؛ لأنه ليس من جنسهم، وأيضًا لا يقدرون علىٰ رؤية الملك؛ لأنه ليس من جنسهم، من رحمته سبحانه وتعالى أن أرسل إلىٰ الناس رسولًا من جنسهم، بل ومن العرب ومن أشرف بيوت العرب نسبًا، من بني هاشم الذين هم أشرف أنساب قريش، وقريش أشرف أنساب العرب، فهو خيار من خيار يعرفونه، ويعرفون شخصه، ويعرفون نسبه، ويعرفون قبيلته، ويعرفون بلده، ولو كانوا لا يعرفونه فكيف يصدقونه؟! ولو كان بغير لغتهم فكيف يفهمون كلامه؟! ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

فقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾؛ يعني: شاقٌّ عليه ﷺ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾؛ يعني: ما يشقُّ عليكم، العنت معناه: التعب والمشقة، والرسول ﷺ يشقُّ عليه ما يشق علىٰ أُمته، وكان لا يريد لها المشقة وإنما يريد لها اليُسْر والسهولة.

ولذلك جاءت شريعته ﷺ سهلة سمحة، قال ﷺ: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**»[1]،

---

(١) سبق تخريجه.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]، فشريعته سهلة تتماشىٰ مع قدرة الناس واستطاعة المكلفين، ولا تُحمِّلهم ما لا يطيقون.

ولهذا كان النبي ﷺ يحب لهم التيسير، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان يحب أن يأتي بالعمل ويتركه شفقة بأُمته، يترك العمل وهو يحب أن يأتي به من الأعمال الصالحة من أجل ألَّا يشق علىٰ أُمته، هذه من صفاته، أنه يشق عليه ما يشق علىٰ أُمته، ويسرُّ بسرورها، ويفرح بفرحها، ومَنْ كانت هذه صفته فلا شكَّ أنه لا يأتي إلا بالخير والرحمة ﷺ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: علىٰ هدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلىٰ النور؛ ولذلك كان يتحمل المشاق في دعوة الناس طلبًا لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور حتىٰ قال الله له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣]؛ أي: لعلك مهلك نفسك ألا يكونوا مؤمنين من أجل الحزن عليهم، فلا تحزن عليهم، وهذا من كمال نُصْحه ﷺ.

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾؛ ﴿رَءُوفٌ﴾: من الرأفة وهي: الرفق واللطف.

﴿رَّحِيمٌ﴾: وصفه بالرحمة فليس بغليظ، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩].

كان ﷺ متواضعًا ليِّنًا مع المؤمنين، يخفض لهم جناحه ويستقبلهم بالبِشْر، والمحبة، والعطف، والإحسان، هذه من صفاته ﷺ.

ذكر الله خمس صفات في هذا الرسول ﷺ:

الأولىٰ: أنه منكم.

الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

الثالثة: حريص عليكم.

الرابعة: بالمؤمنين رءوف.

الخامسة: رحيم.

خمس صفات من صفات هذا النبي ﷺ وخصَّ المؤمنين بالرأفة والرحمة؛ لأنه ﷺ كان غليظًا علىٰ المشركين والمعاندين، يغضب لغضب الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة:٧٣]. الرحمة، والرأفة خاصة بالمؤمنين، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] هذه صفاته ﷺ.

❑ **قوله**: (ومَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ...):

■ شهادة أن محمدًا رسول الله لها معنىٰ ومقتضىٰ ليست لفظًا يقال فقط، فمعناها: أن تعترف بلسانك، وبقلبك: أنه رسول الله، تنطق بلسانك وتعتقد ذلك بقلبك أنه رسول الله ﷺ.

أما التلفظ باللسان والإنكار بالقلب فهذه طريقة المنافقين كما أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:١، ٢] جعلوا أيمانهم؛ أي: شهاداتهم سُتْرة يستترون بها، فصدوا عن سبيل الله، فدل علىٰ أن النطق باللسان لا يكفي.

وكذلك اعتقاد القلب مع عدم النطق باللسان لمَنْ يقدر علىٰ النطق أيضًا لا يكفي، فإن المشركين يعلمون أنه رسول الله لكنهم يعاندون، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣]، فهم بقلوبهم يعترفون بالرسالة، ويعرفون أنه رسول الله، لكن منعهم الكِبْر، ومنعهم العناد من الإقرار برسالته.

وكذلك منعهم الحسد، كما عند اليهود، وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل -

عمرو بن هشام- يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل الأمور، لكنهم قالوا: منا رسول وليس منكم رسول، من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدًا لبني هاشم. ويقول أبو طالب في قصيدته:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينَا
لولا الملامة أو حِذَار مسبَّة لوجدتني سمحًا بذاك مبينَا

يعترف بقلبه برسالة محمد، لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه، فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله بل لابد أن ينطق بلسانه.

ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب، بل لابد من أمر ثالث وهو الاتباع، قال الله تعالىٰ فيه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧] حتىٰ لو نصره مثل أبي طالب وحامىٰ دونه، وهو يعرف أنه رسول الله لكن لم يتبعه، فإنه ليس بمسلم حتىٰ يتبعه؛ ولهذا قال الشيخ: ومعنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وألَّا يعبد الله إلا بما شرع.

فلابد مع الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا واعتقادًا، ولابد من اتباعه ﷺ ويتلخص ذلك في هذه الأربع كلمات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأولى: طاعته فيما أمر: يقول الله -جل وعلا-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. فقرن طاعة الرسول مع طاعته ﷻ، وقرن معصية الرسول مع معصيته ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن:٢٣]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النور:٥٦].

فلابد من طاعته ﷺ، فالذي يشهد أنه رسول الله تلزمه طاعته فيما أمر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]، عن أمره؛ أي: عن أمر الرسول فلابد من طاعة الرسول ﷺ.

الثانية: تصديقه فيما أخبر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر عن أمور كثيرة مغيبة، أخبر عن الله، وعن الملائكة، وأخبر عن أمور غائبة، وأخبر عن أمور مستقبلة؛ من قيام الساعة، وأشراط الساعة، والجنة والنار، وأخبر عن أمور ماضية عن أحوال الأمم السابقة، فلابد من تصديقه فيما أخبر؛ لأنه صِدْقٌ لا كَذِبَ فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣،٤].

الرسول ﷺ لا يتكلم بهذه الأخبار، أو هذه الأوامر والنواهي، لا يتكلم بشيء من عنده -عليه الصلاة والسلام-، إنما يتكلم بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، فأخباره صِدْق، ومَنْ لم يصدقه فيما أخبر فليس بمؤمن ولا صادق في شهادته أنه رسول الله، كيف يشهد أنه رسول الله ويكذبه في أخباره؟! كيف يشهد أنه رسول الله ولا يطيع أمره؟!

الثالثة: اجتناب ما نهىٰ عنه وزجر: اجتنب ما نهاك عنه الرسول ﷺ؛ نهاك عن أقوالٍ وأفعالٍ وصفات كثيرة، ولا ينهىٰ ﷺ إلا عن شيء فيه ضرر وفيه شرٌّ، ولا يأمر إلا بشيء فيه خير وفيه بِرٌّ، فإذا لم يجتنب ما نهىٰ عنه رسول الله ﷺ لم يكن شاهدًا له بالرسالة بل صار متناقضًا، كيف يشهد أنه رسول الله ولا يجتنب ما نهاه عنه الرسول ﷺ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

قال ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١).

فلابد من اجتناب ما نهىٰ عنه ﷺ.

الرابعة: ألَّا يُعبد الله إلا بما شرع: تقيد في العبادات بما شرعه الله لرسوله ﷺ، فلا تأت بعبادة لم يشرعها الرسول ﷺ وإن كان قصدك حسنًا، وإن كنت تريد الأجر، لكن هذا عمل باطل؛ لأنه لم يأت به الرسول ﷺ، النية لا تكفي، بل لابد من الاتباع.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالعبادات توقيفية، لا يجوز الإتيان بعبادات لم يشرعها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»** [(١)]، وقال ﷺ: **«عليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»** [(٢)].

فالإتيان بعبادة لم يشرعها رسول الله ﷺ تعتبر بدعة منكرة منهيًّا عنها، وإن قال بها فلان أو فلان، أو فعلها مَنْ فعلها من الناس ما دامت خارجة عما جاء به الرسول ﷺ فإنها بدعة وضلالة، فلا يُعبد الله إلا بما شرع علىٰ لسان رسوله، والمحدثات والخرافات كلها عمل باطل ونقص وضلال علىٰ مَنْ أتىٰ بها، وإن كان يقصد بها الخير ويريد الأجر، فإن العِبْرة ليست بالمقاصد، وإنما العِبْرة بالاتباع والطاعة والانقياد، ولو كنا أحرارًا نأتي بما نشاء ونستكثر من العبادات ما نشاء لما احتجنا إلىٰ بعثة الرسول ﷺ.

ولكن من رحمة الله بنا لم يكلنا إلىٰ عقولنا، ولم يكلنا إلىٰ فلان وعلان من الناس؛ لأن هذه الأمور مردُّها إلىٰ الشرع، إلىٰ الله ورسوله، ولا ينفع منها إلا ما كان موافقًا لما شرعه الله ورسوله، ففي هذا الابتعاد عن جميع البدع، ومن ابتدع شيئًا في الدِّين لم يأت به الرسول ﷺ؛ فإنه لم يشهد أنه رسول الله، لم يشهد الشهادة الحقيقية؛ لأن الذي يشهد أنه رسول الله ﷺ شهادة حقيقية يتقيد بما شرعه، ولا يُحْدِث شيئًا من عنده، أو يتبع شيئًا محدثًا ممن سبقه.

هذا معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ليست ألفاظًا تقال باللسان فقط من غير التزام ومن غير عمل، ومن غير تقيد بما جاء به هذا الرسول ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والترمذي (٢٦٧٦)، وغيرهم من حديث العرباض رضي الله عنه وصحَّحه العلَّامة الألباني في «الصحيحة» (٩٣٧)، وفي «المشكاة» (١٦٥).

[الأركان العملية للإسلام]

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ[١] وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[٢] [البينة:٥].

دَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ[٣] عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ[٤] عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

ودَلِيلُ الحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

الشَّرح

❑ **قوله**: (وَدَلِيلُ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ):

■ فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث وهي قرينة الصلاة في كتاب الله، الصلاة عمل بدني، والزكاة عمل مالي.

وقد قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**والله لأقاتلن مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة**»[٥] لما امتنع أُناس من دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ، قاتلهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: «**والله لأقاتلن مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالًا** -وفي رواية: **عناقًا**- **كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه**»[٦].

---

(١) أي: متنحين عن الشرك إلىٰ التوحيد[الدمشقي].

(٢) أي: القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة[الدمشقي].

(٣) أي: الفرض[الدمشقي].

(٤) أي: كما فرض علىٰ الأمم السابقة فهو مشروع قديمًا[الدمشقي].

(٥) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٦) انظر: ما قبله.

فالزكاة حقٌّ واجب في الأموال، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في كثير من الآيات ومنها هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥].

دليل التوحيد في أولها في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، وهو عبادة الله مع الإخلاص له وترك عبادة ما سواه، فالدِّين والتوحيد والعبادة بمعنىٰ واحد.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة، هذا تفسير التوحيد، لا كما يقوله علماء الكلام: إنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت هذا توحيد الربوبية، والمطلوب هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا يصير المسلم مسلمًا إلا إذا جاء به.

أما مَنْ جاء بتوحيد الربوبية فقط فهذا ليس مسلمًا بدليل أن المشركين يعتقدونه وينطقون به ويعترفون به؛ ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يُمنع من قتلهم، وسبي أموالهم توحيدهم هذا؛ لأنهم ليسوا موحِّدين لما أشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ في العبادة، هذا هو تفسير التوحيد من كتاب الله لا من كتاب فلان وعلان؛ كـ: كتاب «الجوهرة» أو كتاب «المواقف» أو كتب علماء الكلام، لا يؤخذ تفسير التوحيد من هذه الكتب، وإنما يؤخذ من كتاب الله ومن سُنة رسول الله ﷺ، ومن كتب أهل السنة والجماعة الذين يتمسكُّون بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

ودليل الصلاة في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والمعنىٰ: أن يأتوا بها كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بشروطها، وأركانها، وواجباتها، أما مجرد صورة الصلاة فإنها لا تكفي؛ ولهذا لم يقل: ويصلوا، بل قال: ويقيموا الصلاة، ولا تكون الصلاة قائمة إلا إذا أتىٰ بها كما أمر الله تَعَالَىٰ، أما الذي يصلي مجرد صورة في أي وقت يشاء، أو بدون طهارة وبدون طمأنينة، ولا يأتي بمتطلبات الصلاة، هذا لم يصلِّ؛ ولهذا قال ﷺ للمسيء في صلاته الذي لا يطمئن في صلاته قال له: «**ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ**»[١] ليس مقصودًا صورة

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصلاة من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وجلوسٍ فقط، ليس هذا المقصود، بل المقصود: أن يُؤتىٰ بها كما شرع الله ﷻ مستوفية لكل متطلباتها الشرعية.

ثم ذكر دليل الزكاة بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يدفعوا الزكاة للمستحقين لها، الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة:٦٠].

ذكر ثمانية مصارف وحصرها بـ«إنما»، فلا يكون صرفها في غير هذه المصارف الثمانية، فمَنْ صرفها في غير مصارفها الثمانية لم يكن قد آتىٰ الزكاة ولو أنفق أموالًا طائلة ملايين أو مليارات وسمَّاها زكاة، ولا تكون زكاة حتىٰ تُوضع في مواضعها التي حصرها الله تعالىٰ فيها، هذا معنىٰ إيتاء الزكاة.

وأيضًا في وقتها؛ أي: يخرجها وقت وجوبها لا يتباطأ ويتأخر ويتكاسل، طيبة بها نفسه؛ أي: لا يعتبرها مغرمًا أو خسارة، وإنما يعتبرها مغنمًا له.

هذه الأمور الثلاثة هي: ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥] الدِّين: الملة، القيمة: صفة لموصوف محذوف تقديره: دين الملة القيمة؛ أي: المستقيمة.

هذا دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد.

❑ **قوله:** (دَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾):

■ الصيام لا يجب إلا علىٰ المسلمين، أما الكفار لو فعلوه ما صحَّ منهم حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ما داموا علىٰ الكفر؛ فإنهم لا تنفعهم العبادات لا صيام ولا غير صيام؛ ولذلك خاطب به المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يستجيبون، وهم الذين يصحُّ منهم الصيام، ويقبل منهم الصيام.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] معنىٰ كُتب: فُرض، مثل قوله تعالىٰ:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾[البقرة:٢١٦]؛ يعني: فُرض عليكم القتال، فالكَتْبُ في كتاب الله معناه الفرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة:١٨٣]؛ أي: كما فُرض علىٰ الذين من قبلكم من الأمم، فدل علىٰ أن الصيام كان معروفًا عند الأمم السابقة وفي الشرائع القديمة، ولم تختص به شريعة محمد ﷺ.

والنفس قد تتثاقل الصيام لما فيه من كبح جماحها ومنعها من الشهوات، والله - جل وعلا - بيَّن أنه سُنته في خَلْقه، وأنه علىٰ جميع الأمم، حتىٰ في الجاهلية كان الصيام معروفًا، كانوا يصومون يوم عاشوراء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[البقرة:١٨٣]، هذا بيان للحكمة من الصيام، فلعلكم تتقون: بيان للحكمة في مشروعية الصيام، وهو أنه يسبب التقوىٰ؛ لأن الصيام يترك به الإنسان مألوفاته وشهواته ومرغوباته تقرُّبًا إلىٰ الله ﷻ فيكسبه التقوىٰ، كما أنه يكسر -أيضًا- شهوة النفس وحدَّتها؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، فمع تناول الشهوات يتسلط الشيطان، ومع ترك الشهوات يضعف مجرىٰ الدم فيطرد الشيطان عن المسلم، ففي الصيام حصول التقوىٰ التي هي جُمَاع الخير كله.

فهذه فائدة الصيام: أنه يسبب التقوىٰ، تقوىٰ الله ﷻ، واتقاء المحارم والشهوات المحرمة؛ لأن الإنسان إذا ترك المباحات طاعة لله كان من باب أولىٰ أن يترك المحرمات، الصيام يدربه علىٰ تجنب الحرام، ويدربه علىٰ التمكُّن من نفسه الأمارة بالسوء، ويطرد عنه الشيطان، ويُلَيِّن قلبه للطاعة.

ولذلك تجد الصائم أقرب إلىٰ الخير من المفطر: تجده يحرص علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الصلاة، ويذهب إلىٰ المسجد مبكرًا، الصيام ليَّنه للطاعة وهذَّبه، كل هذا داخل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

فالشاهد من الآية قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هذا دليل علىٰ فرضية الصيام، وفسَّره بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة:١٨٥]؛ لأن قوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مجمل فسره بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

❑ **قوله:** (ودَلِيلُ الحَجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾):

■ ادعىٰ اليهود أنهم مسلمون، وأنهم علىٰ دين إبراهيم، فامتحنهم الله -جل وعلا- في هذه الآية، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[آل عمران:٩٧]، فإن كنتم مسلمين فحجُّوا؛ لأن الله فرض حج البيت علىٰ المسلمين، فإذا لم تحجوا، وأبيتم الحج؛ فهذا دليل علىٰ أنكم لستم مسلمين، ولستم علىٰ ملَّة إبراهيم ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾؛ أي: هذا فرض وحقٌّ وواجب لله ﷻ علىٰ الناس.

حجّ: معناه في اللغة: القصد.

الحج شرعًا: قصد الكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة في وقت مخصوص لأداء عبادات مخصوصة، وهي مناسك الحج.

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: الكعبة، وما حولها من المشاعر تابع لها.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: هذا بيان شرط الوجوب، وهو الاستطاعة البدنية والاستطاعة المالية؛ الاستطاعة البدنية: بأن يكون قادرًا علىٰ المشي، والركوب، والانتقال من بلده إلىٰ مكة في أي مكان من الأرض، هذه البدنية، يخرج العاجز عجزًا مستمرًّا كالمريض مرضًا مُزْمنًا والكبير الهَرَم، فهذا ليس عنده استطاعة بدنية، فإن كانت عنده استطاعة مالية فإنه ينيب مَنْ يحج عنه حجَّة الإسلام.

أما الاستطاعة المالية فهي: توفر المركب الذي ينقله؛ الراحلة، أو السيارة، أو الطيارة، أو الباخرة، كلٌّ وقت بحسبه، ويكون عنده مال يستطيع أن يُوفِّر له المركب الذي يمتطيه؛ لأداء الحج، وأيضًا الزاد: يكون عنده زاد ونفقة له في السفر ذهابًا وإيابًا، ولمَنْ يمونهم يكون عندهم كفايتهم إلىٰ أن يرجع إليهم، فالزاد معناه: أن يكون عنده ما

يكفيه في سفره، ويكفي مَنْ يمون من أولاده ووالديه وزوجته، وكل مَنْ تلزمه نفقته، يُؤمِّن لهم ما يكفيهم حتىٰ يرجع إليهم بعد تأمين سداد الديون إن كان عليه ديون، يكون هذا المال فاضلًا بعد سداد الديون. فإذا توفر هذا فيكون هذا هو السبيل، «**الزاد والراحلة**»[١] كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ومَنْ لم يستطع؛ أي: مَنْ ليس عنده زاد ولا راحلة فليس عليه حجٌّ؛ لأنه غير مستطيع، فشرط وجوب الحج هو الاستطاعة.

ولما كان الحجُّ يؤتىٰ إليه من بعيد من كل أقطار الأرض، من كل فجٍّ عميق، ويحتاج إلىٰ مؤنة، وفيه مشقة وتعب، وقد يحصل فيه أخطار، فمن رحمة الله أن جعله في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع، هذا من رحمة الله تَعَالَىٰ؛ حيث لم يوجبه علىٰ المسلم كل سنة، كما قال النبي ﷺ: إن الله فرض عليكم الحج فحجُّوا، قال الأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أكل سنة يا رسول الله؟ فسكت عنه الرسول ﷺ، ثم أعاد السؤال، فسكت عنه النبي ﷺ، ثم أعاد السؤال، فقال النبي ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، الحج مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع**»[٢]. هذا من رحمة الله.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ فيه دليل علىٰ أن من امتنع عن الحج وهو يقدر ولم يحجَّ فإنه كافر؛ لأن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: مَنْ أبىٰ أن يحج وهو قادر علىٰ الحج، فإن هذا كُفْر، قد يكون كفرًا أصغر، فمَنْ تركه جاحدًا لوجوبه هذا كُفْر أكبر بإجماع المسلمين.

أما من اعترف بوجوبه وتركه تكاسلًا فهذا كُفْر أصغر، ولكن إذا تُوفي وكان له مال فإنه يحج من تركته؛ لأنه دَين عليه لله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الآية فيها وجوب الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، وبيَّن الرسول ﷺ أنه ركن من أركان الإسلام في حديث جبريل، وفي حديث ابن عمر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعَّفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

(٢) سبق تخريجه.

وقد فُرِضَ الحجُّ في السنة التاسعة على قول، ولم يحجَّ النبي ﷺ في هذه السنة، وإنما حج في السنة التي بعدها في السنة العاشرة، لماذا؟ لأنه ﷺ أرسل عليًّا ينادي في الناس في الموسم: «**ألَّا يحجَّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»[١]. فلما مُنِعَ المشركون والعُرَاة من الحج في العام العاشرحجَّ النبي ﷺ حجة الوداع.

(١) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[المرتبة الثانية: الإيمان]

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإيمَانُ، وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إلهَ إلَّا الله، وأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذَىٰ عَن الطَّرِيق، والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤمِن بالله، ومَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْم الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ.

والدَّلِيلُ عَلَىٰ هذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

الشَّرْح

❑ **قوله:** (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإيمَانُ وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً...):

■ فالإيمان أعمُّ من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان أعمُّ من جهة نفسه، وأخصُّ من جهة أهله.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالىٰ علىٰ لسان إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[يوسف:١٧]؛ أي: بمصدِّق لنا.

وأما الإيمان في الشرع: فهو كما فسره أهل السنة والجماعة: قولٌ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وهو بهذا التفسير يكون حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عُرْفية.

فتفسير الإيمان بهذا التفسير هو حقيقة شرعية، فالإيمان نقل من المعنىٰ اللُّغوي إلىٰ المعنىٰ الشرعي.

فالإيمان: قولٌ باللسان، لابد من النطق والاعتراف باللسان، واعتقاد بالقلب، لابد من أن يكون ما ينطق به بلسانه معتقدًا له بقلبه، وإلا كان مثل إيمان المنافقين الذين: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

ولا يكفي القول باللسان والاعتقاد بالقلب، بل لابد من العمل بالجوارح أيضًا، لابد من أداء الفرائض، وتجنب المحرمات، فيفعل الطاعات، ويتجنب المحرمات، كل هذا من الإيمان، وهو بهذا التعريف يشمل الدِّين كله، لكن هذه الطاعات والشرائع الكثيرة منها ما هو جزء من حقيقة الإيمان، ومنها ما هو مكملات للإيمان.

والإيمان له أركان وله شُعَب، وقد بيَّنها النبي ﷺ في حديثين، بيَّن أركان الإيمان في حديث جبريل، وبيَّن شُعب الإيمان في حديث: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»[1]، وهذا يأتي إن شاء الله.

والإيمان والإسلام إذا ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنىً، وإذا ذكر منهما واحد فقط دخل في الآخر، فإذا ذكرا جميعًا فُسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وفُسِّرَ الإيمان بالأعمال الباطنة، وهي الأركان الستة، ومحلُّها القلب، ولابد من اجتماعها في المسلم، لابد أن يكون مسلمًا مؤمنًا، يقيم أركان الإسلام، ويقيم أركان الإيمان، لابد من اجتماعها.

قال ﷺ : «**الإيمان بِضْع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة**»، روايتان.

قوله: «بِضْع»: البِضْع: هو ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة، فإذا قيل: بضعة عشر: هو ما بين ثلاثة عشر إلىٰ تسعة عشر، وإذا قيل: بضع فقط فهو ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة.

قوله: «شعبة»: الشعبة هي القطعة من الشيء؛ أي: أن الأركان بضع وسبعون قطعة أو جزءًا.

قوله: «أعلاها»؛ أي: أعلىٰ هذه الشعب قول: لا إله إلا الله، فهي رأس الإسلام، ورأس الإيمان، وهي الركن الأول، وهي مدخل الدِّين.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: «أدناها»؛ أي: آخرها وأقلها.

قوله: «إماطة الأذىٰ عن الطريق»؛ أي: إزالة الأذىٰ عن الطريق المسلوك، والأذىٰ: كل ما يؤذي الناس من شوك أو حجر أو قاذورات أو مخلَّفات، كل ما يؤذي الناس في طريقهم، ووضع الأذىٰ في الطريق محرَّم؛ لأن الطريق للمارة، فالأذىٰ يُعطِّل المارة، أو يُعرِّضهم للخطر، مثل: أن يوقف سيارته في الطريق، هذا من الأذىٰ، إرسال الماء من البيت في الطريق، هذا من الأذىٰ، وضع القمامات في الطريق هذا من الأذىٰ، سواء كان الطريق في البلد أو في البر، وضع الحجارة، وضع الأخشاب، وضع الحديد بطرقات الناس، حَفْر الحُفَر في طرقات الناس، كل هذا من الأذىٰ.

فإذا جاء مسلم وأزاح هذا الأذىٰ: أخلىٰ الطريق منه فهذا دليل علىٰ إيمانه، فوضع الأذىٰ في الطريق من شُعَب الكفر، وإزالة الأذىٰ عن الطريق من شعب الإيمان.

قوله: «والحياء شعبة من الإيمان»؛ الحياء: خُلُق يجعله الله في الإنسان، يحمله علىٰ فعل ما يُجمِّله ويُزيِّنه، ويمنعه مما يدنسه ويشينه، والحياء الذي يحمل صاحبه علىٰ الخير، ويبعده عن الشرِّ، هذا محمود، أما الحياء الذي يمنع الإنسان من فعل الخير، وطلب العلم، والسؤال عما أُشْكِل عليه، فهذا حياء مذموم؛ لأنه خجل.

وشعب الإيمان كثيرة كما عرفتم: بضع وسبعون، وقد كتب الإمام البيهقي مؤلَّفًا كبيرًا، بيَّن فيه شعب الإيمان، وله مختصر مطبوع.

ومن أدلة العلماء علىٰ أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قوله ﷺ: «**أعلاها: لا إله إلا الله**»، هذا يدل علىٰ القول، وقوله ﷺ: «**أدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، هذا عمل دل علىٰ أن الأعمال من الإيمان، وقوله ﷺ: «**الحياء شُعْبة من الإيمان**»، هذا في القلب، الحياء إنما يكون في القلب، فهذا دليل علىٰ أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

❑ **قوله**: (وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ أَنْ تُؤمِن بالله):

■ **الإيمان يتكون من أركان وشُعَب، فما الفرق بينهما؟**

الفرق: أن الأركان لابد منها، فإذا زال واحد منها زال الإيمان؛ لأن الشيء لا يقوم إلا علىٰ أركانه، فإذا فُقِدَ ركن من أركان الشيء لم يتحقق، وأما الشعب فإنها مكملات، لا يزول الإيمان بزوال الشيء منها، لكنها مكملات؛ إما واجبات أو مستحبات، فالواجبات لكمال الإيمان الواجب، والمستحبات لكمال الإيمان المستحب.

فإذا ترك المسلم شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، فإنه لا يزول إيمانه بالكُلِّيَّة عند أهل السنة والجماعة، ولكن يزول كماله الواجب، فيكون ناقص الإيمان أو فاسقًا، كما لو شرب الخمر أو سرق أو زنىٰ، أو فعل شيئًا من الكبائر، هذا يكون فاعلًا لمحرَّم وكبيرة من كبائر الذنوب، لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان، بل يكون فاسقًا، ويُقامُ عليه الحدُّ إن كانت المعصية ذات حدٍّ.

وكذلك مَنْ ترك واجبًا، كمَنْ ترك بِرَّ الوالدين، أو صلة القرابة، هذه واجبات، فمَنْ تركها نقص إيمانه، وكان عاصيًا بترك الواجب، فيكون عاصيًا؛ إما بترك الواجب، وإما بفعل محرَّم، وعلىٰ كل حال لا يخرج من الإيمان، وإنما يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة اللذين يُكفِّران مرتكب الكبيرة.

فالخوارج يكفرونه ويخرجونه من الدِّين.

والمعتزلة يخرجونه من الدِّين، لكن لا يدخلونه في الكفر، وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين، لا هو مؤمن، ولا كافر.

هذا مذهبهم، وهو مذهب مبتدع، مخالف للأدلة، ومخالف لما هو عليه أهل السنة والجماعة، والسبب في ذلك تقصيرهم في الاستدلال؛ حيث أخذوا أدلة الوعيد، وتركوا أدلة الوعد مثل: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، هذه من أدلة الوعد، دلَّت علىٰ أن العاصي الذي لم يصل إلىٰ حدِّ الشرك والكفر أنه مرجو له المغفرة، ومعرَّض للوعيد والعقوبة.

فإذا جمعت بين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ

فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢٣]، مَنْ أخذ بظاهرها كفر بالمعصية مطلقًا، وإن ردَّها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] تبين له الحق، وأنه لا يخرج من الدين، ولكنه مُتوعَّد بالنار، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذَّبه، فقد يأتي عليه مُكفِّرات في الدنيا، أو عذاب في القبر، تكفر هذه السيئات.

والمكفِّرات كثيرة، يُبتلىٰ بمصائب، يُبتلىٰ بعقوبات في الدنيا، أو يعذب في قبره، أو يؤجل إلىٰ يوم القيامة، ويكون تحت المشيئة.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفرق بين الشُّعَب والأركان، فمَنْ ترك شيئًا من الأركان فإنه يكفر، مَنْ جحد التوحيد وأشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هذا يكفر؛ لأنه ترك الركن الأول، ومَنْ جحد أحد الرسل يكفر؛ لأنه ترك ركنًا من أركان الإسلام، ومَنْ جحد الملائكة يكفر ويخرج من المِلَّة، ومَنْ كفر بالبعث، أو جحد الجنة أو النار أو الصراط أو الميزان، أو شيئًا مما ثبت من أمور الآخرة فإنه بذلك يكفر؛ لأنه أنكر ركنًا من أركان الإيمان.

كذلك مَنْ جحد القَدَر وقال: الأمر أنف، ولم يسبق قدر من الله، إنما هي المصادفة، والأمور بالصدفة، وليس هناك قَدَرٌ، كما يقوله غُلَاة المعتزلة، فإنه يكفر أيضًا؛ لأنه جحد القدر، أما مَنْ ترك شيئًا من الشُّعَب فإن هذا ينقص إيمانه؛ إما أن يكون نقصًا لكماله الواجب، أو نقصًا لكماله المستحب، لكنه لا يكفر بذلك.

وما دليل الزيادة والنقصان في الإيمان؟

أما دليل الزيادة: فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[الأنفال:٢] ، فدل علىٰ أن الإيمان يزيد بسماع القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[التوبة:١٢٤] .

دلَّ علىٰ أن الإيمان يزيد بنزول القرآن وسماعه وتدبره، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، فدل علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعات والتصديق.

وأما النقصان: فإن كل شيء يزيد فإنه ينقص، كل شيء قابل للزيادة، فإنه قابل للنقص هذا من ناحية.

ودل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله تبارك يوم القيامة يقول: أخرجوا من النار مَنْ كان في قلبه مثقال حبَّة من خردل من إيمان**»[(١)]، فدل علىٰ أن الإيمان ينقص حتىٰ يكون علىٰ وزن خردل في القلب، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، دل علىٰ أن الإيمان ينقص حتىٰ يكون أقرب إلىٰ الكفر، وفي قوله ﷺ: «**مَنْ رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(٢)]، دل علىٰ أن الإيمان يضعف؛ أي: ينقص، فالإيمان إذًا يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قوله: «وأركانه ستة»؛ أي: دعائمه التي يقوم عليها، ويفقد بفقدها أو بفَقْدِ واحد منها ستة أركان، وهي:

الأول: أن تؤمن بالله: فالركن الأول وهو الإيمان بالله، يشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد، لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

الثاني: الإيمان بالملائكة: والملائكة جمع مَلَك، وأصله ملأك، ثم سُهِّل وقيل: ملك، والملائكة خَلْق من خَلْق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته، ولتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى في ملكه، وهم أصناف، كل صنف له عمل موكَّل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فمنهم مَنْ هو موكَّل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩)، والترمذي (٢١٧٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أشرف الملائكة، وهو الروح الأمين، شديد القوىٰ، ومنهم مَنْ هو موكَّل بحَمْل العرش ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر:٧]، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة:١٧].

العرش هو أعظم المخلوقات، ولا يعلم عِظَمَه إلا الله عَزَّوَجَلَّ يحمله الملائكة، وهذا دليل علىٰ عِظَم الملائكة، وعِظَم قواهم وخِلْقهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر:١]، فمنهم مَنْ له ستمائة جناح كجبريل -عليه الصلاة والسلام-، فلا يعلم عِظَم خِلْقتهم إلا الله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء:٢٦،٢٧].

ومنهم: الموكَّل بالقَطْر والنبات، وهو ميكائيل.

ومنهم: مَنْ هو موكَّل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل، ينفخ في الصُّور، فيهلك كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، ثم ينفخ فيه مرة ثانية، فتطير الأرواح في أجسادها ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر:٦٨].

تطير الأرواح من القرن وهو الصُّور إلىٰ أجسادها، وتدخل فيها، فيحيون بإذن الله، ثم يسيرون إلىٰ المحشر.

ومنهم: مَنْ هو موكَّل بقَبْض الأرواح عند نهاية آجالها، وهو ملك الموت، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة:١١]، ومعه أعوان من الملائكة: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام:٦١]؛ يعني: أعوان ملك الموت.

ومنهم: مَنْ هو موكَّل بالأجنة في الأرحام، قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أُمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك،**

ثم يرسل إليه الملك»[١] . الحديث.

ومنهم: الموكَّلون بحفظ أعمال بني آدم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:١٠،١١]، يلازمونكم بالليل والنهار.

قال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار**»[٢] ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ويشهدون للمصلين عند الله ﷻ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء:٧٨] أي: يحضره الملائكة؛ ملائكة الليل وملائكة النهار.

ومنهم: مَنْ هو موكَّل بحَفْظ بني آدم من المكاره، يحفظونه من الآفات، ومن الأعداء ومن الهوام ومن السِّباع ومن الأفاعي والحيات، ما دام له بقية حياة فإن له ملائكة يحفظونه من الأخطار.

ينام بين السباع وبين الحيات في البرِّ، من الذي يدفع عنه الحيات والسباع والهوام؟ معه ملائكة سخرهم الله ﷻ، قال الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]؛ أي: بأمر الله هؤلاء يحفظون بني آدم من المكاره والأخطار إلىٰ أن يحين الأجل، فإذا حان الأجل تخلوا عنه، فوقع ما قدَّر الله له من الموت، أو الإصابة التي تُفْضي إلىٰ الموت.

ومنهم: ملائكة مُوكَّلون بتنفيذ الأوامر في أقطار السماوات والأرض، لا يعلمهم إلا الله ﷻ.

منهم: ملائكة يطلبون مجالس الذِّكْر ويحضرونها، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة**»[٣]. ملائكة سياحون في الأرض،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وابن ماجه (٢٢٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يطلبون حِلَق الذِّكْر ويشهدونها.

ولا يعلم الملائكة وأصنافهم وأوصافهم إلا الله، لكن ما جاء في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أثبتناه واعتقدناه، وما لم يذكر لنا نمسك عنه ولا نبحث فيه؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا ندخل فيه إلا بدليل.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإسلام، فمَنْ جحد الملائكة وقال: لا يوجد ملائكة لأننا لا نراهم، هذا يكون كافرًا ملحدًا زنديقًا -والعياذ بالله-؛ لأنه لم يؤمن بالغيب، وكذلك الذي يؤول الملائكة فيقول: الملائكة إنما هي معانٍ وليست أجسامًا، وهي الهواجس التي تأتي علىٰ الإنسان، إن كانت هواجس خير فهي ملائكة، وإن كانت هواجس شرٍّ فهي شياطين، فهذا قول إلحادي -والعياذ بالله-، ومع الأسف هو في «تفسير المنار» نقله محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده.

وهذا كلام الفلاسفة، وهو كلام باطل، من اعتقده فهو كافر، لكن نرجو أنه نقله ولم يعتقده لكن نقله من غير تعقيب فيه خطورة، وهذا كلام باطل وكُفْر بالملائكة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالإنسان لا يدخل بعقله وتفكيره، أو ينقل عن الفلاسفة، أو عن الزنادقة شيئًا من أمور الدين وأمور الغيب، وإنما يعتمد علىٰ الكتاب والسنة هذا هو الواجب، ويذكر في «تفسير المنار» أنه منقول من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، والله أعلم.

وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي فيه طوام وفيه بلايا، وإن كان فيه شيء من الخير والفوائد، لكن فيه من المهلكات والسموم الشيء الكثير، وهو كتاب مختلط، شرُّه أكثر من خيره، فلا يليق بالمبتدئ أو العامي أن يطالع فيه إلا إذا كان عنده علم وتمييز بين الحق والباطل.

والملائكة ليسوا معانٍ كما يقول، بل الملائكة أجسام وأشكال، يتشكلون بأشكال أعطاهم الله القدرة عليها؛ ولهذا كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل، فأعطاهم الله القدرة علىٰ التشكل في أشكال من أجل مصلحة بني آدم؛ لأن بني آدم لا

يطيقون رؤية الملائكة على خِلْقتهم التي خلقهم الله عليها، وإنما يأتون إلى النبي ﷺ في صورة رجل رفقًا ببني آدم، ولا يرون على صورتهم وحقيقتهم إلا عند العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، وعند الموت يعاينهم الإنسان، يرى ملائكة الموت، لكن في الدنيا وعلى قيد الحياة لا يراهم؛ لأنه لا يطيق رؤيتهم؛ خلقهم الله من نور، وخلق الشياطين من نار كما في القرآن، وخلق آدم من تراب، فالله على كل شيء قدير.

والكفار يعتقدون أن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩].

الثالث: الإيمان بكُتبه: وهي الكتب التي أنزلها الله على الرسول لهداية البشر، نؤمن بأنها كلام الله حقيقة، ونؤمن بما سمَّى الله منها وما لم يسمِّ، سمَّى الله لنا منها التوراة والإنجيل والقرآن العظيم وصحف إبراهيم وموسى والزبور، فنؤمن بها.

ونؤمن بما لم يسمه الله منها، فالإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانًا مجملًا، والإيمان بالقرآن يكون إيمانًا مفصلًا بكل ما فيه؛ لأنه كتابنا، وأُنزل على نبينا محمد ﷺ؛ فمَنْ جحد آية أو حرفًا من حروفه فهو كافر مرتدٌّ عن الإسلام.

وكذلك مَنْ آمن ببعض القرآن وكفر ببعض فهو كافر، وكذلك مَنْ آمن ببعض الكتب وكفر ببعض فهو كافر، ومَنْ قال: أنا أؤمن بالقرآن ولا أؤمن بالتوراة والإنجيل فهو كافر، أو قال: أؤمن بالتوراة والإنجيل ولا أؤمن بالزبور الذي أُنزل على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو كافر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]، أو أنكر صحف إبراهيم فهو كافر؛ لأنه مكذبٌ لله عَزَّوَجَلَّ ومكذِّب لرسله، فهو كافر؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان.

الرابع: الإيمان برسله: الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم، مَنْ سمَّى الله منهم ومَنْ لم يسمِّ، نؤمن بهم جميعًا، وأنهم رسل الله حقًّا، جاءوا بالرسالة، وبلغوها لأممهم.

فمَنْ كفر بنبيٍّ واحد فهو كافر بجميع الرسل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥٢].

فالكفر بنبيٍّ واحد أو برسول كُفْرٌ بالجميع؛ ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنهم كذبوا نوحًا، فتكذيبهم لنوح صار تكذيبًا لبقية المرسلين، وكذلك مَنْ كفر بعيسىٰ ومحمد كاليهود، أو كفر بمحمد كالنصارىٰ، فإنه كافر بالجميع، لابد من الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، مَنْ سمَّىٰ الله منهم ومَنْ لم يسمِّ.

وقد سمَّىٰ الله منهم، كما في سورة (الأنعام): ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦] ، فذكر جملة منهم في هذه الآيات، وفي آيات أخرىٰ، فنؤمن بمَنْ سمَّىٰ الله منهم، ونؤمن بمَنْ لم يسمِّ الله منهم.

الخامس: اليوم الآخر: الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس، واليوم الآخر المراد به: يوم القيامة، سُمِّي باليوم الآخر؛ لأنه بعد اليوم الأول، وهو يوم الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول، والقيامة هي اليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر هو: الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين في القبر، وكل ما يكون بعد القبر فهو من الإيمان باليوم الآخر، وكذلك الإيمان بالبعث والنشور والمحشر والحساب ووزن الأعمال، والصراط

والميزان الذي تُوزن به الحسنات والسيئات، والجنة والنار.

فتفاصيل ما يحصل في اليوم الآخر نؤمن بها جملةً وتفصيلًا، بداية من الموت إلىٰ أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، كل ما صح من هذا نؤمن به، ولا نشك في شيء منه، فمَنْ شك في شيء منه فهو كافر مرتدٌّ عن الإسلام، كل هذا يطلق عليه اليوم الآخر وما فيه.

الركن السادس: تؤمن بالقدر خيره وشرِّه: تؤمن بأن ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، من كفر وإيمان، من نعمة ونقمة، من رخاء وشِدَّة، من مرض وصِحَّة، من حياة وموت، كل ما يجري في هذا الكون فإنه مقدَّر، لم يكن صدفة، أو لم يكن أمرًا مستأنفًا؛ أي: أنه مبتدأ لم يسبق أن قدِّر، تؤمن بهذا كله بأنه بقضاء الله وقدره، وتؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢]، هذا هو الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات، مَنْ لم يؤمن بها كلها فليس مؤمنًا بالقدر:

المرتبة الأولى: العلم: بأن الله علم كل شيء في الأزل، علم كل ما يجري، ما كان وما يكون إلىٰ ما لا نهاية، فالله قد علمه في الأزل قبل أن يكون وقبل أن يقع، علمه سبحانه وتعالى بعِلْمه القديم الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، هذه مرتبة العلم، فمَنْ جحدها فهو كافر.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ: وهي أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فما يجري شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ليس هناك شيء يجري وهو غير مكتوب؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ [الحديد:٢٢]؛ يعني: اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال رسول الله ﷺ: «**أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، قال: وما**

أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»(1). فمَنْ جحد الكتابة، وقال: الله يعلم كل شيء، لكنه لم يكتب في اللوح المحفوظ شيئًا، هذا كافر مرتدٌّ عن دين الإسلام.

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النافذة: وهي أن الله -سبحانه- يشاء الشيء ويريده، فما من شيء يحدث إلا وقد شاءه الله وأراده كما في اللوح المحفوظ، وكما علمه ﷻ، يشاء كل شيء في وقته، ويريد كل شيء في وقت حدوثه، لا يقع شيء بدون مشيئة الله، أو بدون إرادة الله، فمَنْ قال: إن الأشياء تحدث بدون أن يشاءها الله، أو يريدها فهذا كافر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخَلْق والإيجاد: الله خالق كل شيء، إذا شاءه وأراده خَلَقه ﷻ وأوجده، فكل شيء هو مخلوق لله ﷻ، وهو من خِلْق الله، وهو فعل العباد وكسب العباد.

فهذه المراتب الأربع لابد من الإيمان بها، وإلا لم يكن الإنسان مؤمنًا بالقدر: مرتبة العلم، والكتابة، والمشيئة، والخَلْق والإيجاد، كل هذه لابد من الإيمان بها، فمَنْ جحد شيئًا منها فإنه كافر مرتدٌّ عن دين الإسلام؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.

قوله: (والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾):

لما ذكر الشيخ هذه الأركان ذكر دليلها من القرآن ومن السُّنة؛ لأن أي شيء من أمور الدِّين والعبادة والعقيدة وأمور الأحكام الشرعية يحتاج إلىٰ دليل، وإن لم يكن له دليل لم يكن صحيحًا، لما ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة ذكر دليلها من القرآن أولًا، ثم من السنة.

فمن القرآن: قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ٱلْبِرَّ﴾: هو فعل الخير الذي يقرب من الله، ويوصل إلىٰ جنته، فكل أفعال الخير

---

(1) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧)، وغيرهم من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصحَّحه العلَّامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

هي من البِرِّ، فالبِرُّ: لفظ عامٌّ يجمع جميع أنواع الخير، وأنواع الطاعات كلها داخلة تحت مسمَّىٰ البر، وتحت مسمىٰ التقوىٰ.

فالبِرُّ والتقوىٰ من الأسماء العامة التي تجمع كل خصال الخير، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ هذا ردٌّ علىٰ اليهود الذين استنكروا تحويل القِبْلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة المشرفة، استنكروا هذا وجحدوه مع العلم أنهم يعلمون أنه حقٌّ، لكن جحدوه من باب العناد والمكابرة والحسد للنبي ﷺ ولهذه الأُمة.

يقول الله: ليس البر أن تولوا وجوهكم جهة من الجهات من غير أمر من الله، ولكن البر طاعة الله ﷻ إذا أمركم بأمر وجب عليكم امتثاله، هذا هو البِرُّ، فإذا أمركم باستقبال بيت المقدس فالبِرُّ في ذاك الوقت هو استقبال بيت المقدس؛ لأنه طاعة لله عَزَّوَجَلَّ، ثم إذا أمركم أن تستقبلوا الكعبة فالبِرُّ هو استقبال الكعبة، فالبر يدور مع أمر الله ﷻ.

أنتم عبيد يجب عليكم الامتثال، إذا أمركم الله أن تستقبلوا جهة من الجهات وجب عليكم الامتثال، أما أن تتعصبوا لجهة معينة، وتقولوا: لا يصحُّ إلا استقبالها فهذا معناه اتباع الهوىٰ والعصبية.

والعبد الصادق يدور مع أوامر الله حيث دارت، ولا يعترض علىٰ أمر الله؛ لأن استقبال جهة بعد نَسْخ استقبالها لا يكون طاعة لله ﷻ، فالعمل بالمنسوخ وترك الناسخ ليس طاعة لله عَزَّوَجَلَّ وإنما هو طاعة للهوىٰ والعصبية، فالبِرُّ متعلِّق بطاعة الله، فحيث وجَّهك تتوجه إن كنت محقًّا في عبوديتك لله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

دليل القدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾

دليل الركن السادس من أركان الإيمان: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: كل شيء خلقه الله فإنه مقدَّر في عِلْمه وكتابته ومشيئته وإرادته ﷻ، وليس هو عفويًّا أو صدفيًّا، إنَّما هو أمر سابق في علم الله، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وسابق في مشيئة الله وإرادته ﷻ.

[المرتبة الثالثة: الإحسان]

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ، رَكْنٌ وَاحِدٌ وَهُوَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرَائيل الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رسول الله ﷺ(٢) ذَاتَ يَوْمٍ إذ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ(٣) شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لا يُرَىٰ عَلَيْه أَثَرُ السَّفَرِ(٤) ولَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْه(٥) وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرنِي عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «الإسلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله(٦)، ....

(١) أخرجه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وغيرهما من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي: في أثناء أوقات شريفة وأزمنة لطيفة، نحن حاضرون لديه واقفون بين يديه، و«بينما» أصلها: «بين»، زيدت ما للإشباع [الدمشقي].

(٣) أي: ظهر لنا شخص بصورة رجل من جنسنا بغتة حين كنا جالسين عند رسول الله ﷺ [الدمشقي].

(٤) أي: لا يرىٰ الرائي إذا نظر إليه أثر السفر عليه من نحو: غبرة وشعث وغير ذلك مما يغير حال الشخص [الدمشقي].

(٥) وهذه هيئة الأدب وكمال التواضع، نسأل الله إلهام طلاب العلم آدابه [الدمشقي].

(٦) أي: تقر وتعترف بأن لا إله بحق يعبد في الوجود إلا الله، وأن محمدًا رسول الله يبلغ أحكامه، ويبين للأمة ما ينفعها في معاشها ومعادها، معصوم من الزلل في القول والعمل [الدمشقي].

وتُقِيمُ الصَّلاةَ[(١)]، وتُؤتِيَ الزَّكاةَ[(٢)]، وتَصُومَ رَمَضَانَ[(٣)]، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً[(٤)].

قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ[(٥)].

قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ[(٦)] وَمَلائِكَتِهِ[(٧)]، وَكُتُبِهِ[(٨)]،..........

---

(١) أي: تأتي بها في أوقاتها المحدودة مع المحافظة علىٰ شرائطها ورعاية أركانها ومندوباتها، كما كان يأتي بها رسول الله ﷺ، جماعات وفرادىٰ، وتداوم عليها إلىٰ أن ينقضي أجلك وتلقىٰ ربك [الدمشقي].

(٢) أي: تخرج الزكاة وتضعها في مصارفها وتعطيه مستحقيها بشروطها المبينة في كتب السنة الثابتة عن صاحب الشريعة بدون نقص ولا زيادة [الدمشقي].

(٣) أي: تمسك في شهر رمضان عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، وكذلك عن الغيبة والكذب والنميمة وكل منهي عنه شرعًا مع الاجتهاد في العبادة، والإكثار من إحياء الليالي التي أمر الشرع بإحيائها والحث عليها [الدمشقي].

(٤) أي: تقصد بيت الله الحرام في وقت مخصوص، وعلىٰ هيئة مخصوصة وشرائط معلومة جاءت عن صاحب الرسالة ﷺ [الدمشقي].

(٥) وجه عجب الصحابة من السائل أن كون الرجل سائلًا يقتضي عدم علمه بالمسئول عنه، وتصديقه يوجب خلاف حاله، ثم زال هذا التعجب الناشئ عن الجهل بسبب الشيء يعلمهم أن السائل جبريل جاءهم في صورة متعلم وطالب ليعلمهم أمر يدنهم؛ لأنهم كانوا علىٰ خلق عظيم ومهابة وحياء وكمال أدب، فلا يجسر أحد منهم رضي الله عنهم علىٰ سؤال الرسول فيما لم يخبرهم الرسول ﷺ به من نفسه، ومن يطلع علىٰ (كتب السير) يرىٰ ما يخجل من حال طلاب العلم الآن مع علمائهم ومعلميهم، ويوجب الأسف والحزن، مع أن هؤلاء هم مثال الأدب والكمال لكافة الناس [الدمشقي].

(٦) أي: تصدق بالله -تعالىٰ- وأنه متصف بكل كمال منزه عن كل نقص، وقد وصف الله جل ذكره نفسه في كتابه المنزل علىٰ نبيه المرسل، وقد جاءت السنن بصفات الباري -تعالىٰ- فنؤمن بما جاء وصح عن الرسول ﷺ بدون تأويل ولا تصحيف، ولا صرف عن ظاهرها ولا تحريف، وقد بينا عقيدة السلف في ذلك في كتابنا «نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية» بأدلة نقلية صحيحة لا شك فيها ولا ريب فانظره [الدمشقي].

(٧) جمع ملك وهي أجسام نورانية لطيفة مبرأة من الكدورات النفسانية والشهوات الحيوانية مقتدرة علىٰ تشكلات مختلفة لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون [الدمشقي].

(٨) جمع كتاب؛ أي: ما أنزل الله علىٰ أنبيائه بطريق الوحي، والكتب المنزلة هي مائة كتاب وأربعة كتب، وتفصيل ذلك تجده في الكتب المطولة [الدمشقي].

ورُسُلِهِ ، واليَومِ الآخِرِ ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ . قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ ، قَالَ: مَا المسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ . قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنْ أَمَارَاتِها ، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ. قَالَ: فَمَضَىٰ فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم أَمْرَ دِينِكُم» .

الإحسان في اللغة: إتقان الشيء وإتمامه، مأخوذ من الحسن، وهو الجمال

جمع رسول وهو إنسان أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه معصومون عن الكبائر والصغائر عمدًا .

أي: يوم القيامة .

بفتح القاف والدال وسكونها لغتان هو ما قضاه الله تبارك وتعالىٰ وحكم به من الأمور أزلًا .

أي: حلوه ومره .

أي: عن قيام الساعة، كما صرح به في رواية مسلم أي: وقت وقوع القيامة .

أي: أنا وأنت في عدم العلم بزمنها ووقوعها سواء؛ لأنها من مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو. .

بفتح الهمزة، أي: علامتها الدالة علىٰ مجيئها ووقوعها .

يعني: أن الخادم التي يتسرىٰ بها تلد سيدتها أو سيدها، وهذا والله أعلم كناية عن إسداء الأمر إلىٰ غير أهله، وأن حثالات الناس وأسافلها يصحبون وبيدهم مقاليد الحل والربط، والله أعلم .

أي: وحتىٰ ترىٰ الحفاة العراة الفقراء رعاء الغنم يتغالون في رفع البناء ويتفاخرون في حسنه، والمعنىٰ: أن أهل البادية وأشباههم من أهل الفاقة تبسط عليهم الدنيا فيتوطنون البلاد، ويبنون القصور الشاهقة المرتفعة، ويباهون العباد في ذلك، وهو إشارة -أيضًا- إلىٰ تغلب الأسافل الأراذل علىٰ الكرام وأرباب الكمال، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

أي: وقتًا طويلًا .

سبق تخريجه.

ضد القبح، وهو ينقسم إلىٰ أقسام:

أولًا: إحسان بين العبد وبين ربه، وهذا هو المقصود.

ثانيًا: إحسان بين العبد وبين الناس.

ثالثًا: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئًا أو عمل عملًا فإنه يجب عليه أن يتقنه ويتمه.

النوع الأول: وهو الإحسان بين العبد وربه، بينه الرسول ﷺ لما سأله جبريل بحضرة الصحابة كما يأتي، فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فالإحسان بين العبد وبين ربه هو إتقانه العمل الذي كلفه الله به، بأن يأتي به صحيحًا خالصًا لوجه الله عز وجل، وعمل الإحسان بين العبد وربه، ما توفر فيه الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ، وقد بين النبي ﷺ أن الإحسان علىٰ مرتبتين، واحدة أعلىٰ من الأخرىٰ.

الأولىٰ: أن تعبد الله كأنك تراه، بأن يبلغ بك اليقين والإيمان بالله كأنك تشاهد الله عيانًا، ليس عندك تردد أو أي شك، بل كأن الله أمامك -تبارك وتعالى- تراه عيانا، فمن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، تعبد الله كأنك تراه من كمال اليقين وكمال الإخلاص، كأنك ترىٰ الله عيانًا، والله -جل وعلا- لا يرىٰ في الدنيا، وإنما يرىٰ في الآخرة، ولكن تراه بقلبك حتىٰ كأنك تراه بعينيك؛ ولذلك يجازىٰ أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه سبحانه، لما عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا جازاهم الله بأن أفسح لهم المجال بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الزيادة: هي النظر لوجه الله، السبب أنهم أحسنوا في الدنيا، فأعطاهم الله الحسنىٰ، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله سبحانه تعبد الله كأنك تراه علىٰ المشاهدة، والمحبة والشوق إلىٰ لقائه سبحانه، تتلذذ بطاعته، وتطمئن إلىٰ طاعته سبحانه، تشتاق إليها، هذه طريقة المحسنين.

المرتبة الثانية: إذا لم تبلغ هذه المرتبة العظيمة فإنك تعبده علىٰ طريقة المراقبة، بأن تعلم أن الله يراك، ويعلم حالك، ويعلم ما في نفسك، فلا يليق بك أن تعصيه، وأن تخالف أمره، وهو يراك ويطلع عليك، وهذه حالة جيدة، ولكنها أقل من الأولىٰ، وما دمت أنك تعلم أنه يراك فإنك تحسن عبادته وتتقنها؛ لأنك تعلم أن الله يراك، ولله المثل الأعلىٰ لو كنت أمام مخلوق له منزلة وأمرك بأمر، وأنت تنفذ هذا الأمر أمامه وينظر إليك، هل يليق بك أن يقع منك إخلال بهذا الفعل؟

الحاصل: أن الإحسان على مرتبتين:

مرتبة المشاهدة القلبية: وهي أن تعبد الله كأنك تراه من شدة اليقين والإيمان، كأنك ترىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عيانًا.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه مرتبة الإحسان، وهي أعلىٰ مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلىٰ مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

فالدين دوائر:

الدائرة الأولى: الإسلام، وهي واسعة حتىٰ إنه يدخل فيها المنافق، ويقال له: مسلم ويعامل معاملة المسلمين؛ لأنه استسلم في الظاهر، فهو داخل في دائرة الإسلام، ويدخل فيها ضعيف الإيمان الذي ليس معه من الإيمان إلا مثقال حبة خردل.

الدائرة الثانية: وهي أضيق من الأولىٰ، وأخص دائرة الإيمان، وهذه لا يدخل فيها المنافق النفاق الاعتقادي أبدًا، وإنما يدخل فيها أهل الإيمان، وهم علىٰ قسمين: إيمان كامل، وإيمان ناقص، فيدخل فيها مؤمن فاسق، أو مؤمن تقي.

الدائرة الثالثة: وهي أضيق من الثانية -دائرة الإحسان- وهي كما بينها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يدخل فيها إلا أهل الإيمان الكامل.

❑ **قوله:** (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾):

■ هذا دليل المرتبة الأولىٰ من الإحسان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل:١٢٨]، دلت الآية أن الله مع المحسنين، وهم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن الله معهم معية خاصة، معية النصرة والتأييد والتوفيق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠] هذا دليل المرتبة الثانية، هذا دليل قوله: «**فإنه يراك**».

﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾؛ أي: فوض أمورك. ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾: وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾: تقوم للعبادة والصلاة.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾: يراك وأنت راكع، وأنت ساجد، يراك في جميع أحوال العبادة قائما وراكعا وساجدا، فهو يراك سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾: السميع لأقوالك، العليم بأقوالك سبحانه وتعالى.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ هذا خطاب للرسول ﷺ في أي شأن من أمورك، من أمور العبادة أو من غيرها، جميع أفعالك وتحركاتك ما تكون في شأن من الشئون.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾[يونس:٦١]؛ أي: من الله لأن القرآن من عند الله عز وجل أو الضمير راجع إلىٰ الشأن؛ أي: ومن الشأن الذي تكون فيه تلاوة القرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا لجميع الأمة، للرسول ﷺ وغيره.

﴿مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي: عمل من الأعمال خير أو شر.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ نراكم ونبصركم ونشاهدكم، هذا دليل لقوله ﷺ: «**فإنه يراك**».

﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ تباشرونه وتعملونه، فهذا يعطي دليلًا علىٰ المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وأنه -جل وعلا- شهيد علىٰ كل عامل بعمله، يراه ﷻ ويعلمه ويبصره، ولا يغيب عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران:٥].

وأما الإحسان بين العبد والخلق فمعناه: بذل المعروف لهم، وكف الأذىٰ عنهم، بأن تطعم الجائع، وتكسو العاري، وتعين بجاهك المحتاج، وتشفع لمن احتاج الشفاعة، تبذل المعروف، جميع وجوه المعروف، تكرم الضيف، تكرم الجار، لا يصدر منك إلا خير لجارك، وتكف أذاك عنه -أيضا - فلا يصدر منك أذىٰ له ولا لغيره، من الناس من لا يصدر منه إلا أذىٰ، ومن الناس من يصدر منه أذىٰ وخير، ومن الناس من لا يصدر منه إلا خير، فهذا في أعلىٰ الطبقات.

بذل الخير للناس وكف الأذىٰ عنهم هو الإحسان للناس: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥]، حتىٰ البهائم يجب أن تحسن إليها بأن تهيئ لها ما تحتاج إليه، وتمنع الأذىٰ عنها، وترفق بها، هذا من الإحسان إلىٰ البهائم.

حتىٰ المستحق للقتل لا تعذبه، بل تقتله قتلة حسنة ومريحة، من وجب عليه القصاص، ومن وجب عليه الحد، فإنه ينفذ فيه برفق، لا تمثيل، ولا تعذيب، ولا صبر.

قال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح**»[1] في القصاص أو غير ذلك مما يلزم الحد.

فإذ ذبحتم؛ أي: ذبحتم الحيوانات المأكولة، فأحسنوا الذبحة، «**وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»[2]، فتحسن حتىٰ للبهائم، وقد غفر الله للبغي من بني إسرائيل بسبب أنها سقت كلبًا رأته يلهث من العطش، فسقته فشكر الله لها، فغفر الله لها ذنبها

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، وغيرهما من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) انظر ما قبله.

وهو ذنب عظيم، وهو البغاء؛ أي: الزنىٰ، فغفر الله لها بسبب ذلك؛ لأنها أحسنت إلىٰ هذا البهيم العطشان.

فكيف بغير الكلب؟ إذا أحسنت إلىٰ جائع من المسلمين، أو حتىٰ من بني آدم ولو كان كافرًا، إذا أحسنت إليه فإن الله جل وعلا يشكر لك ذلك الإحسان، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾.

النوع الثالث: وهو إتقان العمل، أي عمل تعمله يجب عليك أن تتقنه، لا ليقال: إن فلانا يحسن كذا، وقد جاء في الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**» (١).

قد تقدم الكلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأركان كل مرتبة، وذكر الشيخ أدلة كل مرتبة من القرآن، وهذا كله تقدم وانتهىٰ.

ثم ذكر الشيخ دليل هذه المراتب من السنة، سنة الرسول ﷺ؛ فذكر حديث جبريل؛ وأنه أتىٰ النبي ﷺ وهو مع أصحابه، أتاهم في صورة رجل، وجلس إلىٰ النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

ثم سأله عن الساعة، وسأله عن أماراتها، هذا ما يسمىٰ بحديث جبريل أو حديث عمر، وهو حديث ورد من عدة طرق عن جماعة من الصحابة، فهو حديث صحيح.

وذكر الشيخ رواية عمر بن الخطاب في هذا الحديث مع اختلاف في ألفاظ الحديث في طرق أخرىٰ، ولكن المعنىٰ واحد.

قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ» كان من عادتهم أنهم يجتمعون عند النبي ﷺ في المسجد، ويتلقون عنه العلم، ويستمعون إلىٰ أجوبته ﷺ علىٰ ما يرده من

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٩٧)، وأبو يعلىٰ (٤٣٨٦)، وغيرهما من حديث عائشة، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١١١٣).

الأسئلة، فبينما هم كذلك -علىٰ عادتهم- إذ دخل عليهم رجل من الباب، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر؛ أي: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ تمثل في صورة هذا الرجل، ولم يأتهم بصورته الملكية؛ لأنهم لا يطيقون النظر إليه في صورته الملكية.

❑ **قوله**: (لا يُرَىٰ عَلَيْه أَثَرُ السَّفَرِ ولَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ...):

■ لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا -أي: من الحاضرين- أحد، فهذا من العجائب أنه ليس قادمًا من سفر حتىٰ يقال: إنه من غير أهل المدينة، وهم لا يعرفونه، وهو ليس من أهل البلد حتىٰ يعرفوه، فتحيروا في شأنه، لا هو قادم، ولا هو من أهل البلد، لو كان قادمًا من سفر لظهر عليه أثر السفر في ثيابه وفي لونه؛ لأن المسافر تظهر عليه آثار السفر، فلا يعرفه أحد من الحاضرين، فليس هو من أهل البلد، وليس هو قادمًا من سفر، فمن أين يكون هذا الرجل؟ هذا الذي استغربوه.

فجلس إلىٰ النبي ﷺ: بين يديه جلوس المتعلم من معلمه.

وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتي النبي ﷺ؛ أي: أنه قريب منه جدًّا.

ووضع يديه علىٰ فخذيه؛ أي: فخذي النبي ﷺ.

فقال: يا محمد، خاطبه باسمه، ولم يقل: يا رسول الله، ولعله فعل ذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجل أن يظن الصحابة أنه من البادية؛ لأن من عادة أهل البادية أنهم يخاطبون النبي ﷺ باسمه؛ لأن أهل البادية علىٰ طبيعتهم وعادتهم، وهو زيادة في الإغراب والتعمية حتىٰ لا يعرفوه.

قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؛ أي: اشرح لي معنىٰ الإسلام.

❑ **قوله**: (قال: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلَّا الله...):

■ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام التي لا بد منها، والتي إن تحققت ووجدت تحقق الإسلام، وما زاد عليها من الأمور الأخرىٰ فهي مكملات.

فالرسول ﷺ اقتصر علىٰ بيان أركان الإسلام؛ لأن الجواب كلما كان مختصرًا كان أسهل علىٰ المتعلم والسامع، وسهل عليه حفظه ووعيه، بينما لو طول الجواب تشعب علىٰ الحاضرين، وربما أن أكثرهم لا يستوعبه، فهذا دليل علىٰ أن المسئول ينبغي أن يتوخىٰ الاختصار مهما استطاع، ويقتصر علىٰ الشيء الضروري، وإلا فالإسلام أكثر من ذلك، هذه أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

قال: «صدقت»، هذه عجيبة ثانية.

قال: «فعجبنا له يسأله ويصدقه»: فدل علىٰ أنه عالم، وأنه لا يسأل سؤال جاهل، وإنما يسأل وهو عالم، بدليل أنه قال: صدقت، فدل علىٰ أنه عالم، فلماذا يسأل؟

قوله: «فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت».

قال: «أخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، فذكر له ﷺ أركان الإيمان الستة بعدما ذكر له أركان الإسلام.

والإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما يقوم به من التصديق والعلم، ولا بد من الإسلام والإيمان جميعًا، الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة؛ لقوله ﷺ: **«الإسلام علانية، والإيمان في القلب»**(١).

فإن ذكرا جميعا صار لكل واحد معنىٰ خاص به، وإذا ذكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام، لا بد من الاثنين، فهما متلازمان؛ ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤)، وأبو يعلىٰ، برقم (٢٩٢٣)، من حديث أنس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (٢٢٨٠).

اجتمعت افترقت، وإذا انفردت اجتمعت؛ أي: يدخل بعضها في بعض؛ لأنهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فسأله عن الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبين له أركان كل من الإسلام والإيمان.

قوله: (قال: فأخبرني عن الإحسان...)

قال: «فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله»، سبق أن المحسن: هو من يعبد الله على المشاهدة واليقين كأنه يرى الله، أو يعبده على المراقبة، وهو يعلم أن الله يراه فيحسن العمل؛ لأن الله مطلع عليه، فالمحسن يعبد الله إما على المشاهدة في القلب، وهذا أكمل، وإما على المراقبة، وأن يعلم أن الله يراه في أي مكان، أو في أي عمل يعمله، هذا هو الإحسان.

قال: «صدقت، فأخبرني عن الساعة»؛ أي: عن قيام الساعة متى؟ ولما كان هذا السؤال لا يعلم أحد الجواب عنه إلا الله؛ لأن قيام الساعة لا يعلم تحديده إلا الله.

نحن نعلم أنها ستقوم الساعة لا نشك في هذا، من شك في هذا فهو كافر، نعلم أنها ستقوم الساعة ولا بد، ولكن الوقت الذي تقوم فيه الساعة الله لم يخبرنا عنه، ولم يبينه لنا، واستأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، هو الذي يعلمها سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ومنها وقت قيام الساعة.

قال لجبريل: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»؛ أي: أنا وأنت سواء لا نعلم متى تقوم الساعة، الله -جل وعلا- لم يطلع على هذا لا الملائكة، ولا الرسل، ولا أحدًا، بل استأثر بعلمها.

قوله: «فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها».

قال: «أخبرني عن أماراتها»، الأمارات: جمع أمارة، وهي العلامة، أما الإمارة بالكسر: فهي الولاية.

«أخبرني عن أماراتها»؛ أي: العلامات التي تدل علىٰ قرب قيامها.

نعم، الساعة لها أمارات، وقد بينها الله ﷻ، منها أمارات صغيرة، ومنها علامات كبيرة، ومنها متوسطة، ومنها علامات مقاربة للساعة تكون عند قيام الساعة، تكون قريبًا من قيامها، أما العلامات الأخرىٰ فإنها متقدمة.

العلماء يقولون: علامات الساعة علىٰ ثلاثة أنواع: هي علامات صغيرة ومتقدمة، وعلامات متوسطة، وعلامات كبيرة.

العلامات الصغيرة والعلامات المتوسطة كلها حصلت أو حصل معظمها، أما العلامات الكبار ظهور الدجال، ونزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، فهذه تكون عند قيام الساعة وتتتابع.

قال: «أخبرني عن أماراتها»: ولما كانت أماراتها معلومة أجابه الرسول ﷺ، قال: «أن تلد الأمة ربتها» هذا من علامات الساعة، الأمة هي المملوكة، وربتها سيدتها.

❑ **قوله**: (وَأَنْ تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ...):

■ **قال الشراح:** معناه -والله أعلم- أنه في آخر الزمان يكثر التسري، يعني يكثر وطء الإماء -أي: المملوكات- فيلدن بنات، تكون بنتها حرة، وتكون سيدة لأمها ومالكة لها، وقيل: معناه أنه يكثر العقوق، فتكون البنت كأنها سيدة لأمها.

وأن ترى الحفاة: هذه علامة ثانية.

الحفاة: الذين ليس لهم نعال من الفقر والفاقة.

العراة: الذين ليس لهم لباس.

العالة: الفقراء.

رعاء الشاء: جمع راعٍ، الذين يرعون الأغنام، هؤلاء كانوا في الأصل في البراري

في بيوت ينتقلون من محل إلىٰ آخر، وفي آخر الزمان يستوطنون في المدن، ويبنون القصور والعمارات الشاهقة، هذا من علامات الساعة، إذا تحولت البادية إلىٰ حاضرة، وصاروا يتطاولون في المباني، ويتباهون بها وينمقونها، وهم ليس من عادتهم، يتحولون إلىٰ أغنياء، إلىٰ أصحاب ثروة وأصحاب مظاهر، هذه من علامات الساعة.

وكما تعلمون فإن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، كما تعلمون الآن كيف حال الناس، لقد تغيرت الأحوال وتحول الفقراء إلىٰ أغنياء أصحاب ثروات، وتحضرت البادية وبنوا وتطاولوا في البنيان، وهذا مصداق ما قاله رسول الله ﷺ.

❑ **قوله**: (قَالَ: فَمَضَىٰ فَلَبِثنَا مَلِيًّا...):

■ قال: «ثم خرج ولبثنا مليًا»؛ يعني: وقتًا قصيرًا.

فقال النبي ﷺ: «يا عمر أتدري من السائل؟» أو «أتدرون من السائل؟» وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «علي بالرجل»[(١)] فطلبوه فلم يقدروا عليه.

قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» هذا الذي دخل وسأل هذه الأسئلة هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاء في صورة رجل كما وصف لغرض تعليم الحاضرين أمور دينهم علىٰ طريق السؤال والجواب.

فدل هذا الحديث على مسائل عظيمة:

الأولى: أن الدين ينقسم إلىٰ ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، كل مرتبة أعلىٰ من التي قبلها، وأن كل مرتبة لها أركان: أركان الإسلام، وأركان الإيمان والإحسان ركن واحد.

الثانية: فيه التعليم بطريق السؤال والجواب، وهذه طريقة تعليمية ناجحة؛ لأنها أدعىٰ للانتباه وتلقي العلم، كونه يسأل ويتهيأ ذهنه يتطلب الجواب، ثم يلقي عليه الجواب وهو يتطلع إليه، يكون هذا أثبت.

---

(١) سبق تخريجه.

الثالثة: في الحديث دليل علىٰ أن من سأل عن علم وهو لا يدري أن يقول: الله ورسوله أعلم، يكل العلم إلىٰ عالمه، فلا يتكلم بالجواب وهو لا يعرفه ويتخرص، هذا لا يجوز، والرسول ﷺ لمَّا سئل عن الساعة؛ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ولما قال للصحابة: «أتدرون من السائل؟ وهم لا يعرفونه قالوا: الله ورسوله أعلم».

فدل ذلك علىٰ أن مسائل الشرع ومسائل الدين لا يجوز التخرص فيها؛ لأن هذا من التكلف، ولكن من كان عنده علم فإنه يجيب، ومن ليس عنده علم يقول: الله أعلم، ومن قال: لا أدري فقد أجاب.

قد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عن أربعين مسألة فأجاب عن ست منها، وقال في الباقية: لا أدري، فقال له السائل: أنا جئت من كذا وكذا، وسافرت وأتعبت راحلتي، وتقول: لا أدري، قال: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكا، فقال: لا أدري، هذا ليس عيبًا أن الإنسان إذا كان لا يعرف الجواب في الأمور الشرعية أنه يقول: لا أدري ولو كان عالمًا، الرسول ﷺ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

وكان ﷺ إذا سئل في بعض الأسئلة ولم يكن عنده وحي من الله عَزَّوَجَلَّ، انتظر حتىٰ ينزل الوحي من الله عَزَّوَجَلَّ ألستم تقرءون: يسألونك عن كذا، يسألونك عن كذا، قل كذا؟ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة:٢١٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة:١٨٩].

فالرسول ﷺ كان إذا سئل ولم يكن عنده جواب ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي من الله، وكذلك غيره من باب أولىٰ ينتظر حتىٰ يسأل غيره، أو غيره يبحث عن المسألة في كتب أهل العلم ليتحصل علىٰ جواب، أما أن يستعجل فهذا فيه خطورة عظيمة، وفيه سوء أدب مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الذي يجيب يجيب عن شرع الله، يقول: الله أحل كذا أو حرم كذا أو شرع كذا، فالأمر فيه خطورة جدًّا.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل علىٰ آداب المتعلم، جبريل وهو سيد الملائكة يجلس بين يدي الرسول ﷺ وهو يسند ركبتيه إلىٰ ركبتي الرسول ﷺ ويضع يديه علىٰ فخذيه، يسأل بأدب، هذا من أجل أن يعلم الناس كيف يتأدبون مع العلماء.

هذا بعض ما يدل عليه الحديث وفيه:

مسألة خامسة: وهي بيان بعض علامات الساعة، ذكر علامتين: أن تلد الأمة ربتها، وبعض العلماء يقول: معنىٰ أن تلد الأمة ربتها: أنه يكثر العقوق في آخر الزمان حتىٰ تصبح البنت كأنها سيدة علىٰ والدتها، تأمرها وتنهاها وتغلظ عليها.

[الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ]

الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بن عَبْدِ المُطَّلِب بن هَاشِمٍ(١)، وهَاشِمُ مِن قُرَيش، وقُرَيش مِنَ العَرَب، والعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، ابن إبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ والسَّلَام.

وَلَهُ مِن الْعُمْرِ: ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، نُبِّئَ بِإقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةَ، وَهَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

الشرح

❑ قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ):

■ أي: من الأصول الثلاثة؛ لأن الشيخ رحمه الله ذكر في أول الرسالة أنه يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة معرفة هذه الأصول الثلاثة، وهي معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة نبيه محمد ﷺ بالأدلة.

أما الأصل الأول والثاني: فقد تقدم شرحهما وبيان أدلتهما.

الأصل الثالث: وهو معرفة النبي ﷺ؛ لما كان النبي ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ورسالته وجب معرفته -عليه الصلاة والسلام-، وإلا كيف تتبع شخصًا لا تعرفه؟ فلا بد أن تعرفه من حيث الاسم، ومن حيث البلد الذي ولد ونشأ فيه، والبلد الذي هاجر إليه، وتعرف مدة عمره عليه الصلاة والسلام.

وأقسام عمره عليه الصلاة والسلام، وأقسام المدة التي أقامها في هذه الدنيا،

---

(١) لم يذكر المؤلف رحمه الله [للنبي ﷺ] إلا جدين وهاك سرد نسبه الشريف -بأبي هو وأمي أفديه- عليه الصلاة والسلام، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [الدمشقي].

تعرفها -أيضا- قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة وبعد الهجرة، تعرف كيف ابتدأ بالوحي عليه الصلاة والسلام، ومتىٰ ابتدأ بالوحي، وما هي الآية التي تدل علىٰ نبوته، والآية التي تدل رسالته، تأتي بالآيات التي تدل علىٰ نبوته، والآيات التي تدل علىٰ إرساله، فلا بد أن تعرف هذا، تعرف نسبه من أي قبيلة؛ لأن العرب قبائل، وهو عربي بلا شك، فلا بد من معرفة هذه الأشياء عن الرسول ﷺ؛ بأن تدرس الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل، وتنظر في سيرة الرسول ﷺ ودعوته؛ لأجل أن تعرف هذه الأمور عن نبيك الذي أنت مأمور باتباعه، والاقتداء به.

❑ **قوله**: (وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بن عَبْدِ المُطَّلِب بن هَاشِم...):

■ هذا اسمه ونسبه، اسمه محمد عليه الصلاة والسلام، وله أسماء غير محمد، لكن أشهر أسمائه محمد قد ذكر الله ذلك في القرآن في عدة آيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٢]، فذكر الله اسمه محمدًا في عدة آيات.

ومن أسمائه أحمد، قد ذكره الله في قوله في بشارة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

فهو محمد وأحمد، ومعنىٰ ذلك أنه كثير المحامد عليه الصلاة والسلام، وكثير الصفات التي يحمد عليها، ومن أسمائه نبي الرحمة، ونبي الملحمة -يعني الجهاد في سبيل الله، والحاشر، والعاقب عليه الصلاة السلام الذي يحشر الناس بعد بعثته؛ لأنه آخر الرسل ﷺ فليس بعده إلا قيام الساعة، فبعد رسالته تقوم الساعة، ويحشر الناس للجزاء والحساب، ومن أراد أن يلم بهذه الأمور فليرجع إلىٰ كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام علىٰ خير الأنام» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما نسبه، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

وهو من قبيلة قريش التي هي أشرف القبائل، وقريش من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام، والعرب علىٰ قسمين في المشهور:

العرب العاربة، وهم: القحطانية.

والعرب المستعربة، وهم: العدنانية من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، سُمُّوا بالمستعربة؛ لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة لما جاءت جرهم، ونزلوا في مكة عند هاجر أم إسماعيل وابنها إسماعيل وهو صغير لما وجدوا ماء زمزم نزلوا، واصطلحوا مع هاجر أن ينزلوا عندها، وأن تسمح لهم أن يستقوا من الماء.

فإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رضيعًا في ذلك الوقت، ثم إنه تربىٰ ونشأ وأخذ العربية عن جرهم وهي من العرب العاربة، وتزوج من جرهم، وجاءه ذرية تعلموا العربية ونشئوا مع العرب، فصاروا عربًا مستعربة وهي العدنانية.

أما العاربة فهم القحطانية، أصلها من اليمن.

وبعض العلماء يقول: العرب العاربة علىٰ قسمين: عرب بائدة، وعرب باقية، العرب البائدة هم الذين هلكوا، وهم قوم نوح وعاد وثمود وشعيب.

أما العرب الباقية فهم الذين ينقسمون إلىٰ عرب عاربة، وعرب مستعربة وهي العرب الباقية، والنبي من بني هاشم، وهاشم من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

وعبد المطلب، ليس هذا اسمه، اسمه شيبة، ولكن سمي عبد المطلب؛ لأن عمه المطلب بن عبد مناف جاء به من المدينة وهو صغير من أخواله بني النجار، فلما رآه الناس أسود من السفر ظنوا أنه عبد مملوك للمطلب، فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد مناف له أربعة أولاد: هاشم جد الرسول ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

بنو هاشم يقال لهم: الهاشميون، وبنو المطلب يقال لهم: المطلبيون، وأما عبد شمس فمنهم عثمان ﵁ ومنهم بنو أمية، هؤلاء من بني عبد شمس.

ونوفل كذلك له ذرية منهم: جبير بن مطعم وحكيم بن حزام.

وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- له إسماعيل وهو الأكبر، وهو جد العرب العدنانية، وإسحاق وهو جد بني إسرائيل، وجميع الأنبياء كلهم من ذرية إسحاق إلا نبينا عليه الصلاة والسلام فهو من ذرية إسماعيل خاتم النبيين.

أما مولده: فقد ولد ﷺ عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة ملك اليمن، انتدبه ملك الحبشة ليهدم الكعبة ومعه فيل عظيم، فلما وصل إلىٰ مكان يقال له: المغمس، ولم يبق إلا أن يدخل مكة ويهدم الكعبة، وتفرق أهل مكة وصعدوا الجبال؛ لأنهم لا طاقة لهم به، فأراد أن يتوجه إلىٰ الكعبة، فانحبس الفيل، وأبىٰ أن يقوم من الأرض؛ حبسه الله، فإذا وجهه إلىٰ غير جهة مكة قام وهرول، وإذا وجهه إلىٰ جهة مكة انحبس ولم يستطع المشي، وبينما هم كذلك رأوا فرقان طير من قِبَل البحر معها حجارة، كل طائر معه حجران: حجر في منقاره وحجر في رجليه، فرمتهم فصارت الحصاة تضرب هامة الرجل، فتخرج من دبره وتشقه نصفين، فأهلكهم الله ﷿ فأنزل الله في ذلك يذكر قريشًا سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ من جهنم والعياذ بالله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١-٥]، أصبحوا مثل التبن الذي أكلته الدواب وراثته.

هذه قصة الفيل، حمىٰ الله بيته الحرام، وأهلك هذا الجبار، وفي هذا العام ولد محمد ﷺ وظهر مع ولادته آيات، حيث ظهر معه نور أشرقت له قصور الشام، وفي ليلة ولادته ارتجت الأصنام، وارتج إيوان كسرىٰ وسقطت منه شرفات في ليلة ولادة النبي ﷺ هذه إرهاصات لبعثة النبي ﷺ والجن والشياطين حصل عندهم ضجة في الليلة العظيمة.

ولد في مكان يقال له: شعب علىٰ مقربة من الكعبة، ولد في مكة، لكن لا يوجد تحديد ثابت لموضع الدار.

قوله: (وَلَهُ مِن الْعُمْرِ: ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ..).

■ فهو ولد في مكة ﷺ، واسترضع في بني سعد عند حليمة السعدية، ومات عبد الله أبوه وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه بعد ولادته بقليل، فحضنته أم أيمن الحبشية التي ورثها عن أبيه، وصار في كفالة جده عبد المطلب.

ثم مات عبد المطلب وانتقلت كفالته إلىٰ عمه أبي طالب، وعاش ﷺ أربعين سنة قبل النبوة معروفًا بالأمانة والصدق والكرم، وتجنب عبادة الأصنام، وتجنب شرب الخمر، ما كان يعمل ما يعمله أهل الجاهلية، بل كان عليه الصلاة والسلام يخرج إلىٰ غار حراء ويتعبد فيه الأيام ذات العدد، يعبد الله علىٰ ملة إبراهيم علىٰ التوحيد.

ثم لما بلغ الأربعين من عمره -عليه الصلاة والسلام- نزل عليه الوحي، بأن جاءه جبريل وهو في غار حراء وقال له: «**اقرأ، قال: ما أنا بقارئ -أي: لا أحسن القراءة- فضمه ضمة شديدة، ثم أرسله وقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، ثم ضمه مرة ثانية، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فقال له**: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١، ٢]»[1].

هذه هي نبوته ﷺ نبأه الله باقرأ: أي جعله نبيًّا بذلك، ثم ذهب إلىٰ بيته يرتجف من الخوف؛ لأنه لقي شيئًا ما كان يعرفه من قبل، أمرًا هائلًا، فوجد زوجه خديجة رضي الله عنها فغطته وهدأته، وقالت له: كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الدهر، فوطأته وذهبت به إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تحنث وقرأ في الكتب السابقة تعبُّدا لله عز وجل فلما أخبره بما رأىٰ قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ؛ يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، وغيرهما من حديث عائشةف.

□ **قوله**: (وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ وَبَلَدُهُ مَكَّةَ)

■ ثم نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر:١،٢] هذا هو الإرسال وهذا معنىٰ قول الشيخ: نبأه باقرأ وأرسله بالمدثر.

والفرق بين النبي والرسول: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وتوضيح ذلك: أن الرسول تنزل عليه شريعة وكتاب فهو نبئ باقرأ وأرسل بالمدثر علىٰ رأس الأربعين، وكذلك الأنبياء، والنبي يبعث بشرع من قبله، وكتاب من قبله، ويوفىٰ إليه ببعض المسائل كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسىٰ.

والمدثر معناه: الملتحف؛ لأنه ﷺ أصابه شيء من الفزع، فقال: دثروني دثروني؛ أي: غطوني، فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ [المدثر:١-٣] أي: عظمه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾؛ أي: طهر أعمالك من الشرك، فالأعمال تسمىٰ الثياب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]، سمىٰ التقوىٰ لباسًا.

﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾؛ الرجز معناه: الأصنام.

﴿فَٱهۡجُرۡ﴾؛ أي: اتركها وابتعد عنها.

فبعثه الله علىٰ رأس الأربعين، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلىٰ التوحيد وترك عبادة الأصنام، وحصلت مداولات بينه وبين المشركين، حصل عليه أذىٰ وعلىٰ من آمن به واتبعه، وحصلت مضايقات من المشركين في خلال ثلاث عشرة سنة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أسري به إلىٰ بيت المقدس وعرج به إلىٰ السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس فصلىٰ بمكة ثلاث سنين، ثم تآمرت قريش علىٰ قتله وعلىٰ الفتك به، فأذن الله له بالهجرة إلىٰ المدينة فهاجر إلىٰ المدينة، بعدما التقىٰ بالأنصار في بيعة العقبة الأولىٰ وبيعة العقبة الثانية.

هاجر إلىٰ المدينة وأقام بها عشر سنوات، فالمجموع ثلاث وعشرون سنة، بعد النبوة، عاش ﷺ ثلاثا وعشرين سنة، ثلاث عشرة في مكة يؤسس دعوة التوحيد،

وعشر سنوات في المدينة، ثم توفاه الله علىٰ رأس الثالثة والستين من عمره عليه الصلاة والسلام، فمدة عمره في الرسالة ثلاثة وعشرون سنة، وهذه البركة التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ عليه وهذا العلم الغزير، وهذا الجهاد، وهذا التمكين في هذه المدة الوجيزة -ثلاث وعشرين سنة-، هذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن بركات هذا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبركات دعوته، وبركات الوحي الذي أنزل إليه، وقبل هذا كله بإعانة الله عَزَّوَجَلَّ وهو الذي أعانه، وهو الذي حماه وأيده ونصره حتىٰ بلغت دعوته المشارق والمغارب، والحمد لله رب العالمين.

[بعثة النبي ﷺ]

بَعَثَهُ اللهِ بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، ويَدْعو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ(١) ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر:١-٧].

ومَعْنَىٰ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:٢]: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ ويَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر:٣] أي: عَظِّمه بِالتَّوْحِيدِ،

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر:٤] أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَك عِنِ الشِّرْكِ.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر:٥] الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ وَهَجْرُهَا تَرْكُهَا، والبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا.

أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ. وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ.

الشَّرح

❏ **قوله**: (بَعَثَهُ اللهِ بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، ويَدْعو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ):

▪ هذه دعوته ﷺ النذارة عن الشرك، والدعوة إلىٰ التوحيد، وهذا الذي يجب أن يسير عليه الدعاة في دعوتهم: أن يركزوا علىٰ الإنذار عن الشرك، والدعوة إلىٰ التوحيد قبل كل شيء، وإلا لم تكن دعوتهم علىٰ منهج الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ بعثه الله بالنذارة عن الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد، فلا بد من تأصيل هذا الشيء أولًا، ثم بعد ذلك يتجه إلىٰ بقية الأمور؛ لأنها لا تصلح الأمور إلا بوجود التوحيد، لو أن الناس تركوا الزنا، والخمر، والسرقة، واتصفوا بكل فضيلة من الأعمال

---

(١) أي: قم يا أيها الذي تدثر بثيابه وتغشىٰ بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي، كما في الحديث الوارد في سبب النزول [الدمشقي].

والأخلاق لكنهم لم يتركوا الشرك؛ فلا فائدة من هذه الأمور ولا تنفعهم، بينما لو سلم الإنسان من الشرك وعنده كبائر دون الشرك فهو مرجو أن يغفر الله له، أو يعذب بقدر ذنوبه، ولكن مآله إلىٰ الجنة؛ لأنه موحد.

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ولا نجاة إلا بوجود التوحيد أولًا؛ ولذلك يجب التركيز عليه، والعناية به دائمًا وأبدًا، ودعوة الناس إليه وتعليم الناس إياه، وأن يبين لهم التوحيد ما معنىٰ التوحيد، وما معنىٰ الشرك، لا بد أن يعرف المسلم هذا الأمر ويتحقق منه، ويتفقد نفسه حتىٰ لا يقع في شيء من الشرك أو يخل بالتوحيد، فلا بد من هذا الأمر، ولا بد أن تقوم الدعوة علىٰ هذا الأساس.

❑ **قوله**: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ)

■ **أي**: أخذ علىٰ دعوة الناس إلىٰ التوحيد والإنذار عن الشرك عشر سنين في مكة، وهو يدعو إلىٰ التوحيد وينهىٰ عن الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، والحكمة أن الله بعثه في مكة؛ لأن مكة هي أم القرىٰ التي ترجع إليها القرىٰ، والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩]، والأم: هي المرجع الذي يرجع إليه، الأصل الذي يرجع إليه، هذا هو الأم.

قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]؛ أي: الأصل الذي ترد إليه الآيات المتشابهات.

كذلك مكة -شرفها الله- هي الأصل الذي يرجع إليه أهل الأرض، والمسلمون في أقطار الأرض يرجعون إلىٰ مكة، فهي أم القرىٰ بمعنىٰ هي المرجع؛ ولذلك بعث الله نبيه ﷺ من مكة؛ لأنها أم القرىٰ، ومكث فيها ثلاث عشرة سنة، ينهىٰ أهل مكة عن الشرك ويأمرهم بالتوحيد؛ لأن أهل مكة هم القدوة لغيرهم؛ ولهذا يجب أن تبقىٰ مكة إلىٰ قيام الساعة دارًا للتوحيد ومنارًا للدعوة إلىٰ الله، وأن يبعد عنها كل ما يخالف ذلك، يبعد عنها الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس ينظرون إليها دائمًا وأبدًا، ما يفعل فيها ينتشر في العالم، فإن كان ما يفعل فيها خيرًا انتشر الخير، وإن كان علىٰ عكس ذلك انتشر الشر.

فيجب أن تطهر مكة دائمًا وأبدًا؛ ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥] فيجب أن تطهر مكة من كل ما يخالف الإسلام حتىٰ يصدر منها الدين والدعوة إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن الله بعث نبيه فيها، وبدأ دعوته فيها عليه الصلاة والسلام، مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، منها عشر يدعو إلىٰ التوحيد وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بشيء غير ذلك، لم يؤمر بصلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حج، بل كانت دعوته مقتصرة علىٰ التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، يقول لهم: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥].

❑ **قوله:** (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ):

■ بقي ﷺ عشر سنين علىٰ هذا ينهىٰ عن الشرك ويدعو إلىٰ التوحيد، يؤسس هذا الأساس، ثم في السنة الحادية عشرة أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، بينما هو ﷺ نائم في بيت أم هانئ جاءه جبريل -عليه الصلاة والسلام- ومعه دابة يقال لها: «البراق»، أقل من البغل وفوق الحمار، ويقع خطوه عند مد بصره، فأركبه عَلَيْهِ السَّلَامُ عليها، وذهب به إلىٰ بيت المقدس في الليل.

أسرى: من السرىٰ وهو: السير بالليل، وهذا من خواصه ﷺ ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام، فالتقىٰ هناك مع الأنبياء في بيت المقدس، ثم إنه ﷺ عُرِجَ به إلىٰ السماء؛ يعني: رفع من بيت المقدس إلىٰ السماء بصحبة جبريل، ومعنىٰ العروج: الصعود.

فأُسْرِيَ به من مكة إلىٰ بيت المقدس، وعرج به من بيت المقدس إلىٰ السماء؛ يعني: صعد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومر بأهل السماوات، كل سماء يستفتح جبريل فيفتح له، ثم انتهىٰ إلىٰ السماء السابعة.

ثم صعد فوق السماوات إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وعندها كلمه الله عَزَّوَجَلَّ من وحيه بما شاء، ففرض عليه الصلوات الخمس، فرضها في اليوم والليلة خمسين صلاة، ولكن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أشار علىٰ نبينا محمد ﷺ بأن يسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه يسأله التخفيف حتىٰ انتهت إلىٰ خمس.

فقال الله عَزَّوَجَلَّ كما في حديث الإسراء والمعراج: «**أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشر**»(١).

وفي رواية أنس عن أبي ذر فقال: «**هي خمس وهي خمسون**»(٢) أي: خمس في العمل، وخمسون في الميزان.

خمس صلوات في اليوم والليلة تعادل خمسين صلاة في الميزان؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالصلاة الواحدة عن عشر صلوات، فالإسراء ذكر أول سورة سبحان، سورة بني إسرائيل، والمعراج ذكر أول سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٣-١٨] هذا في المعراج.

ثم إنه نزل من السماء إلىٰ بيت المقدس، ثم إنه رجع إلىٰ مكة في ليلته، فلما أصبح وأخبر الناس بذلك، المؤمنون زاد إيمانهم، وأما الكفار فزاد شرُّهم، وفرحوا بهذا وراحوا يشهرون به، كيف يزعم صاحبكم أنه ذهب إلىٰ بيت المقدس ورجع منه في ليلة واحدة، ونحن نضرب أكباد الإبل إليها شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا، يقيسون قدرة الخالق بقدرة المخلوق؛ فكان الإسراء والمعراج امتحانًا من الله عَزَّوَجَلَّ للناس، المشركون زاد تندرهم وشرهم وتنقصهم للرسول ﷺ، والمؤمنون زاد إيمانهم.

فلهذا لما قال المشركون لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انظر إلىٰ صاحبك ماذا قال؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، وغيره من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

قال: وماذا قال؟

قالوا: يزعم أنه ذهب به إلىٰ بيت المقدس وعرج به إلىٰ السماء، وإنه جاء في ليلة واحدة.

قال أبو بكر الصديق: إن كان قاله فهو كما قال، لقد صدق.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: أنا أصدقه في ما هو أعظم من ذلك، أنا أصدقه في خبر السماء ينزل عليه؛ فكيف لا أصدقه في الإسراء إلىٰ بيت المقدس.

وهذا بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ لا بقدرة الرسول ﷺ إنما هو بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ وهذا من معجزات هذا الرسول ﷺ ومن كرامته عند ربه عَزَّوَجَلَّ.

ولابد من الاعتقادات بأنه ﷺ أسري وعرج بروحه وجسمه معًا يقظة لا منامًا؛ لأن بعض الناس يقولون: أسري بروحه، وأما جسده فلم يبرح مكة، وإنما أسري وعرج بروحه وهذا كلام باطل، بل إنه أسري بروحه وجسده - عليه الصلاة والسلام - وحمل علىٰ البراق، وكان ذلك يقظة لا منامًا؛ إذ لو كان بروحه فقط أو كان منامًا فما الفرق بينه وبين الرؤيا، والله جل وعلا يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

فالعبد يطلق علىٰ الروح والبدن جميعًا، لا يطلق علىٰ الروح وحدها أنها عبد، ولا يطلق علىٰ البدن وحده أنه عبد، لا يطلق إلا علىٰ مجموع الروح والبدن، لم يقل: سبحان الذي أسرىٰ بروح عبده، بل قال: أسرىٰ بعبده، والعبد هو مجموع الروح والبدن، والله -جل وعلا- لا يعجزه شيء وهو القادر علىٰ كل شيء.

❑ **قوله:** (وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمَسُ وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنينَ)

■ وكان يصليها ركعتين ركعتين فلما هاجر النبي ﷺ أتمت الرباعية إلىٰ أربع إلا الفجر فإنها تطول فيها القراءة فبقيت ركعتين كما هي، وإلا المغرب فإنه ثلاث من أول ما فرضت؛ لأنها وتر النهار، أما الظهر، والعصر، والعشاء، وكانت في مكة ركعتين

ركعتين فلما هاجر النبي ﷺ أتمت أربع ركعات.

كما في الحديث: «**أول ما فرضت الصلاة ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت صلاة الحضر وبقيت صلاة السفر**»(١)، هذا بإجماع أهل العلم: أن الصلاة فرضت بمكة، وأن النبي ﷺ صلاها بمكة، لكن اختلفوا هل هي فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين؟

هذا هو الراجح، كما ذكر الشيخ هنا، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة واحدة، وقيل: بسنة ونصف، لكن الراجح هو ما ذكره الشيخ أنها قبل الهجرة بثلاث سنين.

وهل فرض مع الصلاة شيء آخر من أركان الإسلام؟ هذا محل خلاف بين العلماء، منهم من يرىٰ أن الزكاة فرضت - أيضًا - بمكة وإنما بينت أنصبتها ومقاديرها وأهل الزكاة في المدينة، أما أصل فرضيتها فهو في مكة.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]. والمراد بحقه هنا: الزكاة، والسورة مكية كلها، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج:٢٤،٢٥].

أيضا هذه السورة مكية، والمراد بالحق المعلوم: الزكاة، ففرض أصلها في مكة، لكن بينت تفاصيلها بالمدينة؛ هذا قول.

والقول الثاني: وهو الذي يظهر من كلام الشيخ هنا: أن الزكاة إنما فرضت في المدينة، ولم يفرض في مكة غير الركن الأول وهو التوحيد، والركن الثاني: وهو الصلاة، هذا ظاهر كلام الشيخ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥)، وغيرهما من حديث عائشة ﵂.

[هجرة النبي ﷺ إلى المدينه]

وبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسْلَامِ.

والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ[(١)].

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت:٥٦]

قَالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ الله بِاسْمِ الإِيمَانِ.

والدَّلِيلُ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ ولا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[(٢)].

الشَّرْح

❏ **قوله**: (وبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ)

■ لما اشتد أذىٰ قريش، وزاد شرهم بالصد عن سبيل الله ومضايقة المسلمين،

---

(١) انظر شرح النووي في «الأربعين» فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ قسم الهجرة إلىٰ ثمانية أنواع وأطال الكلام في ذلك وأجاد فعليك به[الدمشقي] .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والدارمي (٢٥١٣)، وغيرهما من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وتعذيب من ليس له جماعة تحميه من مستضعفي المسلمين، أذن الله ﷻ للمسلمين بالهجرة إلىٰ الحبشة، الهجرة الأولىٰ؛ لأن فيها ملكًا لا يظلم أحد عنده وكان نصرانيًا ولكنه كان عادلًا، هاجر منهم نفر كثير، فلما علمت قريش بهجرتهم إلىٰ الحبشة، أرسلوا في طلبهم مندوبين من دهاة قريش أحدهما: عمرو بن العاص، ومعهما الهدايا للنجاشي، وقالوا: إن هؤلاء فروا منا وهم أقاربنا نريد أن يرجعوا وإنهم أشرار؛ لا يفسدون في بلدك... إلخ.

وأعطوه الهدايا التي معهم ليغروه؛ ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدعىٰ المهاجرين وسمع منهم، وخيرهم فاختاروا البقاء في الحبشة، فرجع المندوبان خائبين، وبقي من بقي في الحبشة من المهاجرين.

ثم إن الله منَّ علىٰ النجاشي فأسلم وحسن إسلامه، فلما توفي صلىٰ عليه الرسول ﷺ هو وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ صلاة الغائب، فكان في هجرتهم إليه خيرٌ له أيضًا هداه الله بسببهم فدخل في الإسلام.

ثم لقي النبي ﷺ نفرًا من الأنصار في منىٰ في موسم الحج، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه علىٰ القبائل في موسم الحج، يذهب إلىٰ منازل العرب في منىٰ ويدعوهم إلىٰ الله، وصادف أن لقي أناسًا من الأنصار فدعاهم إلىٰ الله فعرض عليهم ما عنده، فقبلوا من الرسول ﷺ دعوته، وبايعوه علىٰ الإسلام، ورجعوا إلىٰ قومهم من موسم الحج فدعوهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فوافىٰ في الموسم الذي بعده أكثر من الموسم الأول.

جاء ناس من الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية؛ أي: عند جمرة العقبة، بايعوه علىٰ الإسلام، وعلىٰ أن يناصروه إذا هاجر إليهم، وأن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

فعند ذلك؛ أي: بعد هذه البيعة المباركة أمر النبي ﷺ من كان في مكة من المسلمين بالهجرة إلىٰ المدينة، وهاجر من هاجر إلىٰ المدينة، وبقي الرسول وبعض أصحابه، ثم إن الله أذن لنبيه ﷺ بالهجرة.

فلما علمت قريش بهجرة الصحابة إلىٰ المدينة، وعلموا بالبيعة التي حصلت بينه وبين الأنصار، خافوا أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه في المدينة، ويتكون له قوة، وتكون لهم منعة، ففي هذه الليلة التي أراد النبي ﷺ أن يخرج إلىٰ الهجرة جاءوا وحاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهم يريدون الفتك برسول الله ﷺ فأخبر الله نبيه ﷺ فأمر النبي ﷺ عليًا أن ينام علىٰ فراشه حتىٰ يراه المشركون ويظنون أنه النبي ﷺ ، فنام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ فراش رسول الله ﷺ فتغطىٰ بغطاء الرسول ﷺ ، فصار المشركون ينتظرون خروجه علىٰ أنه الرسول ﷺ ، وخرج النبي ﷺ من بينهم وهم لا يشعرون.

أعمىٰ الله بصائرهم عنه، وأخذ ترابًا وذرَّه علىٰ رءوسهم، وخرج من بينهم، وذهب إلىٰ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخرجا فذهبا إلىٰ غار ثور، فاختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريش تطلب من الناس العثور عليه بأي وسيلة: حيًّا أو ميتًا.

فلما يئسوا من العثور عليه بعد البحث والتنقيب؛ أغروا بالجوائز من يأتي به ﷺ حيًّا أو ميتًا، فلما أيسوا خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وركبوا الرواحل وذهبوا إلىٰ المدينة.

قوله: (وَالهِجْرَةُ:...):

- **الهجرة في اللغة:** ترك الشيء.

أما الهجرة في الشرع: فهي -كما عرفها الشيخ- الانتقال من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام، وهذه هي الهجرة الشرعية، والهجرة عمل جليل قرنه الله بالجهاد في كثير من الآيات.

لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة جاء المهاجرون الذين كانوا في الحبشة إلىٰ المدينة واجتمع المسلمون في المدينة، والحمد لله، وتكونت للمسلمين دولة في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومن يسلم يأتي إليهم، عند ذلك شرع الله بقية شرائع الدين، ففرض علىٰ نبيه ﷺ الصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، وفرض عليه

الحج في السنة التاسعة من الهجرة علىٰ الصحيح، وبذلك تكاملت أركان الإسلام، أولها الشهادتان، وآخرها الحج إلىٰ بيت الله الحرام.

والحاصل من هذا: أن نعلم أن التوحيد هو المهمة الأولىٰ في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يبدأ الداعية به قبل أن يبدأ بالصلاة والصيام أو الزكاة أو الحج؛ لأن النبي ﷺ بقي عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بصلاة، ولم يؤمر بزكاة ولا بحج ولا بصيام، وإنما فرضت عليه هذه الفرائض بعد أن تقرر التوحيد.

فالنبي ﷺ كان إذا بعث الدعاة يأمرهم أن يدعو الناس أول ما يدعون إلىٰ التوحيد كما في حديث معاذ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات...**»[1] إلخ الحديث.

فدل علىٰ أنه لا يؤمر بالصلاة ولا الزكاة ولا بالصيام إلا بعد تحقيق التوحيد ووجود التوحيد، وأن من بدأ بغير التوحيد فإن دعوته فاشلة ومنهجه مخالف لمنهج الرسل كلهم.

الرسل كلهم أول ما يبدءون به التوحيد وإصلاح العقيدة، وهذا منهج مهم معرفته للسالكين؛ لأنه كثر اليوم من يعكر علىٰ هذا المنهج فيغير هذا المنهج ويختار منهجًا لنفسه من عنده ومن عند غيره من الجهلة، لا بد من الرجوع إلىٰ منهج الرسول ﷺ وهذه فائدة معرفة الرسول ﷺ وسيرته، وجعل ذلك من الأصول الثلاثة، تعرف كيف دعا الناس، وما منهجه ﷺ في دعوتهم؟ حتىٰ تسير عليه؛ لأنه هو القدوة -عليه الصلاة والسلام.

❑ **قوله:** (والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسْلَامِ...)

■ الهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله، وهي فريضة باقية غير منسوخة، يجب علىٰ كل مسلم يحتاج إلىٰ الهجرة أن يهاجر، ولا يجوز للمسلم أن يقيم في بلاد الكفر وهو

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لا يقدر علىٰ إظهار دينه، فيجب عليه أن يهاجر إلىٰ بلاد المسلمين فهي فريضة باقية؛ لقوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تخرج الشمس من مغربها»**[1].

❑ **قوله**: (والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾):

■ هاتان الآيتان فيهما الوعيد علىٰ من ترك الهجرة وهو يقدر عليها، وأن مأواه جهنم وساءت مصيرًا، وإن كان لا يخرج من الإسلام، لكن هذه من نصوص الوعيد، وإن كان ترك الهجرة فقد ترك واجبًا وكان عاصيًا، ولكن لا يخرج من الإسلام بترك الهجرة، ولكن عليه وعيد شديد.

ثم بين الله بالآية التي بعدها العذر الذي يسقط وجوب الهجرة، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[النساء:٩٨]؛ يعني: الأطفال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، ما عندهم إمكانيات، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: ما يعرفون الطريق إلىٰ البلد - المدينة؛ لأن الهجرة تحتاج إلىٰ سفر، وإلا فإن الإنسان يهلك خلال الهجرة إذا كان لا يعرف الطريق، فعذرهم في أمرين:

الأول: لا يستطيعون حيلة.

الثاني: ولا يهتدون سبيلًا، حتىٰ لو كان عندهم إمكانيات مادية، ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي يسلكونه، من يدلهم؟ هذا هو العذر الصحيح.

أما الإنسان الذي عنده إمكانيات ويعرف الطريق فهذا لا عذر له.

❑ **قوله**: (﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ...﴾):

■ هذه الآية من سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة، وأن أرض الله واسعة، إذا كنت في بلد لا تتمكن من إظهار دينك فيها، فهناك أرض الله واسعة، انتقل منها، لا تبق في هذه البقعة السيئة؛ بل اخرج منها إلىٰ أرض الله الواسعة، قد وسع الله الأرض ﷻ،

(١) سبق تخريجه.

والدليل علىٰ الهجرة من السنة قوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**».

أما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»[1] ظاهر هذا الحديث أن الهجرة انتهت بعد فتح مكة، وظن بعض الناس التعارض بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**».

لكن أهل العلم أجابوا عن هذا الحديث، أن المراد لا هجرة بعد الفتح؛ أي: من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام.

يظنون أن الهجرة باقية من مكة بعد الفتح، فيريدون تحصيل ثواب الهجرة، وأما الهجرة من بلاد الكفر فهي باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، والدليل الآيات السابقة والحديث النبوي السابق، هذا هو الجواب علىٰ هذا الإشكال.

---

(١) سبق تخريجه.

[إكتمال الشريعة]

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلام مِثْلُ: الزَّكَاةِ، والصَّوم، وَالْحَجِّ، وَالجِهَادِ، والأَذَانِ، والأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنْكَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ.

أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنينَ وَبَعْدَهَا تُوُفِّي صَلَوَاتُ الله وسَلَامهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ.

والخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ الله ويَرْضَاهُ.

والشَّرُّ الَّذِي حَذَّر مِنْهُ: الشِّرْك وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ الله ويَأْبَاهُ.

بَعَثَهُ الله إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ الله طَاعَتَهُ عَلَىٰ جَمِيعُ الثَّقَلَينِ: الجِنِّ وَالإِنْسِ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ.

والدَّلِيل: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١) [المائدة:٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﷺ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر:٣١،٣٠].

---

(١) والمراد باليوم يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع هكذا ثبت في «الصحيح» من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمعنىٰ: أن الله تبارك وتعالىٰ أخبر أن هذا اليوم المبارك العظيم أكمل في الدين الذي جاء به خاتم المرسلين فهو غير محتاج إلىٰ إكمال لظهوره علىٰ الأديان كلها وغلبته له، ولكمال أحكامه التي يحتاج إليها المسلمون من حلال وحرام ومشتبه وفرائض وسنن وحدود وأحكام، وقد قالﷺ: «تركتكم علىٰ مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»

وفيه بيان جلي بأن كل ما أحدث في الدين فهو بدعة ضلالة لم يأذن بها الله ولا رسوله، والمنتسب لها ضال مضل زائد علىٰ ما في الكتاب والسنة، اللهم اهد خلقك لدينك الخالص وصراطك المستقيم [الدمشقي].

الشَّرح

❑ **قوله:** (فَلَمَّا استَقَرَّ بالمَدِينَة...):

■ هذا كما سبق بيانه أن الشريعة نزلت بالتدريج حتىٰ تكاملت -ولله الحمد- قبل وفاة النبي ﷺ، وأنزل الله عليه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]، وبعد نزول هذه الآية بمدة يسيرة توفي النبي ﷺ ودينه باق إلىٰ أن تقوم الساعة.

❑ **قوله:** (وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ، والدَّلِيل...):

■ فلم يُتوف ﷺ إلا بعد أن أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، وأنزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ وهو واقف في عرفة في حجة الوداع من يوم الجمعة، وعاش بعدها ﷺ مدة يسيرة وانتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وترك أمته علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وفي هذه الآية شهادة من الله ﷻ علىٰ كمال هذا الدين وشموله لمصالح العباد وحل قضاياهم ومشاكلهم إلىٰ أن تقوم الساعة، وهو صالح لكل زمان ومكان لا يحتاجون بعده إلىٰ شريعة أخرىٰ، أو إلىٰ كتاب ينزل، أو إلىٰ رسول يبعث بعد الرسول ﷺ ، فما من قضية تَجِدُّ وما نازلة تنزل إلىٰ يوم القيامة إلا وفي شريعة محمد ﷺ حلها والحكم فيها؛ ولكن الشأن فيمن يحسن الاستنباط والاستدلال في الأحكام والقضايا، فإذا توفر أهل العلم، وأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد فإن هذه الشريعة كاملة وفيها حل المشاكل كلها، وإنما يحصل النقص من ناحيتنا نحن، من ناحية قصور العلم وعدم إدراك ما أنزل الله -ﷻ، أو من ناحية الهوىٰ بأن يكون هناك هوىٰ يصرف عن الحق، وإلا فهذا الدين صالح وشامل وكامل قد أغنىٰ الله به الأمة الإسلامية إلىٰ أن تقوم الساعة إذا ما عملت به حق العمل، ورجعت إليه في أمورها.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩] الرد إلىٰ الله هو

الرد إلىٰ كتاب الله، والرد إلىٰ الرسول بعد وفاته هو الرد إلىٰ سنته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فهذه الآية فيها رد علىٰ الذين يرمون الشريعة الإسلامية بالقصور أو النقص من الملاحدة والزنادقة أو أنصاف المتعلمين الذين قصرت أفهامهم عن إدراك أسرار هذه الشريعة، فنسبوا القصور إلىٰ الشريعة ولم يعلموا أن القصور من عندهم هم، ففيها رد علىٰ من اتهم الشريعة بالنقص، وأنها لم تتناول حاجات العباد، ومصالح العباد إلىٰ أن تقوم الساعة.

أو قال: إنها مخصوصة بالزمان الأول؛ لأن كثيرًا من الجهال إذا قيل لهم هذا الحكم الشرعي قالوا: هذا زمان الرسول والزمان الأول، أما الآن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، والأحكام الشرعية هذه لأناس مضوا ولمشاكل انتهت، يقولون هذا، وهذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ وتكذيب لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] أكمل الله الدين لهذه الأمة إلىٰ أن تقوم الساعة لكل زمان ولكل مكان ولكل جيل من الناس.

وفيها رد -أيضًا- علىٰ المبتدعة الذين يحدثون عبادة من عند أنفسهم وينسبونها إلىٰ الدين وليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ابتدعوها باستحسانهم أو بتقليدهم لمن يحسنون به الظن من المخرفين، وأصحاب المطامع والشهوات، فيحدثون في الدين عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(٢).

فالذي يحدث عبادات ليس لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله؛ فإنه مُتَّهِمٌ لهذا الدين بعدم التمام، وهو يريد أن يكمل الدين من عنده، ولا يعترف بتكميل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الله له، فما لم يكن دينًا في عهد النبي ﷺ؛ فإنه لا يكون من بعده دينًا أبدًا، فهذا رد علىٰ هذه الطوائف.

الطائفة التي تقول: إن الإسلام لا يصلح لكل زمان، أو الذين يبتدعون البدع المحدثات التي ليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله وينسبونها إلىٰ الدين ففي هذه الآية رد عليهم؛ لأن الدين أكمله الله ﷻ، فلا مجال للزيادة فيه، ولا النقصان، ولا مجال للتشكيك والتلبيس بأنه لا يصلح لأهل الزمان المتأخر: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذا كلام الله ﷻ وهو أصدق القائلين وقال تعالىٰ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هذا آخر ما نزل علىٰ النبي ﷺ، وهو شهادة من رب العاملين لهذا الدين بالكمال والشمولية والصلاحية لكل زمان ومكان.

فقوله تعالىٰ خطاب لهذه الأمة من أولها إلىٰ آخرها ليس خطابًا للجيل الأول فقط إنما هو خطاب لكل الأمة إلىٰ أن تقوم الساعة.

أما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علىٰ وفاته ﷺ لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول ﷺ ما مات، وينفون الموت عن الرسول ﷺ هذا كلام ساقط كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسول ﷺ توفي بين أصحابه وغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفِنَ -عليه الصلاة والسلام.

هل هذه الأعمال تعمل مع إنسان حي؟! عومل ﷺ معاملة الأموات غُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ثم دُفِنَ ﷺ في قبره.

هذه سنة الله ﷯ في خلقه، ثم أين الرسل الذين من قبله؟ سنته سنة الرسل الذين من قبله، وقد ماتوا وهو واحد منهم يموت، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون علىٰ الرسول ﷺ ويستغيثون به من دون الله ويقولون: هو حي.

❏ **قوله:** (وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﷺ **قوله:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ...﴾).

■ النبي ﷺ لما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة توفاه إليه كما هي سنة الله ﷻ

في خلقه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] والأنبياء والرسل داخلون في هذا العموم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فالنبي ﷺ قد توفِّي، وانتقل من هذه الدنيا إلىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ.

وهذا ثابت بالنص، والإجماع، والقياس، أما النص ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠] هذا إخبار من الله لرسوله ﷺ أنه سوف يموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾؛ أي: تموت فيقال للذي يموت: هذا مَيِّت، وأما الذي توفي بالفعل يقال له: مَيْت بالتخفيف؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فالمَيْت هو الذي فارقت روحه جسده، أما المَيِّت فهو الذي سيموت في المستقبل.

[البعث وحكم من أنكره]

والنَّاسُ إذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح:١٧،١٨].

وَبَعْدَ الْبَعْث مُحَاسَبُونَ وَمَجْزيُّونَ بِأَعْمَالِهِم.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١].

ومَنْ كَذَّبَ بالبَعْثِ كَفَرَ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن:٧].

الشَّرح

☐ **قوله**: (والنَّاسُ إذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ...):

■ انتقل إلىٰ أصل آخر، وهو الإيمان بالبعث؛ أي: أنه ليس المراد موت فقط، نحن علمنا وكل يعلم حتىٰ الكفار والملاحدة والزنادقة، كلهم يعلمون أنه لا بد من الموت، لا أحد ينكر الموت؛ لأنه شيء محسوس، لكن الشأن في البعث بعد الموت، هذا هو محل النزاع بين المؤمنين والكفار، البعث بعد الموت، وهو إعادة الأجسام التي تفتت وصارت رميمًا وترابًا وتفرقت في الأرض، تعاد وتبنىٰ كما كانت؛ لأن القادر علىٰ إنشائها أول مرة قادر علىٰ إعادتها، ثم تنفخ فيها الأرواح، ثم تتحرك وتسير من القبور إلىٰ المحشر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٧،٨] لا أحد يتخلف، فهذا البعث حق لا ريب فيه، ومن أنكره فهو كافر بالله عَزَّوَجَلَّ والإيمان بالبعث هو أحد الأركان الستة للإيمان التي قال فيها النبي ﷺ: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[1].

فمن لم يؤمن بالبعث واليوم الآخر فإنه يكون كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ ولو شهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولو صلىٰ وصام وحج وزكىٰ وفعل الطاعات، فإذا أنكر البعث أو شك فيه؛ فإنه يكون كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

وأدلة البعث كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه:٥٥]؛ يعني: الأرض حينما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبا البشرية ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾؛ يعني: بعد الموت في القبور ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ هذا هو البعث.

فهذه الآية تضمنت البدء والإعادة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٥٥].

❑ **قوله**: (وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾):

■ ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ [نوح:١٧] حينما خلق منها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ [نوح:١٨] أي: بالموت والقبور ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ هذا هو البعث، يخرجون من القبور ويسيرون إلىٰ المحشر، قال تعالىٰ: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ [الأعراف:٢٥]؛ أي: تحيون علىٰ ظهرها، وفيها تموتون ومنها تخرجون للبعث يوم القيامة.

هذه أدلة من القرآن علىٰ البعث، أيضًا يوجد دليل عقلي من القرآن نفسه وهو: أن الذي قدر علىٰ البداءة قادر علىٰ الإعادة من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم:٢٧] الذي قدر علىٰ إيجاد الناس من عدم قادر علىٰ إعادتهم بعد

---

(١) سبق تخريجه.

الموت من باب أولى، هذا دليل سمعي عقلي.

ومن الأدلة على البعث: ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، أنت ترى الأرض ميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم إن الله ﷻ يُنزل عليه المطر، ثم يُنبت النبات الذي كان هشيمًا ميتًا، كذلك الأجسام في الأرض كانت مخزنة في الأرض فينزل الله عليها مطرًا، ثم تنبت الأجسام وتتكامل، ثم تنفخ فيها الأرواح، فأنتم ترون الأرض كيف تكون قاحلة، ثم تحيا بما نبت فيها.

الله -جل وعلا- هو الذي يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]، فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها؛ لأن الكل أحياء بعد الموت.

ومن الأدلة على البعث: أنه لو لم يكن هناك بعث؛ للزم أن يكون خلق الناس عبثًا حيث إنهم يعيشون. منهم المطيع المتقي المؤمن بالله ورسله، ومنهم الكافر الملحد والزنديق، والجبار، والمتكبر، والعاصي، كلهم يعيشون ثم يموتون دون أن ينال هذا المؤمن شيئًا من جزائه أو ينال هذا الكافر، وهذا الزنديق، وهذا الملحد، وهذا الطاغية المتجبر على الناس دون أن ينال جزاءه.

فهل يليق بالله أن يترك الناس هكذا دون أن يجازي أهل الإيمان بإيمانهم، وأهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإجرام والكفر بإجرامهم وكفرهم؟! هذا لا يليق بحكمة الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١] هذا لا يكون إلا في يوم القيامة، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

وقال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨].

وقال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

ورد علىٰ الكافر الذي قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس:٧٨] بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾ [يس:٧٩،٨٠] الذي قدر علىٰ إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب الذي قدر علىٰ هذا، ألا يقدر علىٰ إحياء الأموات؟!

ومن أدلة البعث: الاستدلال بخلق السماوات والأرض، فالذي خلق هذه المخلوقات الهائلة العظيمة الكبيرة قادر علىٰ أن يعيد الإنسان؛ لأن القادر علىٰ الشيء العظيم يقدر علىٰ ما دونه من باب أولىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ [يس:٨١].

وقال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر:٥٧].

فهذه أدلة البعث التي تثبت أن الله ﷻ يبعث من في القبور، وأنه يجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فليكفر الكافر، وليفسق الفاسق، والزنديق، والملحد فإن أمامه البعث والنشور والجزاء والحساب.

أما المؤمن المتقي الذي يعبد الله، ويتقرب إلىٰ الله؛ فإن عمله لن يضيع، فإن هناك موعدًا يوفيه الله فيه عمله ويضاعف له أجره ويعطيه ما لم يقع في ظنه وحسبانه.

❑ **قوله**: (وَبَعْدَ الْبَعْث مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم...)

■ من أعمال يوم القيامة الحساب والميزان، الحساب بمعنىٰ مناقشة أهل المعاصي.

فالمسلمون على أقسام يوم القيامة:

القسم الأول منهم: من لا يحاسب ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، كما في حديث «السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب»[(١)].

القسم الثاني من الناس: من يحاسب حسابًا يسيرًا وهو العرض فقط، لا يحاسب حساب مناقشة وإنما يحاسب حساب عرض فقط، وهذا -أيضًا- من السعداء، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾[الانشقاق:٧-٩].

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة وهذا تحت الخطر لقوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»[(٢)].

أما الكفار فقد اختلف العلماء فيهم هل يحاسبون، أو لا يحاسبون، فمن العلماء من يقول: إن الكفار لا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات، وإنما يذهب بهم إلىٰ النار؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ومن العلماء من يقول: إنهم يحاسبون حساب تقرير؛ أي: بأعمالهم وكفرهم وإلحادهم، ثم يذهب بهم إلىٰ النار.

والميزان: معناه الآلة التي توزن بها أعمال العباد توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾[الأعراف:٨،٩]، فإذا ثقلت السيئات خسر الإنسان، وإذا ثقلت الحسنات ربح الإنسان.

هذا الميزان ميزان الأعمال، كذلك من أوتي كتابه بيمينه فحسابه يسير، ومن أوتي كتابه بشماله فحسابه عسير، وسيرىٰ الأهوال والأخطار جسيمة، ومن خطر إلىٰ خطر في مواقف القيامة والحساب والحشر، هذه أمور هائلة لو فكرنا فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

❑ قوله: (ومَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، والدَّليلُ قولُهُ تعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾):

■ لأنه جحد ركنا من أركان الإيمان، ولأنه مكذب لله ولرسله ولكتبه؛ لأن الله -جل وعلا- أخبر عن البعث، والرسل أخبرت عن البعث، والكتب أخبرت عن البعث، فمن أنكره فهو كافر، والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ﴾ الزعم: هو الكذب، ﴿أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾.

فدلت الآية علىٰ أن إنكار البعث كفر، يقولون: ليس بعد الموت بعث، المشركون وعبدة الأصنام في عهد النبي ﷺ كانوا يجادلون بالبعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢﴾ [النازعات:١١، ١٢] وقالوا: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس:٧٨].

ومن مجادلتهم: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ [المؤمنون:٣٥، ٣٦] إلىٰ غير ذلك من مقالات الكفار من الأمم السابقة، ومن المشركين في عهد النبي ﷺ، فمن كذب بالبعث؛ فهو مع هؤلاء الكفرة.

لا ينكر البعث إلا كافر، ولقد أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ أن يقسم به علىٰ البعث، قال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [سبأ:٣] هذا قسم، ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡ﴾ [التغابن:٧] هذه الآية إحدىٰ الآيات الثلاث التي أمر الله نبيه فيها أن يقسم علىٰ البعث.

الآية الأولى: في سورة يونس: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس:٥٣].

الثانية: في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [سبأ:٣، ٤]، فالله أمر نبيه أن يقسم به علىٰ البعث وعلىٰ قيام الساعة.

الآية الثالثة: هي التي معنا من سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن:٧]. فالحكمة من البعث هي جزاء العباد علىٰ أعمالهم، وقوله تعالىٰ: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾؛ أي: لتخبرن بأعمالكم وتجازون بها.

[جميع الرسل مبشرين ومنذرين]

وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

وَأَوَّلُهُم نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ ﷺ.

والدَّلِيلُ: عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَهم نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[(١)] [النساء:١٦٣].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ؛ يَأْمُرُهُم بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ، ويَنْهَاهُم عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ.

والدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

الشَّرح

❑ **قوله**: (وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...):

■ الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة، قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله**

(١)الآية لا تدل علىٰ أن أول رسول نوح، بل الذي تدل عليه أن الله -جل ذكره - أخبر أنه أوحىٰ إلىٰ رسوله محمد ﷺ، كما أوحىٰ إلىٰ نوح ومن بعده من النبيين أيضًا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل و... إلخ ما ذكره في الآية، وقد أخبر الله بعد هذه الآية بأنه قص علىٰ رسوله محمد ﷺ في القرآن رسلًا وترك رسلًا لم يقصصهم عليه، وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أبي ذر قال: قلت: «يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير، قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله، نبي مرسل، قال: نعم خلقه الله بيده»، الحديث، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقد روىٰ هذا الحافظ أبو حاتم البستي في كتابه «الأنواع والتقاسيم» وقد وسمه بالصحيح.ا هـ [الدمشقي].

وملائكته وكتبه ورسله».

فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان؛ فلا بد من الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم، فمن جحد رسولًا واحدًا منهم فهو كافر بالجميع كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾[النساء:١٥٠،١٥١].

فلابد من الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، من سمىٰ الله منهم في كتابه ومن لم يسم، فإن الرسل كثيرون؛ ولهذا جاء في الحديث: «أن عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا»[(١)].

فهم رسل كثيرون منهم من سمىٰ الله في كتابه ومنهم من لم يسم؛ فيجب علينا الإيمان بجميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم.

❑ **قوله**: (**وَأَوَّلُهُم نُوحٌ** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ** ﷺ):

■ الدليل علىٰ أن أولهم نوح: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[النساء:١٦٣]، هذا خطاب للنبي ﷺ: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾[النساء:١٦٣] ذكر الله جملة من أسمائهم في هذه الآية.

كما ذكر جملة من أسمائهم في آية الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾[الأنعام:٨٤] إلىٰ آخر الآيات.

فأولهم نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾بعثه الله إلىٰ قومه لما غلوا في الصالحين بعد أن كان الناس علىٰ دين التوحيد منذ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ عشرة قرون وهم علىٰ التوحيد، فلما جاء قوم نوح كان فيهم رجال صالحون، فلما مات هؤلاء الصالحون حزنوا حزنًا شديدًا، فانتهز الشيطان هذه

---

(١) سبق تخريجه.

الفرصة وقال لهم: صوروا صور هؤلاء الصالحين وانصبوها علىٰ مجالسكم؛ من أجل إذا رأيتم هذه الصور تتذكرون أحوالهم وتنشطون علىٰ العبادة، فقاموا وصوروا صور هؤلاء الموتىٰ، ونصبوها علىٰ المجالس، فلم تعبد في أول الأمر لوجود العلماء الذين يبينون للناس التوحيد وينكرون الشرك.

فلما مات العلماء وذهب الجيل الأول، جاء جيل متأخر وقد مات العلماء، جاء الشيطان إليهم فقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فزين لهم عبادتها فعبدوها من دون الله، ومن ثم حدث الشرك في الأرض، فبعث الله نبيه نوحا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويردهم إلىٰ التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لكنهم عاندوا واستكبروا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين، صوروا صورهم ونصبوها علىٰ مجالسهم فآل بهم الأمر إلىٰ أن عبدوها من دون الله.

فلما جاءهم نوح -عليه الصلاة والسلام- ونهاهم عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله، قالوا: لا تذرون آلهتكم، لا تطيعوا نوحًا، واستمروا علىٰ كفرهم وطغيانهم وعنادهم.

هذا أول شرك حدث في الأرض وسببه الصور؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون**»(١) وقال ﷺ: «**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(٢) يؤمرون بنفخ الروح في هذه الصور من باب التعجيز والتعذيب لهم والعياذ بالله؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك كما حصل لقوم نوح.

فأول الرسل نوح، وأما خاتم الرسل وآخرهم فهو محمد ﷺ قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال ﷺ: «**وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»[١].

فبه ﷺ ختمت الرسالات السماوية فلا يبعث بعده نبي إلىٰ أن تقوم الساعة؛ ولكن شريعته باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، ودينه باق إلىٰ أن تقوم الساعة كما سبق؛ فمن ادعىٰ النبوة بعد محمد ﷺ فهو كافر، ومن صدقه فهو كافر بالله؛ لأنه لا نبي بعده ﷺ.

وقد ادعىٰ النبوة بعده خلق كثير وفضحهم الله وأظهر كذبهم، ومن آخرهم -فيما نعلم- القادياني، غلام أحمد القادياني الهندي، الذي كان في الأول يدعي العلم والعبادة، ثم ادعىٰ أنه عيسىٰ بن مريم، ثم ادعىٰ النبوة، والآن له أتباع يسمون بالقاديانية.

وقد كفرهم المسلمون ونابذوهم واعتبروهم فرقة كافرة خارجة عن الإسلام، وهم منابذون ومطاردون -ولله الحمد- من بلاد المسلمين، ولهم نشاط؛ ولكن نشاطهم يبوء بالفشل.

الحاصل: أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ من ادعىٰ النبوة فهو كذاب، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**»[٢].

المتنبئون كثيرون؛ ولكن الله يفضح أمرهم ويكشف سترهم ويبين خزيهم للناس، ومن صدقهم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ﷺ ولإجماع المسلمين علىٰ ختم النبوة بمحمد ﷺ.

❑ **قوله**: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا يَأْمُرُهُم بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ):

■ **أي**: كل أمة من الناس يبعث الله إليها رسولًا ليقيم الحجة عليهم؛ لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥] فكل أمة من الأمم السابقة يبعث الله إليها رسولًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وغيرهما من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٩م)، ومسلم (١٨/ ٤٢/ برقم ٨٤/ ١٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[فاطر:٢٤].

لكن يجب أن نعرف ما هي دعوة الرسل؟ دعوة الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم هي إلىٰ التوحيد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦] فكل ما عبد من دون الله طاغوت، كما يأتي في أنواع الطواغيت أن من أنواعهم ما عبد من دون الله وهو راض بذلك كما سيأتي.

فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: اجتنبوا عبادة الأوثان والأصنام والقبور والأضرحة هذه هي الطواغيت، فدلت الآية الكريمة علىٰ أن دعوة الرسل كلها تتركز علىٰ التوحيد من أولهم إلىٰ آخرهم.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء:٢٥]، وقوله: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾[النحل:٢].

فدعوة الرسل كلهم إلىٰ التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، والنهي عن الشرك، هذه هي دعوة الرسل، ثم بعد التوحيد تأتي الشرائع من الحلال والحرام، وتفاصيل الشرائع تختلف باختلاف الأمم وحاجة الأمم، وينسخ الله منها ما يشاء، ثم نسخت كلها بشريعة الإسلام الحلال والحرام والأحكام والعبادات والأوامر والنواهي، أما الأصل وهو التوحيد فهذا لا اختلاف فيه ولا نسخ، هذا دين واحد دين الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم دينهم واحد.كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨].

ودين التوحيد هو عبادة الله بما شرع في كل وقت بحسبه، فإذا نسخ هذا الشرع انتقل إلىٰ الناسخ، فمن أصر وبقي علىٰ المنسوخ وترك الناسخ فإنه يكون كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الدين المنسوخ لا يكون دينًا بعد نسخه، وإنما هو دين قبل أن ينسخ، فإذا نسخ فلا يكون دينًا ويكون الدين هو الناسخ؛ فلهذا نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع، فمن بقي علىٰ اليهودية أو النصرانية بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ انتهىٰ وقته.

[الإيمان بالله والكفر بالطاغوت]

وَافْتَرَضَ الله عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ والإِيمَانَ بالله.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ الطَّاغُوت: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِن مَعْبُودٍ أَو مَتْبُوعٍ، أَو مُطَاعٍ.

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ وَرُءُوسُهُمْ خَمْسَةٌ:

إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله، ومَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَىٰ شَيئًا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦] وهَذَا مَعْنَىٰ لَا إِلهَ إِلَّا الله.

وَفِي الحَدِيثِ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ وَذُرُوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله**»(١)(٢). والله أَعْلَمُ، وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.

---

(١) **المعنىٰ**: أن رأس هذا الأمر المسئول عنه الإسلام، ومن أسلم بأن نطق بالشهادتين سلم في الدنيا بحقن دمه، وفي الآخرة بالفوز بالجنة والتمتع بنعيمها، وعموده الذي يقوم به الصلاة فإن قيام شعائر الدين بها، كما أن العمود المحسوس هو الذي يقيم البيت، وذروة سنامه؛ أي: أعلىٰ مكان فيه وأحسنه الجهاد، فهو أعلىٰ العبادات من حيث إن به ظهور الدين وحمايته من العابثين، ومن ثم كان لا يناله إلا أفضلهم دينًا، وأجرأهم إقدامًا، وأصبرهم ثباتًا، وأقواهم إيمانًا، وأقربهم تصديقًا، وأصلبهم في دين الله تعالىٰ فهو أعلىٰ من هذه الجهة وإن كان غيره أعلىٰ من جهة أخرىٰ ولكن هذا في غير زمننا الذي نحن فيه القرن الرابع عشر الذي ترك فيه الجهاد رأسًا بكل أنواعه وأسبابه؛ ولذلك استحوذ علينا العدو من كل جهة نستنصر فلا ننصر، ونستغيث بالله تعالىٰ فلا نغاث، ونستشفع بأعمالنا فلا نشفع، وندعو فلا يستجاب لنا إلىٰ متىٰ ونحن في رقود؟ إلىٰ متىٰ ونحن في غفلة؟ إلىٰ متىٰ ونحن في تأخر عن الدين وإقبال علىٰ الدنيا الدنية؟ إلىٰ متىٰ ونحن في إعراض عن العمل بما جاء به ديننا الحنيف والانكباب علىٰ المعاصي والبدع الذميمة، ألم يكف أن يكون ما فعل في الغرب بالبربر المسلمين وفي برقة بالطرابلسيين أخيرًا منبهًا لنا، اللهم شكرا لك لا كفرًا، اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين [الدمشقي].

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

الشرح

❏ قوله: (وَافْتَرَضَ الله عَلَىٰ جَمِيعِ...):

■ ثم ذكر تعريف الطاغوت، فالطاغوت ذكره الله -جل وعلا- في آيات كثيرة منها قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[البقرة:٢٥٦،٢٥٧].

وفي سورة النساء، قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[آل عمران:٢٣] وهذه الآية في اليهود.

ويقول سبحانه في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠]، وفي سورة النحل يقول -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦] الطاغوت: مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، يقال: طغىٰ الماء إذا ارتفع منسوبه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾[الحاقة:١١].

❏ قوله: (قَالَ ابنُ القَيِّم: الطَّاغُوت...):

■ أما معنىٰ الطاغوت في الشرع فهو كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونقله عنه الشيخ هاهنا.

الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده، العبد له حد لأنه عبد حدد الله له حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، فإذا تجاوزها فإنه يكون طاغوتًا، فمن تجاوز حدود الله التي حددها لعباده وأمرهم ألَّا يتجاوزوها وألا يقربوها فهو طاغوت، فإذا عصىٰ الله

وتجاوز حدوده وطغىٰ فإنه يسمىٰ طاغوتًا لأنه طغىٰ وتعدىٰ حدود الله.

فقوله: «ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع».

هذا التعريف الشامل للطاغوت؛ لأن الله -جل وعلا- أمر بعبادته وحده لا شريك له، وأمر باتباع رسوله ﷺ وأمر بطاعته وطاعة رسوله فيما حلل وحرم، فمن تجاوز هذا الأمر فهو طاغوت، من تجاوز حد العبادة التي أوجبها الله واختص بها ونفاها عن غيره، فعبد مع الله غيره فهو طاغوت، المشرك طاغوت؛ لأنه تجاوز الحد في العبادة وعبد مع الله غيره، صرف العبادة لغير مستحقها.

وكذلك من عُبِدَ وهو راض، الذي يعبده الناس بهذا ويفرح ويترأس بهذا الشيء ويتزعم هذا طاغوت، مثل: فرعون، والنمرود، ومشايخ الطرق الصوفية الغلاة الذين يعبدهم أتباعهم ويرضون بذلك، أو يدعون الناس إلىٰ هذا؛ أي: إلىٰ أن يعبدوهم كما سيأتي، فهذا طاغوت في العبادة.

قوله: «أو متبوع»: الله -جل وعلا- أمر جميع الخلق أن يتبعوا محمدًا ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يتبع غيره عليه الصلاة والسلام، فمن اتبع غير الرسول ﷺ وزعم أن هذا جائز فإنه يكون طاغوتًا؛ لأنه اتبع غير الرسول ﷺ الذي أمر باتِّباعه.

فالاتباع خاص بالرسول ﷺ أما غيره من العلماء والدعاة فهؤلاء يتبعون إذا اتبعوا طريقة الرسول ﷺ.

فالمتَّبَعُ هو الرسول ﷺ أما هؤلاء فإنهم مبلغون فقط يتبعون للحق وما وافقوا فيه اتباع الرسول ﷺ وما خالفوا فيه الرسول فلا يجوز اتباعه.

مثال ذلك: مشايخ الطرق الصوفية، يتبعهم مريدوهم وعبيدهم في غير طاعة الرسول ﷺ بل يقولون: إننا لسنا بحاجة إلىٰ الرسول ﷺ نحن نأخذ مما أخذ منه الرسول ﷺ ونتلقىٰ عن الله مباشرة، الرسول ﷺ يتلقىٰ عن الله بالواسطة، بواسطة جبريل، ونحن نتلقىٰ عن الله مباشرة، ويقولون: أنتم تروون دينكم عن ميت، ونحن نروي ديننا عن الله ﷻ؛ لأنهم يزعمون أن شيوخهم يتصلون بالله ويتلقون من الله مباشرة.

بلغ بهم الحد إلىٰ هذا الطغيان والعياذ بالله، هذه طريقتهم، لا شك أن هؤلاء هم رءوس الطواغيت والعياذ بالله؛ لأنه لا طريق إلىٰ الله -جل وعلا- إلا باتباع رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

فالذي يتبع غير الرسول هذا يعتبر طاغوتًا، وكذلك من يدعو إلىٰ اتباعه ويقول للناس: أنا آتيكم بالأمر من الله مباشرة، هذا أكبر الطواغيت في العالم والعياذ بالله.

قوله: «أو مطاع»: الطاعة إنما هي لله ولرسوله بما حلل وحرم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

فالحلال: ما أحله الله، والحرام: ما حرمه الله، وليس لأحد أن يشارك الله في التحليل والتحريم؛ ولذلك حكم الله علىٰ من حلل وحرم أو أطاع من فعل ذلك بأنه مشرك.

قال ﷻ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٨، ١١٩] ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠، ١٢١].

لأن أهل الجاهلية يقولون: الميتة حلال لأن الله هو الذي ذبحها، فهي أولىٰ بالحل مما ذبحتم وذكيتم، فالله -جل وعلا- يقول: لا تأكلوا إلا ما ذُكِّي ذكاة شرعية، وحرم عليكم الميتة.

وهؤلاء يقولون: لا، الميتة حلال هي أولىٰ بالحل من المذكاة لأن المذكاة

ذكيتموها أنتم، وأما الميتة فالله هو الذي ذبحها.

ولهذا رد على المشركين وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١] أي: خروج عن طاعة الله سبحانه عَزَّوَجَلَّ وقال بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يقولون: الميتة ذبحها الله، والمذكاة أنتم ذبحتموها فكيف تستحلون ما ذبحتم ولا تستحلون ما ذبحه الله؟ هذا مجادلة بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١٢١] هذا من شرك الطاعة، التحليل والتحريم حق لله جل وعلا.

فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه، أو يطيع من حلل أو حرم من عنده نفسه، ومن فعل ذلك فإنه طاغوت ومطيع للطواغيت الذين يحللون ويحرمون من دون الله، هذا معنى قوله: أو مطاع؛ أي: مطاع في التحليل والتحريم؛ لأن التحليل والتحريم حق لله جل وعلا، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ما حلل وحرم.

❏ **قوله:** (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ، وَرُءوسُهُمْ خَمْسَةٌ):

■ **الطواغيت الذين ينطبق عليهم هذا التعريف:** كل معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاعٍ كثيرون؛ ولكن رءوسهم خمسة؛ يعني: أكابرهم خمسة.

❏ **قوله:** (إِبليس لَعَنَه الله):

■ **أي:** طرده الله وأبعده عن رحمته بسبب أنه امتنع من السجود لآدم وعصى الله تَعَالَى وتكبر وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢] فعصى أمر الله وتكبر فلعنه الله وطرده وأبعده، وسمي إبليس قيل: لأنه أبلس من الرحمة، يعني: يئس من الرحمة، فالْمُبْلِس هو: اليائس من الشيء، فإبليس لعنه الله رأس الطواغيت؛ لأنه هو الذي يأمر بعبادة غير الله، وهو الذي يأمر باتباع غير رسول الله ﷺ وهو الذي يأمر بطاعة غير الله بالتحليل والتحريم، فإبليس هو: مصدر الشر، وهو رأس الطواغيت.

❑ **قوله**: (من عُبِدَ وهو راضٍ):

■ **أي**: عبد وهو راضٍ بعبادة الناس له فهو طاغوت، أما من عبد وهو غير راض بذلك فلا يدخل في هذا؛ لأن عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- عبد من دون الله ولكنه غير راضٍ بذلك، وأمه وعزير والأولياء والصالحون من عباد الله لا يرضون بهذا، بل كانوا ينكرون هذا ويحاربون من فعله، فمن عبد وهو غير راضٍ بذلك فإنه لا يسمىٰ طاغوتًا.

ولذلك لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨] فرح المشركون، وقالوا: نحن نعبد المسيح ونعبد ونعبد، إذًا هم معنا في النار، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:١٠١، ١٠٢].

وفي الآية الأخرىٰ قالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف:٥٨]؛ يعنون عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف:٥٨، ٥٩].

فهو عبد لله ولا يرضىٰ أن يعبد من دون الله بل بعثه الله بإنكار ذلك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧] فالذي عبد وهو غير راض بذلك، لا يدخل في هذا الوعيد، ولا يكون طاغوتًا؛ لأنه منكر لذلك؛ لأن الطاغوت هو: الذي يرضىٰ بأن يعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

❑ **قوله**: (مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ):

■ مثل رءوس المشركين الذين يدعون الناس إلىٰ عبادة أنفسهم مثل: فرعون قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

ومثل: النمرود، ومثل: غلاة الصوفية الذين يدعون الناس إلىٰ عبادتهم حتىٰ إنهم يوصون الناس أن يعبدوهم بعدما يموتون فيقول أحدهم: إذا أعيتكم الأمور فأتوا

إلىٰ قبري؛ أي: إذا أعجزتكم الأمور فأتوا إلىٰ قبري ولا يحول بينكم وبيني حفنة من التراب.

يوصون الناس أن يأتوا إلىٰ قبورهم ويعدونهم أنهم سيقومون بحوائجهم، فمن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه حيًا وميتًا فهو من رءوس الطواغيت، وكذلك من دعا الناس إلىٰ عبادة غيره من الطواغيت وهم دعاة الشرك، هؤلاء طواغيت، الذين يزينون الشرك للناس ويسمونه بغير اسمه ويقولون: هذا من باب التوسل، أو هذا من باب الشفاعة وهم كثير.

إن هؤلاء طواغيت؛ لأنهم يدعون إلىٰ الشرك، فهم يدعون إلىٰ عبادة غير الله ويسمون ذلك بغير اسمه، ويزينونه للناس بالشبهات وزخرف القول هؤلاء هم الطواغيت، دعاة الشرك طواغيت، وكل من عبد من دون الله ورضي بذلك، أو دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه، أو دعا الناس إلىٰ عبادة غير الله فإنه من الطواغيت، بل هو من رءوس الطواغيت نسأل الله العافية.

□ قوله: (مَنِ ادَّعَىٰ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ):

■ وهذا يدخل فيه السحرة، والمنجمون، والكهان، والرمالون، وكل من يدعي أنه يعلم الغيب ويقول للناس: سيحصل لكم كذا وكذا، أنت سيحصل لك سعادة أو يحصل لك شيء من التعب، أو توفق في زواج أو لا توفق هؤلاء يدعون علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾[النمل:٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾[الجن:٢٦، ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[الأنعام:٥٩].

﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: هذا حصر فلا يعلم الغيب إلا الله، من أطلعه الله علىٰ شيء

من الغيب من رسله لأجل مصلحة البشر ومعجزة للرسول، لكن لم يعلم الغيب من ذات نفسه وإنما علمه للغيب من تعليم الله له، فلا يعلم الغيب إلا الله فمن ادعىٰ علم الغيب فإنه يكون مشاركًا لله فيما اختص به سبحانه، فيكون مشركًا وطاغوتًا وكافرًا، وهذا من أعظم أنواع الردة عن الإسلام.

❑ قوله: (مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله):

■ ودليله: قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٦٠]، فالذي يحكم بغير ما أنزل الله مستحلًا لذلك؛ يكون طاغوتًا، والذي يقول: إنه يجوز أن يتحاكموا إلىٰ القانون، أو إلىٰ العوائد في الجاهلية، أو عوائد القبائل والبادية ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال، أو: هذا يساوي ما أنزل الله، فإذا قال: إنه أحسن مما أنزل الله، أو يساوي ما أنزل الله، أو قال: إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي، ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن.

قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا؛ لأنه تجاوز حده.

أما من حكم بغير ما أنزل الله وهو يقر أن ما أنزل الله هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافرًا الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، لكنه علىٰ خطر عظيم، علىٰ طريق قد يصل به إلىٰ الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.

وأما من حكم بغير ما أنزل الله عن غير تعمد بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء واجتهد ولكن لم يصب حكم الله، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له.

قال ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»(١)؛ لأنه لم يتعمد الخطأ هو يريد الحق ويريد موافقة حكم الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وغيرهما، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه علىٰ الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه علىٰ الخطأ.

ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطئوا فيها أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلىٰ الحق ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور.

☐ **قوله**: (وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾):

■ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ معناه: أن أحدًا لا يكره علىٰ الدخول في الإسلام؛ لأن الدخول في الإسلام لابد أن يكون عن اقتناع واعتقاد بالقلب، ولا يكره عليه أحد، لا يمكن هذا؛ لأن القلوب لا يتصرف فيها إلا الله ﷻ لا يُكرَه أحد إلىٰ الإسلام؛ لأننا لا نملك القلوب، وإنما الله -جل وعلا- هو الذي يملكها ويتصرف فيها ولكن نحن ندعو للإسلام ونرغب فيه.

نجاهد في سبيل الله من كفر؛ لأجل نشر الإسلام وإتاحة الفرصة لمن يريد أن يسلم، ولأجل قمع أعداء الله، أما الهداية فهي بيد الله ﷻ لا أحد يكره علىٰ الإيمان والإسلام، وإنما هذا شيء راجع إليه هو.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ فالإسلام -ولله الحمد- ليس فيه ما يكره بل كله محبوب ومرغوب، والكفر والشرك كله شر وكله مكروه، قد تبين هذا من هذا، تميز الرشد وهو الحق، من الغي وهو الباطل، والإنسان عنده عقل وعنده تفكير يوازن بين الحق والباطل، سيهديه تفكيره إن كان سليمًا وسالمًا من الهوىٰ والدوافع، سيهديه تفكيره السليم إلىٰ قبول الحق بدون أن يكره، هذا قول في الآية.

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب لا يجبرون علىٰ الدخول في الإسلام، بل إذا أرادوا البقاء علىٰ دينهم مكنوا من ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون؛ أما غيرهم من الكفرة فلا يقبل منهم غير الإسلام، أو القتل؛ لأنهم ليس لهم دين والوثنية دين باطل.

والقول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، هذه في أول الأمر قبل أن يشرع

الجهاد ثم شرع الجهاد فنسخت هذه الآية.

ولكن القول الأول هو الصحيح: أن الآية غير منسوخة، وأن الدين لا يدخل في القلوب بالإكراه وإنما يدخل بالاختيار؛ لكن من لم يقبل الدين يعامل المعاملة اللائقة به من قتل أو أخذ جزية مما شرع الله ﷻ في حقه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الطاغوت: المراد جميع الطواغيت في العبادة، أو الاتباع، أو في الطاعة؛ لأن كلمة الطاغوت هنا عامة.

قدم الكفر بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع إلا بعد الكفر بالطاغوت، فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فإنه لا ينفعه إيمانه.

فالذي يقول: إنه مؤمن، ويصلي، ويصوم، ويزكي، ويحج، ويفعل الطاعات؛ لكنه لا يتبرأ من الشرك ولا المشركين، ويقول: لا دخل لي فيهم، هذا لا يعتبر مسلمًا؛ لأنه لم يكفر بالطاغوت، فلابد من الكفر بالطاغوت، وهو رفض الطاغوت واعتقاد بطلانه، والابتعاد عنه وعن أهله، لا بد من هذا، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فلا تصح عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت لا يجتمع ضدان، لا يجتمع الإيمان والكفر في القلب، الإيمان والكفر الأكبر لا يجتمعان في قلب، أما الكفر الأصغر فقد يجتمع.

❑ **قوله**: (وَهَذَا مَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ»...):

■ **قال الشيخ**: وهذا معنىٰ لا إله إلا الله؛ يعني: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو رأس أمر الدين، الشهادتان هما رأس الإسلام وهما أصل الإسلام، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا إذا أتىٰ بالشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا واعتقادًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بذلك، شبه الدين بالجسم الذي له رأس وعمود وسنام، فإذا قطع الرأس، أو لم يكن هناك رأس فإنه لا بقاء للحياة، كذلك بدون التوحيد لا بقاء للدين؛

لأنه هو الرأس الذي إذا قطع أو زال زالت الحياة وفسد البدن.

وعموده الذي يقوم عليه هو الصلاة، فبدون عمود لا يقوم الإسلام، مثل: بيت الشعر أو الخيمة إذا لم يكن هناك عمود تقوم عليه فإنها لا تقوم، فلا يقوم بيت إلا بعمود فإذا فقد العمود لا يقوم البيت، كذلك الصلاة إذا فقدت فإن الإسلام لا يقوم.

ولذلك قال العلماء: إن من ترك الصلاة تكاسلًا فإنه يكفر علىٰ الصحيح ولو كان يعترف بوجوبها؛ لأنه لا فائدة من الاعتراف بالوجوب مع عدم التطبيق وعدم العمل، لا فائدة من ذلك؛ ولذلك حكم المحققون من أهل العلم بكفر من ترك الصلاة متعمدًا ولو كان يقر بوجوبها، أما من كان يجحد وجوبها فهذا كافر بإجماع المسلمين.

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»: ذروة سنام الأمر: وهو الدين، الجهاد في سبيل الله فالجهاد دليل علىٰ قوة الإسلام، إذا وجد الجهاد في سبيل الله فهذا دليل علىٰ قوة الإسلام؛ لأن الجهاد لا يكون إلا من قوة إيمان وقوة مادة.

فالنبي ﷺ جعل ثلاثة أشياء للدين: الرأس، والعمود، والسنام، فبعدم الرأس لا وجود للدين أصلًا، فالذي لا يحقق الرأس وهو التوحيد لا دين له. والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

والذي لا يصلي؛ لا يقوم له دين وإن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لأنه يحتاج إلىٰ عمود يقيم عليه الدين وهو لا يوجد إلا بالصلاة.

وإذا فُقد الجهاد فُقدت القوة في الإسلام وصار إسلامًا ضعيفًا وصار المسلمون مستضعفين، فلا قوة للإسلام والمسلمين إلا بالجهاد في سبيل الله عز وجل فهو علامة القوة، وفقده علامة الضعف.

هذا وجه تشبيه الرسول ﷺ لهذه الأمور الثلاثة بالنسبة للدين، رأس، وعمود، وسنام، كما أن البعير إذا صار له سنام هذا يدل علىٰ أنه قوي، وإذا لم يكن له سنام فهذا يدل علىٰ أنه هزيل ضعيف.

كذلك المسلمون اليوم مستضعفون في الأرض؛ ولهذا في الحديث: «**إذا تبايعتم**

بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه منكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم»[١] فترك الجهاد ذل وضعف للمسلمين، ووجوده دليل القوة والسمن، كالسنام للحيوان.

والله أعلم، وصلىٰ الله علي نبينا محمد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

محتويات الكتاب

شرح

مسائل الجاهلية

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

ت ١٢٠٦هـ رحمه الله تعالى

شرح

فضيلة الشيخ

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ للّهِ رَبِّ العالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ.

قَالَ الشَّيخُ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ- رَحِمَهُ اللّهُ تعَالَى-

هَذِهِ أُمُورٌ خَالَفَ فِيهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَا عَلَيهِ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ الكِتَابِيِّينَ وَالأُمِّيِّينَ، مِمَّا لا غِنَىٰ لِلمُسلِمِ عَن مَعرِفَتِهَا.

فَالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشيَاءُ

فَأَهَمُّ مَا فِيهَا وَأَشَدُّهَا خَطَرًا: عَدَمُ إِيمَانِ القَلبِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَإِنِ انضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ استِحسَانُ مَا عَلَيهِ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ تَمَّتِ الخَسَارَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

الشرح

هذه رسالة من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، اسمُها: «**مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية**» تشتمل علىٰ مائة وثمانٍ وعشرين مسألة، استخلصها رَحِمَهُ اللهُ من الكتاب والسُّنة وأقوال أهل العلم، والغرض من ذلك: تنبيه المسلمين؛ من أجل أن يجتنبوا هذه المسائل؛ لأنها خطيرة جدًّا.

وبيَّن رَحِمَهُ اللهُ أن هذه المسائل مما خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، من الكتابيِّين والأُمِّيين.

والكتابيون المراد بهم: أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ؛ لأن اليهود عندهم كتاب التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنصارىٰ عندهم كتاب الإنجيل الذي أنزله الله علىٰ عيسىٰ بن مريم -عليه الصلاة والسلام-، فلذلك سُمُّوا بأهل

الكتاب، وهم الآن يطلقون علىٰ التوراة: العهد القديم، أو الأسفار القديمة، ويطلقون علىٰ الإنجيل: أَسْفار العهد الجديد، هذا في اصطلاحهم.

وهما كتابان عظيمان، أنزلهما الله علىٰ نبيين كريمين، هما: موسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لاسيما التوراة، فإنها كتاب عظيم. والإنجيل مُكمِّلٌ لها ومصدِّق لها.

ولذلك سُمُّوا بأهل الكتاب؛ فرقًا بينهم وبين غيرهم ممَّن ليس لهم كتاب.

وأما الأُميون: فالمراد بهم: العرب الذين لا يدينون بالديانتين، سُمُّوا بالأُميين، جمع أُمِّي، نسبةً إلىٰ الأم (والأُمِّي هو: الذي لا يقرأ ولا يكتب)، فإنهم قوم لا يقرءون ولا يكتبون في الغالب، وليس عندهم كتاب قبل نزول القرآن؛ فلذلك سُمُّوا بالأُمِّيين، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة: ٢]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾[سبأ: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[يس: ٦]، فهذا معنىٰ الأُمِّيين، ووصف نبيَّه ﷺ بأنه أُمِّي، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فكونه أميًّا لا يقرأ ولا يكتب جاء هذا الكتاب العظيم دليل علىٰ صِدْق رسالته، وفي ذلك معجزة له.

فالعرب أُمِّيون، ونبيُّهم ﷺ أُمِّي.

وأما الجاهلية، فالمراد بها: النسبة إلىٰ الجَهْل، والجهل عدم العلم، والجاهلية هي التي ليس فيها رسول الله، وليس فيها كتاب. والمراد بها: ما كان قبل بعثة النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣] يعني: التي قبل بعثة النبي ﷺ؛ لأنه قبل بعث النبي ﷺ كان العالَم كلُّه يموج في ضلال وكُفْر وإلحاد؛ لأن الرسالات السابقة اندرست، فاليهود حرَّفوا كتابهم التوراة، وأدخلوا فيه كثيرًا من الكُفْريات والضلال، والشنائع التي أدخلوها في التوراة، وكذلك النصارىٰ حرَّفوا

كتابهم الإنجيل عمَّا كان عليه وقت نزوله على المسيح -عليه الصلاة والسلام-؛ وذلك أن رجلًا يقال له: (بلس) أو شاول، كان يهوديًا حاقدًا على رسول الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فهذا الرجل لجأ إلى المكر والخديعة، في إفساد دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وذلك أن رجلًا يقال له: (بلس) أو شاول، كان يهوديًا حاقدًا على رسول الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فهذا الرجل لجأ إلى المكر والخديعة، في إفساد دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حيث أظهر الإيمان بالمسيح، وأنه ندم على ما كان من قبل من عداوة المسيح، وأنه رأى رؤيا -بزعمه- فآمن بالمسيح، وصدَّقه النصارى فيما قال، ثم إنه تناول الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، فأدخل فيه الوثنيات والشركيات والكُفْريات؛ حيث أدخل فيه عقيدة التثليث، أي: أن الله ثالث ثلاثة، وأن عيسى ابن الله، أو هو الله. وأدخل فيه أمر عبادة الصليب، وأدخل كُفْريات شنيعة، وصدَّقوه في ذلك على أنه عالِم، وعلى أنه مؤمن ولقَّبوه بالرسول (بلس) أي: رسول المسيح بزعمهم، وقصده إفساد دين المسيح، وحصل له ما أراد، فقد أفسد دين المسيح، وأدخل فيه الوثنيات والتثليث، واعتقاد أن عيسى ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، وأدخل فيه وثنيات كثيرة، فاتبعوه على ذلك.

هذه حالة أهل الكتاب قبل بعثة النبي ﷺ ، إلا بقايا منهم كانوا على الدِّين الصحيح[(١)]. لكن الأكثرية منهم على الكُفْر والانحراف عن دين الله.

وأما العرب فكانوا على قسمين: قسم اتبع الديانات السابقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية. وقسم كانوا على الحنيفية، دين إبراهيم وإسماعيل، لاسيما في الحجاز في أرض مكة المكرمة.

إلى أن ظهر فيهم رجل، يقال له: عمرو بن لُحَيٍّ الخُزَاعِيُّ، كان ملكًا على الحجاز، وكان يظهر التنسك والعبادة والصلاح، ذهب إلى الشام للعلاج، فوجد أهل الشام يعبدون الأصنام، فاستحسن ذلك، وجاء من الشام بأصنام معه، ونقَّب عن الأصنام التي كانت مدفونة تحت الأرض بعد قوم نوح، (ود وسواع ويغوث ويعوق

(١) **قال الشيخ تقي الدين:** إنهم انقرضوا قبل البعثة المحمدية.

ونسر، وغيرها)، كان الطوفان قد طمسها ودفنها، وجاء الشيطان فأرشده إلىٰ أمكنتها، فنبشها وأخرجها، ووزَّعها علىٰ قبائل العرب وأمر بعبادتها؛ وقبلوا منه ذلك، ودخل الشِّرك في أرض الحجاز، وفي غيرها من بلاد العرب، وغيَّر دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وسيَّب السوايب للأصنام من بهيمة الأنعام؛ ولذلك رآه النبي ﷺ يجرُّ قُصَبه في النار، يعني: يجرُّ أمعاءه في النار[1].

فكانت حالة العالَم قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال مبين، الكتابيون والأُمِّيون وغيرهم، وسائر أهل الأرض، إلا بقايا من أهل الكتاب كانوا علىٰ الدِّين الحقِّ، لكنهم انقرضوا قبل البعثة، فأصبح الظلام حالكًا في الأرض. وجاء في الحديث: أن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم، يعني: أبغضهم، عربهم وعجمهم، إلَّا بقايا من أهل الكتاب.

في هذا الظلام الحالك، وهذه الجاهلية المستحكمة، وانطماس السُّبل، ودروس آثار الرسالات المساوية، بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وإن كانوا من قبل: أيَّ قبل بعثه ﷺ.

والجاهلية -كما قلنا- منسوبة إلىٰ الجَهْل وهو عدم العِلْم، وكلُّ أمر منسوب إلىٰ الجاهلية فإنه مذموم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، نهىٰ نساء النبي ﷺ عن التبرُّج، وهو إظهار الزينة في الأسواق، وأمام الناس؛ لأن أهل الجاهلية كانت نساؤهم تتبرَّج، بل تكشف عن عوراتها، كما في الطواف عندهم، يرون أن هذا من المفاخر.

وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وهذا من باب الذَّمِّ، فحمية الجاهلية مذمومة، ولما سمع النبي ﷺ رجلًا من الأنصار

---

(١) فقد ثبت عن رسول الله ﷺ ذلك، فقال ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ الخزاعيَّ يجرُّ قُصَبه في النار، وكان أول مَنْ سيَّب السوائب». أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦).

حصل بينه وبين رجل من المهاجرين في بعض الغزوات اقتتال ونزاع، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين، كلُّ واحدٍ منهم دعا قومه، قال النبيُّ ﷺ: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها مُنْتنة**»(١). يعني: الاعتزاء بالقبيلة؛ لأن المؤمنين كلَّهم إخوة، لا فَرْق بين أنصاري ومهاجري، ولا بين قبيلة كذا وكذا، هم إخوة في الإيمان، كالجسد الواحد، والبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، هذا الواجب علىٰ المسلمين، أنهم لا يُميِّزون بين عربيٍّ وعجميٍّ، وأسود وأبيض، إلا بالتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فالاعتزاء بالأنساب، والاعتزاء بالقبائل من أمور الجاهلية.

وقال ﷺ: «**مَنْ مات وليس في عُنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»(٢)؛ لأن أهل الجاهلية هم أهل الفوضىٰ، الذين لا يخضعون لسلطان ولا لأمير -هذه حالة الجاهلية.

فالحاصل: أن أمور الجاهلية كلَّها مذمومة، ونُهينا عن التشبُّه بأهل الجاهلية في كلِّ الأمور، والجاهلية انتهت ببعثة النبي ﷺ، فبعد بعثته زالت الجاهلية العامة، وجاء العِلْم والإيمان، ونزل القرآن والسنة، وانتشر العلم وزال الجهل، وما دام القرآن موجودًا، والسنة النبوية موجودة، وكلام أهل العلم موجودًا، فإن لا جاهلية حينئذٍ، أعني: الجاهلية العامة، أما أنه يبقىٰ بعض الجاهلية في بعض الناس، أو في بعض القبائل، أو في بعض البلدان، فالجاهلية الجزئية تكون موجودة.

لهذا لما سمع النبي ﷺ رجلًا يُعيِّر أخاه بقوله: يا بن السوداء، قال له: «**أعيرته بأُمِّه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٣)، وقال ﷺ: «**أربع من أُمتي في أمور الجاهلية لا يتركونهن: الطعن في الأنساب، والفَخْر بالأحساب، والنِّياحة علىٰ الميت، والاستسقاء بالنجوم**»(٤).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٥٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري مختصرًا (٣٨٥٠)، ومسلم واللفظ له (٩٣٤).

فدلَّ علىٰ أنه تبقىٰ أشياء من أمور الجاهلية في بعض الناس، وهي مذمومة، لكنه لا يكفر بها، لكن الجاهلية العامة زالت ولله الحمد.

ولهذا لا يجوز أن يقال: الناس في جاهلية، أو: العِلْم في جاهلية؛ لأن هذا جُحُود لوجود الرسالة، وجُحُود للقرآن والسنة، هذا الإطلاق لا يجوز، أما أن يقال: في بعض الناس جاهلية، أو: في بعض الأشخاص جاهلية، أو: هناك خصال من خصال الجاهلية، فهذا موجود، فيه فَرْق بين ما كان قبل البعثة وما بعد البعثة.

قد يقول بعض الناس: ما الداعي إلىٰ ذِكْر مسائل الجاهلية، ما دامت الجاهلية قد انتهت؟ نحن مسلمون ولله الحمد.

نقول: الداعي لذلك: الحذر منها، فإنه إذا عرفها طالب العِلْم فإنه يحذر منها، أما إذا جهلها ولم يعرفها، فإنه قد يقع فيها، فذِكْرها ومُدَارستها من أجل أن تعرف حتىٰ تجتنب، وحتىٰ يحذر منها، قال الشاعر:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشرِّ لكن لِتوقِّيهِ ... ومَنْ لا يعرفِ الشرَّ من الخير يَقَع فيهِ

هذا من ناحية، والناحية الثانية: أنك إذا عرفت الجاهلية عرفت فَضْل الإسلام، كما قال الشاعر:

الضِّدُّ يظهر حُسْنه الضدُّ ... وبضدِّها تتبين الأشياء

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُوشك أن تُنقض عُرىٰ الإسلام عُروة عُروة، إذا نشأ في الإسلام مَنْ لا يعرف الجاهلية»، فإذا كان الإنسان يجهل أمور الجاهلية؛ فإنه حريٌّ أن يقع فيها؛ لأن الشيطان ما نسيها ولا نام عنها، يدعو إليها.

فالشيطان وأتباعه من دُعاة الضَّلال لا يزالون يدعون إلىٰ الجاهلية، وإلىٰ إحياء أمور الجاهلية إلىٰ الشركيات والبِدَع، وإلىٰ الخرافات، وإلىٰ إحياء الآثار، وكُلُّ هذا قصد منه: طَمْس الإسلام، وعودة الناس إلىٰ الجاهلية، فلا بد من دراسة أمور الجاهلية من أجل أن نتجنبها ونبتعد عنها.

قال الشيخ: «وأعظم مسائل الجاهلية وأخطرها»: عدم إيمان القلب بما جاء به

الرسول ﷺ؛ لأن أهل الجاهلية كذَّبوا الرسول ﷺ ولم يؤمنوا به، ولم يقبلوا هُدَىٰ الله الذي جاء به، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإذا انضاف إلىٰ ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمَّت الخسارة**»، أي: حصل فساد في الظاهر والباطن؛ فساد في الباطن وهو عدم الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وفساد في الظاهر وهو استحسان أمور الجاهلية، فإذا فسد الظاهر والباطن تمَّت الخسارة -والعياذ بالله. وهذا نتيجة الجهل وعدم معرفة أمور الجاهلية، فلا يجوز استحسان ما عليه أهل الجاهلية، بل يجب إنكاره واستبشاعه، أما مَن استحسنه فإنه يكون من أهل الجاهلية، واستدلَّ الشيخ بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

﴿ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني: صدَّقوا الباطل، والباطل ضدُّ الحقِّ، فما خالف الحقَّ، فهذا باطل، والباطل هو: الذاهب الزائل الذي لا فائدة فيه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

المسالة الأولى:

دعاء الأولياء والصالحين

أَنَّهم يتعبَّدون بإشراك الصالحين في دُعاء الله وعبادته؛ يريدون شفاعتهم عند الله؛ لظنِّهم أنَّ الله يحبُّ ذلك، وأنَّ الصالحين يحبُّونه، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وهذه أعظمُ مسألةٍ خالفهم فيها رسولُ الله ﷺ، فأتى بالإخلاص، وأخبر أنَّه دينُ الله الَّذي أرسل به جميعَ الرُّسل، وأنَّه لا يقبلُ من الأعمال إلَّا الخالص، وأخبر أنَّ مَنْ فعل ما استحسنوا فقد حرَّم اللهُ عليه الجنَّةَ ومأواهُ النَّار.

وهذه هي المسألةُ الَّتي تفرَّق النَّاسُ لأجلها بين مسلمٍ وكافرٍ، وعندها وقعت العداوةُ، ولأجلها شُرع الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

الشرح

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة حقٌّ لله -جل وعلا-، لا يجوز أن يعبد معه غيره كائنًا مَنْ كان، الجاهلية عكسوا هذا الأمر، فتركوا عبادة الله التي خُلقوا من أجلها، وعبدوا غير الله -جل وعلا- من الأصنام والأشجار والأحجار والجِنِّ والملائكة والأولياء والصالحين، فصرفوا العبادة لغير الله ﷻ، فمنهم مَنْ لا يعبد الله أصلًا، وهم الكفار، من الملاحدة والدَّهْرية، ومنهم مَنْ يعبد الله ويعبد معه غيره، والحكم واحد، فالذي يعبد مع الله غيره كالذي لا يعبد الله أصلًا؛ لأن عبادته باطلة، والله لا يرضىٰ بالشرك، وأيضًا لا بد أن يكون العمل موافقًا

لما شرعه الله ﷻ، فالله لا يقبل العمل الذي فيه بدعة، كما لا يقبل العمل الذي فيه شِرْك، فأعظم أمور الجاهلية: الشِّرْك بالله عَزَّوَجَلَّ والابتداع.

وبدأ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه المسألة؛ لأنها أخطر مسائل الجاهلية، ولأنها هي المسائل التي بدأ الرسول ﷺ في إنكارها، ودعوة الناس إلىٰ تَرْكها، فالرسول أول ما بدأ -كغيره من الرسل- بالأمر بإخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وتَرْك عبادة ما سواه، هذا فاتحة دعوة الرسل؛ لأن هذا هو الأساس الذي يُبنىٰ عليه غيره، فإذا فسد الأساس فلا فائدة من الأمور الأخرىٰ، لا فائدة من الصلاة ولا من الصيام ولا من الحجِّ ولا من الصدقات، ولا من سائر العبادات؛ إذا كان الأصل فاسدًا والتوحيد معدومًا، فلا فائدة من الأعمال الأخرىٰ؛ لأن الشرك يُفْسدها ويُبْطلها.

وكانوا في الجاهلية يعبدون الله، ويبعدون أشياء كثيرة، ومنها: عبادة الأولياء والصالحين، كما حصل لقوم نوح لما غَلَوا في الصالحين: ود سواع ويغوث ونعوق ونسر، وعبدوا قبورهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ بحُجَّة أنهم صالحون، وأنهم يقربون إلىٰ الله، وأنهم شفعاء عند الله، كذلك درجت الجاهلية علىٰ هذا المنوال، فكانوا يعبدون الأولياء والصالحين والملائكة، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ولا يقولون: هؤلاء شركاء لله في الربوبية، إنما يقولون: إنما هم عباد الله يتوسطون لنا عند الله، ويشفعون لنا، ويُقرِّبوننا إلىٰ الله زُلْفىٰ، ولا يُسمُّون عملهم هذا شِرْكًا؛ لأن الشيطان زيَّن لهم أن هذا ليس بشِرْك. وإنما هو توسُّل بالصالحين واستشفاع بالصالحين، والعِبْرة ليست بالأسماء، العِبْرة بالحقائق، فهذا شِرْك وإن سمَّوه تشفعًا وتقرُّبًا، فهو شِرْك؛ لأن الأسماء لا تُغيِّر الحقائق، والله لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد في عبادته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص، والمتابعة للرسول ﷺ.

فهذه أعظم مسائل الجاهلية، وهي: عبادة الأولياء والصالحين، من الأموات والغائبين والاستغاثة بهم، والاستعاذة بهم، وطلب الحوائج منهم، كما عليه عُبَّاد القبور اليوم تمامًا فعبادة الأضرحة الآن، والتقرُّب إلىٰ الأموات، ودعاؤهم من دون الله، والاستغاثة بهم، هذا هو ما كانت عليه الجاهلية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

كذلك نفس الشيء الآن، هؤلاء القبوريون إذا نُوقشوا ونُهوا عن عبادة القبور، قالوا: نحن ما نعبد القبور؛ لأن العبادة لله، لكن هؤلاء وسائط بيننا وبين الله، وشفعاء لنا عنده، هذا هو الذي أنكره الله علىٰ أهل الجاهلية تمامًا ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] ما عبدوهم لأنهم يرون أنهم يشاركون الله في الخَلْق والرزق، والإحياء والإماتة، هم يعترفون أن هذا لله، وإنما عبدوهم ليُقرِّبوهم إلىٰ الله زُلْفىٰ، فيقولون: نحن عباد مذنبون، وهؤلاء رجال صالحون لهم جاه عند الله، فنريد منهم أن يتوسطوا لنا عند الله في قبول توبتنا وعبادتنا. هكذا زيَّن لهم شياطين الإنس والجِنِّ هذا الأمر. والعجيب أنهم يقرؤون القرآن ويمرُّون علىٰ هذه الآيات ولا ينتبهون لها، ومع هذا يستمرُّون علىٰ عبادة القبور، وهي من فعل الجاهلية، وهذا لأنهم لم يعرفوا ما كانت عليها الجاهلية؛ لم يعرفوا أن هذا من أمور الجاهلية، هذا نتيجة الجهل بأمور الجاهلية.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ، فأتىٰ بالإخلاص، وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل، وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص، وأخبر أن مَنْ فعل ما استحسنوا فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار، وهذه هي المسألة التي تفرَّق لأجلها الناس بين مسلم، وكافر، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شُرِّع الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هل الله عَزَّوَجَلَّ بحاجة إلىٰ أن يجعل بينه وبين العبد واسطة؟ الله -جل وعلا- قريب مجيب، يسمع ويرىٰ، ويرحم ويقبل التوبة عن عباده، ولم يأمرنا باتخاذ الوسائط في الدعاء، بل أمرنا بدعائه مباشرة ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠]، أمرنا الله بدعائه مباشرة، ولم يأمرنا باتخاذ الوسائط بيننا وبينه.

وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مسألة الشرك؛ لأنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعثه الله وأرسله إلىٰ الناس، أول ما بدأ به بالدعوة إلىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإنكار الشرك، وكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا**»(١). ويقول: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**»(٢). فكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغشاهم في مجتمعاتهم وفي منازلهم، وفي أيام المواسم في الحجِّ، ويدعوهم إلىٰ التوحيد، ويذهب هنا وهناك، كما ذهب إلىٰ الطائف يدعوهم إلىٰ التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، هذا أول ما بدأ به صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هو الأساس، وهكذا يجب علىٰ الدُّعاة أن يهتمُّوا بهذا الأمر، وأن يجعلوا الدعوة إلىٰ التوحيد هي أهم شيء في دعوتهم.

فقد أتىٰ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإخلاص، وإخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وتَرْك عبادة ما سوىٰ الله من الأولياء والصالحين أو غيرهم، هذا هو دين الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذا هو مَنْهج الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الدعوة إلىٰ عبادة الله، وتَرْك عبادة ما سواه، وبقية الإصلاحات تأتي تبعًا لذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٦١-٤٥٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥١٢-٤٢٧٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٩٩، ٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠، ٢١).

والله -جل وعلا- لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه، ليس فيه شِرْك، وأيضًا لا بد أن يكون العمل موافقًا لما شرَّعه الله ﷻ، فالله لا يقبل العمل الذي فيه بدعة ولا ما كان فيه شِرْك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء: ٣٦]، لم يقتصر علىٰ الأمر بعبادة الله، بل نهىٰ عن الشرك؛ لأن عبادة الله لا تُقبل إذا كان فيها شِرْكٌ، والكُفْر بالطاغوت مُقدَّم علىٰ الإيمان بالله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة: ٢٥٦].

وهذا هو معنىٰ لا إله إلا الله، فهي مكونة من نفي وإثبات، نفيُ الشرك، وإثبات التوحيد (لا إله) إبطال لجميع المعبودات، (إلا الله) إثبات لعبادة الله وَحْده، فالله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه، ولا يقبل العمل الذي فيه بدعة ومخالفة لمنهج الرسول ﷺ، قال ﷺ: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»[1]، وفي رواية: «**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[2] ولذلك قال العلماء: إن العمل لا يُقبل إلا بشرطين: **الشرط الأول**: الإخلاص لله عز وجل، **والشرط الثاني**: المتابعة للرسول ﷺ، فإذا اختلَّ أحد الشرطين؛ لم يقبل هذا العمل، ولم يكن عملًا صالحًا.

وأخبر -جل وعلا- أن مَنْ عبد ما يستحسنه من الأنام والأولياء والأشجار والأحجار والقبور، ولم يرجع في العبادة إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وإنما اعتمد علىٰ الاستحسان أو علىٰ ما تهواه نفسه، ولو خالف الكتاب والسنة، أخبر الله -جل وعلا- أن الله قد حرَّم عليه الجنة ومأواه النار، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة: ٧٢] يعني: منعه من دخول الجنة منعًا باتًّا، فالتحريم في اللغة: المنع، فالمشرك ممنوع من دخول الجنة بتاتًا، لا طمع له فيها، ومأواه النار، هذه عاقبة الشرك بالله عز وجل، وإن كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧١٨/١٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

﴿ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] ، هؤلاء إذا ماتوا علىٰ ذلك، غير تائبين، حرَّم الله عليهم الجنة، وجعل النار مأواهم أبد الآباد. فالذي يريد لنفسه النجاة يتنبه لهذا، ولا يبقي علىٰ أمور الجاهلية في هذا وغيره.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وهذه هي المسألة التي تفرَّق الناس لأجلها بين مسلم وكافر) يعني: مسألة التوحيد والشِّرْك، جماعة صدَّقوا الرسول ﷺ وآمنوا به، وأخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ ، هؤلاء مؤمنون، وقوم خالفوه وبقوا علىٰ شِرْكهم وعبادتهم، وما كان يعبده آباؤهم من قبل، كما عليه أُمم الكُفْر الذين يعارضون الرُّسل؛ لأنهم يريدون البقاء علىٰ ما كان عليه آباؤهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣] ، وقالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[هود: ٦٢] ، هذه مقالتهم وحُجَّتُهم، وهي التمسُّك بما عليه الآباء والأجداد، من عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ .

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وعندها وقعت العداوة) أي :بين المُوحِّدين والمشركين، بين المؤمنين والكُفَّار، فإنه يجب علىٰ المؤمنين أن يعادوا الكفار، فلا تجوز محبة الكفار حتىٰ ولو كانوا أقرب الناس، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة: ٢٢] ، فلا بد من الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من الكُفْر والكافرين، والشرك والمشركين ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة: ٤] ، هذه مِلَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام.

أما الذين يُنادون الآن بالمحاورة بين الأديان، والمفاهمة بين الأديان، وأنها كلُّها أديان سماوية؛ بل بعضهم يتجرأ ويقول: لا تُكفِّر اليهود والنصارىٰ. فهذا خلاف ما جاء به الرسول ﷺ ، وخلاف ما جاء به القرآن، وخلاف مِلَّة إبراهيم التي أُمرنا باتباعها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى

ٱلْإِيمَـٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وهؤلاء يقولون: اليهود والنصارىٰ أهل كتاب وأهل إيمان، وكلُّها أديان من عند الله، نتفاهم فيما بيننا ونتعاون، ولا تُكفِّرون اليهود والنصارىٰ. هذه دعوة الآن قائمة، هي قضاء علىٰ الولاء والبراء بين المؤمنين والكُفَّار، كلُّ مَنْ لم يؤمن بالرسول محمد ﷺ فهو كافر، سواء كان كتابيًّا أو غير كتابيٍّ؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ لا يسع أحدًا إلا أن يؤمن به، فمَنْ لم يؤمن به فهو كافر، واليهود والنصارىٰ لا يؤمنون بالرسول، فهم كُفَّار، قال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يُؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١). فبعد بعثة النبي ﷺ لا يسع أحدًا الخروج من مِلَّته، حتىٰ إنه قال -عليه الصلاة والسلام-: «**والله لو كان أخي موسىٰ حيًّا ما وسعه إلَّا اتباعي**».

فبعد بعثة النبي ﷺ ليس فيه دِين صحيح غير دين الإسلام وما سواه فهو باطل أو منسوخ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فهذه دعوة باطلة، تُعقد لها الآن مؤتمرات وندوات، وتُنفق فيها أموال للدعوة للتقارب بين الأديان -يُسمُّونه- الحوار بين الأديان، سبحان الله! حوار بين إيمان وكُفْر؟! وبين شِرْك وتوحيد؟! بين أعداء الله وأولياء الله؟!

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولأجلها شرع الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فالواجب علينا نحو الكفار: ثلاثة أمور:

الأمر الأول: عداوتهم؛ لأنهم أعداء الله ﷻ، وأعداء لرسوله.

الأمر الثاني: دعوتهم إلىٰ الإيمان واتباع الرسول ﷺ، هذا أمر واجب علىٰ المسلمين.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣).

الأمر الثالث: جهادهم إذا دعوا إلىٰ الإسلام وأبوا، فالواجب جهادهم وقتالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فالمرحلة الأخيرة معهم القتال، إذا كان المسلمون يُطيقون القتال، قال تعالىٰ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ [التوبة: ٥]، وهذه الآية فيها بيان الحِكْمة من الجهاد في الإسلام، وأنها: إزالة الشِّرْك، حتىٰ لا تكون فتنة، والمراد بالفتنة: الشرك، أي: حتىٰ لا يوجد شِرْك، ويكون الدِّين كلُّه لله، هذا هو المقصود من الجهاد، ليس المقصود من الجهاد توسيع السلطة والاستيلاء علىٰ الممالك، وحصول الثروة، ليس هذا هو المقصود، المقصود: إعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإزالة الشِّرك من الأرض -هذا هو المقصود.

وكذلك ليس المقصود من الجهاد في الإسلام الدفاع، كما يقول بعض الكُتَّاب المخذولين، يقولون: إن الإسلام لا يأمر بقتال الكُفَّار؛ لأنه وحشية، لكن القتال الذي في الإسلام من أجل الدفاع، يعني: إذا اعتدوا علينا نحن نقاتلهم؛ لصدِّ العدوان فقط. سبحان الله! الله -جل وعلا- يقول: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، المقصود بالقتال في الإسلام: نَشْر الدعوة، ونَشْر الدِّين، وإزالة الشِّرْك، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] هذا هو المقصود منه، فالقتال في الإسلام علىٰ نوعين:

النوع الأول: قتال دفاع، عند عجز المسلمين.

النوع الثاني: قتال طلب، عند قوة المسلمين وقدرتهم عليه.

المسالة الثانية:

تفرق أهل الجاهلية في عباداتهم ودينهم

أنهم متفرقون في دينهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وكذلك في دنياهم ويرون أن ذلك هو الصواب، فأتى بالاجتماع في الدين بقوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ونهانا عن مشابهتهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ونهانا عن التفرق في الدنيا بقوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الشرح

هذه هي المسألة الثانية من المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، وهي: أن أهل الجاهلية كانوا متفرِّقين في دينهم وفي دُنْياهم، وصفتهم التفرُّق والاختلاف، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢] هذه صفة أهل الجاهلية من اليهود والنصارى والوثنيين، وسائر المِلَل الجاهلية كانوا على هذا النمط، متفرِّقين في دينهم، كلٌّ منهم له دين يُنادي به وينتسب إليه، النصرانية تدعو إلى النصرانية، واليهودية تدعو إلى اليهودية، وكلٌّ من الديانتين يُكفِّر الديانة الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، الذين لا يعلمون هم المشركون؛ لأنه لا كتاب لهم وليس لهم دِين سماويٌّ، وهم أيضًا يُكفر بعضهم بعضًا، ويخالف بعضهم بعضًا: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، أي: بيَّن الله ﷻ مَنْ

هو على الحقِّ ومَنْ هو على الباطل ويُجازي كلًّا بعمله، ودين الله واحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فدِين الله واحد لجميع الخَلْق من يهوديٍّ ونصرانيٍّ، ووثنيٍّ وعربي وعجمي، فدِين الله واحد، وهو عبادته وحده لا شريك له؛ لكن هؤلاء فرَّقوا دينهم وصار لكلِّ طائفة منهم دين يختلف عن الدين الآخر، فاليهود أنفسهم كانوا مختلفين فيما بينهم، والنصارى كانوا مختلفين، كانا فِرَقًا مختلفة، وهم إلى الآن على اختلاف.

وكذلك العرب الوثنيون مُتفرِّقون في عبادتهم، منهم مَنْ يعبد الشمس، ومنهم مَنْ يعبد القمر، ومنهم مَنْ يعبد الأصنام، ومنهم مَنْ يعبد الملائكة، ومنهم مَنْ يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم مَنْ يعبد الأشجار والأحجار.

هذا حالة أهل الجاهلية من كتابيين وأُمِّيين، لا يجمعهم دِين، وعندهم حِزبيَّات، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم ٣٢]، وهذا من تمام العقوبة والابتلاء؛ كون الإنسان يفرح بما هو عليه من الباطل، كان الواجب العكس، وأن الإنسان يخاف من الضلال، ويخاف من الانحراف، ويخاف من الهلاك، لكن هؤلاء بالعكس ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] دون النظر إلى كون ما هو عليه حقًّا أو باطلًا، المهمُّ أنها نِحْلَةُ آبائهم وأجدادهم وقومهم وعشيرتهم، ولا يهمُّهم هل هو حقٌّ أو باطل، وهذا من الابتلاء والامتحان، إذا فرح الإنسان بالباطل، فهذه عقوبة؛ لأنه إذا فرح بالباطل فلن يتحوَّل عنه.

هذه صفة أهل الجاهلية، والله -جل وعلا- نهانا عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وأنزل على رسوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟

فِيهِ ﴾[الشورى: ١٣]، هذا هو الذي شرَّعه الله، إقامة الدِّين الذي هو دين نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد -صلىٰ الله وسلم عليهم أجمعين-، وهو دين الأنبياء جميعًا، لكن ذكر هؤلاء؛ لأنهم أفضل الرسل وأولو العزم، الخمسة؛ نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد -صلىٰ الله وسلم عليهم- هم أولو العزم وأفضل الرسل، وأخذ الله الميثاق من جميع الرسل، وعلىٰ الخصوص علىٰ هؤلاء الخمسة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب: ٧]، وجميع الرسل دِينهم واحد، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، هذا دين جميع الرسل عمومًا، والخمسة خصوصًا، لا يقبل الاختلاف ولا التفرُّق، فلا يكون لكلِّ واحد دين، ولا لكلِّ طائفة دين، وإنما دين الجميع واحد، هو دين الله -جل وعلا- علىٰ جميع الخَلْق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

جميع الخَلْق الجِنِّ والإنس يجيب أن يكون دينهم واحد، هو التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، والعبادة بيَّنها علىٰ ألسن الرسل، ما وكَّلها إلىٰ الناس، بل أنزل علينا كتابًا وأرسل إلينا رسلًا، وقال: هذا هو الدِّين، وهذه هي العبادة، وهي توقيفية، والدِّين توقيفيٌّ، ليس من حقِّ الناس أن يشرَّعوا لهم أديانًا؛ بل هذا من حقِّ الله ﷻ، هو الذي يشرع الدين ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[الشورىٰ: ٢١]، هذا إنكار منه ﷻ، فالدين هو ما شرعه الله، وأنزله في كتبه، وعلىٰ ألسن رسله -عليهم الصلاة والسلام- فهو توقيفي، والرسل إنما هم مُبلِّغون عن الله -جل وعلا-، يُبلِّغون عن الله ما شرَّعه لعباده، هذه وظيفة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهم متعبدون بهذا الدين مثل غيرهم، عباد يعبدون الله -جل وعلا- بهذا الدين الذي شرعه لهم، ولأُممهم.

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٠٥]، هذا نهيٌ لنا أن نكون مثل أهل الجاهلية الذي تفرَّقوا في دينهم واختلفوا، ولم يكن هذا عن جَهْل منهم، وإنما هو عن هوًىٰ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ تركوا البينات واتبعوا الهوىٰ، فالذي حملهم علىٰ هذا التفرُّق هو الهوىٰ -والعياذ بالله-، اتخذوا أهواءهم آلهة من دون الله عَزَّوَجَلَّ، والله -جل وعلا- لم يترك حُجَّة لأحد، أرسل الرسل وأنزل الكتاب ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

فالله -جل وعلا- ما ترك الناس، منذ أن أُهبط آدم إلىٰ الأرض، لم يترك الناس بلا دين وبلا نبيٍّ؛ بل ما زال -جل وعلا- يُرسل الرسل متتابعة، ويُشرِّع للناس الدِّين ويُبيِّنه لهم، إلىٰ أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي لا تُنسخ مِلَّته حتىٰ تقوم الساعة، ومدادها الكتاب والسنة، فما في وقت من الأوقات إلا وهناك دين الله -جل وعلا- جاءت به الرسل، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ليس لأحد حُجَّة ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] فالله -جل وعلا- أقام الحُجَّة علىٰ الخَلْق.

لكن أهل الجاهلية خالفوا ما جاءت به الرسل، لا عن جهل، وإنما هو عن عِناد واتباع للهوىٰ، خصوصًا اليهود والنصارىٰ فهم علىٰ عِلْم بذلك؛ ولذلك سمَّاهم الله أهل الكتاب، من باب العيب عليهم، أنهم أهل كتاب وأهل عِلْم، ومع هذا يخالفون أمر الله تَعَالَىٰ، ويتعبون أهواءهم.

نهىٰ الله هذه الأُمَّة أن تسلك هذا المسلك الجاهلي، وأمرهم أن يتمسكوا بالدين الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ، والذي سار عليه صحابة الرسول ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، هذا هو الدين الذي يجب أن تتمسك به الأُمة إلىٰ أن تقوم الساعة، وإذا اختلفوا في شيء أن يردُّوه إلىٰ الكتاب والسُّنَّة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

والاختلاف من طبيعة البشر، لكن الله -جل وعلا- أحالنا علىٰ الكتاب والسنة إذا

اختلفنا ولا ندري أيَّنا المُصِيب، نرجع إلىٰ الكتاب والسنة، فما شهدا له الكتاب والسنة بأنه حقٌّ أخذنا به، وما شهدا أن غيره حق تركناه؛ لأن هدفنا اتباع الحقِّ، لا الانتصار للآراء، أو تعظيم الآباء، والأجداد أو الشيوخ، ليس هذا شأن المسلمين، الحقُّ هو ضالَّة المؤمن؛ أين وجده أخذه، الهدف الحقُّ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] من بقائكم علىٰ النزاع ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء ٥٩] يعني: أحسن عاقبة.

وهذا من رحمة الله تَعَالَىٰ لنا؛ أنه أبقىٰ فينا ما يحلُّ النزاع ويدل علىٰ الحقِّ، وهو كتابه، ولهذا قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران ١٠٣] وهو القرآن، ﴿جَمِيعًا﴾ ليس بعضكم فقط، بل جميعًا، أي: جميع الخَلْق عمومًا، وهذه الأُمة خصوصًا ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ دين الجاهلية ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣] أنقذكم بالإسلام، وبهذا القرآن، فاشكروا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والاعتصام بحبل الله هو الاعتصام بالكتاب؛ لأن الكتاب هو حبل الله الممدود الذي مَنْ تمسك به نجا، ومَنْ أفلت منه هلك.

هذا ما قصَّه الله علينا من حالة أهل الجاهلية: أنهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، ثم نهانا عن ذلك، نهانا أن نتشبه بهم، ثم أمرنا بالاعتصام بكتابه الذي هو أمان من الاختلاف، وأمان من النزاع والهلاك، فلا نجاةَ إلا بالاعتصام بكتاب الله -جل وعلا-، وسُنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فأهل الجاهلية مُتفرِّقون في دينهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، مسرورون بمذهبهم، وإن كان باطلًا. وكذلك كانوا متفرِّقين في سياسة دنياهم؛ لأن مَنْ ضيَّع الدِّين ضيَّع الدنيا، فكانوا في دنياهم متفرِّقين، لا يجمعهم جماعة؛ بلُ كل قبيلة تحكم نفسها بنفسها، وكلُّ قبيلة تستبيح دماء القبيلة الأخرىٰ وأموالها.

هذه حالة العرب قبل بعثة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما ضيَّعوا دينهم ضيَّعوا دنياهم، وصار

الخوف والقلق والجوع ملازمًا لهم دائمًا، وكانت الجاهلية كُلُّها حروب، وكلُّها غارات وثارات حتىٰ الإخوة يتقاتلون في الجاهلية، فالأوس والخزرج في المدينة هم إخوة من ناحية النسب، قبيلة واحدة قحطانية، لكن قامت بينهم حرب طاحنة استمرت أكثر من مئة سنة، يُسمُّونها: «حرب بُعَاث» بين الأوس والخزرج، وكان اليهود يُوقدونها، فلما بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ، وهاجر إلىٰ المدينة، جمعهم الله به، وطفئت الحروب، وتآخىٰ المسلمون، وصاروا يدًا واحدة مع الرسول ﷺ، وهذا ما ذكَّرهم الله به ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أَلَّف الله بين قلوبهم بالإسلام، وانطفأت الحروب التي بينهم، وصَلُحَت دنياهم، كذلك بقية قبائل العرب لما دخلوا في الإسلام، صَلُحَت دنياهم لما صلح دينهم، وآمنوا علىٰ دمائهم وأموالهم، وصاروا يسيرون في الأرض آمنين وصار العربي يلقىٰ العربي الآخر من أيِّ قبيلة فلا يتعرض له بسوء؛ بل سادت المحبة بينهم، تآخوا في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] هذه براءة من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا، أي: أحزابًا؛ لأن المطلوب أن يكون الدِّين واحدًا، وأن يكون الناس جماعة واحدة علىٰ الدِّين، هذا هو الذي أمر الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمَنْ كان كذلك، فالرسول ﷺ يُواليه، وهو وليه، أما مَنْ فرَّق دينه وبقي علىٰ النزاع، وبقي علىٰ أمر الجاهلية، فالرسول بريءٌ منه.

يبقىٰ أن نعرف حقيقة الاختلاف، أو الخلاف في المسائل الفقهية، فالخلاف واقع وموجود الآن في أمور الفِقْه، فهل هذا من الاختلاف المذموم؟

نقول: الاختلاف علىٰ قسمين:

القسم الأول: الاختلاف في الدِّين، كالاختلاف في العبادة والعقيدة، وهذا اختلاف مذموم ومحرَّم؛ لأن الدِّين ليس مجالًا للاجتهاد، وليس مجالًا للآراء، بل الدين توقيفيٌّ، والعقيدة توقيفية، لا مجال للاجتهاد فيها، علينا أن نتمسك بما شرَّعه الله لنا من الدِّين، ومن العقيدة، دون أن نتدخل بآرائنا واجتهاداتنا، كذلك العبادة توقيفية؛ ما

جاءنا به دليل عملنا به، وما ليس عليه دليل فإنه بدعة يجب علينا تَرْكه؛ لحديث: «**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[(١)]، وحديث: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار**»[(٢)]، فأمور العقيدة وأمور العبادة وأمور الدين عمومًا لا مجال للخلاف فيها أبدًا، وإنما تتبع فيها النصوص من الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأُمة.

القسم الثاني: الاختلاف فيه للرأي فيه مجال، أو ما هو مسرَّحٌ للاجتهاد من مسائل الفقه، واستنباط الأحكام من الأدلة، هذا يقع فيه الاختلاف؛ لأن مدارك الناس تختلف في الاستنباط من النصوص، ومسائل الإجماع محصورة، ولا يجوز مخالفتها، لكن ما ليس عليه إجماع من المسائل الاجتهادية التي هي مجال للاجتهاد، فالله -جل وعلا- أعطىٰ كلَّ عالِم بحسب ما خصَّه به من المدارك والفَهْم، وما يصل إليه من النصوص، والاجتهاد مشروع في ذلك، وقد حصل الاجتهاد في عهده ﷺ كما هو معروف، فهذا اختلاف في الاجتهاد، وليس اختلافًا في العقيدة ولا في الدين، وإنما هو اختلاف في مسائل الفقه، وكان الناس في عهد النبي ﷺ يجتهدون ويختلفون. وهذا الاجتهاد علىٰ قسمين:

قسم أظهر الدليل مع أحد الطرفين المختلفين فيه، فيجب أخذ ما عليه الدليل، وترك ما لم يقم عليه الدليل، فتُعرضُ آراء الفقهاء علىٰ الدليل، فما دلَّ عليه الدليل وجب الأخذ به وترك ما خالفه، ويجب علىٰ المجتهد الذي لم يُوفَّق للصواب وخالف الدليل أن يقبل الحقَّ ويرجع إلىٰ الصواب، ولا يجوز له الاستمرار في الاجتهاد الخاطئ، ولا يجوز لنا أن نتبعه علىٰ الاجتهاد الخاطئ، والأئمة يُوصوننا بهذا ويقولون: أعرضوا أقوالنا علىٰ الكتاب والسنة، فالإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «إذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ فعلىٰ الرأس والعين، وإذا جاء الحديث عن صحابة

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (١٥٧٧) واللفظ له، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وأخرج مسلم جزءًا منه: «**وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ بدعة ضلالة**» (٨٦٧).

رسول الله ﷺ فعلىٰ الرأس والعين، وإذا جاء الحديث عن التابعين فنحن رجال وهم رجال». هذا كلام الإمام أبي حنيفة، أقدم الأئمة الأربعة.

والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «كلُّنا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر» يعني: رسول الله ﷺ، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أو كُلَّما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل علىٰ محمد لجدل هؤلاء؟!» هذا كلام الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يصلح آخر هذه الأُمة إلَّا ما أصلح أولها»، ما هو الذي أصلح أولها؟ الكتاب والسنة، هذا كلام الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «أجمع المسلمون علىٰ أن مَنِ استبانت له سُنَّة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد»، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا خالف قولي قول رسول الله ﷺ، فاضربوا بقولي عرض الحائط»، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي» هذه كلمات الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحَّته، يذهبون إلىٰ رأي سفيان! والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشِّرك، لعله إذا ردَّ بعض قوله -يعني الرسول ﷺ- أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

إذًا هذه أقوال الأئمة المجتهدين، اجتهدوا من عِلْم وعن أهليَّة للاجتهاد، لكن لم يدعوا لأنفسهم العصمة، بل أوصوا أن يُؤخذ من أقوالهم ما وافق الدليل، فيجب علىٰ الحنبلي إذا رأىٰ الدليل مع الشافعي أن يأخذ بقول الشافعي، وواجب علىٰ الشافعي إذا رأىٰ الدليل مع الحنفي أن يأخذ بقول الحنفي، وواجب علىٰ المالكي إذا رأىٰ الدليل مع الحنبلي أن يأخذ بقول الحنبلي؛ لأن الغرض هو اتباع الدليل، ليس الغرض قول فلان ولا فلان، فلا يتعصبون لأئمتهم، وإنما يتعصبون للدليل فقط. وهذا شيخ

---

(١) انظر: ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٣٤، ٣٥).

الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب كلُّهم يأمرون بهذا، ويقولون: انظروا في أقوال العلماء، فخُذُوا ما قام عليه الدليل. وكلامهم في هذا معلوم من كتبهم.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، لا تعصب، لكن ليس معنىٰ هذا أن نرفض المذاهب ونتركها؛ بل نستفيد من المذاهب ومن فِقْه الأئمة؛ لأنه ثروة عظيمة، لكن نتابع الدليل، مَنْ كان معه دليل أخذنا بقوله، هذا هو الواجب.

ومَنْ لا يعرف الدليل يسأل أهل العلم، قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣]؛ لأنك تريد براءة الذمة، فإذا كنت تعرف، فالحمد لله، خذ بالدليل وإن كنت لا تعرف فإنك تسأل أهل العلم، هذا هو الواجب.

والقسم الثاني: من الاجتهاد الفقهي ما لم يظهر فيه دليل أحد القولين؛ بل كلا القولين محتمل، فهذا لا إنكار في مسائل الاجتهاد، ما دام لم يترجَّح شيء بالدليل، فلا إنكار علىٰ مَنْ أخذ بقول من الأقوال؛ شريطة ألَّا يكون عنده تعصب أو هوًىٰ، وإنما قصده الحقَّ؛ لذلك لا ينكر الحنبلي علىٰ الشافعي، ولا ينكر الشافعي علىٰ المالكي، والأئمة الأربعة وأتباعهم إخوة علىٰ مدار الزمان -ولله الحمد-، ما وقع بينهم عداوات، ولا وقع بينهم حزازات، وإن وقع شيء من ذلك فإما هو من بعض المتعصبة، الذين لا عِبْرة بهم، لكن جمهور أصحاب المذاهب الأربعة -والحمد لله- ليس بينهم عَداءٌ ولا تفرق ولا حزازات، يتزاوجون، ويُصلِّي بعضهم خلف بعض، ويُسلِّم بعضهم علىٰ بعض، ويتآخون، مع أن عندهم اختلافًا في بعض المسائل الاجتهادية المحتملة، التي لم يظهر رُجْحان بعضها علىٰ بعض، ومن هنا قالوا الكلمة المشهورة: «**لا إنكار في مسائل الاجتهاد**».

فإذا كان أهل بلد علىٰ قول من هذه الأقوال الاجتهادية التي لم يظهر ما يخالفها ولا ما يعارضها، مجتمعين علىٰ رأي من هذه الآراء الفقهية، فلا يسوغ لأحد أن يفرق هذا الاجتماع، بل ينبغي الوفاق وعدم الاختلاف.

المسألة الثالثة:

اعتبارهم مخالفة ولي الأمر فضيلة

أَنَّ مُخَالَفَةَ وَلِيِّ الأَمرِ وَعَدَمَ الانقِيَادِ لَهُ فَضِيلَةٌ، وَالسَّمعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ، فَخَالَفَهم رَسُولُ اللّه ﷺ، وأَمَرَ بِالصَّبرِ عَلَىٰ جَورِ الوُلَاةِ، وَأَمَرَ بِالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ لَهُم وَالنَّصِيحَةِ، وَغَلَّظَ فِي ذَلِكَ وَأَبدَىٰ فِيهِ وَأَعَادَ.

وَهَذِهِ الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي جَمَعَ بَيْنَهَا فِيمَا صَحَ عَنهُ فِي الصَّحِيحَين أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللّه يَرضَىٰ لَكم ثَلاثًا: أَن تَعبُدُوهُ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَأَن تَعتَصِمُوا بِحَبلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفرَّقوا، وَأَن تُنَاصِحُوا مَن وَلَّاهُ اللّه أَمرَكُم»[١].

وَلَم يَقَع خَلَل فِي دِينِ النَّاسِ وَدُنيَاهُم إِلَّا بِسَبَبِ الإِخلَالِ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ أَو بَعضِهَا.

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم لا يخضعون لوليِّ الأمر ويرون أن هذا ذِلَّة، ومعصية الأمير يعتبرونها فضيلة وحرية؛ ولذلك لا يجمعهم إمام، ولا يجمعهم أمير؛ لأنهم لا يخضعون، وعندهم أنفة وكِبْر.

فجاء الإسلام بمخالفتهم وأمر بالسمع والطاعة لوليِّ الأمر المسلم؛ لما في ذلك من المصالح، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فأمر بطاعة وُلاة الأمور، والرسول ﷺ حدَّد ذلك في غير المعصية، فقال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٢]، وقال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[٣]. فتجب

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٨٥٨١)، وانظر: «صحيح الجامع» (١٨٩٥).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٣١)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري بلفظ: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف» (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠/ ٣٩).

طاعة وليِّ الأمر في غير معصية الله، فإذا أمر بمعصية فلا يُطاع، لكن لا يُخالف في بقية الأمور، لا يُطاع في هذه المسألة خاصة التي فيها معصية، أما بقيَّة الأمور فلا تنتقض بيعته بسبب ذلك، ولا يخالف، ما دام أنه علىٰ الإسلام؛ لما في طاعة وُلاة الأمور من اجتماع الكلمة، وحَقْن الدماء، واستتباب الأمن، وإنصاف المظلوم من الظالم، وردِّ الحقوق إلىٰ أصحابها، والحكم بين الناس بالعدل، حتىٰ ولو كان وليُّ الأمر غير مستقيم في دينه بأن كان فاسقًا، ما لم يصل إلىٰ الكُفْر، كما قال ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم عليه من الله برهان**»[1]، فما دامت معاصيه دون الكُفْر، فإن يُسمع له ويُطاع، وفسقه علىٰ نفسه، لكن ولايته وطاعته لمصلحة المسلمين.

ولهذا لما قيل لبعض الأئمة: إن فلانًا فاسق لكنه قويٌّ، وإن فلانًا صالح لكن ضعيف، أيهما يصلح للولاية؟ قال: الفاسق القوي؛ لأن فِسْقه علىٰ نفسه، وقوته للمسلمين. أما هذا الصالح فإنه صلاحه لنفسه وضَعْفه يضرُّ المسلمين.

فيسمع له ويُطاع وإن كان فاسقًا في نفسه، بل وإن جار وإن ظلم، يقول رسول الله ﷺ: «**أطع وإن أخذ مالك وضرب ظَهْرك**»[2]؛ لأن في طاعته مصلحة أرجح من المفسدة التي هو عليها، ولأن مفسدة الخروج عليه أعظم من مفسدة البقاء علىٰ طاعته وهو عاصٍ؛ لأن في الخروج عليه سَفْكًا للدماء، وإخلالًا بالأمن، وتفريقًا للكلمة.

وماذا حصل للذين خرجوا علىٰ الأُمراء ووُلاة الأمور مما قصَّه التاريخ؟ ماذا حصل عندما قام نازغه من الشُّذاذ في عهد عثمان رضي الله عنه قاموا وشقُّوا عصا الطاعة، وقتلوا أمير المؤمنين عثمان؟ كم وقع علىٰ المؤمنين من النكسات إلىٰ الآن، بسبب الخروج علىٰ أمير المؤمنين وقتله؟ فلا يزال المسلمون يعانون من النكسات المتوالية والمفاسد، وكذلك في حقِّ بقيَّة الوُلاة الصبر علىٰ طاعته وإن كان فيه مفسدة جزئية أخف من مفسدة الخروج عليه؛ فلذلك أوجب النبي ﷺ طاعته ما لم يخرج عن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٩٠/ ٤٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤٧).

الإسلام، ولو كان فاسقًا، ولو كان ظالمًا، فإنه يصبر علىٰ هذه المفسدة الجزئية؛ درءًا للمفسدة العظيمة، وارتكاب أخفِّ الضررين لدفع أعلاهما، هذا شيء معروف.

وما من قوم خرجوا علىٰ إمامهم إلا كانت المفسدة في الخروج عليه أعظم من المفسدة في الصبر علىٰ طاعته.

وهذا فَرْق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام في مسألة وُلاة الأمور، أهل الجاهلية لا يرون الطاعة لوُلاة الأمور، ويرون ذلك ذِلَّة، وأما الإسلام: فإنه أمر بطاعة وُلاة أمور المسلمين، وإن كان عندهم شيء من الفسق في أنفسهم، أو عندهم ظُلم للناس، يصبر عليهم؛ لأن في ذلك مصالح للمسلمين، وفي الخروج عليهم مضارّ للمسلمين أعظم من المفاسد التي في البقاء علىٰ طاعتهم من انحرافهم الذي لا يخرجهم عن الإسلام، هذه القاعدة العظيمة التي جاء بها الإسلام في هذا الأمر العظيم، وأما أهل الجاهلية - كما سبق - لا يرون انعقاد ولاية، ولا يرون سمعًا ولا طاعة، ومثلهم الأمم الكافرة - الآن- الذين يقولون بالحريات والديمقراطيات، ماذا تكون مجتمعاتهم الآن؟ همجية، بهيمية، قَتْل وسَلْب وفساد أعراض، وشرٌّ واضطراب أمن، وهم دول كبرىٰ، وعندهم أسلحة، وعندهم مدمرات، لكن حالتهم حالة بهيمية -والعياذ بالله-؛ لأنهم باقون علىٰ ما كانت عليه الجاهلية.

وأمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة لهم، وأمر بالنصيحة لهم سرًّا، بينهم وبين الناصح. وأما الكلام فيهم وسبّهم واغتيابهم؛ فهذا من الغشّ لهم؛ لأنه يُؤلِّب الناس عليهم ويفرح أهل الشرِّ، وهذا من الخيانة لوُلاة الأمور. أما الدعاء لهم وعدم ذِكْر معائبهم في المجالس، فهو من النصيحة لهم، ومَنْ كان يريد أن ينصح الإمام فإنه يُوصِّل النصيحة إليه من نفسه؛ إما مشافهة، إما كتابة، وإما بأن يُوصي له مَنْ يتصل به ويُبلِّغه عن هذا الشيء؛ وإذا لم يتمكن فهو معذور.

أما أنه يجلس في المجالس، أو علىٰ المنابر، أو أمام أشرطة ويسبُّ وُلاة الأمور ويُعيبهم، فهذا ليس من النصيحة، وإنما هو من الخيانة لوُلاة الأمور، والنصيحة لهم

تشمل الدعاء لهم بالصلاح، وتشمل سَتْر عيوبهم وعدم إفشائها علىٰ الناس، كذلك من النصيحة لهم: القيام بالأعمال التي يكلونها إلىٰ الموظفين، ويعهدون بها إلىٰ الولاة في القيام بها، هذا من النصيحة لولاة الأمور.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه الثلاث هي التي جمع بينها فيما صح عنه في الصحيح أنه قال: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَنْ ولَّاه الله أمركم**»[(١)] ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الصفات أو ببعضها.

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد جمع النبي ﷺ هذه المسائل الثلاث، يعني: التي تقدم ذِكْرها، وهي:

المسألة الأولى: أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الأولياء والصالحين، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

والمسألة الثانية: أن أهل الجاهلية كانوا متفرِّقين في دينهم ودنياهم.

والمسألة الثالثة: أنهم لا يخضعون لوليِّ الأمر، ويرون ذلك ذِلَّة ومهانة.

هذه المسائل الثلاث جمعها رسول الله ﷺ الذي أُوتي جوامع الكلم وفَصْل الخطاب في كلمة واحدة، وذلك في قوله ﷺ: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَنْ ولاه الله أمركم**»[(٢)].

الأولى: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، ويدخل في الشرك عبادة الأولياء والصالحين.

الثانية: أن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، عكس ما كان عليه أهل الجاهلية من أنهم كانوا متفرقين في دينهم ودنياهم، وحبل الله هو القرآن، والاعتصام به هو أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٨٥٨١)، وانظر: «**صحيح الجامع**» (١٨٩٥).

(٢) صحيح: انظر الحديث السابق.

تتمسكوا به، فتعملوا بما أمركم به، وتجتنبوا ما نهاكم عنه؛ لأن القرآن هو المنهج الربانيُّ الكفيل بمصالح العباد في دينهم ودنياهم، فالتمسُّك به رحمة، وعدم التمسك به عذاب وشقاء.

الثالثة: أن تناصحوا مَنْ ولَّاه الله أمركم، وهذا بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية الذين لا ينقادون لوليِّ الأمر، وهذا فيه الأمر بالانقياد لوليِّ الأمر، ومُناصحته وطاعته، وعدم الخروج عليه، وعدم الكلام فيه أمام الناس وذِكْر عيوبه ونَشْر عيوبه بين الناس؛ لأن هذا من الخيانة لوليِّ الأمر، ليس هذا من النصيحة، وإن كان بعض الناس يزعم أن هذا نصيحة، فهذا ليس نصيحة، وإنما هذا تشهير وشرٌّ، وإلقاء للعداوة بين الوالي والرعية، وليس فيه مصلحة أبدًا، بل هو مضرَّة محضة.

ثم بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخلل الذي يقع في دين الناس، ودنياهم، إنما سببه الإخلال بهذه الثلاث أو الإخلال ببعضها، وهو الشرك بالله، والتفرُّق، والخروج علىٰ ولي الأمر.

المسألة الرابعة:

التقليد الأعمى ومضاره

أَنَّ دِينَهُم مَبنيٌّ عَلَىٰ أُصُولٍ أَعظَمُهَا التَّقلِيدُ، فَهوَ القَاعِدَةُ الكُبرَىٰ لِجَمِيعِ الكُفَّارِ أَوَّلِهِم وَآخِرِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان:٢١]، فَأَتَاهُم بِقَولِهِ: ﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الآية [سبأ:٤٦]، وَقَولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم لا يبنون دينهم علىٰ ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما يبنون دينهم علىٰ أُصول أحدثوها هم من عند أنفسهم، ولا يقبلون التحوَّل عنها، منها: التقليد: وهو المحاكاة، بأن يُقلِّد بعضهم بعضًا، وإن كان المقلَّد لا يصلح للقدوة، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ومترفوها هم: أهل الرفاهية والمال في الغالب؛ لأنهم أهل الشرِّ وعدم قبول الحقِّ، خلاف الضُّعفاء والفقراء، فإن الغالب عليهم التواضع وقبول الحقِّ، فأهل الترف هم أصحاب الجاه والمال ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أي: أصحاب المال والجاه فيهم، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: ٢٣] أي: علىٰ مِلَّة ودين، وإن متبعون لهم علىٰ دينهم -يعني: لسنا بحاجة إليكم أيها الرسل، يزعمون أن هذا يُغنيهم عن اتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فهذا هو التقليد الأعمىٰ، وهو من أمور الجاهلية.

أما التقليد في الخير فهذا يُسمَّىٰ إتباعًا واقتداءً، قال تعالىٰ عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولهذا قال الله تعالىٰ في أهل الجاهلية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فالذي لا يعقل ولا يهتدي ليس محلًّا للقدوة، إنما القدوة فيمَنْ يعقل ويهتدي، فالتقليد الأعمىٰ من أمور الجاهلية، وهذا يُسمَّىٰ بالتعصب؛ لأن القدوة هو رسول الله ﷺ ومَن اتبعه.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وإذا قيل للمشركين والكافرين: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو القرآن، ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: يدعو هؤلاء الآباء ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أتتبعونهم للسعير؟ يعني: تقتدون بآبائكم وإن كانوا من أتباع الشيطان، ومآلهم إلىٰ السعير؟ العاقل يجب أن ينظر في أمره وفيمَنْ يقلد.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأتاهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

أي: أتاهم رسول الله ﷺ بهذه الآية، فهم يقولون: نحن نتمسك بما عليه آباؤنا، ولا نطيع هذا الرجل -يعنون: محمدًا ﷺ-. والله -جل وعلا- يقول: انظروا وتفكَّروا فيما قال لكم هذا الرجل، تفكروا، ولا تأخذكم العصبية، ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦] جماعات وفرادىٰ، تنظرون فيما دعاكم إليه محمد ﷺ، فإن كان

حقًّا وجب عليكم اتباعه، ولا يجوز لكم البقاء علىٰ ما كان عليه الآباء والأجداد.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ يعني: لا للهوىٰ والعصبية؛ بل يكون قيامكم لله، تريدون الحقَّ، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ اثنين اثنين، يُفكِّرون ويجتمعون، ويعقدون جِلْسة؛ لأن تعاون الجالسين أو الجماعة فيه رجاء الوصول إلىٰ الحقِّ، أو فُرَادىٰ، أن يخلو بنفسه ويفكِّر، ويتأمل ما جاء به الرسول ﷺ، وسيجد أنه حقٌّ فيجب عليه اتباعه، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني: محمدًا ﷺ، الذي تقولون: إنه مجنون، وهو ليس به جنون؛ بل هو أعقل الرجال وأعقل الخَلْق ﷺ، وأنصح الخَلْق وأعلم الخلق، -عليه الصلاة والسلام-، فكيف تقولون: إنه مجنون؟ فكِّروا، انظروا في عقله، انظروا في تصرفاته، هل هي مثل تصرُّف المجنون؟ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] إن لم تؤمنوا به وتتبعوه، فإنه سيحلُّ بكم العذاب الشديد، فهو جاءكم ناصح لكم، يريد لكم الخير، ويريد لكم النجاة، ويريد لكم الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، فكيف تصفونه بهذا الوصف، تقولون: إنه مجنون، وبدون رَوِيَّة وبدون تفكر وبدون تأمل لما جاء به؟

وهكذا يجب علىٰ كلِّ عاقل أن ينظر في أقوال الناس، فيُميِّزها ويفحصها، ويرىٰ الخطأ من الصواب، فيقبل الحقَّ ويرد الخطأ، ولا يحمله التقليد الأعمىٰ علىٰ البقاء علىٰ الباطل.

المسالة الخامسة:

الاحتجاج بما عليه الأكثر

أَنَّ مِن أَكبَرِ قَوَاعِدِهِم: الاغتِرَارُ بِالأكثَرِ، وَيَحتَجُّونَ بِهِ عَلَىٰ صِحَّةِ الشَّيءِ، وَيَستَدِلُّونَ عَلَىٰ بُطلَانِ الشَّيءِ بِغُربَتِهِ وَقِلَّةِ أَهلِهِ، فَأَتَاهُم بِضِدِّ ذَلِكَ، وَأَوضَحَهُ فِي غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ القُرآنِ.

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم يستدلُّون بالأكثرين علىٰ الحّق، ويستدلون بالأقلين علىٰ غير الحقِّ، فما كان عليه الأكثر عندهم فهو الحقُّ، وما كان عليه الأقل فهو غير حقٍّ، هذا هو الميزان عندهم في معرفة الحقِّ من الباطل، وهذا خطأ؛ لأن الله -جل وعلا- يقول: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ويقول تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، إلىٰ غير ذلك. فالميزان ليس هو الكثرة والقِلَّة؛ بل الميزان هو الحقُّ، فمَنْ كان علىٰ الحقِّ -وإن كان واحدًا- فإنه هو المصيب، وهو الذي يجب الاقتداء به، وإذا كانت الكثرة علىٰ باطل، فإنه يجب رفضها وعدم الاغترار بها، فالعِبْرة بالحقِّ، ولذلك يقول العلماء: الحقُّ لا يُعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحقِّ، فمَنْ كان علىٰ الحق فهو الذي يجب الاقتداء به.

والله -جل وعلا فيما قصَّ عن الأمم- أخبر أن القِلَّة قد يكونون علىٰ الحقِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]، وفي الحديث: الذي عرضت فيه الأمم علىٰ النبي ﷺ، رأي النبيَّ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل، والرجلان، والنبي وليس معه أحد. فليست العِبْرة بكثرة الاتباع علىٰ المذهب أو علىٰ القول، وإنما العِبْرة بكونه

حقًّا أو باطلًا، فما كان حقًا - وإن كان عليه أقل الناس، أو لو لم يكن عليه أحد، ما دام أنه حقٌّ - يتمسك به فإنه هو النجاة. والباطل لا يؤيده كثرة الناس أبدًا، هذا ميزان يجب أن يتخذه المسلم دائمًا معه.

والنبي ﷺ يقول: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»(١). وذلك حين يكثر الشرُّ والفتن والضلال، فلا يبقىٰ علىٰ الحقِّ إلا غرباء من الناس، ونُزَّاع من القبائل، يصبحون غرباء في المجتمع البشري، والرسول ﷺ بُعِثَ والعالَم كلُّه يموج في الكُفْر والضلال، ودعا الناس، فاستجاب له الرجل والرجلان، إلىٰ أن تكاثروا. وكانت قريش -وكانت الجزيرة كلُّها، وكان العالَم كلُّه- علىٰ الضلال والرسول ﷺ وَحْده يدعو الناس، والذين اتبعوه قليل بالنسبة للعالَم.

فالعِبْرة ليست بالكثرة، العِبْرة بالصواب وإصابة الحقِّ.

نعم، إذا كانت الكثرة علىٰ صواب فهذا طيب، ولكن سُنَّة الله -جل وعلا- أن الكثرة تكون علىٰ الباطل ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٦).

المسألة السادسة:

الاحتجاج بما عليه الأقدمون

الاحتِجَاجُ بِالمُتَقَدِّمِينَ، كَقَولِهِ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٥١]، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤].

الشَّرح

أي: إذا جاءتهم الرسل بالحقِّ احتجُّوا بآبائهم، فإن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعا فرعون إلىٰ الإيمان احتجَّ فرعون بما عليه الأولون ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، يريد أن يحتجَّ بما عليه القرون الأولىٰ التي سبقته من الكفرة، وهذه حُجَّة باطلة، وهي حجة جاهلية، وكما قال قوم نوح لما دعاهم إلىٰ الله، قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، فقابلوا دعوة نبيِّ الله نوح بما عليه آباؤهم أنهم علىٰ حقٍّ، وأن ما جاء به نوح باطل؛ لأنه مخالف لما عليه آباؤهم.

وكفار قريش يقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] أي: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي جاء به محمد ﷺ، ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِلَّة آبائهم وأجدادهم، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ كذب، فهم وصفوا ما جاء به الرسول ﷺ بأنه كذب، لماذا؟ لأنه مخالف لما عليه آباؤهم، هو عبادة الأوثان، ولم يرجعوا إلىٰ دين أبيهم إبراهيم وإسماعيل؛ بل رجعوا إلىٰ ما كان عليه آباؤهم قريبًا، وهم آباؤهم وأجدادهم في مكة من كفار قريش، فهذه سُنَّة الكفار، وهذه سُنَّة الجاهلية؛ أن يحتجُّوا بمَنْ سبقهم من الأمم.

والواجب علىٰ العقلاء أن ينظروا ما مع الرسل، ويقارنوا بينه وبين ما عليه آباؤهم؛ ليتضح لهم الحق من الباطل، أما إغلاق الباب علىٰ أنفسهم، يقولون: ما نقبل إلا ما

عليه آباؤنا، ولا نقبل ما يخالفه، فهذا ليس من شأن العقلاء فضلًا عن الذين يريدون النجاة لأنفسهم.

والآن عُبَّاد القبور إذا نُهوا عن عبادة القبور، قالوا: هذا عليه البلد الفلاني، وعليه الجماعة الفلانية، وعليه قرون مضت. وأصحاب الموالد إذا نُهوا، قيل لهم: هذا بدعة.

قالوا: هذا شيء معمول به قبلنا، ولو كان باطلًا ما عملوه.

وهذا احتجاج أهل الجاهلية، فليس العِبْرة بما عليه الناس، وإنما العِبْرة بما جاء به الرسول ﷺ؛ لأن الناس يُخطئون ويصيبون، لكن ما جاء به الرسول ﷺ فهو صواب قطعًا، الواجب اتباعه، والله لم يكلنا إلىٰ آبائنا وأجدادنا، ولو كان الذي عند الآباء والأجداد يكفي ما احتجنا إلىٰ الرسل.

وهكذا الصوفية، يقولون: أحوالنا تكفي عن اتباع الرسول، ولنا أحوال، ولنا اتصال مع الله، ونأخذ عن الله مباشرة، وأهل السُّنة يأخذون دينهم عن أموات - يعنون رجال السند - أما نحن فنأخذ ديننا عن الحيِّ الذي لا يموت، ويقولون: الرسل إنما يحتاجهم العوام، أما الخواصُّ فهؤلاء ليسوا بحاجة إلىٰ الرسل؛ لأنهم وصلوا إلىٰ الله، وعرفوا وليسوا بحاجة إلىٰ الرسل، هكذا يقول لهم الشيطان، ويقول: إن أصحاب الطرق لا يحتاجون للرسل؛ لأنهم يأخذون عن الله مباشرة. وهذا من دين الجاهلية، والوقائع كثيرة من هذا النوع.

❊❊❊

المسالة السابعة:

الاستدلال بما عليه أهل القوة

الاستدلالُ بِقَومٍ أُعطُوا قُوىً فِي الأفهَامِ وَالأعمَالِ وَفي المُلكِ وَالمَالِ وَالجَاهِ، فَرَدَّ اللّٰهُ ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ الآيَةَ [الأحقاف:٢٦]، وَقَولِهِ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وَقَولِهِ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ الآيَةَ [البقرة: ١٤٦].

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم يستدلُّون أن ما كان عليه الأقوياء من الناس وأصحاب الجاه وأصحاب الذكاء، أنه هو الحقُّ. فهذا هو الضابط عندهم لمعرفة الحقِّ؛ أنهم ينظرون في الناس، فما كان عليه أهل القوة والمال والتَّرَف والجاه اعتبروه هو الحقُّ، وما كان عليه الضُّعفاء والفقراء يعتبرونه باطلًا -هذه حالة أهل الجاهلية.

وهذا الضابط باطل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر عن الأمم السابقة الكافرة أنها كانت علىٰ قوة، وأنها كانت علىٰ ثروة في آيات كثيرة، وأنهم أهل جاهٍ، وعندهم ذكاء وأفهام، لكن ما نفعهم ذلك، بل كانوا علىٰ الباطل، وقد ذكر الله هذا في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]، فقال تعالىٰ ردًّا عليهم: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ [ق: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ

﴿بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فهذه الآيات وأمثالها تدلُّ علىٰ أن العِبْرة ليست بالقوة والمال، إذا كان أهل ذلك علىٰ ضلال، فإن هذه القوة، وهذا المال، وهذا الثراء لا ينفعهم.

وبيَّن سبحانه أنه يُعطي الكفار من أجل استدراجهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

فالله يُعطيهم هذه الثورة ويُمكِّنهم في الأرض ويُعطيهم المُلْك والسُّلْطة، ويُمكِّنهم من المخترعات والصناعات، كما عليه الكفار في هذا الوقت، وهذا لا يدلُّ أن ما هم عليه حقٌّ، ولا يدلُّ علىٰ أن الله راضٍ عنهم في إعطائه لهم، وإنما هذا من باب الاستدراج لهم والإملاء، ليزدادوا إثمًا إنما يستدل بهذا الدليل أهل الجاهلية ومَنْ شابههم وأما أهل البصيرة فإنهم ينظرون إلىٰ ما عليه الأمم، فإن كان حقًّا قبلوه وإن كانوا فقراء، وإن كان باطلًا ردُّوه وإن كانوا أغنياء.

والآيات في هذه كثيرة، منها ما ذكره الشيخ هنا، وهو قول الله تعالىٰ لما ذكر هلاك قوم عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦- ٨] أي: قبيلة إرم، أو البلد الذي كانت تسكنه هذه القبيلة، تسمىٰ إرمًا، ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٧- ٩] ينحتون الجبال وينقشونها، ويجعلونها مساكن لهم، وهي موجود إلىٰ الآن، علىٰ طريق القوافل إلىٰ الشام، ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:٥٢].

فهؤلاء أعطاهم الله من القوة الشيء العظيم، وهم كفار، ولما جاءهم أنبياؤهم اغتروا بما عندهم من القوة، ومن الثورة، ومن الأُبهة، فتكبَّروا علىٰ الرسل، وبقوا علىٰ شِرْكهم، ولم يقبلوا الحقَّ؛ غرورًا بما هم عليه من القوة، حتىٰ إن الله ذكر عن عاد أنهم اغتروا بقوتهم ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وأما الاستدلال بالفَهْم، فبنو إسرائيل -اليهود-، أعطاهم الله فَهْمًا وعلمًا، وكانوا يعرفون من صفات النبي ﷺ الذي سيُبعث في آخر الزمان، بما عندهم في التوراة والإنجيل، وأنه سيُبعث نبيٌّ هو خاتم الأنبياء، وأن صفاته كذا وكذا، وكان بينهم وبين العرب في المدينة -من الأوس والخزرج- حروب، ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ٨٩] يقولون: سيُبعث النبيُّ الذي في آخر الزمان، ونتبعه، ونقتلكم معه، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] أي: لما بُعث محمد ﷺ؛ وكان من بني إسماعيل، حسدوه؛ لأنهم يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل، ويحتجزونها لأنفسهم، فلما كانت في بني إسماعيل، حسدوا رسول الله ﷺ، وهم يعرفون أنه رسول الله؛ وما نفعهم فَهْمهم ومعرفتهم.

فما كلُّ مَنْ عرف الحقَّ يعمل به، فقد يصرفه صارف: إما الحسد، وإما الكبر، وإما الطمع في الدنيا، أو الطمع في الرياسة، هناك صوارف تصرف الإنسان عن الحقِّ وهو يعرفه.

فالهِدَاية والتوفيق من الله ﷻ، ليست عن المعرفة وعن العِلْم والفَهْم، فالأمر راجع إلىٰ الله ﷻ؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يكثر من قول: «**يا مُقلِّب القلوب والأبصار، ثبِّتْ قلبي علىٰ دينك**»(١)، فمجرد المعرفة والعلم والفَهْم والفِقْه، كلُّها أسباب جيدة، لكن لا تكفي. فهذا مما يُعطي المؤمن الحذر، وعدم الاغترار بعِلْمه وعدم الاغترار

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٩٦)، والحاكم (١٩٧٠)، وابن ماجه (١٩٩)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٧، ٧٩٨٨).

بفَهْمه، وأن يسأل ربَّه الثبات علىٰ الحقِّ والهِدَاية للصواب دائمًا وأبدًا، كما أنه لا يغترُّ بالقوة، ويقال: هذه دولة قوية، ما يمكن أن يتغلب عليها أحد؛ لأنها دولة قوية محصَّنة بالأسلحة والذخيرة الفتَّاكة والقنابل الذرية، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

فهذه مسألة عظيمة، يغفل عنها كثير من الناس، ويحتجُّ بالقوة والثروة والجاه والأُبهة، ويقولون: هذه أُمة راقية، مما يدلُّ أنها علىٰ حقٍّ، وما توصلت إلىٰ هذا المستوىٰ إلا وهي علىٰ حقٍّ؛ لأن عندهم حضارة، وعندهم ثقافة وفَهْم، وهكذا يقول بعض المغرورين، دون نظر إلىٰ ما هم عليه من الكُفْر.

المسالة الثامنة:

الاستدلال بأن ما عليه الضعفاء ليس حقًا

الاستِدلالُ عَلَىٰ بُطلَانِ الشَّيءِ بِأَنَّهُ لَم يَتَّبِعهُ إِلَّا الضُّعَفَاءُ كَقَولِهِ: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وَقَولِهِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾، فَرَدَّه اللَّهُ بِقَولِهِ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

الشَّرح

هذه المسألة عكس التي قبلها -وهي الاستدلال بالقوَّة علىٰ أن أصحابها علىٰ حقٍّ- وفي هذه المسألة يستدلُّون بالضعف علىٰ أن الضعفاء ليسوا علىٰ الحقِّ، لو كانوا علىٰ حقٍّ ما صاروا ضُعفاء. هذا ميزان أهل الجاهلية، في معرفة الحقِّ من الباطل، ولا يعلمون أن القوة والضعف بيد الله تَعَالَىٰ، وأن الضعيف قد يكون علىٰ الحقِّ وهو ضعيف، وأن القوي قد يكون علىٰ الباطل، وهذا منطق قوم نوح لما دعاهم إلىٰ الله ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] يعني: الضعفاء منهم، فلو كنت علىٰ حقٍّ لاتبعك الأقوياء، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧] أي: الذين ليس عندهم رأي، اتبعوك، من غير رَوِيَّة، ومن غير تفكير.

وكذلك المشركون في عهد رسول الله ﷺ كانوا يسخرون من ضعفاء المؤمنين، من بلال وسلمان وعمَّار بن ياسر وأبيه وأمه، ويَسْخرون من ضُعفاء الصحابة، حتىٰ إنهم قالوا: ما نجلس معك وهؤلاء عندك، اجعل لنا مجلسًا غير مجلسهم حتىٰ نتفاهم معك. فالنبي ﷺ من حِرْصه علىٰ هدايتهم أراد أن يجعل لهم مجلسًا خاصًّا، فعاتبه الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ هؤلاء: يعنون ضعفاء الصحابة، لا يمكن أن يسبقونا إلىٰ الخير، ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾[الأحقاف: ١١]، ومثلهم الآن الذين يصفون العلماء بأنهم ما عندهم رأي ولا تفكير، وأن نظرهم قريب، وعندهم تَحَجرٌ، وعندهم شدة، إلىٰ آخر ما يقولون.

والشيخ ما كتب هذه المسائل للتاريخ، وإنما كتبها للتحذير، بأن يحذر هذه الأمور؛ لأنها من أمور الجاهلية.

المسالة التاسعة:

اقتداؤهم بفسقة العلماء وجهال العباد

الاقتِدَاءُ بِفَسَقَةِ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ فَأَتَىٰ بِقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤]، وبقوله: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: الاستدلال بِفَسَقة العلماء، والفاسق هو: الخارج عن طاعة الله في عِلْمه وعمله، وفسقة العلماء هم: الذين لا يعملون بعِلْمهم، أو يقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون، بأن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، وهم يعلمون أنهم كاذبون، من أجل الوصول إلىٰ رغباتهم واتباع الأهواء، تحت مَظَلَّة أنهم علماء، والناس يثقون فيهم، وفسقة العباد هم الذين يُعلِّمون بغير عِلْم، والناس يثقون فيهم، يقولون: هؤلاء صالحون.

فلا يغترُّ بالعالِم ولا بالعابد حتىٰ يكون كلٌّ منهما مستقيمًا علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تَعَالَىٰ في اليهود والنصارىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤]، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣١] ذلك بأن حلَّلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرَّموا عليه الحلال فأطاعوهم، فصاروا بذلك أربابًا من دون الله - والعياذ بالله-؛ لأن التحليل والتحريم حقٌّ لله -جل وعلا-، ليس لأحد أن يحرِّم أو يحَلل حسب هواه وحسب أغراضه، ويُرضي الناس ويساير الناس، والآن هناك ناس يتحايلون علىٰ الشرع، يُحلُّون المحرمات لأجل مسايرة الناس وإرضاء الناس -

بزعمهم- يلتمسون الحِيَل، ويلتمسون الرُّخَص، أو الكذب علىٰ الله، بأن الله أحل هذا، أو حرم هذا؛ من أجل مصلحة فلان.

هؤلاء هم فسقة العلماء، والفاسق هو: الخارج عن طاعة الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهذا نداء للمؤمنين للتحذير، والأحبار هم العلماء، وغالبًا يُطلق علىٰ علماء اليهود، والرهبان هم العُبَّاد، وهذا في الغالب يُطلق علىٰ عُبَّاد النصارىٰ، فالرهبنة في النصارىٰ، والعِلْم في اليهود، لكن اليهود مغضوب عليهم، والنصارىٰ ضالون. والله -جل وعلا- أمرنا في كلِّ ركعة في الصلاة أن نقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وهم أهل العلم والعمل، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم أهل العلم بدون عمل، هم فسقة العلماء ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الرهبان من النصارىٰ وغيرهم، الذين يعبدون الله علىٰ غير دليل وعلىٰ غير برهان، وإنما يعبدون الله بالبدع والمحدثات والخُرَافات. والله نهانا عن العلماء الفسقة، والعباد الضالين، وأمرنا أن نأخذ الحق بدليله، منه كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

والآن إذا صار للواحد رغبة في شيء، قال: هذا أفتىٰ به فلان. دون نظر إلىٰ مستنده من الكتاب والسنة، تقول له: هذه الفتوىٰ خطأ. يقول: ما عليَّ، ما دام قد أفتىٰ به فلان.

وإذا صارت الفتوىٰ لا توافق هواه، قال: هذه الفتوىٰ ليست صحيحة أو متشددة. وصاروا يجمعون ترّهات وأخطاء العلماء، ويجعلونها في كتاب، يظهرونه للناس، من باب التوسعة علىٰ الناس -بزعمهم- ويقولون: دين الإسلام سَمحٌ، لا تضيِّقوا علىٰ الناس، وإذا قيل لهم: أعرضوها علىٰ الكتاب والسنة، قالوا: هذا كلام العلماء. وهل العالِم أكبر من الكتاب والسنة، فلا يُعرض قوله علىٰ الكتاب والسنة؟!!

هذا إنما يفعله أهل الأهواء -والعياذ بالله-، الذين ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وإذا نهوا عن البدعة التي حذَّر منها الرسول ﷺ، قالوا: هذا يعمل به فلان، وهو عالِم، أو صالح، ويعمل بها أهل البلد

الفلاني، وهم عندهم صلاح وتقوىٰ. ونقول: الصلاح والتقوىٰ لا يكفيان، لا بُدَّ من موافقة الكتاب والسنة.

فأخذ أقوال العلماء والعباد قضية مسلَّمة دون عَرْض علىٰ الكتاب والسنة، هي طريقة أهل الجاهلية، الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

المسألة العاشرة:

رميهم أهل الدين بقلة فهمهم وعدم حفظهم

الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِ الدِّينِ بِقِلَّةِ أَفهَامِ أَهلِهِ، وَعَدَمِ حِفظِهِم كقَولِهِم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود:٢٧].

الشَّرح

ما ذكره الله عن قوم نوح قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] أي: الضعفاء، ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: الذين ليس عندهم فَهْم. فيُعيِّرون أتباع الرسل بأن ما عندهم فَهْم ولا حَذَق للأمور، وما عندهم بعد نظر.

وهذا ما يتبجَّح به كثير من الفسقة وأعداء الله اليوم، يتندرون من المسلمين ومن علماء المسلمين، بأنهم ما عندهم فَهْم ولا بُعْد نَظرٍ، ويتنقصونهم بهذه الفرية، مع أن علماء المسلمين هم أهل البصيرة، وهم أهل المعرفة؛ لأنهم ينظرون بنور الله عَزَّوَجَلَّ، ويأمرون بأمر الله، وينهون عما نهىٰ الله عنه.

ولا شك أن العلماء العاملين هم أفضل الناس بعد الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وفَضْل العالِم علىٰ العابد كفَضْل القمر علىٰ سائر الكواكب، فلا يتنقص العلماء ويتهمهم بقصر النظر وعدم الفَهْمِ لا مَنْ هو شبيهٌ بأهل الجاهلية، وبقوم نوح الذين يصفون أتباع الرسل بهذا الوصف؛ لينفِّرُوا الناس عنهم، وهذا يأتي علىٰ ألسنة بعض الناس اليوم، يقولون: هؤلاء العلماء عُلماء حيض ونفاس، وعلماء أحكام الاستجمار، وعلماء جزئيات، ولا يعرفون فِقْه الواقع، وفِقْه الواقع عندهم أمور السياسة والثورة علىٰ الوُلاة.

❀❀❀

المسالة الحادية عشرة والثانية عشرة:

اعتمادهم على القياس الفاسد وإنكار القياس الصحيح

الاستِدلالُ بِالقِيَاسِ الفَاسِدِ؛ كَقَولِهِم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠].

إِنكَارُ القِيَاسِ الصَّحِيحِ، وَالجَامِعُ لِهَذَا وَمَا قَبلَهُ عَدَمُ فَهمِ الجَامِعِ والفَارِقِ.

الشَّرح

المسألة الحادية عشرة والثانية عشرة: اعتمادهم على القياس الفاسد وإنكار القياس الصحيح.

والقياس عند الأُصوليين نوعان: قياس عِلَّة وهو: إلحاق فرع بأصل في الحكم لجامع بينهما، فإن اختلَّ شرط من شروطه فهو قياس فاسد، لا يعتمد عليه في إثبات حكم من الأحكام. وهذه مسألة خطيرة، يقول ابن القيم: أكثر ضُلَّال الناس إنما هو بسبب القياس الفاسد. وأول مَنْ مارس القياس الفاسد إبليس، لما أمره الله بالسجود لآدم ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، يزعم أن النار خير من الطين، فيكون هو خيرًا من آدم، وهذا قياس فاسد؛ لأن النار ليست خيرًا من الطين، بل الطين خير من النار؛ لأن النار محرقة مُتْلفة للأشياء، أما الطين فهو ينبت الأشياء والبذور، وفيه خير للناس. فلو ذهبنا إلى القياس لقلنا: الطين خير من النار، مع أن الاعتماد ليس هو على القياس، بل الاعتماد على اختيار الله سبحانه وتعالى وتفضيله، وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويختار، لا اعتراض عليه، وله الحِكْمة البالغة سبحانه وتعالى.

كذلك المشركون قاسوا هذا القياس لما كذبوا الرسل، قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، استدلوا ببشريتهم على عدم صحَّة رسالتهم؛ لأن الرسالة لا تصحُّ في البشر بزعمهم. وهذا قياس باطل؛ لأنه قياس مع الفارق؛ لأن الرسل فضَّلهم الله

علىٰ غيرهم، واصطفاهم واختارهم، وهو أعلم ﷻ بحالهم وصلاحهم للرسالة ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ﴾ [الحج: ٧٥، ٧٦]، ولهذا لما قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

تقول الرسل: الله فضَّلنا بأنه منَّ علينا واختارنا للرسالة، فقياسكم قياس مع الفارق؛ لأن البشر لا يستوون، وليسوا علىٰ حد سواء، منهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم الرسل والعلماء والصالحون، ومنهم الجُهَّال والكفار والفُسَّاق، فالبشر يتفاوتون، فهناك فارق، والقياس مع الفارق يكون باطلًا؛ لأن هذا من قوادح القياس عند الأصوليين.

بل القياس الصحيح يقتضي أن يكون الرسول إلىٰ البشر بشرًا مثلهم؛ من أجل أن يُبيِّن لهم، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فالرسول يكون من جنس المرسل إليهم؛ من أجل تبليغ الرسالة، والحِكْمة تقتضي أن يكون رسول البشر من البشر، ولو كان الذين يعيشون علىٰ وَجْه الأرض ملائكة، لأرسل إليهم من جنسهم ملكًا.

ومن عجائب انتكاس هؤلاء: أنهم يستبعدون الرسالة في البشر، ولا يستبعدون أن تكون العبودية للحجر! فلا يستبعدون أن تكون الربوبية والإلهية للأحجار والأشجار، ومع هذا يستبعدون ويستنكرون أن تكون الرسالة في البشر، وهذا القياس الباطل عليه سائر أئمة الكفرة من قوم نوح وغيرهم، يُنكرون رسالة الرسل؛ لأنهم بشر، فقوم نوح قالوا: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥]، كذلك غيرهم، فقريش قالوا في حقِّ محمد ﷺ: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، فهذه قاعدة مطردة عند الكفار، وهي القياس الفاسد.

والنوع الثاني من القياس: قياس الشَّبه: وهو أن يتردد الفرع بين أصليين فيُلحق بأكثرهما شبهًا -والله جل وعلا- لا يُقاس بخَلْقه؛ لا قياس عِلَّة ولا قياس شَبهٍ يستوي أفراده، وإنما يُستعمل في حقِّه سبحانه قياس الأولىٰ وهو أن يقال: كلُّ كمال ثبت للمخلوق لا يستلزم نقصًا فالخالق أولىٰ به، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

والمسألة التي بعدها، وهي:

وأنكروا القياس الصحيح. وهو: أن يكون الرسل إلىٰ البشر بشرًا مثلهم، وأن يكون الرسل إلىٰ الملائكة من الملائكة، هذا هو القياس الصحيح، الذي تقتضيه الحِكْمة والفِطَر السليمة، أن المرسل يكون من جنس المرسل إليهم، لا من جنس آخر.

والذي حملهم علىٰ هاتين المسألتين هو الجهل بالجامع والفارق؛ الجامع الذي يبنىٰ عليه القياس، والفارق الذي لا يصحُّ معه القياس.

المسالة الثالثة عشرة:

الغلو بأهل العلم والصلاح

الغُلُوُّ فِي العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء:١٧١].

الشَّرح

وهذه مسألة خطيرة، والغلوُّ معناه في اللغة: الزيادة عن الحدِّ، يقال: غَلَا القدر، إذا ارتفع فيه الماء بسبب الغليان، ويُقال: غلا السعر، إذا ارتفع عن الحدِّ المعروف. فالغلوُّ هو: الزيادة والارتفاع عن الحدِّ المعروف.

والغلو في الشرع هو: الزيادة في رفع شخص فوق منزلته اللائقة به، كالزيادة في حقِّ الأنبياء، أو الصالحين، ورفعهم عن قدرهم إلىٰ الربوبية أو الأُلوهية.

فأهل الجاهلية غلوا في الأشخاص حتىٰ رفعوهم عن قدرهم، إلىٰ أن جعلوهم أربابًا مع الله، كما غلا اليهود في عزير، وقالوا: هو ابن الله. وكما غلت النصارىٰ ورفعوا عيسىٰ بن مريم -عليه الصلاة والسلام- من البشرية والرسالة إلىٰ الألوهية، وقالوا: هو ابن الله. وكذلك قوم نوح لما غلوا في الصالحين، وصوَّروا صورهم وتماثيلهم، ثم عبدوهم من دون الله، فرفعوهم إلىٰ مرتبة الألوهية ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[نوح: ٢٣] جعلوهم آلهة.

وكذلك غيرهم من طوائف المشركين إلىٰ اليوم، يغلون في الصالحين، ويطوفون بقبورهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بالموتىٰ ويستنجدون بهم، يطلبون منهم قضاء الحوائج.

فالغلوُّ يجرُّ أصحابه إلىٰ الشرك، ولهذا قال ﷺ: «**لا تطروني، كما أطرت**

النصارىٰ ابن مريم». والإطراء هو: الغلوُّ في المدح، «**إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

والغلوُّ في الأشخاص من الأنبياء والصالحين، هو الذي أوقع المشركين - من الكتابيين والأُميين في الشرك الأكبر.

والواجب أن يعرف للأشخاص قدرهم اللائق بهم، فيعرف للرسل رسالاتهم، ويعرف للصالحين صلاحهم، ويعرف للعلماء عِلْمهم، وأنهم أفضل من غيرهم، ففضل العالِم على العباد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، وينزلون منازلهم، ولا يرفعون فوق منازلهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾[النساء: ١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، والنبي ﷺ يقول: «**إياكم والغلوَّ في الدِّين، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلوُّ في الدين**»(٢).

فلا يجوز الغلوُّ في المخلوقين، ورفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله فيها؛ لأن هذا يجرُّ إلىٰ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الغلوُّ في العلماء والعباد، قال تعالىٰ عن اليهود والنصارىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، غلوا في علمائهم وعبادهم، حتىٰ اعتقدوا لهم الصلاحية في تحليل الحرام وتحريم الحلال، وتغيير الشرع المطهر.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد في «مسنده» (٤٣٧)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٨٠).

المسالة الرابعة عشرة:

نفيهم الحق وإثباتهم الباطل

أَنَّ كُل مَا تَقَدَّمَ مَبنيٌّ عَلَىٰ قَاعِدَةٍ، وَهِيَ: النَّفيُ وَالإثبَاتُ، فَيَتَّبِعُونَ الهَوَىٰ وَالظَّنَّ، وَيُعرِضُونَ عَمَّا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ.

الشَّرح

كُلُّ ما تقدم من المسائل التي ذكرها الشيخ عن أهل الجاهلية إنما هي مبنية على النفي الإثبات، فهم يثبتون ما نفاه الله، وينفون ما أثبته الله، ولذلك وقعوا في الضلال.فالله -جل وعلا- نفىٰ الشرك وأثبت التوحيد، وأمر بالتوحيد. وهم عكسوا؛ فأثبتوا الشرك، ونفوا التوحيد، فعكسوا معنىٰ (لا إله إلا الله) تمامًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، الإيمان بالباطل هو المنفي، وهم آمنوا به وأثبتوه، بدلًا من أن يكفروا به، والإيمان بالله هو الإثبات، وهم كفروا بالله، فنفوا المثبت حيث آمنوا بالباطل، فأثبتوا المنفي ونفوا المثبت، حيث كفروا بالله.

وهذه قاعدة الجاهلية التي يسيرون عليها، ويتخبطون في ضلالهم، فلو تتبعت أحوالهم لوجدتها لا تخرج عن هذه القاعدة، فمَنْ أشرك بالله فقد نفىٰ ما أثبته الله، وأثبت ما نفاه الله. ومَنْ أحل حرامًا أو حرَّم حلالًا، فهو من هذا القبيل، فمَنْ نفىٰ ما أحله الله، وأثبت ما حرَّمه الله، فهو من هذه القاعدة، التي لا يخرج عنها شيء من أفعال الجاهلية، ومَنْ عادىٰ أهل التوحيد، ووالىٰ أهل الشرك، فقد نفىٰ ما أثبته الله، وأثبت ما نفاه الله؛ لأن الله أمر بموالاة المؤمنين، ونهىٰ عن موالاة المشركين.

المسألة الخامسة عشرة:

اعتذارهم عن قبول الحق بعذر باطل

اعتِذَارُهُم عَنِ اتّبَاعِ مَا آتاهُمُ اللّه بِعَدَمِ الفَهمِ كقَولِهِم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ [البقرة:٨٨]، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١]؛ فَأَكذَبَهُمُ اللّهُ وَبَيّنَ أَنَّ ذَلِك بِسَبَبِ الطَّبعِ عَلَىٰ قُلُوبِهِم، وَأَنَّ الطَّبعَ بِسَبَبِ كُفرِهِم.

الشَّرح

أي: اعتذروا عن قبول الحق بأنهم لا يفهمونه، كما ذكر الله ﷻ عن اليهود، لما دعاهم رسول الله ﷺ للإسلام، قالوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] ﴿غُلۡفُۢ﴾ يعني: عليها غلاف، لا يصل إليها كلام الرسول، ولا تطمئن قلوبهم إلىٰ كلامه، فاتخذوا هذه حُجَّة في تكذيب الرسول ﷺ، هذا هو المعنىٰ المشهور للآية.

والمعنى الثاني: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ يعني: أنها مملوءة من العلم، فلسنا بحاجة إلىٰ كلام أحد، فليسوا - بزعمهم- بحاجة إلىٰ الرسول ﷺ.

فالله -جل وعلا- يُبيِّن أن العلة ليست ما يقولون، بل العلة أن الله لعنهم بسبب كُفْرهم، يعني: طردهم وأبعدهم عن رحمته، فصاروا لا يقبلون الحقَّ بسبب كُفْرهم، فالباء سببية، فصاروا لا يفقهون قول الرسول ﷺ؛ لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعبأون به؛ لأن الله صرفهم عقوبة لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، فمَنْ لم يقبل الحق ابتلاه الله بالباطل، وصار بعد ذلك لا يقبل الحقَّ؛ لأنه يفسد قلبه - والعياذ بالله-، كما قال تعالىٰ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۝١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، وهذا في اليهود،

وقوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ هذا ليس صحيحًا، وإنما الله صرفها؛ عقوبة لهم، وإلا أصل القلب أنه على الفطرة، يقبل الحقَّ بفطرته، لكن إذا فسدت الفطرة صار لا يقبل الحقَّ، مثل الأرض إذا فسدت وصارت سَبَخة، فإنها لا تنبت؛ لأنها فسدت، كذلك القلب إذا فسد صار لا يقبل الحقَّ.

وكذلك قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، مع أنه من أفصح الأنبياء وأبينهم خطابًا، حيث لُقِّب بخطيب الأنبياء؛ لقوة فصاحته وتأثيره، وبلاغة كلامه -عليه الصلاة والسلام-، ومع هذا ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، فهم لا يفقهون كلام شعيب؛ لأن الله ﷻ طمس على قلوبهم، مثل ما حصل لبني إسرائيل، وهذه سُنَّة الله -جل وعلا-، أن مَنْ تكبَّر عن الحقِّ ولم يقبله إذا بلغه، فإنه يُبتلىٰ بفساد القلب، عقوبة له!!

وكذلك كفار قريش، ماذا قالوا للرسول ﷺ؟ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

فالكُفار طريقتهم واحدة، يقابلون دعوات الرسل بأنهم لا يفهمون كلامهم، هل هذا لقصور في بلاغ الرسل؟ لا، لكن لقصور في استعدادهم بسبب كُفْرهم، وإعراضهم وعدم التفاتهم، وعدم رغبتهم في الخير.

المسألة السادسة عشرة:

اعتياض اليهود عن التوراة بكتب السحر

اعتياضهم عمَّا أتاهم من اللهِ بكتُبِ السِّحرِ؛ كما ذكرَ اللهُ ذلِكَ في قولِه: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠١،١٠٢].

الشَّرح

اليهود لما كفروا بالتوراة التي فيها صفات محمد ﷺ، وأمرهم باتباعه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كما بشَّر به عيسىٰ في الإنجيل؛ حيث قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهذا الرسول ﷺ موجود ذِكْره في التوراة والإنجيل، اسمه ورسالته وصفاته –عليه الصلاة والسلام–، حتىٰ إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما كفروا بكتاب الله التوراة ولم يعملوا به باتباع محمد ﷺ، ابتلاهم الله –جل وعلا– بأن أخذوا بكتب السِّحْر التي هي من عمل الشياطين، واستبدلوا عمل الشياطين بوحي ربِّ العالمين، وهذه عقوبة لهم، فكلُّ مَنْ أعرض عن الحقِّ فإنه يُبتلىٰ بالباطل.

وكذلك مثلهم كلُّ مَنْ ترك الحقِّ، فإنه يُبتلىٰ بالباطل، فالذي يترك منهم دعوة الرسل من الدعوة إلىٰ التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وبيان ذلك، يُبتلىٰ بأنه يروج للشرك والخرافات، ويستدلُّ لها، ويروجها عند الناس علىٰ أنها حقٌّ، وهذا واقع كثير من

علماء الخرافيين وعلماء القُبوريين، بدلًا من أن يدعوا إلىٰ توحيد الله، وإلىٰ كتاب الله وإلىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ، يدعون إلىٰ الباطل، ويدعون إلىٰ عبادة القبور، والتعلُّق بالأموات، ويلتمسون لذلك الشُّبهات التي يروجونها علىٰ الناس، فيشغلون وقتهم في هذا الباطل -والعياذ بالله.

المسألة السابعة عشرة:
نسبتهم الباطل إلى الأنبياء

نِسبَةُ بَاطِلِهِم إِلَىٰ الأَنبيَاءِ كَقَولِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، وَقَولِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران:٦٧].

الشَّرح

من مناهج الجاهلية: أنهم ينسبون ما هم عليه من الكُفْر والضلال إلىٰ الأنبياء، كما نسبت اليهود السِّحْر إلىٰ سليمان، فقالوا: السِّحْر من عمل سليمان، وهو الذي كان يسيطر به علىٰ الجنِّ والشياطين، وما علموا أن الشياطين من خَلْق الله، يُسخرِّهم سبحانه كيف يشاء، وقد سخَّرهم لنبيه سليمان -عليه الصلاة والسلام-، فهؤلاء اليهود نسبوا السِّحْر إلىٰ سليمان؛ من أجل أن يروجوه عند الناس، ويقولوا: هذا من عمل الأنبياء. وكذلك اليهود والنصارىٰ ينسبون كُفْرهم إلىٰ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، إمام الحنفاء، وأبي الأنبياء، ينسبون إليه ما هم عليه من الكُفْر، ويقولون: هذا دين إبراهيم. ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] هذا دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، أنه علىٰ دين التوحيد، والبراءة من الشرك والمشركين، عكس ما عليه اليهود والنصارىٰ.

وأيضًا ما حدثت اليهودية والنصرانية إلا من بعد إبراهيم بقرون، فكيف تنسب إليه اليهودية والنصرانية؟! هذا من أقبح الكذب، فالتاريخ يُكذِّبهم؛ لأن بينهم وبين إبراهيم قرونًا طويلة، والتوراة ما نزلت علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ والإنجيل ما أُنزل علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بعد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وكذلك كان في هذه الأُمّة مَنْ ينسب ما هو عليه من الباطل إلىٰ النبي محمد ﷺ فيضع الأحاديث المكذوبة لنُصْرة باطله.

وكذلك من هذه الأُمة مَنْ ينتسبون إلىٰ الأئمة وهم يخالفونهم في العقيدة، فينتسبون إلىٰ أبي حنيفة وإلىٰ مالك وإلىٰ الشافعي وإلىٰ أحمد، وهم علىٰ عقيدة المعتزلة والأشاعرة، وينسبون هذا الاعتقاد الباطل إلىٰ أئمة السلف، وما كان هؤلاء الأئمة -رحمهم الله- معتزلة، بل كانوا يحاربون المعتزلة وعلماء الكلام.

المسألة الثامنة عشرة:

انتسابهم إلى الأنبياء مع مخالفتهم

تَنَاقُضُهُم فِي الانتِسَابِ، يَنتَسِبُونَ إِلَىٰ إِبرَاهِيمَ مَعَ إِظهَارِهِم تَركَ اتِّبَاعِهِ.

الشَّرح

التناقض في الانتساب هو: أن ينتسب إلىٰ شيء وهو مخالف له، وهذا انتساب باطل وكذب.

والانتساب الصحيح هو أن ينتسب إلىٰ الشيء ويكون موافقًا له، فالذي ينتسب إلىٰ إبراهيم يوافق ما جاء به من توحيد الله ﷻ، وإخلاص العبادة له، والبراءة من المشركين، ولا يخالفه في شيء من ذلك.

ومن ذلك انتساب اليهود إلىٰ إبراهيم مع امتناعهم من الحجِّ واستنكارهم لاستقبال الكعبة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وكذلك ما ينتسب إلىٰ الأئمة الأربعة، يجب أن يُوافقهم في الاعتقاد، ولا يُخالفهم إلىٰ اعتقاد غيرهم من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

المسالة التاسعة عشرة:

عيب الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم

قَدحُهُم فِي بَعضِ الصَّالِحِينَ بِفعِلِ بَعضِ المُنتَسِبِينَ إِلَيهِم كَقَدحِ اليَهُودِ فِي عِيسَىٰ، وَقَدحِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ.

الشَّرح

قدحهم في الصالحين بما يفعله بعض المنتسبين إليهم من الأفعال السيئة، فينسبون أفعال الأتباع إلىٰ المتبوعين، وهم منها بُرَآء، كقدح اليهود في عيسىٰ بانحراف أتباعه من الصليبيين، والمعتقدين أن الله ثالث ثلاثة، أو أن المسيح هو الله، أو ابن الله.

وكذلك مَنْ يقدح في محمد ﷺ بما يفعله بعض المنتسبين إلىٰ دينه من القبورية، ومن الجهمية والمعتزلة والخوارج.

فنقول لمَنْ يقدح في هؤلاء الأنبياء: ليس هذا هو دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس هذا دين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس هذا دين محمد ﷺ. وإذا كان عند الأتباع انحراف فإنه لا ينسب إلىٰ الأصل، وإنما يُنسب إلىٰ مَنْ يصدر منه هذا الشيء، فلا تُعاب رسالة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن اليهود حرَّفوا وبدَّلُوا وغيَّروا، ولا يُنسب ما عند النصارىٰ من الشرك والصليبية والكُفْر القبيح إلىٰ دين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يُنسب إلىٰ محمد ﷺ ما عند القبوريين الذين يدَّعون الإسلام، أو الملاحدة من الرافضة والباطنية، وإن تسمُّوا بالإسلام، هذا لا يُنسب إلىٰ دين محمد ﷺ، إنما يُنسب إلىٰ النبي مَنِ اتبعه وآمن به، وينسب إلىٰ الصالحين من اقتدىٰ بهم واتبعهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وكذلك لا يُنسب إلىٰ الأئمة الأربعة ما عند المنتسبين إليهم من انحراف في العقيدة ومخالفة للدليل.

المسألة العشرون:

اعتقادهم أن أفعال السحرة والكهان من كرامات الأولياء

اعتِقَادُهُم فِي مَخَارِيقِ السَّحَرَةِ وَأَمثَالِهِم أَنَّهَا مِن كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَنِسبَتُهُ إِلَىٰ الأَنبِيَاءِ كَمَا نَسَبُوهُ لِسُلَيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الشَّرح

المخاريق: هي الأمور الخارقة للعادة، ولا يقدر عليها إلا الله، وإذا جرت علىٰ يدي نبيٍّ فهي معجزة، مثل: قلب العصا حية لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومثل ما عند عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتىٰ بإذن الله، وما أعطاه الله لمحمد ﷺ من المعجزات التي أعظمها هذا القرآن العظيم، الذي أعجز البشرية كلَّها، وأعجز الجنَّ والإنس، أن يأتوا بمثله.

أما إذا جرىٰ خارق العادة علىٰ يد عبد صالح تقي مؤمن، فهذا يُسمَّىٰ: كرامة من الله عَزَّوَجَلَّ، أجراها علىٰ يده؛ إما لحُجَّة في الدين، وإما لحاجة المسلمين، كما حصل لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ في أن زكريا إذا دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، وهي متفرغة للعبادة بهذا المحراب، وهو مكان العبادة، كذلك ما حصل لأصحاب الكهف من النوم الطويل، وبقائهم علىٰ حالتهم، لم تأكل الأرض أجسامهم، ولم يحصل في حياتهم خلل. هذا من كرامات الأولياء.

أما ما يجري ممَّا يشبه خوارق العادات علىٰ أيدي الكفرة، فهذه تعتبر من أفعال الشياطين وتعتبر من الشعوذات والحِيل والسِّحْر التخييلي، واستخدامهم لها لإفساد عقائد الإنس والإضرار بهم وليست من الكرامات، كالذي يطير في الهواء، أو يمشي علىٰ الماء، وهو فاجر، فهذا من فِعْل الشياطين؛ لأنهم لما تقرَّبوا إليهم بالكفر والشِّرْك،

خدموهم فحملوهم في الهواء ومشوا بهم علىٰ الماء.

فما يجري علىٰ أيدي هؤلاء الفجرة من الشعوذات والشرك هو من أعمال الشياطين، أو من حِيلهم ودَجَلهم علىٰ الناس وهي أمور يتعلَّمونها فيما بينهم كما يتعلمون السِّحْر.

ولا يُنسب إلىٰ الأنبياء وأتباعهم شيءٌ منها، ولهذا لما نسب اليهود السِّحْر إلىٰ نبيِّ الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ردَّ الله عليهم بأن السِّحْر كُفْر ولا يُنسب الكُفْر إلىٰ الأنبياء، وسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، ولا يليق به السِّحْر.

المسالة الحادية والعشرون:

تعبدهم الله بالصفير والتصفيق

تَعَبُّدُهُم بِالْمُكَاءِ وَالتَّصدِيَةِ.

الشَّرح

من مسائل الجاهلية التي خالفهم فيها رسول الله ﷺ: تعبدهم -أي: تقربهم- إلىٰ الله بالمُكَاء والتَّصدِيَة، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي: ما كان تقرُّب المشركين إلىٰ الله عند الكعبة المشرفة إلا مكاء وتصدية، والمكاء هو: الصفير، والتصدية هي: التصفيق بالأيدي والأكُف. يعملون هذا عند البيت، ويُسمُّونه صلاة، يتقربون بها إلىٰ الله ﷻ. وذلك مما زيَّنه لهم شياطين الإنس والجن؛ لأن العبادة لا تكون إلا بما شرَّعه الله ﷻ، وهي توقيفية، فالإنسان لا يُحْدث شيئًا من عند نفسه، أو يتلقَّاه من غيره مما لم يشرعه الله يتعبد به إلىٰ الله وهو ليس له أصل في الشرع.

ومن هنا يُؤخذ تحريم هاتين الخصلتين: الصفير والتصفيق، وإن لم يقصد الإنسان بهما العبادة؛ لأن في ذلك تشبهًا بالمشركين.

والتصفيق إنما أباحه النبيُّ ﷺ للنساء خاصة(١) عند الحاجة، كتنبيه الإمام إذا سها في الصلاة؛ لما في صوتها -إذا كانت بحضرة الرجال- من الفتنة، ولا يجوز للرجل أن يتشبَّه بالكُفَّار، ولا بالمرأة في التصفيق. وإذا كان التصفيق لا يجوز للرجل عند

---

(١) فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ **«التسبيح للرجال، والتصفيق للنِّساء»**. أخرجه البخاري (١٢٠٣)، ومسلم (٤٢٢/١٠٦)، وفي حديث سَهْل بن سعد: أن النبي ﷺ قال: **«ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق؛ مَنْ رابه شيء في صلاته فليُسبِّح، فإنه إذا سبَّح التُفت إليه، وإنما التصفيق للنساء»**. أخرجه البخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١).

الحاجة من تنبيه الإمام إذا سها في الصلاة وإنما يُنبِّهه بالتسبيح فلأن لا يجوز له عند عدم الحاجة من باب أولىٰ. وفي هذا ردٌّ واضح علىٰ الذين يصفقون في الحفلات من الرجال تشبهًا بالكفار.

المسألة الثانية والعشرون:

اتخاذهم الدين لهواً ولعباً

أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَهوًا وَلَعِبًا.

الشرح

اللهو: هو كلُّ باطل يلهي عن الحق، واللعب هو ضدُّ الجَدِّ، وهو ما لا فائدة فيه، فاتخاذ اللهو واللعب دينًا يتقرب به إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ هو من دين الجاهلية، وهذا موجود عند الصوفية، فيتخذون ضَرْب الدفوف، ويتخذون الأغاني عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، يتقربون إلىٰ الله بالأغاني، ويتقرَّبون إلىٰ الله بضَرْب الدفوف.

والأغاني وآلاتها لهو ولعب وهي محرَّمة في حدِّ ذاتها، فكيف إذا اتخذت عبادة لله عَزَّوَجَلَّ ؟!!

ويُشبههم الآن الذين يتخذون الأناشيد التي يسمُّونها الإسلامية، ويجعلونها من وسائل الدعوة إلىٰ الله، كما يقولون. والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من الدين. ولا يدخل فيها شيء من الأغاني ومن الأنغام والتنغيمات التي تُلهي النفوس، وتشغل الناس عن ذِكْر الله، وعن قراءة القرآن، وهي من شعارات المناهج الحزبية، وليست من وسائل الدعوة؛ لأن مناهج الدعوة توقيفية، والنبيُّ ﷺ كان يدعو الناس بالكتاب والسنة، والوعظ والإرشاد، والمجادلة بالتي هي أحسن، ولم يتخذ الأناشيد الجماعية وسيلة للدعوة.

وإنشاد الشِّعْر الجيد النَّزيه؛ للرد علىٰ المشركين والدفاع عن الإسلام، كشِعْر حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو للتنشيط علىٰ العمل والسير في السفر، ليس ذلك شبيهًا بالأناشيد الجماعية المستعملة الآن، فلا تُقاس عليه؛ لما بينهما من الفارق الواضح.

المسألة الثالثة والعشرون:

الاغترار بالدنيا

أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنيا غَرَّتهُم فَظَنُّوا أَنَّ عَطَاءَ اللّه مِنهَا يَدُلُّ عَلَىٰ رِضَاهُ كَقَولِهِم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

الشَّرح

أهل الجاهلية يعتبرون إعطاءهم الأولاد والأموال من كرمهم علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله لا يعذبهم ﴿وَقَالُوا۟ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٥ - ٣٧] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، فليست كثرة الأموال والأولاد والثروة دليلًا علىٰ محبة الله للعبد، بل إنه قد يُعطي الكافر من أجل أن يستدرجه، وفي الحديث: «**إن الله يُعطي الدنيا مَنْ يحب ومَنْ لا يحب، وأما الدِّين فلا يعطيه إلا مَنْ يحب**»(١)، وفي الحديث الآخر: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ منها كافرًا شربة ماء**»(٢).

وهذا رسول الله ﷺ، أكرم الخَلْق علىٰ الله، وكذلك صحابته، يصيبهم الجوع، ويُصيبهم الفقر والفَاقَة، وهم أكرم الخَلْق علىٰ الله بعد النبيين، والكفار يسرحون ويمرحون في النعم من باب الاستدراج لهم.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والحاكم (١٠٢، ٧٣٨١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وقال أبو عيسىٰ: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

فلا يستدلُّ بزَهْرة الدنيا علىٰ كرامة أهلها عند الله ﷻ، وإنما يستدلُّ بكرامة العبد علىٰ الله إذا كان علىٰ عمل صالح، سواء كان غنيًّا أو فقيرًا، فهذا هو الكريم علىٰ الله ﷻ، ومعايير الناس أن أهل الدنيا وأهل الغناء والثروة هم أكرم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأن أهل الفقر وأهل الفاقة إنما كانوا كذلك لهوانهم علىٰ الله معايير باطلة.

المسألة الرابعة والعشرون:

زهدهم في الحق إذا كان عليه الضعفاء

تَركُ الدُّخُول فِي الحَقِّ إِذَا سَبَقَهُم إِلَيهِ الضُّعَفَاءُ تَكَبُّرًا وَأَنَفَةً، فَأَنْزَل اللّه تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام:٥٢] الآيَات.

الشَّـرح

أهل الجاهلية يرفضون الحقَّ إذا كان عليه الضعفاء من الناس، ولهذا قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] يعني: ليسوا أولىٰ بالجنة منا، نحن أقدم منهم، وأشرف منهم، هؤلاء ضُعفاء، ما لهم قيمة ولا مقدار في المجتمع. وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فالله -جل وعلا- لا يُعطي هذا الدين إلا لمَنْ أحب، أما الدنيا فيعطيها لمَنْ يشاء من أحبابه، ومن أعدائه.

المسألة الخامسة والعشرون:

الاستدلال على كون الشيء باطلاً بسبق الضعفاء إليه

الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِهِ بِسَبْقِ الضُّعَفَاءِ كَقَولِهِ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١].

الشَّرح

من عادات أهل الجاهلية: الاستدلال علىٰ بُطْلان الشيء بسَبْق الضعفاء إليه، كما قال الله عن المشركين أنهم يقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] يقولون: نحن أهل معرفة، وأهل خبرة، وأهل تفكير، نعرف الأمور، ولما رأينا أن هذا الذي جاء به محمد ليس حقًّا، تركناه، ولو كان حقًّا لسبقناه إليه، فتركناه له دليل علىٰ أنه ليس حقًّا.

وهذا من أبطل الباطل؛ لأن الحقَّ ليس اتباعه موقوفًا علىٰ طبقة من الناس، بل اتباع الحق مِنَّة يمنُّ الله بها علىٰ مَنْ يشاء من عباده ويُوفِّقه لها. وأتباع الرسل أكثرهم من الضعفاء، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقوله عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي: ليس عندهم تفكير. ويزعمون أنهم هم أهل التفكير وأهل العقول، فلو كان ما جاء به نوح -عليه الصلاة والسلام- حقًّا؛ لاتبعه أهل الرأي والملأ من الناس، فتركهم له دليل علىٰ أنه ليس حقًّا، وهذا باطل؛ لأن الغالب أن الذين يكفرون بالحقِّ هم أهل التلف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]، وغالب مَنْ يتبع الحقَّ الضُّعفاء والفقراء؛ لأنهم ليس عندهم تكبر.

فالاستدلال علىٰ الشيء بأنه حقٌّ باتباع الأغنياء له، أو ذوي الجاه، والاستدلال علىٰ أنه باطل باتباع الضعفاء، هذا معيار أهل الجاهلية، لا يجوز أن يتخذ ميزانًا يُوزن به معرفة الحقِّ من الباطل؛ ولهذا يقول العلماء: الحقُّ لا يُعرف بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحقِّ.

المسألة السادسة والعشرون:

تحريف أدلة الكتاب بعد معرفتها

تَحرِيفُ كتَابِ اللّه مِن بَعدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعلَمُونَ.

الشَّرح

من شأن اليهود والنصارى: تحريف كتاب الله؛ التوراة والإنجيل، فهم من بعد ما عقلوه، تعلَّموه وفهموه، حرَّفوه بزيادة أو نقصان، أو تفسير بغير المعنىٰ الصحيح، من أجل أن تُوافق أهواءهم، وهذه مصيبة لا يزال المسلمون يُعانون منها، وأول ما كانت عند أهل الكتاب من أهل الأهواء والرغبات والشهوات، إذا لم يقدروا علىٰ تكذيب النصِّ وجحوده، سطوا عليه بالتحريف والتأويل والتفسير بغير معناه.

ولا يزال المسلمون يُعانون من هذه الآفة من أهل الأهواء والفِرَق الضالة وأصحاب الشهوات. إذا قيل لهم مثلًا: الربا حرام، قالوا: المراد بالربا كذا، يُفسِّرون الربا علىٰ حسب هواهم، والآن موجود لهم كتب وكتابات وفتاوىٰ تبيح الربا.

وإذا قيل: هذا حرَّمه الله ورسوله، قالوا: ليس هذا هو الربا الذي حرَّمه الله ورسوله؟! الربا الذي حرمه الله ورسوله هو ربا الجاهلية، زيادة الدَّيْن علىٰ المُعْسر فقط، وأما ربا الفَضْل فليس محرَّمًا، أو يقولون: الربا المحرَّم هو الربا الاستهلاكي، أما الربا الاستثماري فهو مباح. ويقولون: ربا الفضل لم يذكر تحريمه في القرآن.

فنقول لهم: صحَّ في الأحاديث في سُنَّة الرسول ﷺ تحريم ربا الفضل، في الصحيحين: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرُّ بالبُرِّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والمِلْح بالمِلْح، مثلًا بمثل، سواء بسواء، يدًا بيد**»[1]. هذا ربا الفضل، حرَّمه

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٣٤، ٢١٧٤)، ومسلم (١٥٨٤، ١٥٨٧) واللفظ له.

رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وربا الفَضْل داخلٌ في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فلما كان في اليهود مَنْ يحرِّف التوراة، وكان في النصارىٰ مَنْ يحرِّف الإنجيل، وُجد في هذه الأُمة مَنْ يُحرِّف القرآن والسنة، من أجل إباحة ما هو عليه أو عليه غيره، والواجب علىٰ المسلم اتباع الكتاب والسنة.

ومن تحريف اليهود: أن الله لما قال لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨].

أي: حُطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا، حرفوا وقالوا: حبة في حنطة، زادوا حرف النون.

والمؤولة لصفات الله، لما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قالوا: معناه: استولىٰ. فزادوا اللام من جنس نون اليهود.

هذا تحريف بالزيادة، وهناك تحريف بالنقص وتحريف في المعنىٰ، وهو تفسير القرآن بغير تفسيره الصحيح، وتفسير الأحاديث بغير تفسيرها الصحيح، هذا كلُّه من تحريف الكلم عن مواضعه.

المسألة السابعة والعشرون:

تأليف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله

تَصنِيفُ الكُتُبِ البَاطِلَةِ وَنِسبَتُهَا إِلَىٰ اللّه كَقَولِهِ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٩] الآيَة.

الشَّرح

من آفات اليهود: أنهم يُؤلِّفون المؤلَّفات ويكتبونها بأيديهم، ويضمنونها الباطل، ويقولون: هذا من عند الله؛ ليحصلوا علىٰ مكافأة من الناس، أو يبيعوا هذه الكتب في الأسواق وتدر عليهم أموالًا، وتصنيف الكتب الضالَّة وترويجها علىٰ الناس حرفة اليهود، ومَنْ تشبَّه بهم من هذه الأُمة.

والواجب علىٰ العالِم حينما يكتب شيئًا من العلم: أن يتقي الله ﷻ، ولا يكتب إلا ما يُوافق الكتاب والسنة؛ لأنه مسئول عن كتابته، فلا يكتب في فتواه ولا في مؤلَّفه ولا في مقالته إلا ما يُوافق الكتاب والسنة، ولا يكتب شيئًا من عند نفسه وهواه، ويقول: هذا من الشرع، أو هذه هي الشريعة.

وما أكثر تصنيف الكتب في هذه الأيام، أو الرسائل، أو الفتاوىٰ الضالة الباطلة باسم الإسلام، وهذا مثل فِعْل اليهود.

فهذا يُنبَّه المسلم الذي يريد أن يكتب أو يؤلِّف أو يُفتي، أن يتوقَّف عند حدود الله ﷻ، وأن يتقي الله، وأن يكتب للحقِّ، وإن لم يرض الناس.

المسألة الثامنة والعشرون:

رفض ما عند غيرهم من الحق

أَنَّهُم لا يَقبَلُونَ مِنَ الحَقِّ إِلَّا الَّذِي مَعَ طَائِفَتِهِم كَقَولِهِ: ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآيَةَ. [البقرة:٩١].

الشَّرح

إذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] أي: علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: غيره، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، يقولون: نحن نُؤمن بالتوراة التي أُنزلت علىٰ نبينا موسىٰ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾[البقرة: ٩١] وهو الإنجيل الذي أُنزل علىٰ عيسىٰ، والقرآن الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الإنجيل والقرآن مصدقان لما في التوراة.

فردَّ الله عليهم بأنكم إذا كنتم تتبعون ما أُنزل علىٰ موسىٰ، فكيف تقتلون الأنبياء؟!! هل أُنزل علىٰ موسىٰ قتل الأنبياء؟ حيث قتلوا زكريا، وقتلوا يحيىٰ، وهمُّوا بقَتْل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرفعه الله إليه، وعصمه منهم، وهمُّوا بقَتْل محمد ﷺ، فهم مهمتهم قَتْل الأنبياء، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧]، بعض الرسل كذَّبوهم، وبعض الرسل قتلوهم، لماذا؟ لأنهم جاءوهم بما لا تهوىٰ أنفسهم، فكيف يقولون: نؤمن بما أُنزل علينا؟ وأين هذا من الإيمان بالذي أنزل عليهم؟!!

وأيضًا مما أُنزل عليهم في التوراة نَعْت محمد ﷺ، وبيان رسالته وصفاته ﷺ، فلماذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؟ إن الإيمان بمحمد ﷺ هو إيمان بما أُنزل عليهم، وقد كفروا به، وهم يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾[البقرة: ٩١].

وهذا يشمل مَنْ يقول: أنا لا أتبع إلا فلانًا من العلماء، والواجب أن يقبل الحقَّ، ولا يتعصب لإمامه، أو لمُدرسه، أو لشيخه، مثل مشايخ الطرق؛ يتعصب لهم المريدون والأتباع، ولا يقبلون الحقَّ إلا ما قال هؤلاء، وهذا أمر باطل؛ لأنه لا يجب إتباع معين من الخَلْق إلا رسول الله ﷺ، ومَنْ قال: إنه يجب اتباع معين غير الرسول فإنه مرتدٌّ، يُستتاب فإن تاب وإلا قُتِلَ، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه جعل فلانًا مساويًا للرسول ﷺ.

فلا أحد يجب اتباعه إلا رسول الله ﷺ، أما غيره من الأئمة والعلماء -رحمهم الله- فيتبعون فيما وافقوا فيه الحقَّ، وما أخطأوا فيه من الاجتهاد، فإنه لا يجوز أخذه، ولو كان من الأئمَّة، وهم يقولون ذلك، يقولون: لا تأخذوا من أقوالنا إلا ما وافق كلام الرسول ﷺ.

المسالة التاسعة والعشرون:

لا يعملون بقول من يزعمون أنهم يتبعونهم

أَنَّهُم مَعَ ذَلِكَ لا يَعلَمُونَ بِمَا تَقولُهُ طَائِفَتهُم كَمَا نَبَّهَ الله تَعَالَىٰ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

الشَّرْح

أي: هؤلاء اليهود يدَّعون أنهم يتبعون ما أُنزل إليهم في التوراة، وهذا يكذبه أمران:

أولًا: قتلهم الأنبياء، وليس في التوراة قَتْلُ الأنبياء، بل فيها الإيمان بهم، وتعظيمهم، واتباعهم والاقتداء بهم.

الأمر الثاني: أن التوراة تأمرهم باتباع محمد ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، هذه صفاته ﷺ في التوراة، ولم يؤمنوا به ﷺ، فلم يقولوا بما قاله أنبياؤهم وعلماؤهم الذين يدَّعون الإيمان بهم، ولا يعملون بما يقولون.

المسالة الثلاثون:

الأخذ بالافتراق وترك الاجتماع

وَهِيَ مِن عَجَائِبِ آيَاتِ اللّه: أَنَّهُم لَمَّا تَركوا وصِيَّةَ اللّه بِالاجتِمَاعِ، وَارتَكبُوا مَا نَهَىٰ اللّه عَنهُ مِنَ الافتِرَاقِ، وَصَارَ كُلُّ حِزبٍ بِمَا لَدَيهِم فَرِحِينَ.

الشَّرح

من عجائب آيات الله ﷻ: أنهم لما تركوا الاجتماع علىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وشَرْعه المنزَّل علىٰ الرسل، والاعتصام به، ابتلاهم الله بالتفرُّق والتشتت والتناحر، والفرح بما هم عليه من الباطل، وهذه عقوبة لهم؛ لأن الإنسان إذا فرح بالباطل فإنه لا يتركه، أما إذا لم يفرح به وكان عنده تشكك منه، فهذا حريٌّ أنه يتوب ويرجع عنه، لكن إذا اطمأن إليه وفرح به، فإنه لا يتحوَّل عنه، وهذه عقوبة من الله -جل وعلا-؛ لأن مَنْ ترك الحقَّ يُبتلىٰ بالباطل، ومَنْ ترك الاجتماع فإنه يُبتلىٰ بالتفرُّق والتشتت، والتناحر والتطاحن، فما تجد أُناسًا مختلفين فيما بينهم من أمور الدِّين والدنيا إلا وتجد بينهم العداوات والحِزازات والبغضاء، بل ربما الاقتتال فيما بينهم، ولا تجد مَنْ يتمسَّك بالاجتماع علىٰ الكتاب والسنة إلا وتجد بينهم الألفة والمحبة والتناصر والتعاون، كأنهم جسد واحد، فلا عصمة إلا بالاجتماع علىٰ الكتاب والسُّنة، ولا وَحْدة إلا باتباع الكتاب والسنة، وما عدا ذلك فإنه فُرْقة وعذاب.

فهؤلاء الذين يُريدون توحيد المسلمين كما يقولون، يقال لهم: إذا كنتم تريدون توحيد المسلمين، وحِّدوا العقيدة بأن تكونوا جميعًا علىٰ عقيدة التوحيد التي جاء بها رسول الله ﷺ، ولا تتركوا الناس، هذا قبوريٌّ، وهذا صوفي، وهذا شيعي، وحِّدوا العقيدة أولًا، واعتصموا بلا إله إلا الله، ثم وحِّدوا الحُكْم بما أنزل الله، فارجعوا إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله، وأنبذوا القوانين والأنظمة والعادات القبلية وغير ذلك، ارجعوا

إلىٰ الكتاب والسنة، إذا كنتم تريدون الاجتماع ووحدة المسلمين، فلن يتحد المسلمون إلا علىٰ هذا، إلا علىٰ وحدة العقيدة ووحدة المَرْجع؛ وهو الحُكْم بما أنزل الله، ووحدة القيادة؛ وذلك بالسمع والطاعة لوليِّ أمر المسلمين، هذا الذي يُوحِّد أمر المسلمين، كما قال النبي ﷺ: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَنْ ولّاه الله أمركم**»[1].

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

المسالة الحادية والثلاثون:

عداوتهم للدين الحق ومحبتهم للدين الباطل

وَهِيَ مِن أَعجَبِ الآيَاتِ أَيضًا: مُعَادَاتُهُم الدِّينَ الَّذِي انتَسَبُوا إِلَيهِ غَايَةَ العَدَاوَةِ، وَمَحَبَّتُهُم دِينَ الكُفَّارِ الَّذِينَ عَادَوهُم وَعَادَوا نَبِيَّهُم وَفِئَتَهُم غَايَةَ المَحَبَّةِ، كَمَا فَعَلوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَتَاهُم بِدِينِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاتَّبَعُوا كتبَ السِّحرِ وَهِيَ مِن دِينِ آل فِرعَونَ.

الشَّرح

من مسائل أهل الجاهلية التي خالفهم فيها رسول الله ﷺ : معاداتهم لدينهم الذي أُمروا باتباعه، واتباعهم لدِين عدوِّهم، إذْ من المعلوم أن اليهود كانوا علىٰ دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وأن عدوَّهم هو فرعون وآل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويستعملونهم في أخسِّ الحِرَف، إلىٰ أن بعث الله نبيه وكليمه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فخلَّصهم الله علىٰ يده من عدوِّهم، وأعزهم به وأكرمهم، وخذل عدوَّهم وأغرقه وهم ينظرون إليه، وأقرَّ أعينهم بذلك، وكان في التوراة التي بين أيديهم، وهي كتاب الله الذي جاء به موسىٰ -عليه الصلاة والسلام-، كان فيها أوصاف محمد ﷺ ، والأمر باتباعه، وهو ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] بسبب أنهم شددوا، فشدَّد الله عليهم، وحرَّم عليهم طيبات أُحِلَّت لهم، بسبب كُفْرهم وعنادهم، فلو آمنوا بمحمد ﷺ ، لوضع الله عنهم هذه الآصار وهذه الأغلال، ولكنهم أخذهم الحسد، وقالوا: كيف يكون هذا النبيُّ الموعود في آخر الزمان من العرب ومن بني إسماعيل؟! اللائق أن يكون هذا من بني إسرائيل، ولا يكون من بني إسماعيل، هكذا قالوا، فحسدوا محمدًا ﷺ وأُمته

وكفروا به، وهم يعلمون أنه رسول الله والذي حملهم علىٰ هذا هو الحسد والكِبْر - والعياذ بالله.

ولما كفروا بمحمد كانوا كافرين بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبكتابه الذي هو التوراة، فكفروا بالتوراة التي عندهم؛ من أجل الحسد لمحمد ﷺ، واستبدلوا التوراة بكتب السِّحْر التي هي دين عدوِّهم فرعون؛ لأن السِّحْر كان فاشيًا في قوم فرعون، فتركوا الوحي المنزَّل، وأخذوا بالسِّحْر الذي كان عليه عدوُّهم، وهذا من العجائب! يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]؛ ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا الرسول وصفاته وما جاء به، عملوا عمل الجُهَّال الذين لا يعرفونه، تكبرًا وعنادًا، لم يقل: لأنهم لا يعلمون، بل قال ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن العالِم إذا لم يعمل بعِلْمه، فكأنه لا يعلم؛ لأن ثمرة العلم العمل، فإذا لم يعمل صار هو والجاهل سواء، بل الجاهل يكون أخفَّ منه إثمًا ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهو السِّحْر.

فأصل السِّحْر أنه من عمل الشياطين، ثم توارثه الكفرة علىٰ اختلاف الأزمان، ورثه فرعون وقومه، وورثه اليهود، بديلًا عن التوراة فالسِّحْر قديم، ولكن تتوارثه الكفرة جيلًا بعد جيل.

فهذه من العقوبات؛ أن الإنسان إذا ترك الحقَّ يُبتلىٰ بالباطل، وهذه سُنَّة لا تتبدَّل ولا تتغير، فبعض المسلمين تركوا كتاب الله وسُنَّة رسوله، وأخذوا بأقوال الناس، وأخذوا عِلْم المنطق، وأخذوا عِلْم الكلام -هم من هذا القبيل-، لما تركوا كتاب الله وسنة رسوله وأخذوا من غيرهم؛ لأنهم لما أعرضوا عن كتاب الله وسُنَّة رسوله، ولم يأخذوا عقيدتهم من الكتاب والسنة، ابتُلوا بأخذ العقيدة من علوم الكفرة والملاحدة، فما أشبه الليلة بالبارحة!

وهكذا كلُّ مَنْ ترك الحقَّ فإنه يُبتلىٰ بالباطل، ومَنْ ترك مذهب أهل السنة

والجماعة، فإنه يُبتلىٰ بمذاهب الفِرَق الضالَّة، والذي يتحزب مع الجماعات الضالة المخالفة للكتاب والسنة ومنهج أهل السنة والجماعة، يُبتلىٰ بأن يكون مع الفِرَق الضالَّة، هذه سُنَّة الله ﷻ، فهذا ما يحذر المسلم من أن يترك الحقَّ؛ لأنه إذا ترك الحقَّ ابتُلي بالباطل، وإذا ترك اتباع أهل الحقِّ اتبع أهل الباطل، دائمًا وأبدًا.

المسألة الثانية والثلاثون:

كفرهم بالحق الذي مع غيرهم ممن لا يهوونه

كفرُهُم بِالحَقِّ إِذَا كَانَ مَعَ مَن لا يَهوَونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣] الآية.

الشَّرح

وهذه المسألة من أخطر المسائل، وهي: كُفْرهم بالحقِّ إذا كان مع مَنْ لا يهوونه، أي: لا يحبونه، فيتركون الحقَّ الذي معه؛ تعصبًا لكراهتهم للشخص، فيتركون الحقَّ من أجله.

والواجب على المسلم: أن يقبل الحقَّ ممَّن جاء به؛ لأن الحقَّ ضالَّة المؤمن أينما وجده أخذه، مع صديقه أو مع عدوِّه؛ لأنه يطلب الحقَّ. أما إذا كان يعتبر الأشخاص فقط، فهذا دِين أهل الجاهلية.

ومثال ذلك: ما ذكره الله عن اليهود والنصارى -وهم أهل كتاب وعِلْم- فاليهود رفضوا الحقَّ الذي مع النصارى، والنصارى رفضوا الحقَّ الذي مع اليهود، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] والذي حملهم على هذا هو الهوى؛ لما كان اليهود يبغضون النصارى جحدوا ما معهم من الحقِّ، ولما كان النصارى يبغضون اليهود جحدوا ما معهم من الحقِّ ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الذي يأمرهم بقبول الحق ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]، فالذين ليس معهم كتاب ساروا على هذا المنهج، كلُّ طائفة تُكفِّر الأخرى، وتجحد ما معها من الحقِّ.

والحاصل: أن الواجب على المسلم تجنب سُنَّة اليهود والنصارى، وهي الكُفْر بالحق إذا كان مع مَنْ لا يحبه، فلا يحملك بُغْض الشخص على أن ترفض ما معه من الحقِّ، ومثل هذا ما هو موجود الآن: إذا كانت طائفة أو جماعة تبغض أحد العلماء،

فإنهم يرفضون ما معه من الحق، وأن يعتموا عليه، ويزهدوا فيه، ويحذروا من مؤلَّفاته، ومن أشرطته، ولو كانت حقًّا. لماذا؟ لا لشيء إلا لأنهم لا يحبُّون هذا الشخص.

والواجب عليك أيها المسلم: أن تقبل الحقَّ، وإن كان مع مَنْ لا تحب، ولا تكون العداوات الشخصية والأهواء النفسية مانعة من قبول الحقِّ.

والنبي ﷺ لما جاءه اليهودي، وقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، أمر أن يقولوا: «**ما شاء الله وَحْده**»، ولا يقولوا: **ما شاء الله وشاء محمد**[١]. فالنبيُّ ﷺ قبل هذا الحقَّ، وأمر أصحابه بترك الخطأ.

وكذلك الذي جاء النبي ﷺ من أحبار اليهود، وقال: إن الله يطوي السماوات بيمنيه، ويحمل الجبال علىٰ أُصبع، والأرضيين علىٰ أصبع... إلىٰ آخر الحديث، فالنبي ﷺ ضحك حتىٰ بدت نواجذه؛ تصديقًا لهذا الحَبْر[٢]، وأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فلما طابق قول هذا الحَبْر من اليهود الحق، قبله النبي ﷺ وسُرَّ به.

الحاصل: أن المسلم يجب عليه أن يقبل الحقَّ، ولا تحمله عداوته الشخصية، وأغراضه النفسية، والإشاعات التي تُشاع عن بعض أهل الحقِّ، لا تحمله هذه الأمور علىٰ رفض ما يقول هذا العالِم بل ينتفع به، حتىٰ ولو كان هذا العالِم غير مستقيم، ولو كان ما يقال فيه من الذمِّ والعيب صحيحًا، إذا قال كلمة حقٍّ وجب أن تقبل، لا لأجل هذا الشخص، ولكن لأجل الحقِّ، هذا هو الواجب، فيجب علىٰ طلبة العلم أن ينهجوا هذا المنهج الرباني، وهو قبول الحقِّ ممَّن جاء به.

---

(١) عن قتيلة -امرأة من جهينة-: أن يهوديًّا أتىٰ النبي ﷺ، فقال: «**إنكم تُنَدِّدون وإنكم تشركون**»، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة؛ فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «**ورب الكعبة**»، ويقولوا: «**ما شاء الله ثم شئت**» أخرجه النسائي (٣٧٨٢)، وبنحوه عند ابن ماجه عن حذيفة بن اليمان (٢١١٨)، وأحمد في «مسنده» (٣٧١،٣٧٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥)، ومسلم (٢٧٨٦).

المسالة الثالثة والثلاثون:

تناقضهم في الإقرار والإنكار

إنكارُهم ما أقرُّوا أنَّه دِينُهم، كَما فَعلُوا فِي حَجّ البيت، فقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

الشَّرح

اليهود يدَّعون أنهم علىٰ مِلَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ولكنهم لما حُوِّلت القبلة إلىٰ الكعبة التي بناها إبراهيم أنكروا هذا غاية الإنكار -والعياذ بالله-؛ لأنهم لا يعترفون بالكعبة، ولا بالحجِّ الذي هو من دين إبراهيم، ويكفرون بالتوجُّه إلىٰ القِبْلة، وهم يعلمون أن هذا هو الحق، وأن الكعبة هي قِبْلة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأن إبراهيم هو الذي أسَّس هذا البيت، وبناه بأمر الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية، فصارت الكعبة من بناء إبراهيم بأمر الله، وهي قِبْلته، وهم ينكرون هذا. وكذلك الحج، من مِلَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وهم ينكرونه، مع أنهم يدعون أنهم علىٰ مِلَّة إبراهيم وعلىٰ دين إبراهيم، لكن حملهم بغض محمد ﷺ علىٰ أن أنكروا هذا كله.

فالكعبة من ميراث إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والتوجُّه إليه بالصلاة، وقصدها للحج والعمرة من دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وهؤلاء ينتسبون إلىٰ دين إبراهيم وينكرون أعظم شعائره، فهذا من التناقض العجيب!

ومثل هذا كلُّ مَنْ ينتسب إلىٰ الإسلام، ويرفض بعض أحكامه، كالذي يقول: أنا مسلم، ثم يطوف بالقبور ويدعوها ويتبرك بها ويتمسَّح بها، فإذا قيل له: هذا شِرْكٌ، فإنه لا يتحوَّل عنه بل يستمر عليه ويُبغض مَنْ نهىٰ عنه. وهذا من التناقض في الانتساب، ينتسب إلىٰ الإسلام ويخالفه في أعظم شعائره، وهو التوحيد.

المسالة الرابعة والثلاثون:

كل فرقة تزكي نفسها دون غيرها

أن كل فرقة تدعي أنها الناجية، فأكذبهم الله بقوله: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة ١١١]، ثم بين الصواب بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية [البقرة:١١٢].

الشرح

من مسائل أهل الجاهلية: أن كلَّ فرقة منهم تدَّعي هي التي على الحقِّ، وأن غيرها على الباطل وكان هذا في اليهود والنصارى، ومَنْ شابههم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] حصروا الهداية ودخول الجنة في اليهود والنصارى.

ومثلهم الفرق الضالة، كلُّ فرقة تدَّعي أنها هي التي على الحق، وأن غيرها على الباطل، وكلُّ فرقة تدعي أنها الفرقة الناجية التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «**ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلُّها في النار، إلا واحدة**»، ولكن الرسول ﷺ بيَّن العلامة الفارقة لهذه الفرقة عن غيرها لما قالوا: «**مَنْ هي يا رسول الله؟**» قال: «**مَنْ كان على ما أنا عليه وأصحابي**»[1].

ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١] يعني: هاتوا دليلكم على ما تقولون، أنه لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هودًا أو نصارى؛ لأن هذه دعوى، والدعوى لا تُقبل إلا بدليل؛ ولهذا قال بعدها: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: أخلص دينه لله، وسَلِمَ من الشرك،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٥، ٢٦٤٦)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٨٢، ١٠٨٣).

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول ﷺ، فمَنْ توفر فيه هذان الشرطان فإنه من أهل الجنة، ومَنِ اختل فيه هذان الشرطان أو أحدهما فهو من أهل النار، وإن ادعىٰ أنه من أهل الجنة.

فقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾... إلخ هذا المنهج السليم الذي مَنْ كان عليه صار من الفرقة الناجية؛ لأن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**» هذا ضابطٌ من السُّنة، والآية ضابط من القرآن، فمَنْ كان يريد الجنة فليسلم وَجْهه إلىٰ الله ويترك الشرك، ويحسن عمله علىٰ السنة، ويتجنب البِدَع والمُحْدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

المسألة الخامسة والثلاثون:

تقربهم إلى الله بفعل المحرم

التَّعَبُّدُ بِكَشفِ العورَاتِ كَقَولِهِ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨].

الشَّرْح

يتعبد أهل الجاهلية بكَشْف العورات في الطواف؛ لأن الشيطان زيَّن لهم أن مَنْ لم يكن من أهل الحرم، وجاء من الآفاق، فإنه لا يدخل الحرم بثيابه التي جاء بها؛ لأنه عصىٰ الله فيها، فإن وجد من أهل الحرم مَنْ يعطيه ثوبًا ليلبسه ويطوف به، وإلا فإنه يخلع ثيابه عند حدود الحرم، ويدخل عريانًا، كذا زيَّن لهم الشيطان، حينما فعلوا هذه الفاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

فانظروا كيف سُمِّي كشف العورة: فاحشة، وهي: ما تناهىٰ قُبْحه. وكثير من الناس في هذا الزمان يعتبرونه رُقيًّا وتحضرًا!

ثم ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] أي: لا يشرع لعباده كَشْف العورات، وإنما شرع لهم سترها؛ لما في ذلك من البُعْد عن الفتنة، وعدم الوقوع في الجرائم الخُلُقية، وقد كذبوا علىٰ الله وقالوا عليه بغير عِلْم، فاحتجُّوا بحُجَّتين باطلتين، إحداهما أبطل من الأخرىٰ: الأولىٰ: ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨] والثانية أعظم وأخطر: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، كذبوا علىٰ الله ﷻ، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، والقول علىٰ الله بلا عِلْم جريمة خطيرة جدًّا.

ثم بيَّن سبحانه ما ينهىٰ عنه، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[الأعراف: ٣٣] الفواحش جمع فاحشة: وهي: المعصية المتناهية في القُبْح، ومنها: كشف العورة، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ علانية أمام الناس، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما فعله الإنسان خفية بينه وبين الله.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣] يعني: حُجَّة، فالله ما أنزل لأهل الشرك حُجَّة أبدًا، إنما أنزل الحُجَّة علىٰ التوحيد. أما الشرك فالله نهىٰ عنه ﷻ.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]: القول علىٰ الله بلا عِلْم أعظم من الشرك، ومن ذلك: قولهم؛ الله أمرنا بكَشْف العورات، فليحذر الذين يقولون: هذا حلال وهذا حرام، بدون دليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله.

إلىٰ أن قال ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ يعني: استروا عوراتكم، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] يعني: عند كلِّ صلاة، ومنها الطواف بالبيت.

الشاهد: أن أهل الجاهلية يتقربون إلىٰ الله بكَشْف العورات، ويعدونه عبادة لله، فهذا من أفحش الكذب والزُّور -والعياذ بالله. ومِنْ هنا تُؤخذ تحريم كشف العورات مطلقًا إلا لضرورة كالعلاج الضروري، أو ما بين الزوجين بعضهما مع بعض، وكَشْف العورة في غير هاتين الحالتين حرام شديد التحريم؛ لأنه يجرُّ إلىٰ الفاحشة والوقوع في الجريمة، والشيطان عرف أن العُرَي يجرُّ إلىٰ الزنا واللواط؛ فلذلك رغَّب الناس في كشف العورات، وسُمِّي هذا تقدُّمًا وحضارة ورُقيًّا، ونفَّر من السِّتر واللباس المحتشم، وقال: هذا تأخُّر ورجعيَّة وتقاليد بالية.

وما يقال عن الحجاب الآن، والتزهيد فيه، والتمسخر من أهله شيء معروف في الصحف والمجلات، والمجالس وغير ذلك، لكن هذا لا يضرُّ أهل الإيمان إذا تمسكوا بدينهم.

المسألة السادسة والثلاثون:

تقربهم إلى الله بتحريم الحلال وتحليل الحرام

التَّعَبُّدُ بِتَحرِيمِ الحَلَالِ كَمَا تَعَبَّدُوا بِالشِّركِ.

الشَّرح

من مسائل أهل الجاهلية: تعبدهم -أي: تقربهم إلىٰ الله- بتحريم ما أوجب الله، فحرَّموا ستر العورة في الطواف كما سبق في حال المشركين.

وكذلك اليهود والنصارىٰ، فالنصارىٰ: حرموا علىٰ أنفسهم كثيرًا من الطيبات، واليهود أباحوا لأنفسهم ما حرم الله مثل الربا وقد نُهوا عنه وأكْلهم أموال الناس بالباطل، والمشركون حرَّموا أنواعًا من بهيمة الأنعام، منها: البحيرة والسائبة والوصيلة، أنواع من الأنعام يُسمُّونها بهذه الأسماء، ويحرمونها للأصنام، وقد نهىٰ الله المؤمنين عن ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، فالمؤمن لا يتشدَّد في تحريم ما أحلَّ الله، ولا يتساهل ويستبيح المحرمات؛ بل يكون معتدلًا، فتحريم الحلال وتحليل الحرام من دِين الجاهلية، فلا يجوز لأحد أن يُحلِّل ويُحرِّم إلا بدليل من كتاب الله، وإذا اعتبر ذلك التعبد، مثل ما عليه النصارىٰ في الرهبانية، أو عليه المشركون في الطواف بالبيت، فهذا تعبدٌ بما لم يشرعه الله، وتَعبَّد لله بمعصيته ﷻ، وتقرَّب إلىٰ الله بمعصيته، وشرع دينًا لم يأذن به.

فالمسألة خطيرة جدًّا، كما تعبد أهل الجاهلية بالشرك وهذا أعظم، وهو موجود قديمًا وحديثًا، فالذين يطوفون بالقبور، ويذبحون لها، وينذرون لها، ويقولون: هذا تقرُّب إلىٰ الله ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ

ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] هذا عند المشركين الأوَّلين، وعند المشركين المعاصرين المنتسبين إلىٰ الإسلام، ويقولون: هذا تقرُّب إلىٰ الله -جل وعلا- بواسطة هؤلاء الصالحين: فهم شفعاؤنا، ويُقِّربوننا إلىٰ الله زُلْفىٰ.

المسالة السابعة والثلاثون:

اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله

التَّعَبُّدُ بِاتِّخَاذِ الأَحبَارِ وَالرُّهبَانِ أَربَابًا مِن دُونِ اللَّهِ.

الشَّرح

قال الله تعالىٰ في اليهود والنصارىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة: ٣١] والأحبار هم العلماء، والرهبان هم العُبَّاد، فاليهود والنصارىٰ يتعبدون لله باتباع الأحبار والرهبان في معصية الله ﷻ؛ حيث يُحرِّمون ما أحل الله، ويُحلُّون ما حرم الله، فيطيعهم هؤلاء، ويعتبرون هذا عبادة؛ حيث يقولون: طاعة العلماء واجبة: فنقول: طاعتهم واجبة إذا أطاعوا الله، أما مَنْ خالف طاعة الله فلا طاعة له، قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[1]، ولو كانوا علماء أو عبادًا من أزهد الناس، ما داموا ليسوا علىٰ حقٍّ فلا يجوز لنا اتباعهم، ومَنِ اتبعهم وهو يعلم أنهم يحلُّون ما حرم الله، ويُحرِّمون ما أحل الله، فقد اتخذهم أربابًا، يعني: أشركهم مع الله ﷻ؛ لأن التحليل والتحريم حقٌّ لله -جل وعلا-، لا يجوز لأحد أن يُحلِّل ويحرِّم ويشرع إلا بدليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]، فلا نُطيع العلماء مطلقًا أصابوا أو أخطئوا، لكن نتبعهم إن أصابوا ونتجنب خطأهم إذا أخطئوا، فنطيع من أطاع الله، ونُعصي مَنْ عصىٰ الله ﷻ ونُخالف خطأ مَنْ أخطأ ولو كان من غير قصد، هذا هو الدين الحقُّ.

أما لو كنت لا تعلم أن هذا العالِم مخطئ، فأنت معذور. أما مَنْ يقول: إذا كان

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٣١)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «**صحيح الجامع**» (٧٥٢٠).

أخطأ فخطأه عليه، فنقول: هذا لا يجوز، ولا ينفعك هذا يوم القيامة، عليهم ما حُمِّلُوا وعليك ما حُمِّلت، والفتاوىٰ لا يعتمد عليها إلا إذا كانت مبنية علىٰ دليل من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، فمَنْ كان يعلم أنها علىٰ غير دليل، فإنه يحرم عليه أن يأخذ بها، ومَنْ كان يجهل هذا فهذا معذور، لكن يجب عليه التحري وزيادة التثبُّت.

المسألة الثامنة والثلاثون:

إلحادهم في أسماء الله وصفاته

الإلحادُ في الصِّفَاتِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

الشرح

الصفات: أي: صفات الله ﷻ التي أثبتها لنفسه، والإلحاد في اللغة معناه: الميل عن الاستقامة، والمراد به هنا: الميل في صفات الله، ومن ذلك نفيها عنه ﷻ، فنفيُ الصفات إلحاد؛ لأنه ميلٌ عن الحق، وانحراف عن الحق، فأهل الجاهلية يُلحدون في صفات الله، بمعنىٰ: أنهم يجحدونها وينفونها عن الله، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]؛ حيث ظنوا أن الله لا يعلم كثيرًا من أعمالهم، فنفوا صفة العِلْم عن الله.

هذا وَجْه الشاهد من الآية؛ لأن العِلْم صفة عظيمة من صفات الله سبحانه، فهو يعلم كُلَّ شيء، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال عباده، ومن غيرها ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤] يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فعِلْمه ﷻ شامل ومحيط بكلِّ شيء، فمَنْ ظنَّ أنه لا يعلم بعض أعماله فإنه يكون ملحدًا في صفات الله، نافيًا لصفة العِلْم.

ثم قال -جل وعلا-: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣].

أي: أوقعكم في الردىٰ، وهو الهلاك، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، فدلَّ علىٰ أن مَنْ نفىٰ صفة من صفات الله ﷻ، أنه متشبهٌ بأهل الجاهلية، ومتوعَّد بأشدِّ الوعيد، فعلىٰ هذا يكون نُفَات الصفات -من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة

والماتوردية- قد ورثوا هذه الخِصْلة القبيحة عن أهل الجاهلية، أنهم متعرِّضون لهذا الوعيد الشديد، ولأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

ومن الإلحاد في الصفات: تأويلها وصَرْفها عن معناها الصحيح إلىٰ معنىً باطل كتأويل الاستواء بالاستيلاء واليد بالقدرة وغير ذلك، ومن الإلحاد فيها: تفويض معناها إلىٰ الله وجَحْد معناها الذي تدُلّ عليها نصوصها.

المسألة التاسعة والثلاثون:

الإلحاد في أسماء الله تعالى

الإِلحَادُ في الأَسمَاءِ، كَقَولِهِ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

الشَّرح

أهل الجاهلية يُلحدون في الصفات، ويُلحدون في أسماء الله ﷻ، فينفونها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ والرحمن من أسمائه ﷻ، وذلك أن الرسول ﷺ لما أراد أن يكتب الصلح بينه وبين المشركين في الحديبية، فجاء سُهيل بن عمرو، فقال: هات أكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبيُّ ﷺ الكاتب، فقال النبيُّ ﷺ: اكتب «**بسم الله الرحمن الرحيم**» قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو!![1] قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة - يعنون مسيلمة؛ لأن مسيلمة تسمَّىٰ بالرحمن، فأنزل الله ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وكذلك لما كان النبيُّ ﷺ في مكة، وكان يُصلِّي ويدعو ويقول: يا الله، يا رحمن، قال المشركون: انظروا إلىٰ هذا الرجل، يزعم أنه يعبد إلهًا واحدًا، وهو يقول: يا الله، يا رحمن، يعبد إلهين، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فأسماء الله كثيرة، وتعدُّد الأسماء لا يدلُّ علىٰ تعدُّد المسمَّىٰ، وإنما يدل علىٰ عظمة هذا المسمَّىٰ الذي تعدَّدت أسماؤه.

فالشاهد: أن المشركين يُنكرون أسماء الله، فمَنْ نفىٰ أسماء الله من الفِرَق الضالَّة كالجهمية، أو نفىٰ معانيها وأثبت ألفاظها كالمعتزلة، أو نفىٰ بعض الصفات وأثبت بعضها كالأشاعرة، فإنه يكون وارثًا لأهل الجاهلية، وقد قال الله تعالىٰ مثبتًا أسماءه:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقال الله تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، والنبيُّ ﷺ يقول: **«أسألك بكلِّ اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو علَّمته أحدًا من خَلْقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في عِلْم الغيب عندك»**(١)، فأسماء الله كثيرة، منها ما أنزله في كتابه، وهذا كثير في القرآن؛ الرحمن، الرحيم، العزيز الحكيم، الرؤوف، التواب، الغفار...

وفي آخر سورة (الحشر): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

فيجب الإيمان بأسماء الله ﷻ، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مَنْ أحصاها دخل الجنة»**(٢)، والأدلة علىٰ أسماء الله ﷻ كثيرة، فمَنْ لم يُؤمن بأسماء الله، فإنه لا يُؤمن بالله ﷻ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١)، والحاكم (١٩٢٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٦٨)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

المسالة الأربعون:

جحود الرب سبحانه وتعالى

التَّعطِيلُ، كَقَولِ آلِ فِرعَونَ.

الشَّرح

التعطيل في الأصل: إخلاءُ الشيء، يقال: عطَّل المكان، إذا أخلاه، ويُقال: امرأة عاطل، يعني: خالية من الحُلي، فالتعطيل هو: إخلاء الشيء من غيره.

والمراد به هنا: إخلاء الكون عن خالقه، ونفىٰ أن يكون هناك خالق لهذا الكون، وإنما وجد نتيجة الطبيعة كما يقولون.

وإمام المعطلة هو فرعون؛ حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولكن هذا من باب المكابرة والعناد. وفي الآية الأخرىٰ يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] -هذا هو التعطيل.

والفطر والعقول تدلُّ علىٰ كذب هذا القول؛ لأنه لا يمكن وجود مخلوق بدون خالق، ولا يوجد فِعْل بدون فاعل أبدًا ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، ما أجابوا علىٰ شيء من هذا، فلا هم خلقوا غيرهم، ولا هم خلقوا أنفسهم، ولم يُوجدوا من غير خالق، لا بد أن يكون خالق، وإذا كان هناك خالق: هل هم هذا الخالق؟ هل هم خلقوا أنفسهم؟ هل أصنامهم خُلقت شيئًا من السماوات والأرض؟ حاشا وكلَّا، فالعقول والفِطَر تُكذِّب هذا القول، وفي الآخرة الأخرىٰ تحداهم وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] فلم يجيبوا.

المسالة الحادية والأربعون:

وصف الله بالنقص

نِسبَةُ النَّقَائِصِ إِلَيهِ سُبحَانَهُ؛ كَالوَلَدِ وَالحَاجَةِ وَالتَّعَبِ مَعَ تَنزِيهِ رُهبَانِهِم عَن بَعضِ ذَلِكَ.

الشَّرح

النقائص ضدُّ الكمالات، ونسبة النقائص إلىٰ الله ﷻ هَضْم لربوبيته، وذلك كنسبة الولد إليه؛ لأن الوالد يحتاج إلىٰ الولد وهو يشبهه، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارىٰ قالوا: المسيح ابن الله، ومشركوا العرب قالوا: الملائكة بنات الله، مع أن النصارىٰ ينزهون أحبارهم عن الأولاد والزوجات؛ لأن هذا نقصٌ في حقِّهم، فهم لا يُنزِّهون الله عما يُنزِّهُون عنه رُهْبَانهم! كذلك العرب كانوا يكرهون البنات، وينسبونها إلىٰ الله، فينسبون إلىٰ الله ما يكرهونه لأنفسهم، ويعتبرونه عيبًا ونقصًا ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

ومما يذكر أن عالِمًا من علماء المسلمين ذهب برسالة إلىٰ أحد ملوك الروم، فلما دخل عليه، قال له: كيف الزوجة والأولاد؟ فغضب الحاضرون؛ كيف يصف رئيسهم بأن له زوجة وأولادًا؟! فقال لهم: أنتم تُنزِّهون رئيسكم عن الزوجة والولد، وتنسبونهما إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؟! ولا تُنزِّهونه فبذلك أفحمهم، وخصمهم بهذا، وأخجلهم غاية الخجل.

المسالة الثانية والأربعون:

الشرك في الملك

الشِّركُ فِي المُلكِ كَقَولِ المَجُوسِ.

الشَّـرْح

من مسائل أهل الجاهلية: الشرك في المُلْك، كقول المجوس منهم. والمجوس: طائفة من البشر في بلاد فارس، يعبدون النيران ويقولون: إن هذا الكون له خالقان؛ النور والظلمة، فالنور خلق الخير، والظُّلمة خلقت الشرَّ، ولهذا سُمُّوا بالثانوية. وهذا شِرْك في الربوبية.

وفي مذهبهم: جواز نكاح المحارم، ومن مذهبهم: الاشتراك في الأموال والزوجات، فلا يرون لأحد تملكًا خاصًّا فيشتركون في النساء، ويشتركون في الأموال، وعليه الشيوعية في الوقت الحاضر والاشتراكية.

وهذا مذهب باطل مناقض للأديان والفِطَر، فخالق الكون واحد أحد، فردٌ صمدٌ، لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وقد أباح المِلْكية الفردية، وحرَّم نكاح المحارم.

المسألة الثالثة والأربعون:

جحودهم لقدر الله

جُحُودُ القَدَرِ.

الشَّرح

القدر هو: علم الله بالأشياء، وتقديره لها -جل وعلا- قبل وقوعها، وكتابتها في اللوح المحفوظ، ثم خلقه لها. والإيمان بذلك ركن من أركان الإيمان الستة، قال ﷺ: **«الإيمان أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر خيره وشرِّه»**(1).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، والقَدَر من أفعال الله ﷻ، ولا يقع شيء في مُلْكه وإلا وقد قدَّره وشاءه سبحانه، وذلك أن الله علم ما كان وما يكون، بعِلْمه الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] أي: نخلقها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، والنبيُّ ﷺ يقول: **«واعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»**(2)، **«رفعت الأقلام وجفت الصحف»**(3)، فلا يكون شيء إلا بمشيئة الله ﷻ، ولا يحصل شيء إلا والله خالقه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] خلق الخير وخلق الشرَّ، وقدَّر الخير وقدَّر الشرَّ، وهذا ما يُسمَّىٰ: مراتب الإيمان بالقدر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥/ ٥١، ٥٢) رقم (٤٦٩٩، ٤٧٠٠)، وابن ماجه (١/ ٥٩، ٦٠ رقم ٧٧).

(٣) صحيح: جزء من حديث وصية رسول الله ﷺ لابن عباس: **«يا غلام، إني مُعلِّمك كلمات...»**. أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، وصحَّحه الشيخ الألباني في **«صحيح الجامع»** (٧٩٥٧).

أولًا: الإيمان بأن الله علم كل شيء.

ثانيًا: أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

ثالثًا: الإيمان بأن الله شاء كلَّ شيء يقع في هذا الكون، فلا يقع شيء إلا بمشيئته ﷻ.

رابعًا: الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وهو علىٰ كلِّ شيء وكيل.

هذا هو الإيمان بالقَدَر، والجاهلية كانوا ينكرون القدر، والدليل علىٰ ذلك: ثلاث آيات في القرآن: الأولىٰ في سورة (الأنعام): ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وفي سورة (النحل): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٣٥]، وفي سورة (الزخرف): ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

والعلماء في تفسير هذه الآيات على قولين:

القول الأول: أن المراد بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٨]: نفيُ القدر، يقولون: لو كان لله مشيئة ما تركنا نعمل هذه الأشياء. فقصدهم نفي القَدَر، وأنهم هم الذين يفعلون هذه الأشياء بدون مشيئة الله ﷻ، فنفوا القدر، وأضافوا هذه الأفعال إلىٰ أنفسهم واستقلالهم، فيكون هذا نظير مذهب المعتزلة تمامًا؛ لأنهم يقولون: ليس لله مشيئة في الكُفْر والإيمان والخير والشرِّ، وإنما هذا من صُنْع العباد، فيكون المعتزلة قالوا بقَوْل أهل الجاهلية.

القول الثاني: أن المراد بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ أي: أن الله -جل وعلا- راضٍ عن أفعالنا هذه؛ لأنه لو لم يرض، لم يتركنا نعمل هذا، فيكونون يُؤمنون بالقَدَر، لكن يحتجُّون به علىٰ تَسْويغ كُفْرهم، بل يبلغ الأمر إلىٰ أن يقولوا :إن هذا طاعة لله؛ لأن الله شاء، ونحن أطعنا مشيئته وأطعنا قَدَره.

فالقول الثاني: وهو الاحتجاج بالقَدَر علىٰ فِعْلهم القبيح، وأن الله شاء ذلك منهم - هو قول الجبرية-؛ حيث أثبتوا القَدَر واحتجُّوا علىٰ استحسان أفْعالهم القبيحة، ويقولون: إن العبد مُجْبرٌ علىٰ أفعاله، فهم ورثة أهل الجاهلية في هذا.

فالآيات تدلُّ علىٰ أحد معنيين؛ إما نفيُ القدر، وإما إثبات القَدَر والاحتجاج به علىٰ الله ﷻ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[الأنعام: ١٤٨] أي: ما هي الحُجَّة علىٰ هذا القول - وهو أن الله لم يشأ هذا الكُفْر - وهذه الأفعال؟.

وعلى التفسير الثاني: ما هي الحجُّة علىٰ أن الله رضي لكم هذه الأفْعَال، وهذا الكُفْر، وهذا الشرك، وهذه الفواحش؟! ما دليلكم أن الله رضيها؟ أين الدليل ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩] الله -جل وعلا- يهدي مَنْ يشاء، ويُضلُّ من يشاء، لحِكْمة منه ﷻ، ويعلم مَنْ يستحق الهِدَاية، ويعلم مَنْ لا يستحق الهِدَاية، فلا يضع الهداية إلا في موضعها الصحيح اللائق بها، وردَّ عليهم بأنه لو كان راضيًا بأفعالهم لما بعث الرسل بإنكار الشرك، والأمر بالتوحيد: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فلو كان راضيًا بعبادة الطاغوت وراضيًا بالكفر والشرك - علىٰ زعمكم - لما أرسل الرسل تنهىٰ عن ذلك، فدلَّ هذا علىٰ أنه لا يرضىٰ الكفر ولا الشرك ولا المعاصي والمخالفات، بل يُبغضها وينكرها ﷻ. فلا يلزم من تقديرها أن الله يحبُّها.

وكذلك في سورة (الزخرف) ردَّ عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وبقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهم يتقولون علىٰ الله ﷻ بما لا يعلمون، وهذه الأمور لا يجوز الكلام فيها إلا بدليل من الشارع، دليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولا يعتمد فيها علىٰ العقول والأفكار والآراء.

المسالة الرابعة والأربعون:

الاعتذار عن كفرهم بأن الله قدره عليهم

الاحتِجَاجُ عَلَىٰ اللّٰه بِهِ.

الشَّرح

أي: الاحتجاج علىٰ الله ﷻ بالقدر، وأنهم معذورون في كُفْرهم ومعاصيهم؛ لأن الله قدَّر ذلك عليهم.

والله -جل وعلا- لم يترك لهم حُجَّة، بل إنه أعطاهم الاختيار، وأعطاهم القدرة، وأعطاهم المشيئة، وبيَّن لهم طريق الخير، وبيَّن لهم طريق الشرِّ، أعطاهم إمكانيات يستطيعون بها أن يفعلوا أو يتركوا، وليسوا مجبرين علىٰ ما يفعلون، وأيضًا الله بيَّن أنه لا يرضىٰ لعبادة الكُفْر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وإن كان قدَّره وشاءه فليس من لازم القدر الرضا، فالله يُقدِّر الكُفْر وهو يبغضه؛ من أجل أن يتميز الناس بعضهم من بعض، ويتميز الصادق من الكاذب، ويتبين المؤمن من الكافر، ويتبين المنافق من المؤمن الصحيح، فالله قدَّر هذه الأمور المكروهة لحِكْمة منه سبحانه، ما قدَّرها عبثًا، ورتَّب الجزاء علىٰ أفعالهم التي يفعلونها باختيارهم.

ولذلك المجنون والمعتوه والمكروه والنائم، لا يؤاخذون؛ لأنهم ليس عندهم اختيار، وليس عندهم عقل مهما فعل لا يؤاخذ.

فمَنْ أعطاه الله العقل والتفكير، ولم يكن مكرهًا علىٰ فِعْله، فإنه يُؤاخذ؛ لأنه أقدم علىٰ الشرِّ باختياره، فالزاني يزني باختياره، وتارك الصلاة يتركها باختياره، وعنده القدرة أنه يقوم يصلي، والزاني أيضًا بيَّن له أن الزنا حرام، وعواقبه وخيمة، ورتَّب الله علىٰ الزنا حدًّا رادعًا، وأرسل الرسل تنهىٰ عن الشرك والكُفْر، فكيف يحتجُّون علىٰ الله -جل وعلا- علىٰ معاصيهم وكُفْرهم وشِرْكهم وضلالهم؟!! وهم ليس لهم حُجَّة علىٰ

الله، وإنما الحُجَّة لله عليهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فلا يجوز الاحتجاج بالقَدَر إلا علىٰ المصائب، إذا أصابك مصيبة فلا تجزع، وقُلْ: هذا قَدَر الله، وما شاء فعل، وتصبر وتحتسب، أما المعصية فلا يحتجُّ عليها بالقدر، بل علىٰ العاصي أن يتوب إلىٰ الله، وتجنب المعاصي والشرور، فالاحتجاج بالقَدَر علىٰ فِعْل المعاصي هو فِعْل الجاهلية.

المسالة الخامسة والأربعون:

دعواهم التناقض بين شرع الله وقدره

مُعَارَضَةُ شَرعِ اللّه بِقَدَره.

الشَّرح

هذه المسألة أيضًا تتعلَّق بالقَدَر؛ لأن هناك مَنْ يُعارضون شرع الله بقَدَره، ويقولون: كيف يُقدِّر الله الكُفْر والإيمان، ثم يشرِّع لعباده الشرائع والأوامر والنواهي، مع أنها لا فائدة منها إذا كانت الأمور مقضية ومقدرة، فإن الناس يعتمدون علىٰ القدر؟!

وهذه من أخطر مسائل الجاهلية، ويتبعها كلُّ مَنْ سلك هذا المسلك إلىٰ يوم القيامة ممَّن يزعمون أن بين الشرع والقدر معارضة، وهذا مذهب باطل، فلا معارضة بين الشرع والقدر أبدًا، فالله قدَّر الشرك والمعاصي والكُفْر، ونهىٰ عن ذلك، وشرع الإيمان والاستقامة والصلاح، ولا معارضة بينهما؛ لأن العباد هم الذين يفعلون هذه الأفعال باختيارهم وإرادتهم ومشيئتهم، فالفعل منسوب إليهم، ولذلك يُعَاقبون علىٰ المعاصي، ويُثَابون علىٰ الطاعات، وإن كانت مقدَّرة من الله ﷻ، فإنهم إنما يُجازون علىٰ فِعَالهم لا علىٰ القَدَر.

ولما بيَّن النبي ﷺ لأصحابه وقال: «**ما منكم من أحد إلا ومقعده معلوم من الجنة أو النار**» قالوا: يا رسول الله، ألَا نتكل علىٰ كتابنا ونترك العمل؟ قال ﷺ: «**اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له**»[1]، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

فالعبد يعمل من جانبه الخير، ويتجنب الشرَّ، وأما القَدَر فهو سِرُّ الله ﷻ، لا تبحث

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٤٥، ٤٩٤٧)، ومسلم (٢٦٤٧).

فيه؛ لأنه لا يُعنيك، ولن تصل إلىٰ نتيجة.

وقد نلخص من هذه المسائل: أن الناس في القَدَر مع الشرع، انقسموا إلىٰ أربعة أقسام:

القسم الأول: مَنْ يثبت القَدَر، وينفي الشرع، وهم الجبرية.

القسم الثاني: مَنْ يثبت الشرع، وينفي القَدَر، وهم القدرية.

القسم الثالث: مَنْ يثبت الشرع والقَدَر، ويزعم أن بينهما تناقضًا، وهم المشركون.

القسم الرابع: مَنْ يثبت الشرع والقدر، وينفي عنهما التناقض، وهم من أهل السنة والجماعة.

المسألة السادسة والأربعون:

نسبتهم الحوادث إلى الدهر ومسبتهم له

مَسَبَّةُ الدَّهرِ كقَولِهِم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الشَّرح

الذين ينسبون الحوادث إلىٰ الدهر هم الدَّهْرية، وذلك أنهم إذا حلَّ بهم مكروه فإنهم ينسبونه إلىٰ الدهر، ويذمُّون الدهر من أجل ذلك، والواجب أن تُنسب الأشياء إلىٰ الخالق ﷻ، والدهر إنما هو وقت مخلوق من مخلوقات الله، ليس عنده تصرف، وقد أنكر الله سبحانه علىٰ مَنْ يسند الحوادث إلىٰ الدهر بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ لأن هذا إنكار للآخرة وإنكار للبعث، ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ يموت ناس ويحيا ناس، ويقولون: رحم تدفع وأرض تُبلع، ويقولون: هذه طبيعة الحياة. ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ ينسبون الهلاك إلىٰ الدهر، فسبب الموت عندهم مرور الليالي والأيام، وليس هناك آجال مقدَّرة، ولا هناك مَلَك يقبض الأرواح عند انتهاء آجالها.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن سبِّ الدهر، فقال: «**لا تسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»(١). يعني: أن الله خالق الدهر، وأن ما يجري في الدهر هو بتقدير الله، وفي الحديث القدسي: يقول الله تعالىٰ: «**يُؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدَّهْر، وأنا الدَّهْر، بيدي الأمر، أُقلِّب الليل والنهار**»(٢) فإذا سببت الدهر فقد سببت خالق الدهر ﷻ، وهذا مما يُؤذي الربَّ ﷻ؛ لأن الذمَّ يقع علىٰ الله؛ لأنه هو مصرفُ الأمور، ومُقدِّر الآجال والمصائب وكلِّ شيء، وأما الدهر فإنه زمان مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦، ٦١٨١، ٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦).

فيجب على المسلمين أن يجتنبوا هذا، وإذا أصابهم شيء، فإنهم يحاسبون أنفسهم، ويعترفون بذنوبهم ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، فينبغي أن يذمَّ الإنسان نفسه ويلومها ولا يذم الدهر.

المسألة السابعة والأربعون:

كفرهم بنعم الله

إِضافةُ نِعمِ اللَّهِ إِلَىٰ غَيرِهِ كَقَولِهِ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

الشرح

إضافة النِّعم إلىٰ غير الله ﷻ شِرْك بالله وكُفْر به، وهو من عمل أهل الجاهلية، قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قيل: معنىٰ الآية: يعرفون الرسول ﷺ ورسالته، ثم يُنكرون ذلك؛ عنادًا واستكبارًا، مع أنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنه رسول الله، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم يعرفون نعمة الله بإرسال الرسول ﷺ، فالرسول ﷺ هو أكبر نعمة علىٰ البشرية، ثم يكفرون بهذا الرسول ﷺ ويعاندونه -هذا قول في تفسير الآية.

والقول الثاني: أنهم يعرفون نِعم الله عليهم التي ذكرها في هذه السورة – أي: سورة النحل – ثم يُنكرونها، بمعنىٰ: أنهم ينسبونها إلىٰ غير الله، ينسبونها إلىٰ حَوْلهم وقوَّتهم، وكَدِّهم وكسبهم، كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨] أي: أنا حصَّلته بخبرتي ومهارتي وكسبي، فيجحد نِعْمة الله عليه، وكذلك غير قارون، فالله – جل وعلا– ذكر أن الإنسان إذا أنعم الله عليه نعمة قال: هذا لي. أي: هذا أستحقُّه، وأنا محقوق به، ليس من الله. وينسب ما يحصل عليه من الخير إلىٰ نفسه، ولا يقول: هذا بفَضْل الله وبرحمته.

المسألة الثامنة والأربعون:

كفرهم بآيات الله جملة

الكُفرُ بِآيَاتِ اللّه.

الشَّرْح

من مسائل أهل الجاهلية: الكُفْرُ بآيات الله التي أنزلها علىٰ رسله في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وغيرها من الكتب المنزلة، وقد توعَّد الله مَنْ فعل ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، وغير ذلك من الآيات التي تذكر أن الكفار يكفرون بآيات الله تعالى، ويُعارِضُونها بعقولهم الفاسدة، وبشُبهِهم الباطلة، وهذا ينجرُّ إلىٰ كل مَنْ كذَّب بآية من آيات الله، أو بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ، فإنه من آيات الله؛ لأنه وحيٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، فالذي يكذِّب ببعض الأحاديث الصحيحة، كما يفعله بعض المغرورين والمثقفين، إذا لم توافق أفكارهم وعقولهم، وكما عليه العقلانيون، كلُّ هذا من التكذيب بآيات الله تعالى. والواجب علىٰ المؤمن أن يؤمن بآيات الله، وأن يُصدِّق بها، وأن يعمل بها؛ لأنها حقٌّ، لا يعتريه الباطل ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، لا يتطرَّق إليها شكٌّ ولا ريب.

المسالة التاسعة والأربعون:

كفرهم ببعض آيات الله

جَحدُ بَعضِهَا.

الشَّرح

أهل الجاهلية متفاوتون في التكذيب بآيات الله، منهم منْ يُكذب بآيات الله كلِّها ولا يُؤمن بكتاب من كتب الله، كما عليه المشركون الذين لا يؤمنون بالأنبياء جملة وتفصيلًا، ومن باب أولىٰ لا يؤمنون بالكتب المنزلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن أهل الجاهلية مَنْ يُؤمن ببعض ويكفر ببعض كاليهود والنصارىٰ، ومَنْ آمن ببعض الكتاب وكَفَر ببعضه فإنه مثل من كذَّب به كلِّه، قال تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥] الآية، فهم لا يُؤمنون إلا بما يوافق أهواءهم، وما خالف أهواءهم كَّبوا به، فلا ينفعهم الإيمان ببعض الكتاب إذا كفروا بالبعض الآخر، ولو آية، ولو كلمة من القرآن، لا ينفعهم ذلك.

ومنهم مَنْ يقول: إن القرآن مخلوق، لفظه ومعناه أو: إن ألفاظه مخلوقة، دون معناه كالأشاعرة، وهذا تكذيب بالقرآن، فمَنْ قال: القرآن مخلوق، لفظه ومعناه، كما تقول الجهمية، أو قال: إن لَفْظه مخلوق، وأما معناه فمن الله، فهذا أيضًا كُفْر؛ إلا أن يكون صاحبه مقلدًا، أو متأولًا فيكون ضلالًا؛ لأن القرآن كلام الله -جل وعلا-، لفظه ومعناه، حروفه ومعانيه، كلٌّ كلام الله تَعَالَىٰ. ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

المسالة الخمسون:

جحودهم إنزال الكتب على الرسل

قَولُهُم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

الشَّرح

قالت اليهود: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ومعناه: إنكار الرسالات كلِّها، وإنكار الوحي كلِّه، والذي حملهم علىٰ ما قالوه: الحسد لمحمد ﷺ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي مادمتم تقولون الكتاب الذي مع موسىٰ من عند الله، وموسىٰ بشر، فلماذا تقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فهذا تناقض من اليهود -لعنهم الله- حملهم عليه الحسد، حتىٰ كذَّبوا بالرسل كلِّهم، وبالكتب كلِّها، من أجل محمد ﷺ، ومن أجل القرآن -نسأل الله العافية.

فانظروا ما يفعل الحسد بأهله؟ ومثله قول الجهمية: إن القرآن لم ينزل من عند الله. وقول مَنْ قال: إن السُّنة ليست وحيًا من الله، وإنما هي من اجتهاد الرسول.

المسالة الحادية والخمسون:

وصفهم للقرآن بأنه كلام البشر

قَولُهُم فِي القُرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥].

الشَّرح

من مسائل أهل الجاهلية: أنهم يقولون: إن القرآن قولُ البشر، كما قال الوليد بن المغيرة.

والقرآن كلام الله ﷻ، تكلَّم الله به حقيقة، وأوحاه إلىٰ نبيِّه محمد ﷺ بواسطة جبريل، فهو كلامه حقيقة وسمَّاه كلامه في آيات كثيرة. مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح: ١٥].

وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة وأتباع الرسول ﷺ.

والمشركون يعرفون أنه كلام الله، وأنه ليس من كلام محمد؛ لأنه لو كان من كلام محمد لكان باستطاعتهم أن يقولوا مثله؛ لأن محمدًا ﷺ بشر مثلهم، فلو كان من كلامه كان باستطاعتهم أن يحاكوه، والله -جل وعلا- تحدَّاهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة مثله، فلم يأتوا بشيء من ذلك، مع كُفْرهم وعنادهم، وحِرْصهم علىٰ مشاقَّة الله ورسوله، فلو كان باستطاعتهم أن يأتوا بسورة من مثله لما تأخروا، ولكن عجزوا عن ذلك، فدلَّ ذلك علىٰ أنه كلام الله -جل وعلا-، لا كلام غيره، لا كلام جبريل ولا كلام محمد، وإنما هو كلام الله، وإنما جبريل ومحمد عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ مُبلِّغان عن الله -جل وعلا- كلامه بأمانة والكلام يُضاف إلىٰ ما قاله مبتدئًا، لا إلىٰ مَنْ قاله مُبلِّغًا مؤديًا.

والكفار يُكابرون، تارة يقولون: القرآن سِحْر، وتارة يقولون: إنما تعلَّمه محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب ويُنوِّعون الأقوال؛ مما يدلُّ علىٰ كذبهم في هذا وتخرُّصاتهم.

فالذي يعتقد أن القرآن كلام محمد، وأنه قول البشر، فقوله هذا قول أهل الجاهلية، كما عليه الجهمية والمعتزلة ومَنْ شابههم، ممَّن يقولون: إن القرآن ليس كلام الله، وإنما خلقه الله -جل وعلا- في جبريل، أو في محمد، أو في اللوح المحفوظ، أو غير ذلك من الأقوال الباطلة التي هي من جنس قول الجاهلية.

المسالة الثانية والخمسون:

نفيهم الحكمة عن أفعال الله

القَدحُ فِي حِكمَةِ اللّه تَعَالَىٰ.

الشَّرْح

الله -جل وعلا- وصف نفسه بالحكمة، وأنه حكيم، والحِكْمة: وَضْع الشيء في موضعه، فالحكيم هو: الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

والله -جل وعلا- وصف نفسه بالحِكْمة وأنه حكيم، وأن له الحكمة البالغة.

وكذلك المخلوقات كلُّها مبنية علىٰ الحِكْمة، ما خلق الله شيئًا إلا لحِكْمة، ما خلق الله شيئًا عبثًا، خلق السماوات لحِكْمة، وخلق الأرضين لحكمة، وخلق الجبال لحِكْمة، وخلق العوالم الجن والإنس والبهائم والحشرات، كلُّ شيء خلقه لحكمة، وإذا تدبرت إتقان المخلوقات ونتائجها عرفت حِكْمة الله -جل وعلا-، وأن خالقها حكيم ذو حكمة بالغة ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

والله -جل وعلا- حكيم في خَلْقه، وحكيم في أمره ونَهْيه وتَشْريعه، لا ينهىٰ عن شيء إلا وفيه مضرَّة خالصة أو راجحة، ولا يأمر بشيء إلا وفيه مصلحة خالصة أو راجحة، ومن حكمته ﷻ: أنه يُحاسب الخلائق، فيُجازي المحسن بإحسانه، ويُجازي المسيء بإساءته، ولا يترك الناس بدون جزاء، كُلٌّ يعمل ثم لا يُجازىٰ، هذا يخالف الحِكْمة، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ويقول -جل وعلا- - ردًّا علىٰ الذين يُنكرون البعث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ

﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] يعني: لا يُؤمر ولا يُنهي ولا يُجازىٰ؟!

وأهل الجاهلية يُنكرون حِكْمة الله ﷻ في خَلْقه وأمره، والمعتزلة والأشاعرة ينفون الحِكْمة في أفعال الله ﷻ، فالأشاعرة يقولون: الله لا يفعل لحِكْمة، وإنما يفعل لمشيئة مجردة فقط، لا لحِكْمة؛ لأن الحِكْمة معناها: أنه يعمل لغرض، والله مُنَزَّهٌ عن الأغراض، ولأن الحِكْمة تُؤثر عليه فيكون خلقهم من أجل هذه العِلَّة، والله -جل وعلا- يفعل ما يشاء بمجرد المشيئة والإرادة فقط، لا لحِكْمة فينفون الحِكْمة في أفعال الله وفي شَرْعه؛ تنزيهًا لله -بزعمهم- عن الأغراض، ولهذا يقولون: يجوز أن يأمر الله بالكفر والفسق والمعاصي، وينهىٰ عن الطاعة وعن إقام الصلاة وعن صلة الأرحام وعن فعل الخير؛ لأن هذا راجع لمشيئته، فيجوز أن يأمر بالشرِّ، وينهىٰ عن الخير؛ لأنه يفعل ما يشاء.

ونقول لهم: نعم، يفعل ما يشاء سبحانه، لكنه لا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

ويقولون: يجوز أن يدخل الله الكافر الجنة، وأن يدخل المؤمن التقي النار؛ لأن هذا راجع إليه، فلا تحكمه العلل.

ونقول: هذا كلام باطل، لا يليق بحِكْمة الله ﷻ، فالله -جل وعلا- يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ويقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فالذين قالوا هذه المقالة وصفوا بالله بالسوء والجَوْر تعالىٰ الله عن ذلك.

فهذا هو مذهب أهل الجاهلية ونُفاة الحِكْمة من الأشاعرة ونحوهم، نسأل الله العافية.

المسالة الثالثة والخمسون:

تحيلهم لإبطال شرع الله

إِعمَالُ الحِيَلِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ فِي دَفع مَا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤]، وَقَولِهِ: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران:٧٢].

الشَّرح

من أعمال أهل الجاهلية من الكتابيين والأُميين: إعمالهم الحيل في تغيير شرع الله ﷻ؛ للتخلُّص منه وإنفاذ كُفْرهم وضلالهم؛ لأنهم لا يقدرون علىٰ المصارحة، فصاروا يلجئون إلىٰ حِيل خفية ماكرة، ومن ذلك: قوله تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، والمكر هو: إيصال المكروه بطريقة خفية، واليهود حين أرادوا قَتْل المسيح عيسىٰ بن مريم -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن عادتهم قَتْل الأنبياء، فأرادوا أن يقتلوا المسيح -عليه الصلاة والسلام-، فذهبوا إلىٰ ملك كافر وثني، فقالوا له: إن هذا الرجل سيُغيِّر حُكْمك إن تركته، فأرسل هذا الملك جماعة لقَتْل المسيح، ودخلوا عليه في مكانه يريدون قَتْله، ولكن الله -جل وعلا- مكر لنبيِّه، فألقىٰ شَبَهَ المسيح علىٰ رجل من أتباعه، قدَّم نفسه لذلك يريد الأجر من الله، حتىٰ صار كأنه المسيح، فأخذوه وقتلوه وصلبوه علىٰ الخشبة، يظنون أنه المسيح، ورفع الله المسيح إليه من بينهم وهم لا يشعرون؛ ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

هذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وهذا من باب المقابلة والمجازاة، وهو عَدْل منه ﷻ، بخلاف مَكْر المخلوق فإنه ظُلْم؛ لأنه بغير حقٍّ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ

﴿ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢]، وهذا من مكر اليهود أيضًا، لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة، وظهر أمر الله ﷻ، وانتصر علىٰ المشركين في غزوة (بدر)، يوم الفرقان، ولما عجز اليهود عن صدِّ الناس عن دين محمد ﷺ، لجئوا إلىٰ حيلة ومَكْر، فقال جماعة منهم: أسلموا في أول النهار، وإذا صار آخر النهار ارتدوا عن الإسلام، وقولوا: ما وجدنا في دين محمد صلاحية، فإن الناس سيتبعونكم؛ لأنكم أهل كتاب، ويقولون: لولا أنهم ما وجدوا صلاحية في دين محمد لما خرجوا منه، فيُقلِّدونكم. فكشف الله خُطَّتهم بقوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾[آل عمران: ٧٢] يعني: أول النهار، فَوجْهُ الشيء: أوله ومقدمه.

وكلُّ مَنْ لجأ إلىٰ الحِيل لتغيير شَرْع الله، والإضرار بأوليائه، فإنه علىٰ طريقة أهل الجاهلية، وكلُّ مَنْ صانع أهل السنة وأهل التوحيد للوصول إلىٰ غَرَض من أغراضه الدنيئة، فهو علىٰ طريقة أهل الجاهلية.

المسالة الرابعة والخمسون:

الفقرار بالحق للتوصل إلى دفعه

الإِقرَار بِالحَقِّ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَىٰ دَفعِهِ كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ.

الشَّرح

مما عليه أهل الجاهلية: الإقرار بالحقِّ، لا اقتناعًا به، وإنما ليتوصلوا إلىٰ دَفْعه، مثل ما حصل من اليهود في قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] وسبق بيان ذلك.

وهذه مكيدة لا تزال تحاك للمسلمين ممَّن يندسُّون في صفوفهم من أعدائهم، ويتظاهرون بقول الحقِّ، يريدون قَلْب الإسلام وإفساد الإسلام، وهذا وقع في عصر النبي ﷺ، وهو مستمرٌّ إلىٰ وقتنا هذا، وإلىٰ أن يشاء الله -جل وعلا-، يندسُّ أناسٌ من أعداء الإسلام ويتظاهرون بالإسلام من أجل إفساد الإسلام، ومن أجل بثِّ الشُّبه بين المسلمين وتفريق الكلمة، وإلقاء العداوة بين المسلمين وتقطيعهم إلىٰ أحزاب وإلىٰ جماعات، وهذا من كَيدِ الأعداء ومكرهم.

فيجب علىٰ المسلمين أن يتنبهوا لهذا المَكْر الخبيث، وألَّا يمنحوا الثقة لكلِّ مَنْ هبَّ ودبَّ، بل عليهم أن يُجرِّبوا الناس تجربة صادقة، ويختبروهم اختبارًا دقيقًا، فإذا ثبت صدقهم منحوهم الثقة.

المسألة الخامسة والخمسون:

تعصبهم لما هم عليه من الباطل

التَّعَصّبُ لِلمَذهَبِ؛ كَقَولهِ فِيهَا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣].

الشَّرْح

التعصبُ الممقوت للشيء هو: التمسُّك به، مع العلم ببُطْلانه.

ومن مسائل أهل الجاهلية: التعصب للمذهب الباطل، ولهذا قالت اليهود: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] أي: علىٰ أنبيائنا فقط، والواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله علىٰ أنبيائهم، وعلىٰ غيرهم من الأنبياء، مع أنهم لم يؤمنوا بما أُنزل علىٰ أنبيائهم، ولهذا قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]؟ أي: هذا فيما أنزل الله عليكم بقَتْل الأنبياء الذي تفعلونه؟!!

ومن ذلك: تعصبُ أتباع المذاهب لمذاهبهم من غير دليل، فالواجب علىٰ المسلمين عمومًا - وعلىٰ طلبة العلم - أن يتبعوا الحقَّ، سواء كان في مذهبهم، أو في مذهب غيرهم، فنحن لا نأخذ المذهب لكلِّ ما فيه من إصابة وخطأ، بل نأخذ الصواب ونترك الخطأ، فإذا كنت حنبليًّا ورأيت الصواب في مسألة من المسائل مع المالكي، أو مع الحنفي، أو مع الشافعي، خُذْ بقول المالكي أو الشافعي أو الحنفي، وإن كان خلاف مذهبك؛ لأن هدفك الحقُّ، والعِبْرة بما قام عليه الدليل، هذا هو الواجب، هذا إن كنت من أهل العلم، أما إذا كنت لست من أهل العلم، فعليك أن تسأل أهل العلم الموثوقين، فما أفتوك به أخذت به، هذا هو طريق الصواب. أما التعصب للمذهب، سواء كان حقًّا أو باطلًا، فهذا من أمور الجاهلية، كما ذكر الله عن اليهود.

المسالة السادسة والخمسون:

تسميتهم التوحيد شركًا

تَسمِيَةُ اتِّبَاعِ الإِسلَامِ شِركًا كَمَا ذَكَرَهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩] الآيَتَين.

الشَّرح

من مسائل أهل الجاهلية: تسمية التوحيد واتباع الحقِّ: شِرْكًا، هذا من قَلْب الحقائق، أن يسمُّوا التوحيد شِرْكًا، وهذا لانتكاس الفِطَر، وهذه الآية نزلت في وَفْد نجران من النصارىٰ، جاءوا إلىٰ النبي ﷺ يتفاوضون معه -عليه الصلاة والسلام-، فدخلوا عليه في المسجد، وأخذوا يتفاوضون معه، فالنبي ﷺ عرض عليهم الدخول في الإسلام، وبيَّن لهم أن الأنبياء جميعًا أُخذ عليهم الميثاق لئن بُعث محمد ﷺ وأحد منهم حيٌّ ليتبعنَّه، قال واحد منهم: أتريد يا محمد أن نعبدك؟ سمَّىٰ اتباع الحقِّ شِرْكًا، وعبادة للرسول ﷺ، فأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]؛ لأن الأنبياء جاءوا بالتوحيد، ولم يجيئوا بالشرك، وما جاءوا بدعوة الناس إلىٰ عبادتهم، حاشَا وكلَّا، بل جاءوا بإنكار ذلك، لكن هؤلاء من تعصبهم قالوا هذه المقالة، فأنزل الله هذه الآية ردًّا عليهم.

وما أشبه الليلة بالبارحة! فهناك مَنْ يسمُّون إخلاص العبادة لله كُفْرًا، وخروجًا عن الدِّين، ويُسمُّونه شِرْكًا، ويقولون: عبادة القبور هي التوحيد، وهي الإسلام؛ لأنها توسُّل بالصالحين ومحبة لهم، وعندهم أن الذي لا يعبد الرسول ﷺ ولا يستغيث به، يكون مُبْغضًا للرسول ﷺ، ويكون جافيًا في حقِّ الرسول ﷺ وهذا مثل قول نصارىٰ

نجران في اتباع الرسول أنه عبادة للرسول ﷺ، وهذا امتداد لمذهب أهل الجاهلية، كلٌّ سمَّىٰ الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا -والعياذ بالله.

والجهمية والمعتزلة سَمُّوا إثبات الصفات لله عَزَّوَجَلَّ شِرْكًا؛ لأنها بزعمهم تقتضي تعدد المسمَّىٰ والموصوف.

المسالة السابعة والثامنة والخمسون:

التحريف ولَيُّ الألسنة في كتاب الله

تَحرِيف الكَلِم عَن مَوَاضِعِه، وَلَيُّ الألسِنَةِ بِالكِتَاب.

الشَّرح

تحريف الكلم عن مواضعه، هو: تغيير حروفه، أو صَرْفه عن معناه، فأهل الكتاب من حرفتهم الخبيثة: أنهم يُحرِّفون الكَلِم عن مواضعه؛ إما بتغيير ألفاظه، وإما بتغيير معانيه، وتفسيره بغير تفسيره، فكلُّ مَنْ حرَّف كلام الله فإنه علىٰ مذهب أهل الجاهلية، وكلُّ أهل الباطل والمخالفين للإسلام من الفِرَق الضالة المنتسبة إلىٰ الإسلام تُحرِّف النصوص؛ لتوافق مقاصدها ومذاهبها، سواء حرَّفوا الألفاظ، أو حرَّفوا المعاني وفسَّروها بغير تفسيرها، فهذا من ميراث أهل الجاهلية.

والواجب الإيمان بما أنزل الله ﷻ بألفاظه ومعانيه، والعمل بمقتضاه، من غير تغيير وتحريف، هذا هو الواجب، سواء وافق هواك ورغبتك، أو خالفهما.

والآن أصحاب المبادئ الخبيثة والمذاهب الباطلة يلوون أعناق النصوص الواردة الصحيحة عن الرسول ﷺ، ويُفسِّرونها بغير تفسيرها، إذا عجزوا عن ردِّها وتكذيبها، وهذه طريقة من طرق أهل الجاهلية، ومن طرائق اليهود، والواجب علىٰ المؤمن أن يحترم كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فيُؤمن بهما لفظًا ومعنىٰ، علىٰ ما أراده الله وأراده رسوله ﷺ، ولا يُحرِّفِ النصوص عن معانيها، ولا يُغيِّرِ الألفاظ عما جاءت بزيادة أو نقص، أو دسٍّ للباطل.

المسالة التاسعة والخمسون:

تلقيبهم أهل الحق بالألقاب المنفرة

تَلقِيبُ أَهلِ الهُدَىٰ بِالصّبَاةِ وَالحَشوِيَّةِ.

الشَّرح

من مناهج أهل الجاهلية: احتقارهم لأهل الهدىٰ، وتلقيبهم بالألقاب الشنيعة المُنفِّرة، يقولون، صابئة، والصابئ هو: الخارج عن الدِّين، فيسمُّون أهل الحقِّ بالصابئة الخارجين عن الحقِّ؛ لأن الحقَّ في عُرْفهم ما كانوا عليه من الكُفْر والضلال، فمَنِ اتبع الرسول فهو صابئ، أي: خارج عن عاداتهم وتقاليدهم، ومذهبهم ونظامهم، وما وجدوا عليه آباءهم ويُسمُّونه: حشويًّا: من الحشو، وهو الشيء الذي لا فائدة منه، وحشو الكلام هو: الكلام الذي ليس فيه فائدة.

ويسمونهم سطحيين ومتأخِّرين وجامدين، إلىٰ غير ذلك من الألفاظ.

لكن هذا لا يضرُّ أهل الحقِّ، فقوم نوح قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي: سطحيون، ما عندهم تفكير، اتبعوك من غير تفكير، أما العقلاء والذين عندهم رَزَانة فلم يتبعوك.

المسالة الستون والحادية والستون:

افتراء الكذب على الله والتكذيب بالحق

افتِرَاءُ الكَذِبِ عَلَىٰ اللّهِ، وَالتَّكذِيبُ بِالحَقِّ.

الشَّرح

افتراء الكذب علىٰ الله وعلىٰ رسول الله ﷺ، والتكذيب بالحقِّ، من طريقة أهل الجاهلية، مثل ما قالوا - لما كانوا يطوفون بالبيت عُرَاة - قالوا عن هذه الوقاحة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهذا من الكذب علىٰ الله، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكذلك الذين يفترون الكذب علىٰ الرسول ﷺ، أنه جاء عنه كذا من الأحاديث، وهي كذبٌ، والذي يُحدِّث بهذا من غير تَوثُّقٍ ومن غير تثبُّتٍ، يكون أحد الكاذبين، ولهذا جاء في الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حدَّث عني بحديث وهو يرىٰ أنه كذب فهو أحد الكاذبين**»(١).

وهذا من حِرْفة أهل الجاهلية أنهم يفترون علىٰ الله الكذب؛ حيث زعموا أن الله أمرهم بكَشْف العورة في الطواف، وحرَّموا ما أحل الله، وزعموا أن الله شرَّع لهم هذا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في المقدمة، باب: رقم (١) وجوب الرواية عن الثقات، وتَرْك الكذابين والتحذير من الكَذِب علىٰ رسول الله ﷺ.

أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا كلُّه كذب على الله ﷻ؛ لأن الله -جل وعلا- أرسل الرسل لإنكار ما هم عليه.

فالحاصل: أن نسبة الكذب على الله ورسوله ﷺ، هو من أمور أهل الجاهلية، فعلى المسلم أن يحذر من هذا العمل الخبيث، وقد لا يكذب هو على الله، لكن لا يتحرَّى في نقل الأمور عن الله وعن رسوله، والفتاوى لا يتحرَّى فيها، فإذا كان ما نقله خطأً، وهو لم يتثبت فيه، ونشره على الناس، فإنه يصير أحد الكاذبين، ويصير قد ضرَّ الناس بهذا الشيء الذي نقله لهم ونشره بينهم.

والواجب: أن الأحاديث الموضوعة المكذوبة لا تروج، ولا تروى، بل تُحاصر وتُضايق، وأن الوعاظ والدُّعاة يتثبتون فيما يقولون عن الله ورسوله. كذلك في أمور الحلال والحرام والفتوى، عليهم أن يتثبتوا في شأنها، وألَّا يتعجَّلوا فيها؛ لأن الخطأ فيها قَوْلٌ على الله بغير عِلْم، وكذلك التكذيب بالحقِّ الثابت عن الله ورسوله، لا يقلُّ في الجريمة عن الكذب على الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، وذلك أنه إذا لم يُوافق هواه، حاول ردَّه بالتكذيب والتشكيك فيه، كفِعْل أهل الأهواء.

المسالة الثانية والستون:

استنفار الملوك ضد أهل الحق

كَونُهُم إِذَا غُلِبُوا بِالحُجَّةِ فَزِعُوا إِلَىٰ الشَّكوَىٰ لِلمُلُوكِ كَمَا قَالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٧].

الشَّرح

من مسائل أهل الجاهلية: أنهم كانوا إذا غُلِبُوا بالحُجَّة لجئوا إلىٰ الشكوىٰ إلىٰ السلطان، ومعنىٰ «**غلبوا بالحُجَّة**» أي: أُقيمت عليهم الحُجَّة، علىٰ بُطْلان ما هم عليه، ولم يكن لهم حُجَّة يقاومون بها، فإنهم يلجئون إلىٰ القوة لمنع القائم بالحقِّ، كما قال فرعون لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] لما لم يكن عنده حُجَّة يردُّ بها علىٰ نبيِّ الله، لجأ إلىٰ قوة السلطان، فقال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وهذه طريقة المهزومين، وكذلك آل فرعون وهم أتباعه، لما انتصر عليهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المَحْفل العظيم الذي عقدوه، وجمع فرعون السَّحَرة من مشارق الأرض ومغاربها، لأجل أن يُبطل ما مع موسىٰ من الآيات؛ لأنه يزعم أنه ساحر، فجمع السَّحَرة، وطلب من موسىٰ تحديد الموعد، من أجل عرض ما معه وما مع السحرة، من أجل أن يُموِّه علىٰ الناس أن عنده ما يقاوم ما مع موسىٰ من المعجزة.

فلما حان الموعد واجتمع الناس من أجل مشاهدة ما يحصل، وألقىٰ السَّحَرة ما معهم من السِّحْر، وامتلأ الوادي من سِحْرهم، وما معهم من العصي والحبال التي حشوها بالزئبق، وبمواد تحركها كأنها حيات، يُريدون أن يُضاهِئُون ما مع موسىٰ من المعجزة، وهي الحية التي تتحول من العصا التي معه، فجاؤوه بسِحْر عظيم، كما قال الله تعالىٰ، حتىٰ إن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه: ٦٧]

خاف أن يلبسوا علىٰ الناس؛ لأنهم جاؤوا - كما قال الله: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦].

فأمر الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بإلقاء العصا، فألقاها فصارت حيَّة عظيمة، ابتلعت كلَّ ما ألقوه، حتىٰ خافوا أن تصل إليهم، وناشدوا موسىٰ أن يمسكها عنهم؛ لأنهم خافوا أن تصل إليهم، وعند ذلك حصل النصر لموسىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢]؛ لأنهم عرفوا أن ما مع موسىٰ ليس سِحْرًا، فلما آمن السحرة وسجدوا لله عَزَّوَجَلَّ، هدَّدهم فرعون بالقَتْل والصَّلْب، فقتل السَّحَرة الذين آمنوا وتابوا إلىٰ الله، وصلبهم.

ثم التفتوا إلىٰ بني إسرائيل الذين آمنوا بموسىٰ، وقالوا لفرعون: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧، ١٢٨].

الشاهد من هذا: أنهم طلبوا منه اللجوء إلىٰ القوة واشتكوا إلىٰ فرعون ليقهر هذا الحقَّ وهذا الإيمان وهذا فِعْل أشباههم في كلِّ زمان ومكان.

المسالة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والستون:

رميهم أهل الحق بما هم برءاء منه

رَميُهُم إِيَّاهُم بِالفَسَادِ فِي الأَرضِ كَمَا فِي الآيَةِ.

رَميُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ دِينِ المَلِكِ، كمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وَكمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر:٢٦] الآيَة.

رَميُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ آلِهَةِ المَلِكِ كَمَا فِي الآيَةِ.

رَميُهُم إِيَّاهُم بِتَبدِيلِ الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

رَميُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ المَلِكِ كَقَولِهِم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

الشَّرح

من مناهج أهل الجاهلية كذلك: أنهم لا يكتفون بالشكوىٰ إلىٰ أصحاب القوة، والانتقام؛ بل يصفون أهل الإيمان بالمفسدين في الأرض، كما قالوا لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧] سمُّوا الإصلاح إفسادًا. والحقُّ هو العكس؛ أن الإيمان والتوحيد: إصلاح في الأرض، وأن الكُفْر والمعاصي والفسوق والظلم والطُّغيان: إفساد في الأرض، فالذي عليه موسىٰ وقومه إصلاح، والذي عليه فرعون وقومه إفساد، لكنهم عكسوا الأمر، فسمُّوا الإصلاح إفسادًا، وهذا دَأْبُ الكفار والمشركين والمنافقين دائمًا، يسمُّون المُصْلحين والدُّعاة إلىٰ الله علىٰ بصيرة. ويسمُّون المؤمنين الموحِّدين الذين يدعون إلىٰ توحيد الله وعبادته، يسمُّونهم بالمفسدين في الأرض.

وهذا شيء مستمرٌّ في الناس إلىٰ يوم القيامة، أهل الكُفْر والظلم والطُّغيان يسمُّون المصلحين بالمفسدين، وهذا منحدر من القرون الأولىٰ في وقت فرعون وقومه، وهذا

لا يضرُّ أهل الإيمان، ولا يضرُّ أهل الإصلاح، وإن لُقِّبوا بما لُقِّبوا، فكم لقبوا أهل الحقِّ والدُّعاة بالشناعات، لقَّبوا شيخ الإسلام ابن تيمية بألقاب شنيعة، ولقَّبوا الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب بألقاب شنيعة، وأنه خارجيٌّ، وأنه يريد أن يُغيِّر عقيدة الناس، ويُكفِّر الناس إلىٰ آخر ما يقولون، مما هو موجود في كتبهم من الاتهامات والتزوير والشرِّ، وهذا موقفهم من كلِّ مُصْلح.

وأما رميهم إياهم بانتقاص دين المَلَكِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] الآية، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾[غافر: ٢٦].

مما عليه أهل الجاهلية -ومَنْ تشبَّه بهم- وهو تحريضُ أصحاب السلطة علىٰ المؤمنين والدُّعاة إلىٰ الله علىٰ بصيرة ومنهج سليم بأنهم يُفسدون علىٰ أصحاب السلطة، تدينهم وسياستهم، إذا نصحوهم وأرشدوهم إلىٰ ما فيه صلاحهم وصلاح مُلْكهم، كما قال تعالىٰ حكاية عن آل فرعون، وما سعوا به عند فرعون من الوشاية، لما دعاه موسىٰ ﷺ إلىٰ عبادة الله وحده، لا شريك له، التي فيها صلاحه وصلاح مُلْكه وصلاح رعيته، وقالوا له: إنهم سيفسدون الناس عليك، ولا يكون لك ربوبية ولا إلهية علىٰ الناس، ويُحوِّلون الناس من عبادتك إلىٰ عبادة الله. وهذا من باب إغراء فرعون بأنه إن تَرَكَ هؤلاء فإنهم سيصرفون الناس عن عبادته وربوبيته؛ لأنه قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ففسَّروا دعوة الرسل بأنها إفساد في الأرض، وأن الكُفْر إصلاح في الأرض، وهذا من قَلْب الحقائق، ومن الغشِّ للراعي والرعية، وما أكثر هذا الصِّنف الذي يقوم بهذه المهمة الشيطانية اليوم، ممَّن يقودون الناس إلىٰ الهاوية، ويقفون في وَجْه المصلحين، ويُزوِّرون الحقائق، ويُغرِّرون بالسلطة، وهم بطانة السوء، الذين يحولون بين المسئولين وبين قبول النصيحة.

اللهُمَّ أصلح وُلاة أمور المسلمين، وأصلح بطانتهم، واجعلهم هُدَاة مهتدين.

وأما رميهم إياهم بانتقاص آلهة الملك، كما في الآية. فإن هذه المسألة تابعة لما

قبلها مما ذكر الله في الآية من خبر آل فرعون؛ حيث قالوا له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] يعنون: ألوهيتك علىٰ الناس وعبادتهم لك، يقولون: أنت لك شأن، ولك عظمة في الأرض، فلو تركتهم يَدْعون إلىٰ الله تنقَّصوك عند الناس، وأرخصوك عند الناس، فأنت بادر بالقضاء عليهم من أجل أن تبقي لك هيبتك ومكانتك. وهذا من الغشِّ لفرعون، وتعريضه للهلاك.

ويا سبحان الله! يتنقَّصون الله -جل وعلا- ربَّ السماوات والأرض، ولا يُعيِّبون هذا علىٰ أنفسهم، ويُعيِّبون علىٰ موسىٰ وقومه إذا نصحوا فرعون وقومه، ودلُّوهم علىٰ طريق السعادة والنجاة، وبقاء الملك وصلاحه؟! وهكذا تفعل بطانة السوء دائمًا وأبدًا، ولهذا علىٰ الوُلاة أن يتخذوا البطانة الصالحة الناصحة، ويحذروا من بطانة السوء وأصحاب المبادئ الهَدَّامة، والأفكار المنحرفة، فإنهم يُقودونهم إلىٰ الهاوية، كما حصل من بطانة فرعون؛ حيث أوقعوه في الهلاك والبوار، وحالوا بينه وبين قبول الحقِّ.

وأما رميهم إياهم بتبديل الدِّين، كما قال تعالىٰ عن فرعون: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] ورميهم إياهم بانتقاص دِين الملك، كقولهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فهاتان المسألتان حصلتا من فرعون في حقِّ كليم الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، وتحذيره للناس من قبولها، وتظاهره بمَظْهر الناصح للرعية، جاءهم عن طريقة النصيحة والمحافظة علىٰ الدِّين، والمحافظة علىٰ صلاح الأرض، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] كما قال أتباعه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، سُمُّوا المصلحين بالمفسدين، والفساد عندهم هو التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والصلاح هو الشرك؛ لأن القلوب إذا فسدت رأت الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا.

ومَنْ هو الذي يبدل الدِّين ويظهر في الأرض الفساد؟ إنه فرعون الذي بدَّل دين التوحيد بالكُفْر والشرك.

أما موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- فإنه يدعو إلىٰ الدِّين الصحيح، الذي خلق الله الخَلْق من أجله، والذي هو صلاح في الأرض؛ لأن الأرض لا تصلح إلا بعبادة الله وحده لا شريك له، هذا هو صلاح الأرض، أما الشرك فإنه فساد في الأرض، والكُفْر فساد في الأرض، والمعاصي فساد في الأرض.

المسألة الثامنة والستون:

مدحهم أنفسهم بما ليس فيهم

دَعوَاهُم العَمَلَ بِمَا عِندَهُم مِنَ الحَقِّ كَقَولِهِم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:٩١]، مَعَ تَركِهِم إِيَّاهُ.

الشَّرح

من مسائل أهل الجاهلية: دعوى اليهود العمل بما عندهم من الحقِّ، مع تركهم إياه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩١]، ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة ٩١] قيل: معناه: بما أُنزل على رسلنا من أنبياء بني إسرائيل؛ لأن هذه الآية في اليهود، ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩١] أي: ما أُنزل على رسل بني إسرائيل، مع أن الذي جاء به محمد ﷺ لا يُخالف ما جاءت به رسلهم، ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعني: غيره، مما أُنزل على عيسى ومحمد، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩١]، فالذي جاء به عيسى ومحمد ﷺ، هو موافق لما جاء به أنبياؤهم من الحقِّ ومبينٌ لما أدخلوه في كتابهم من التحريف والتكذيب والتضليل -هذه من ناحية.

والناحية الثانية: أنهم غير صادقين في هذه المقالة، بدليل ارتكابهم هذه الجرائم المذكورة في قوله تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩١، ٩٢] هذا ردٌّ عليهم، فالله ردَّ عليهم بردين:

الردُّ الأول: أن ما جاء به محمد ﷺ لا يخالف ما جاء به موسى من توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتَرْك عبادة ما سواه؛ بل هو مصدِّقٌ لذلك.

والردُّ الثاني: أنهم غير صادقين حتى فيما ادعوا أنهم يؤمنون به؛ حيث عبدوا

العِجْل، وقتلوا الأنبياء، وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] وعدم وفائهم بالميثاق الذي أُخِذَ عليهم، وهذا يتناول كلَّ تعصب مذموم، أن يقول الإنسان: أنا لا أعمل إلا بما هو في مذهبي، أو مذهب إمامي؛ لأنه يجب علىٰ المسلم أن يتبع الحقَّ في مذهبه أو في غير مذهبه، مع إمامه أو مع غيره، يقبل الحقَّ ولا يتعصب التعصب المذموم.

المسالة التاسعة والستون والسبعون:

زيادتهم في العبادة على ما شرعه الله ونقصهم منها

الزِّيَادَةُ فِي العِبَادَةِ كَفِعلِهِم يَومَ عَاشُورَاءَ.

نَقصُهُم مِنهَا، كَتَركِهِم الوُقُوفَ بِعَرَفَاتٍ.

الشَّرح

أما زيادتهم في العبادة: فكما يفعلون في يوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر من شهر الله المُحَّرم، وهذا اليوم حصل فيه حَدَثٌ عظيم، وهو إغراق فرعون وقومه، وإنجاء موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه، فهو يوم انتصر فيه الحق علىٰ الباطل، وصامه موسىٰ -عليه الصلاة والسلام-؛ شكرًا لله، وبقي صيامه مشروعًا عند المسلمين؛ لأنه لما هاجر النبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة وجد اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم: لماذا يصومونه؟ فقالوا: إنه يوم نجَّىٰ الله فيه موسىٰ وقومه، وأهلك فيه فرعون وقومه، وصامه موسىٰ ونحن نصومه، فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«نحن أحقُّ بموسىٰ منكم»**(١). فصامه ﷺ وأمر بصيامه، وأمر بصوم يوم قبله أو يوم بعده؛ مخالفة لليهود.

هذا هو المشروع في يوم عاشوراء، وهو الصيام، لكن أهل الجاهلية يزيدون فيه علىٰ الصيام، فاليهود يجعلونه يوم عيد يُزيِّنون فيه بيوتهم، ويُزيِّنون فيه أولادهم ونساءهم، ويعتبرونه يوم عيد، فهم زادوا فيه علىٰ المشروع، فالزيادة علىٰ الصيام في يوم عاشوراء من دين الجاهلية.

وكذلك الرافضة، زادوا في هذا اليوم واعتبروه يوم حُزْن، ويوم نياحة ونَدْب؛ لأنه اليوم الذي قُتل فيه الحسين بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٠٤، ٣٩٤٢، ٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠، ١١٣١).

وأما نقصهم من العبادة، فكما حصل منهم في الحجِّ، كانوا في الجاهلية يحجُّون البيت؛ لأنه من بقايا دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، لكن أدخلوا في الحج تغييرات وشِرْكِيات؛ لأن الله شرَّع الوقوف بعرفةَ، فصاروا لا يقفون بعرفة، بل يقفون في مزدلفة، وهذا نقصٌ في العبادة، ولما حجَّ النبي ﷺ كانوا يظنون أنه سيقف معهم في مزدلفة، فتجاوز -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ عرفةَ، ووقف في عرفةَ، وأعاد الحجَّ علىٰ مِلَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، قال الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] يعني: من عرفة. وهذا ردٌّ علىٰ المشركين في وقوفهم بالمزدلفة، وكذلك زادوا في التَّلبية قولهم: «**إلا شريكًا هو لك. تملكه وما مَلَك**».

وهكذا كلُّ مَنْ نقص شيئًا من العبادة؛ فإنه علىٰ دين أهل الجاهلية، وكذلك مَنْ زاد في الدِّين، فإنه علىٰ دين أهل الجاهلية، فالبِدَع والخرافات كلُّها من دين الجاهلية.

المسالة الحادية والسبعون:

تركهم ما أوجب الله عليهم من باب الورع

تَركِهِم الواجِبَ وَرَعًا.

الشَّرْح

أي: يتقرَّبون إلىٰ الله بتَرْك الواجب، مثل: الوقوف بمزدلفة، بدل الوقوف بعرفة؛ يزعمون أنه وَرَعٌ؛ لأنهم أهل الحَرَم ولا يخرجون إلىٰ عرفةَ؛ لأنها من الحِلِّ، فهم يتركون الحقَّ تورعًا، وهذا من عمل الجاهلية -نسأل الله العافية.

وكذلك من تركهم الحقُّ تورعًا: أنهم يطوفون بالبيت عُرَاة، ويتركون سَتْر العورة - الذي هو الحقُّ - من باب الورع، يقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها[1].

وكذلك كلُّ مَنْ ترك شيئًا من العبادة تورعًا، كمَنْ لا يتصدَّق ولا يُصلِّي مع الجماعة في المسجد، خشية الرياء والسمعة -كما سمعنا عن بعضهم- أو لا يطلب العلم، أو غير ذلك من تَرْك العبادات خشية الرِّياء.

---

(١) **قال عروة:** «كان الناس يطوفون في الجاهلية عُرَاة إلا الحُمْسَ، والحُمْسُ: قريش وما ولدت، وكانت الحُمْس يحتسبون علىٰ الناس يُعطي الرجلُ الرجلَ الثيابَ يطوف فيها، وتعطي المرأةُ المرأةَ الثياب تطوف فيها، فمَنْ لم يعطه الحُمْس طاف بالبيت عريانًا...». أخرجه البخاري (١٦٦٥)، ومسلم (١٢١٩)، وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: رقم (٢) وأمر النبيُّ ﷺ ألَّا يطوف بالبيت عريان، وكذا رقم (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧).

المسالة الثانية والثالثة والسبعون:

تقربهم إلى الله بترك الطيبات

تَعَبُدُهُم بِتَركِ الطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزقِ.

تَعَبُّدُهُم بِتَركِ زِينَةِ اللّهِ.

الشَّرح

أي: تقرُّبهم إلىٰ الله بتَرْك الطيبات من الرزق، وتَرْك لباس الزينة، وهذا عند النصارىٰ ومَنْ شابهم من الصوفية المنتسبين للإسلام، يتركون الطيبات تعبدًا لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يتزوجون النساء، ولا يأكلون من الطَّيبات، ويتقشفون في المآكل والمشارب والملابس، يزعمون أن هذا عبادة لله؛ ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

وكذلك حرَّموا بعض بهيمة الأنعام. والله قد أباح بهيمة الأنعام، فقال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: ١]، فحرَّموا بعض بهيمة الأنعام من أجل أصنامهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

فتحريم الطيبات من دين النصارىٰ والرهبان، ومن دين الجاهلية، ومَنْ حرَّم حلالًا مجمعًا علىٰ حِلِّه ارتدَّ عن دين الإسلام، فإذا أضاف إلىٰ ذلك اعتبار هذا من التعبد لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا افتراء علىٰ الله؛ لأن الله لم يشرِّع لعبادة تَرْك الطيبات بل أمرهم بالأكل منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ولما هَمَّ جماعة في عهد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثل هذا، غضب عليهم النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما تعبدهم بتَرْك زينة الله: أي: تقرُّبهم إلىٰ الله بترك زينة الله، أي: التزين باللباس وسَتْر العورة؛ حيث كانوا يطوفون بالبيت عُرَاة، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أي: ما هو دليلكم علىٰ ما تفعلون من ترك اللباس والتجمُّل وسَتْر العورة وتَرْك الطيبات من الرزق؟ لأن التحريم يحتاج إلىٰ دليل، والأصل في اللباس والمآكل والمشارب الحِلُّ؛ لأن الله خلق هذه الأشياء لعباده، وكما في الحديث الصحيح: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[(١)]، فتَرْكُ التجمُّل من باب الورع ليس من دين الإسلام، فليتجمل باللباس، وليأكل من الطيبات، ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الحديث: «**إن الله يحبُّ إذا أنعم علىٰ عبدٍ نعمةً أن يرىٰ أثر نعمته عليه**»[(٢)] لكن يكون ذلك من غير إسراف ولا مخيلة، وكان النبيُّ ﷺ يتجمل في جسمه وفي ملابسه، ويخصُّ مقابلة الوفود بمزيد تجمُّلٍ.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩١/ ١٤٧).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٥/ ١٢٣، ١٢٤ رقم ٢٨٢٤)، وقال: «هذا حديث حسن»، وحسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٧).

المسالة الرابعة والسبعون:

دعوتهم الناس إلى الضلال

دَعوَتُهُم النَّاسَ إِلَىٰ الضَّلَالِ بِغَيرِ عِلمٍ.

الشَّـرح

الدعوة إلىٰ الله بغير عِلْم هي من عمل أهل الجاهلية؛ لأن الله أمر بالدعوة إلىٰ سبيله علىٰ بصيرة وبالحِكْمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

فدعوتهم الناس إلىٰ الضلال، أي: ترغيب الناس في مخالفة الحقِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، فيدعونهم إلىٰ الشرك، وإلىٰ تحريم الحلال وتحليل الحرام، بغير حُجَّة، ويدعونهم إلىٰ أشياء ما أنزل الله من سلطان، فهؤلاء دُعاة ضلَالٍ، والدُّعاة إلىٰ الحق هم الذين يدعون إلىٰ ما أنزل الله ﷻ وإلىٰ ما شرع.

ومن دُعاة الضَّلال اليوم: الذين يدعون الناس إلىٰ الشرك، وعبادة الأضرحة والقبور، ويدعون الناس إلىٰ البِدَع والمحدثات في الدِّين، التي ما أنزل الله بها من سلطان ويكتبون ويُؤلِّفون ويتكلمون بدعوة الناس إلىٰ إحياء البدع والمُحْدثات، والذين يدعون الناس إلىٰ الإباحية والفسوق، والعصيان، كلُّ هؤلاء دُعاة ضَلَال، حذَّرنا الله ﷻ منهم ومن طريقتهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فبيَّن سبحانه أن

الكفار على اختلاف مِلَلهم قديمًا وحديثًا ومَنْ شابههم، جادُّون في الدعوة إلى الضلال في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

المسالة الخامسة والسبعون:

دعوتهم الناس إلى الكفر مع العلم

دَعوَتُهُم إِيَّاهُم إِلَىٰ الكُفرِ مَعَ العِلمِ.

الشَّـرح

وهذا صِنف آخر من دُعَاة الضَّلال، وهم الذين يدعون إلىٰ صَرْف الناس عن الحق مع معرفته، بغيًا وعِنَادًا، والصنف الأول يدعون الناس إلىٰ الباطل وهم لا يعرفون الحقَّ، وكلا الصنفين خطير وهم لا يقولون للناس: اكفروا، وإنما يأتونهم بطريقة مزخرفة، ظاهرها أنها حسنة وباطنها كُفْر، هكذا دُعاة الضلال. وإبليس جاء إلىٰ قوم نوح لما وجدهم قد حزنوا علىٰ الصالحين الذين ماتوا، جاءهم بطريق دَيّنٍ، وقال: صوِّروا صورهم من أجل إذا رأيتموها أن تنشطوا علىٰ العبادة، وتذكروا أحوالهم وصلاحهم ودينهم فينشطونكم علىٰ العبادة.

فهو جاءهم بطريق النصيحة، وطريق الدِّين، وهو يريد أن هذه الصور تكون أصنامًا في النهاية، فكانت أصنامًا، لما مات أهل العلم ومات هذا الجيل، جاء جيل جاهل بعدها، فقال الشيطان: إن آباءكم ما نصبوا هذا الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فعبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك دُعاة الضلال، لا يأتون للناس بالدعوة إلىٰ الشرِّ المكشوف، إنما يأتونهم بطريقة مزخرفة يُحسِّنونها للناس، ثم في النهاية يحصل لهم مقصدهم، ودُعاة الضَّلال لما دعوا الناس إلىٰ الشرك بعبادة الأضرحة لم يقولوا لهم: اعبدوها، بل قالوا لهم: هؤلاء أولياء وصالحون، لهم مكانة عند الله، فأنتم تقربوا إليهم من أجل أن يُقرِّبوكم إلىٰ الله، ويكونوا وسائط ووسائل لكم عند الله عَزَّوَجَلَّ، جاءوهم بهذه الطريقة، وهي محبة الصالحين واتخاذهم وسائل ووسائط عند الله عَزَّوَجَلَّ، فعبدوا القبور والأضرحة

بهذه الخديعة الشيطانية، وأشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ فدُعاة الكُفْر يدعون الناس بأساليب مختلفة، قد لا يظهر عليها شيء من الانتقاد، ولا يعرفها إلا أهل البصيرة، وقد تبيَّن من هاتين المسألتين: أن دُعَاة الضلال علىٰ قسمين: قسم يدعو الناس بغير عِلْم، وقسم يدعو الناس إلىٰ مخالفة الحقِّ وهو يعلمه والأول ضالٌّ والثاني فاسق.

المسالة السادسة والسبعون:

المكر الشديد لتثبيت الشرك ودفع الحق

المَكرُ الكُبَّارُ كَفِعلِ قَومِ نُوحٍ.

الشَّرح

المكر: إيصال المكروه بطريقة خفية وهو نوعان: مكر حسن ومكر سيئ.

والمكر السيئ هو: الحِيل الخفية لإيصال الشرِّ لمَنْ لا يستحقُّه، قال تعالىٰ في قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٢ - ٢٤]، والكُبَّار هو: العظيم، فهم يمكرون بالناس مكرًا عظيمًا بهذه الحيل، وهذه الطريق الخبيثة التي يدعونهم بها إلىٰ الشرك، وإذا جاءتهم دعوة التوحيد حذَّروهم منها، وقالوا: هؤلاء يريدون أن يترأسوا عليكم، ويريدون أن يتفضلوا عليكم.

فتحسين القبيح للناس، وتقبيح الحسن، وهو المكر الكُبَّار الذي لا يُزال بزواله دُعاة الضلال قديمًا وحديثًا، لصَرْف الناس عن الحقِّ إلىٰ الباطل، وإخراجهم من النور إلىٰ الظلمات، كما قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢].

أي: اتركهم وكذبهم، ولا تلتفت إليهم. فهذا فيه: النهيُ عن الإصغاء لدُعاة الضلال، إلا علىٰ سبيل معرفة باطلهم لردِّه.

والمكر الحسن هو إيصال الضرر لِمَنْ يستحقُّهُ من طريق خفيٍّ عقوبة له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

المسالة السابعة والسبعون:

اقتداؤهم بمن لا يصلح للقدوة

أَنَّ أَئِمَّتَهُم؛ إِمَّا عَالِم فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ؛ كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٨].

الشَّرح

قُدوة أهل الجاهلية من اليهود والنصارىٰ وغيرهم: إما عالم فاجر، وهو الذي لا يعمل بعِلْمه، مثل: أحبار اليهود المنحرفين. وإما عابد جاهل، هو العامل بغير عِلْم، مثل: رهبان النصارىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، يُحلِّلون لهم الحرام، ويُحرِّمون عليهم الحلال، ويطيعونهم في ذلك، وفي سورة (البقرة) يقول تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٧٥]، فقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ هؤلاء هم العلماء الفَجَرة، يسمعون كلام الله - وهو التوراة - ويعرفونه ويتعلَّمونه ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ يُغيِّرون ألفاظه ومعانيه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: من بعد ما عرفوا لفظه، ومعناه الصحيح من أجل أهوائهم وأغراضهم وشهواتهم، كما حصل منهم في قصة الزاني في عهد النبي ﷺ في المدينة، حينما زنا رجل من اليهود بامرأةٍ من اليهود، فقالوا: اذهبوا إلىٰ هذا الرجل -يعنون محمدًا ﷺ - لأنهم يعلمون أن التوراة فيها الرَّجْم، وهم لا يريدون الرَّجْم، لعله يحكم فيهما بحُكْم أسهل من الرجم، فجاءوا إليه يطلبون منه الحُكْم علىٰ هذا الزاني وهذه الزانية، فالرسول ﷺ قال: «**ما تجدون في التوراة علىٰ مَنْ زنىٰ؟**»، وفي رواية: «ما

تجدون في التوراة في شأن الرَّجْم؟» قالوا: فيها أننا نُسَوِّد وجوههم، ونركبهم على حمير ونطوف بهم في الأسواق، فسأل النبي ﷺ عبد الله بن سلام لأنه من أحبارهم، وقد أسلم، قال: كذبوا يا رسول الله، فطلب النبيُّ ﷺ منهم التوراة، فلما أحضروها وضع ابن صُوريا أُصبعه على آية الرَّجْم، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع أصبعك، فلما رفعه إذا آية الرجم تلوح في التوراة، فأمر بهما النبيُّ ﷺ فرُجما بالحجارة حتى ماتا(١).

فهذا من تحريف علمائهم لكلام الله، وقد كذبوا على الله ﷻ وأخفوا حُكْمه.

ومن تحريفهم: ما ذكره الله أن الله أمرهم أن يدخلوا الباب سُجَّدًا، وأن يقولوا حِطَّة، يعني: حطَّ عنا خطايانا، فأبدلوا حِطَّة بكلمة: حنطة -بالنون-، فزادوا في كلام الله ما ليس منه.

والتحريف هو: الزيادة في كتاب الله، أو النقص من كتاب الله، أو تفسير كتاب الله بغير معناه، هذا هو التحريف؛ لأن التحريف؛ إما أن يكون في اللفظ، وإما أن يكون في المعنى، وعلى هذا النمط كلُّ مَنْ يحاول تفسير القرآن أو الأحاديث بغير معناهما الصحيح، من أجل نُصْرة مذهبه، أو اتباع شهوته، أو حصول مطمعه، فهو محرِّف ومبدِّل للحق وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٧٦] الآية، وهذا هو النفاق والنفاق وتحريف النصوص طريقة اليهود.

ثم قال بعدها: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، هؤلاء هم العُبَّاد الجُهَّال، يقرؤون التوراة ولكن لا يعرفون معناها، فيتخذهم هؤلاء أئمة لهم وهم جُهَّال، فلا يجوز الاقتداء إلا بعالِم عامل، وهؤلاء هم الربانيون، وكذلك العُبَّاد الجُهَّال لا يُقتدى بهم، وإن كان عندهم زُهْد وعبادة، لكنهم على غير طريق صحيح، وغير هُدًى من الله ﷻ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٣٥، ٤٥٥٦، ٦٨١٩، ٧٥٤٣)، ومسلم (١٦٩٩، ١٧٠٠).

المسالة الثامنة والسبعون:

تناقضهم في محبة الله

دَعْوَاهُمْ مَحَبَّةَ اللهِ؛ مَعَ تَرْكِهِمْ شَرْعَهُ، فَطَالَبَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١].

الشَّرح

من ضلال اليهود ومَنْ شابههم: دعواهم محبة الله مع أنهم يخالفون أمره ﷻ، وعلامة محبة الله: إتباع أمره، كما قال الشاعر:

لو كان حبُّك صادقًا لأعطته ... إن المحبَّ لمَنْ يحبُّ مطيع

وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فاليهود والنصارىٰ يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ومع هذا يخالفون شرع الله ﷻ، فدلَّ ذلك علىٰ كذبهم في دعواهم؛ حيث طالبهم الله بإقامة الدليل علىٰ ما يدعونه من محبته، وذلك باتباع رسول الله ﷺ، فلما لم يفعلوا ظهر كذبهم، وكذلك الصوفية يبنون دينهم علىٰ أنهم يحبون الله عَزَّوَجَلَّ، ويقولون: العبادة هي المحبَّة، فنحن لا نعبد الله خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنته، وإنما نعبده؛ لأننا نحبه، مع أنهم يخالفون شرع الله ﷻ، فلا يتبعون الرسول ﷺ، وإنما يتبعون مشائخهم، وأصحاب الطرق التي يُبايعونهم عليها علىٰ السمع والطاعة لهم، وأنهم لا يخالفون لهم أمرًا مهما أُمروا، حتىٰ إنهم يقولون: إن المريد مع شيخه كالميِّت بين يدي غاسله، ما له اختيار ولا له غير ما اختاره شيخه، فأين اتباع الرسول ﷺ؟ فهم كاذبون في هذه الدعوىٰ.

ولهذا تحدَّىٰ الله -جل وعلا- هؤلاء المدَّعين لمحبته بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فعلامة محبة الله: اتباع رسول الله ﷺ، فمَنْ وُجدت فيه هذه الصفة فإنه صادق في دعواه المحبة، ومَنْ فَقَدَ هذه الصفة -وهو

الاتباع للرسول- فإنه كاذب في دعواه، فقد ذكر سبحانه دليل المحبة وثمرتها، فدليلها اتباع الرسول ﷺ، وثمرتها نَيْل محبة الله للعبد، ومغفرة ذنوبه، وكذلك هذا يُطرد في كلِّ مَنْ يدَّعِي محبة الرسول وهو لا يتبعه، كمَنْ يدَّعون محبة الرسول ويكتبون في الصحف والمجلات: علِّمُوا أولادكم محبة رسول الله ﷺ. وهم يبتدعون البِدَع، ويُحْدثون الموالد، والنبيُّ ﷺ نهىٰ عن البدع فهم يدعون محبته، ويخالفونه في إحْدَاث البِدَع والخرافات التي نهىٰ عنها وحذَّر منها.

❊❊❊

المسألة التاسعة والسبعون:

اعتمادهم على الأماني الكاذبة

تَمَنِّيهِمُ الأَمَانِيَّ الكَاذِبَةَ كَقَولِهِم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، وَقَولِهِم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

الشَّرح

اليهود والنصارىٰ يعتمدون علىٰ الأماني الكاذبة، ويتمنون علىٰ الله الأماني، كما ذكر الله تعالىٰ عنهم أنهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] هي أيام عبادتهم للعِجْل -بزعمهم-، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٠ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١]، فهذا ردٌّ علىٰ قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، كما ردَّ عليهم في سورة (آل عمران): ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

المسالة الثمانون:

غُلُوهم في الأشخاص

اتِّخَاذُ قُبُورِ أَنبِيَائِهِم وَصَالِحِيهِم مَسَاجِدَ.

الشَّرْح

مما عليه أهل الجاهلية من أهل الكتاب وغيرهم: اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، وهذا كان ولا يزال عند اليهود والنصارىٰ، وعند مشركي العرب، وعند المنتسبين إلىٰ الإسلام ممَّن يعبدون القبور والأضرحة، وأهل الكتاب هم أول مَنْ عمل ذلك، قال ﷺ: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**» يعني: مصليات يصلُّون عندها؛ لأن الصلاة عندها وسيلة إلىٰ عبادتها، وإن كان المصلِّي يصلي لله، لكن إذا صلَّىٰ عند قبر، فإن هذا وسيلة إلىٰ عبادته، فكيف إذا دعا القبر واستنجد به واستغاث به، كما يقال الآن عند الأضرحة؟ هذا من دين الجاهلية، من يهود ونصارىٰ وغيرهم، قال ﷺ لما أخبرته أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عمَّا رأتاه في أرض الحبشة من الكنائس وما فيها من التصاوير؛ لأن أمَّ سلمة وأمَّ حبيبة قد هاجرتا إلىٰ الحبشة مع زوجيهما الهجرة الأولىٰ، فرأتا في بلاد الحبشة الكنائس المزخرفة، بها الصور، فذكرتا ذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «**أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخَلْق عند الله**»[1].

فمن دين الجاهلية: اتخاذ الأولياء والصالحين أربابًا من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، يزعمون أنهم يُقرِّبونهم إلىٰ الله زُلْفىٰ، وأنهم يشفعون لهم عند الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨).

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وهؤلاء لا يعتقدون فيهم أنهم يخلقون ويرزقون، ويحيون ويميتون، بل يعترفون أن هذا خاصٌّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وإنما اتخذوهم وسائط بينهم وبين الله شفعاء، فصرفوا لهم أنواعًا من العبادات؛ من أجل أن يُقرِّبوهم إلىٰ الله زُلْفىٰ، فهذا دين الجاهلية، وعليه عُبَّاد القبور اليوم، نسأل الله العافية والسلامة.

ومن الغلوِّ في القبور وأصحابها: البناء عليها وإسْرَاجها، ووضع الستائر عليها والكتابة عليها وتَجْصيصها، وغير ذلك من مظاهر الغلوِّ. ولهذا نهىٰ الرسول ﷺ عن ذلك كلِّه.

المسالة الحادية والثمانون:

الغلو في آثار الأنبياء

اتِّخَاذُ آثَارِ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ كَمَا ذُكِرَ عَن عُمَرَ.

الشَّرح

من دين الجاهلية: اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد، أي: يصلون عندهم تبرُّكًا بها، والفرق بين هذه والتي قبلها: أن التي قبلها غلوٌّ في الأشخاص، وهذا غلوٌّ في آثار الأشخاص، والآثار: جمع أثر، وهو المكان الذي جلس فيه نبيٌّ أو رجل صالح أو صلَّىٰ فيه، يتتبعون هذه المواطن فيتعبدون فيها لله عَزَّوَجَلَّ، يظنون أن الصلاة فيها فضيلة، مثل الذين يذهبون الآن إلىٰ غار حراء؛ لأن الرسول ﷺ كان قد تعبَّد فيها قبل البعثة، فهم يذهبون إليه للصلاة والدعاء فيه، ولم يكن النبيُّ ﷺ يزوره بعد البعثة، ولا أحد من صحابته الكرام ذهب إلىٰ غار حراء؛ لعِلْمهم أن ذلك غير مشروع.

كذلك يذهبون إلىٰ غار ثور الذي اختفىٰ فيه النبيُّ ﷺ قبل الهجرة، ويصلُّون فيه، ويضعون فيه الطِّيب، وربما يرمون فيه النقود.

هذا كلُّه من دين الجاهلية، فالجاهلية هي التي تعظم آثار أنبيائها، ولهذا قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- لما رأىٰ الناس يذهبون إلىٰ شجرة البيعة-: «**إنما أهلك مَنْ كان قبلكم أنهم تتبعوا آثار أنبيائهم**»، ثم أمر بقطع الشجرة، وهذه الأماكن لم يقصدها النبي ﷺ للتشريع، فلا يجوز قصدها للعبادة فيها، أما الأماكن التي قصدها النبي ﷺ للتشريع، مثل صلاته عند مقام إبراهيم، عملًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فإنها تشرع الصلاة فيها اقتداء بالنبي ﷺ، أما جلوسه في غار حراء، وفي غار ثور، أو جلوسه في الطريق بين مكة والمدينة للاستراحة، فهذا لم يفعله من أجل التشريع، وإنما فعله اتفاقًا وللحاجة.

فيجب أن يُفرِّق بين هذا وهذا، فالأماكن التي لم يقصدها للتشريع، وإنما مرَّ بها أو جلس فيها من باب العادة، أو للاستراحة، أو صادفته الصلاة وصلَّىٰ فيها من غير قصد لها، فإنه لا يُتخذ هذا المكان الذي صلَّىٰ فيه الرسول مصلًّىٰ؛ لأنه فعله لا من باب القصد، وإنما فعله لأن الصلاة أدركته في هذا المكان فصلَّىٰ فيه، وهذا المكان وغيره ليس له ميزة، ولأن تتبُعها يَحْدث الوثنية فيما بعد بتبرُّك الناس بها، ويقصدونها من بعيد، ويسافرون إليها، فيحصل من ذلك ما حصل في الأمم السابقة من الشرك، وربما يبني عليها، وهناك من يطالبون الآن بذلك، يقولون: ابنوا علىٰ الآثار التي مرَّ بها الرسول وجلس فيها، ابنوا عليها من أجل الذكرىٰ، وهذا كلام باطل، نحن لا نفعل شيئًا لم يفعله سلفنا الصالح، لو كان هذا مشروعًا لسبق إليه الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم، وما هلكت الأمم إلا بمِثْل هذه الأفعال، فإحياء آثار المُعظِّمين يجرُّ إلىٰ الوثنية، كما حدث في قوم نوح والأمم السابقة، ولا يقال: إن الناس الآن علىٰ وعيٍ من دينهم فلا يخاف عليهم؛ لأنها تأتي أجيال جاهلة فيُزيِّن لها الشيطان الوثنية، ولأن الحي لا تُؤمنُ عليه الفتنة.

ولا تُؤمن الفِتْنة علىٰ أحد كما قال الخليل -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

المسالة الثانية والثمانون:

اتخاذهم لوسائل الشرك

اتِّخَاذُ السُّرُجِ عَلَىٰ القُبُورِ.

الشَّرْح

اتخاذ السُّرُج على القبور: أن يجعل فيها أنوار من المصابيح أو الفوانيس، أو الكهرباء، علىٰ شكل قناديل لأجل الزيارة، ولا يجوز هذا؛ لأنه من أسباب الشرك، وإذا احتاج الناس إلىٰ النور من أجل دفن ميِّت، فإنهم يأتون معه بسراج، أو فانوس بقدر الحاجة، أما إنه يجعل في المقبرة أعمدة كهرباء ثابتة لأجل إنارتها، فهذا منهيٌّ عنه، قال ﷺ: «**لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج**»[(١)]، والحديث في السُّنن، ولعن النبي ﷺ زائرات القبور يدلُّ علىٰ أن المرأة ممنوعة من زيارة المقابر، وإنما زيارة القبور خاصَّة بالرجال، واللعن يفيد أن زيارة المرأة للقبور كبيرة من كبائر الذنوب.

ولعن ﷺ المتخذين عليها المساجد، أي: الذين يتحرون الصلاة عندها، أو يبنون عليها المساجد، وهذا أشدُّ؛ أو الذين يُنوِّرونها؛ لأن هذا وسيلة إلىٰ الشرك، بأن تُعبد هذه القبور وتُدْعىٰ من دون الله عَزَّوَجَلَّ فالقبور تُترك كما كانت قبور الصحابة في عهد النبي ﷺ، لا تسرج ولا يُبنىٰ عليها أبنية، وإنما تترك كما هي علىٰ حالها، وتُرفع من ترابها عن الأرض قَدْر شبر فقط، ويُوضع عليها نصايب؛ لتعرف أنها قبور، ولا يُزاد علىٰ ذلك، قال ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**لا تدع قبرًا مشرفًا**» يعني: مرتفعًا، «**إلا**

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وقال أبو عيسىٰ: «حديث ابن عباس حديث حسن»، وصحَّحه الشيخ الألباني في «**صحيح الجامع**» (٥١٠٩).

سويته»(١) يعني: أزلت ارتفاعه وسوَّيته بالأرض؛ لأن إشرافه وارتفاعه يُغري الجُهَّال بقَصْده؛ لأن الشرك أسرع إلىٰ قلوب الجُهَّال من السيل إلىٰ مُنْحدره؛ لأن شياطين الإنس والجن يُزيِّنون للناس هذه الأمور ويفتنونهم بها، فإذا كان القبر ليس فيه ما يلفت النظر، ولا يعرف هل هو قبر نبيٍّ أو غيره، فهذا أبعد من الفتنة، أما إذا قُصِدَ وعُظِّمَ وجُعل عليه بنية وزخارف، ووُضع عليه أنوار، فهذا يصرف الأنظار إليه، ويقول الجُهَّال: ما عُمِلَ فيه هذا الشيء إلا أن له سِرًّا، فيقصدونه بالعبادة.

فالواجب أن يُتبع في القبور هَدْي النبي ﷺ، الذي ليس فيه غلوٌّ أو بناء أبنية، أو إيقاد سُرُج، أو كتابات، أو تجصيص، أو غير ذلك، كما كانت القبور في عهد النبي ﷺ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٦٩).

المسالة الثالثة والثمانون:

عكوفهم عند القبور

اتِّخَاذُهَا أَعيَادًا.

الشَّرْح

الأعياد جمع عيد، وهو: ما يتكرر ويعود، وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

عيد زماني: كعيد الفطر بعد رمضان، وعيد الأضحىٰ.

القسم الثاني: عيد مكاني: وهو المكان الذي يجتمع فيه علىٰ مدار السنة، أو علىٰ مدار الأسبوع، أو علىٰ مدار الشهر، يجتمع فيه للعبادة، النبي ﷺ يقول: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**». يعني: مكانًا للاجتماع حوله، والعكوف حوله، والتردُّد عليه، «**وصلُّوا عليَّ حيث كنتم، فإن صلاتكم تبلغني**»[1]. فليس للصلاة علىٰ الرسول عند قبره خاصية، بل صلِّ عليه في أيِّ مكان في المشرق أو في المغرب، أو في أيِّ مكان صلِّ علىٰ الرسول يبلغه ذلك.

وتكرار زيارته، والجلوس عنده، من اتخاذه عيدًا، وهو يؤول إلىٰ الشرك، فأهل الجاهلية يتخذون قبور الصالحين أعيادًا، يجتمعون حولها ويعكفون عندها، كما هو الآن حاصل عند قبر البدوي وغيره، يأتيه الزُّوار من كلِّ مكان، ويجلسون وينصبون الخيام، ويذبحون الذبائح ويقيمون الأيام، عند قبر البدوي أو غيره، وهذا من دين الجاهلية، وإذا كان قبر الرسول ﷺ منهيًّا عن الاجتماع حوله والتردد عليه، فكيف بقبر غيره؟!! لأن هذا وسيلة من وسائل الشِّرْك.

لما سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ : أنه نذر أن ينحر إبلًا ببوانةَ -اسم موضع-، فقال له

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٤٢)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «**صحيح الجامع**» (٧٢٢٦).

النبي ﷺ: **«هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبدُ؟»** قالوا: لا، قال: **«هل كان فيها عيد من أعيادهم** -أي: اجتماع- **يجتمعون فيه؟»** قالوا: لا. قال: **«أَوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»**[(١)].

الشاهد: قوله: **«هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»** أي: عيد مكاني، فدلَّ علىٰ أنه لا يجوز اتخاذ مكان مخصص للعبادة، إلا ما خصَّصه الله ورسوله، كالمساجد ومشاعر الحَجِّ والعُمْرة، وما عداها فالأرض كلُّها سواء، وكما قال ﷺ: **«جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»**[(٢)].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣/ ٣٩٤) رقم (٣٣١٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣).

المسالة الرابعة والثمانون:

تقربهم إلى الله بالذبح عند القبور

الذَّبحُ عِندَ القُبُورِ.

الشَّرْح

قال الله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١، ١٦٢]، فالذبح عبادة لله.

والذبح عند القبور: إذا كان تعظيمًا لها فهذا شِرْك أكبر.

وإذا كان تعظيمًا لله، ولكن فِعْله عند القبر يظن أنه مشروع، فهذه بِدْعة ووسيلة إلىٰ الشرك، فلا يجوز الذبح عند القبور، حتىٰ ولو كان الذابح لا يعتقد في القبور وإنما يذبح لله؛ لأنه إذا اعتاد الناس الذبح عند القبور آل هذا إلىٰ عبادتها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الذبح للجِنِّ لاتقاءِ شرِّهم أو للعلاج، فهذا شِرْك بالله.

أما الذبح للأكل، أو الذبح لإكرام ضيف ويذكر عليه اسم الله، فهذا لا بأس به؛ لأنه من العادات لا من العبادات.

وأما ذبح الأضحية وذَبْح العقيقة والذبح الذي يقصد به العبادة، فهذا عبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولا يُذبح لمخلوق، تعظيمًا له تعظيم عبادة، ولا يُذبح عند قبر مخلوق؛ لأن هذا يؤول إلىٰ عبادته.

المسالة الخامسة والسادسة والثمانون:

احتفاظهم بآثار المعظمين

التَّبَرُّكُ بِآثَارِ المُعَظَّمِينَ كَدَارِ النَّدوَةِ، وَافتِخَارُ مَن كَانَت تَحتَ يَدِهِ بِذَلِكَ، كَمَا قِيلَ لِحَكِيمِ بنِ حِزَامٍ: بِعتَ مَكرُمَةَ قُرَيشٍ؟! فَقَالَ: ذَهَبَتِ المَكَارِمُ إِلَّا التَّقوَىٰ.

الشَّـرح

تعظيم آثار المعظَّمين من العلماء، أو من الملوك أو من الرؤساء، بأن تحيا هذه الآثار وتُرمم وتُصان، فهذا العمل وسيلة من وسائل الشرك، وهذا من دين الجاهلية؛ لأنه يأتي جيل فيما بعد ويقولون -أو يقول لهم الشيطان-: إن آباءكم ما احتفظوا بهذه الآثار إلا لأن فيها بركة وفيها خيرًا، فيعبدونها من دون الله؛ لأن الجيل الأول هيَّأ لهم الأسباب، كما فعل الشيطان مع قوم نوح لما أمرهم بتصوير الصالحين لأجل أن تبعث فيهم النشاط علىٰ العبادة، فهم أسسوا هذا الشيء بنية صالحة، ولكن جاء جيل جُهَّال فعبدوها، وهذا من فِعْل الجاهلية، هم الذين يعظمون آثار العظماء، ويحافظون عليها ويصونونها، ثم تُعبد من دون الله ولو علىٰ المدىٰ البعيد.

فلا يقل قائل: الناسي الآن علىٰ دِين صحيح، وعلىٰ توحيد.

نقول: لا يقتصر النظر علىٰ الوقت الحاضر، وإنما يجب النظر للمستقبل، مع أن الحاضرين لا تُؤمَن عليهم الفتنة أيضًا، لكن المستقبل أشدُّ، فلا يجوز العناية بهذه الآثار، وما هلكت الأمم إلا بمِثْل هذا، وهو أنهم عظَّموا آثار كُبَرائهم حتىٰ صارت أوثانًا في المستقبل، فالواجب علىٰ المسلمين التنبُّه لهذا الأمر.

وذكر الشيخ شاهدًا لذلك؛ دار الندوة في مكة، وهي مكان يجتمع فيه أكابر قريش، للتشاور في الأمور المهمة.

فلما جاء الإسلام وزالت الجاهلية، بقي مبنىٰ دار الندوة علىٰ حاله إلىٰ وقت

معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للتملُّك والانتفاع بُسكناها وتحويلها على هيئتها، فاشترى هذا الدار من حكيم بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فلام الناس حكيمًا على ذلك، قالوا: لم بعت هذا الأثر من آثار أسلافنا، وبعت مكرمة قريش؟ قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ذهبت المكارم إلا التقوى. وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] هذا هو الجواب السديد الموافق لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو نور البصيرة ونور الإيمان.

فدلَّ على أنه لا يجوز الاحتفاظ بالآثار القديمة؛ لأن هذا يؤول إلى الشرك، ولو فيما بعد، والدِّين جاء بسَدِّ الطرق المُفْضية إلى الشرك.

المسالة السابعة والثامنة والتاسعة والثمانون، والتسعون:

من خصال الجاهلية الباقية في بعض هذه الأمة

الفَخرُ بالأحسَابِ، الطَّعنُ فِي الأَنسَابِ، الاستِسقَاءُ بِالأَنوَاءِ، النِّيَاحَةُ.

الشَّرح

هذه المسائل الأربع من مسائل الجاهلية، قال ﷺ: «**أربع في أُمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفَخْر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميِّت**»(١).

والفخر بالأحساب: أن يفتخر الإنسان بأمجاد آبائه وأجداده، وهذا من دين الجاهلية؛ لأنهم كانوا يجتمعون في منًى، وبدل أن يذكروا الله عَزَّوَجَلَّ يذكرون مفاخر آبائهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فالواجب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وليس ذِكْر الآباء والأجداد.

والطعن في الأنساب: كأن يقول: فلان ما له أصل، فلان من قبيلة ليست هي أصيلة، وهذا معناه تنقُّص الآخرين، والله -جل وعلا- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالفخر ليس بالنسب، الفخر إنما هو بالتقوى، ولا ينفعك النسب إذا فقدت التقوى، قال ﷺ: «**مَنْ بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(٢). فلا ينفع الإنسان كونه من قريش، ولا كونه من بني هاشم، ولا كونه من بيت الرسول ﷺ إذا لم يكن معه عمل صالح، لا ينفعه إلا العمل الصالح وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

والاستسقاء بالنجوم: اعتقاد أن المطر ينزل من تأثير طلوع النَّجْم أو غروبه،

---

(١) صحيح: جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣٤).

وهذا من دين الجاهلية، فالمطر إنما يحصل بإرادة الله ﷻ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] فالله هو الذي ينزل المطر بإرادته ومشيئته وحِكْمته، وينزله كيف يشاء ﷻ ينزله علىٰ أرض، ويمنع منه أرضًا أخرىٰ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠] فالذي يعتقد أن لطلوع النَّجْم أو غروب النجم تأثيرًا في نزول المطر، فهذا الاعتقاد شِرْك، تجب التوبة منه، ويجب نسبة نزول المطر إلىٰ الله -جل وعلا-.

والنياحة على الميِّت: تكون بالقول مثل: رَفْع الصوت عند موت الميت؛ جزعًا وتسخُّطًا، أو ذِكْر محاسن الميت وتكون بالفِعْل مثل: شكم الجيوب ولطم الخدود، فالنياحة من كبائر الذنوب، قال ﷺ: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطِران، ودرع من جَرَب**»[(١)]، فالنياحة كبيرة من كبائر الذنوب، وهي من أمور الجاهلية، والواجب: الصبر والاحتساب.

ولا يدخل في هذا البكاء علىٰ الميِّت؛ لأنه ليس باستطاعة الإنسان أن يحبسه، والنبي ﷺ بكىٰ لما مات ابنه إبراهيم، وقال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي الربُّ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**إن الله لا يُعذِّب بدمع العين ولا بحُزْن القلب، ولكن يُعذِّب بهذا** -يعني اللسان- **أو يرحم**»[(٣)]، فإذا تكلَّم الإنسان بكلام يُرضي الله عند المصيبة، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحمد الله وشكره؛ غفر الله له وجبر مصيبته.

فهذه الأربع من أُمور الجاهلية، وهي باقية في الناس فيجب التوبة منها، ودلَّ الحديث علىٰ أنه ليس كلُّ مَنْ فيه شيء من الجاهلية يكون كافرًا، فأمور الجاهلية منها ما هو كُفْر، ومنها ما هو دون ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم بنحوه (٢٣١٥).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

المسألة الحادية والتسعون:

قيام مجتمعهم على البغي

أَنَّ أَجَلَّ فَضَائِلِهِمُ البَغيُ، فَذَكَرَ اللّه فِيهِ مَا ذَكَرَ.

الشَّرح

البغي هو: التعدي علىٰ الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وأهل الجاهلية يعتبرون ذلك من مفاخرهم، ويتمدحون به في أشعارهم ومقالاتهم، فجاء الإسلام بتحريمه والنهي عنه، وأمر بالعدل بين الناس، وشرع لمَنْ بغي عليه أن يقتصَّ لنفسه، حتىٰ يرتدع الباغي وينتصر المظلوم، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فقرن البغي مع الفواحش والشرك والقول عليه بغير عِلْم.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال النبيُّ ﷺ في خُطْبة حَجَّة الوداع: «**إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرام، كحُرْمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟**»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] وبإقامة هذه الأحكام الرَّبانية استتبَّ الأمن، وسادت المحبة بين المسلمين، وزالت عنهم فوضىٰ الجاهلية وعَنْجهيتها، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧، ١٠٥، ١٧٣٩)، ومسلم (١٦٧٩).

المسالة الثانية والتسعون:

الفخر بغير الحق

أَنَّ أَجَلَّ فَضَائِلِهِمُ الفَخرُ وَلَو بِحَقٍّ، فَنَهَىٰ عَنهُ.

الشَّرْح

من مسائل الجاهلية: الفخر ولو بحقٍّ، فهم يفخرون بأفعالهم وأفعال آبائهم، وهذا منهيٌّ عنه؛ لأن الفخر بالأعمال يُؤدِّي إلىٰ الإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين، وهو منهيٌّ عنه، وهو من أفعال الجاهلية، فلا يجوز للمسلم أن يفتخر؛ لأنه مهما بذل ومهما عمل فإنه مقصر ولا يُؤدِّي كلَّ ما أوجب الله عليه، فحقُّ الله عظيم، وحقُّ الوالدين عظيم، وحقُّ الأقارب عظيم، وعليه حقوق عظيمة، فكيف يفخر الإنسان إذا فعل شيئًا من الإحسان، أو من المعروف، أو من أفعال الخير، مع أنه إنما أتىٰ بشيء يسير؟ هذا من الافتخار فيما بينه وبين الخَلْق، أما إذا افتخر بأعماله التي بينه وبين الله، فهذا أشدُّ؛ لأنه يُؤدِّي إلىٰ الإعجاب بالعمل، وإلىٰ استكثار العمل، وهذا يُبطل العمل.

فالواجب علىٰ الإنسان أن يعتبر نفسه مُقصِّرًا دائمًا وأبدًا فيما بينه وبين الله، وهذا واضح، وفيما بينه وبين الخَلْق أيضًا؛ فإنه إذا اعتبر نفسه مُقصِّرًا، حمله ذلك علىٰ التواضع، وحمله ذلك إلىٰ المزيد من الخير، أما إذا اعتبر نفسه مُكمِّلًا، وأنه قام بالواجب، فهذا يستدعي أنه يتوقف عن فعل الخير، ويرىٰ أنه قد بلغ النهاية، فيتوقف عن فعل الخير.

والحاصل: أن الافتخار لا ينبغي أن يصدر من مسلم، وإنما هو من أفعال الجاهلية، والنبي ﷺ -لما ذكر أنه سيِّدُ ولد آدم-، قال: «**ولا فخر**»[1] مع أن مقامه هذا لا يساويه

(١) فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي**

فيه أحد، ومع هذا قال: «**ولا فخر**»، نفىٰ عن نفسه الفخر، وإنما أخبر بذلك من باب التحدُّث بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ والشكر عليها، لا من باب الفخر.

=

لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدم فمَنْ سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر...». أخرجه الترمذي (٣١٦٠، ٣٦٢٤)، وقال في الموضعين: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الشيخ الألباني في «**صحيح الجامع**» (١٤٦٨).

المسألة الثالثة والتسعون:

التعصب الممقوت

أَنَّ تَعَصُّبَ الإِنسَانِ لِطَائِفَتِهِ عَلَىٰ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، أَمرٌ لا بُدَّ مِنهُ عِندَهُم، فَذَكَرَ اللّه فِيهِ مَا ذَكَرَ.

الشَّرْح

التعصب المذموم: هو الاستمرار علىٰ الباطل، مع العِلْم ببُطْلانه؛ تكبرًا وعِنَادًا ونُصْرة للشخص، أو للقبيلة علىٰ حقٍّ أو باطل، وهذا من أمور الجاهلية.

ويقول شاعرهم:

وَمَا أَنَا إلا مِنْ غزية إن غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشَدْ غزية أَرْشد

فأنزل الله في ذلك ما أنزل، من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملكم بُغْض قوم علىٰ ألَّا تعدلوا في حقِّهم، ولو كانوا أعداءكم، فالعدل مطلوب مع الأصدقاء، ومع الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فلا تحملك القرابة علىٰ أن تحيف مع قريبك، بل إذا كان مخطئًا تُغيِّر خطأه، ولا تتابعه عليه بل تنصحه، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فالواجب علىٰ الإنسان العدل مع نفسه ومع قريبه ومع صديقه ومع عدوِّه، لا تحمله عداوة أحد أن يظلمه، أو يجور عليه، هذا هو شأن المسلم، ولا يحمله حبُّ أحد أن يحيف معه.

وأما أهل الجاهلية فإنهم يتعصبون لقومهم، ولو كان قومهم ظالمين، فأمرنا الله -جل وعلا- بمخالفتهم، وأن نقول الحقَّ ولو علىٰ أنفسنا، وعلىٰ أقاربنا، وعلىٰ أصدقائنا، وعلىٰ أعدائنا، قال ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قالوا: يا رسول الله، ننصره إذا كان مظلومًا، فكيف ننصره إذا كان ظالمًا؟! قال: «**تمنعه عن الظلم، فذلك نصره**»(١). فنصره: أن تمنعه من الظلم، وليس نَصْره أن تساعده علىٰ الظُّلم، فهذا خذلان له.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢).

المسالة الرابعة والتسعون:

أخذ البريء بجريمة غيره

أَنَّ مِن دِينِهِم أَخذَ الرَّجُلِ بِجَرِيمَةِ غَيرِهِ، فَأَنزَلَ اللّه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم يأخذون الرجل -أي: يعاقبونه- بسبب جُرْم غيره، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، فالذي لم يحصل منه ظُلْم لا يُؤاخذ بظُلم غيره، حتىٰ ولو كان قريبه ابن عمه أو والده أو ولده، لا يجني جان إلَّا علىٰ نفسه، ولا يُؤخذ البريء بجريمة المعتدي، فإذا أخذ غير المعتدي بعُدْوان المعتدي، فهذا ظُلْم وجَوْر، لا يقرُّه الإسلام.

والآن في بعض البوادي: إذا حصل اعتداء من شخص من قبيلة، وكان هذا الشخص لا وزن له، لا يقتصُّون منه، وإنما يقتلون أو ينتقمون من غيره من القبيلة ممَّن هو أشرف منه وأعز منه، ولا يأخذون المعتدي، وإنما يأخذون شيخ القبيلة، أو مَنْ له قيمة، أو مقام في القبيلة، وهذا من فِعْل الجاهلية.

الواجب أن الجريمة تختصُّ بصاحبها، ويقتصُّ من صاحبها، هذا هو العدل... ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فالحاصل: أن هذه قاعدة عظيمة: أن الجريمة تختصُّ بمَنْ فعلها، ولا تتناول غيره.

فإن قلت: يردُّ علىٰ هذا أن الله جعل دية الخطأ علىٰ العاقلة، ولم يجعلها علىٰ القاتل، أليس هذا فيه تحميل لغير المذنب بذنب غيره؟

نقول: لا، هذا من العدل والتعاون، لما كان القتل خطأً غير متعمد، ناسب ذلك

أن تحمل عنه عَصَبته، كما أنهم يرثون ماله لو مات، فكذا يحملون عنه الخطأ الذي وقع فيه من غير قصد، أما المتعمِّد للجريمة فهذا يختصُّ جزاؤه به ولذلك لا تحمل العاقلة عمدًا.

المسالة الخامسة والتسعون:

تعيير الرجل بنقص غيره

تَعيِيرُ الرَّجُلِ بِمَا فِي غَيرِهِ، فَقَالَ: «أَعَيَّرتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امرؤٌ فِيكَ جاهِلِية»[١].

الشَّرْح

هذا في قِصَّة أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما قال في واحد من أفاضل الصحابة من السابقين الأولين إلىٰ الإسلام، قال له: يا بن السوداء؛ لأن أُمَّه سوداء، قال له ﷺ: «أعيرته بأُمِّه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية»[٢]. فتعيير الشخص بشيء ليس فيه، وإنما هو في غيره، أو بدناءة نسبة، هو من أمور الجاهلية، وليس كُلُّ مَنْ كانت فيه خصلة من خصال الجاهلية يكون كافرًا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠، ٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) صحيح: انظر الحديث السابق.

المسالة السادسة والتسعون:

افتخارهم بأعمالهم الطيبة

الافتِخَارُ بِوِلَايةِ البَيتِ، فَذَمَّهُمُ اللّه بِقَولِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٧].

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم يفتخرون بقيامهم علىٰ المشاعر، بسدانتها وتنظيمها، ورفادة الوافدين إليها، وسقاية الحجيج، فهم يفتخرون بهذا العمل ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٦٧] أي: بولاية البيت وبخِدْمة البيت الشريف، وبخِدْمة الوافدين إليه، يفتخرون بهذا علىٰ غيرهم من العرب، فهذا من أمور الجاهلية؛ لأن خدمة بيوت الله عبادة، فلا يجوز للإنسان أن يفتخر بالعبادة؛ لأنه يتقرَّب بها إلىٰ الله، لا يريد الثناء من الناس والمدح من الناس، بل يحمد الله أن جعله ممَّن يقومون بهذا العمل، دون أن يتكبر به، أو أن يفتخر به.

فهم بدلًا من أن يُؤمنوا بالرسول وبالكتاب، ويتبعوه، يفتخرون بعملهم في البيت، ويظنون أن هذا يكفيهم عن اتباع الكتاب، واتباع الرسول ﷺ، هذا وَجْه الذم لهم؛ أنه اعتاضوا عن اتباع الكتاب بخدمة البيت، ظنًّا منهم أنها تكفيهم، فهذا من أمور الجاهلية.

والله -جل وعلا- يقول: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] نعم، سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام عمل صالح، ولكن لا يفتخر الإنسان بهذا، ويظنُّ أنه يكفيه، بل عليه أن يسهم بالأعمال الصالحة الأخرىٰ، التي هي أَجلُّ من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام، وهي: الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله، والهجرة، وأعمال جليلة.

فالإنسان لا يقتصر علىٰ عمل ويظن أنه يكفيه، لاسيما إذا ظنَّ أنه يكفيه عن اتباع القرآن والسُّنة، والآن هناك مَنْ يظنون أن سُكْناهم في مكة والمدينة تكفيهم عن العمل، حتىٰ قال قائلهم: النائم فيه -يعني: الحرم- خير من القائم في غيره وهذا غرور من الشيطان.

المسألة السابعة والتسعون:

افتخارهم بانتسابهم إلى الطيبين مع مخالفتهم لهم

الافتِخَارُ بِكَونِهِم ذُرِّيَّةَ الأنبِيَاءِ، فَأَتَىٰ اللَّهُ بِقَولِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الآيَةَ [البقرة: ١٣٤].

الشَّرح

من عمل بني إسرائيل: أنهم يفتخرون بكونهم ذرية الأنبياء، دون أن يتبعوهم، ولاسيما خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وكان الواجب عليهم أن يتبعوه، أما أن يقولوا: نحن ذرية الأنبياء، ويكتفوا بهذا، دون أن يتبعوهم، فهذا ردَّ الله عليه بقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾[البقرة: ١٣٤].

فالإنسان يعتبر بعمله هو، لا بعمل غيره، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أفضل الخَلْق، ولكن هذا لا يُغني عن ذريتهم إذا لم يتبعوهم، فأعمال الأنبياء لهم، وأنتم لكم أعمالكم، وكذلك كلُّ مَنْ يفتخر بعمل آبائه وأجداده، وأنهم صالحون وأنهم علماء، ويظنُّ أن هذا يكفيه عن أن يعمل هو كالذين ينتسبون إلىٰ أهل البيت، ويظنون أن انتسابهم إلىٰ أهل البيت يكفيهم دون أن يقوموا هم بأعمال صالحة، هذا من هذا القبيل.

وكذلك الذين يتوسلون بعمل النبي، أو بجاه النبي، أو بعمل الأولياء أو الصالحين، ما علاقتهم بعمل غيرهم؟ عملهم لهم، وعملك لك، ولا ينفعك عملهم، يوم القيامة لا أحد ينفع أحدًا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]، فلا ينفعك يوم القيامة إلا عملك ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، فهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يتوسَّلون بالأولياء والصالحين أو بجاههم، أو يكتفون بانتسابهم إلىٰ الصالحين، أو إلىٰ الأنبياء، أو قرابتهم منهم، دون أن يعملوا

لأنفسهم، يقول ﷺ: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس عمَّ رسول الله، يا صفية عمة رسول الله، لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أُغني عنك من الله شيئًا**»(١)، فالرسول يقول لأقرب الناس إليه: «**لا أُغني عنكم من الله شيئًا**» فكونكم تنسبون إلىٰ الرسول، أو قرابة الرسول، أو قرابة الأولياء والصالحين، أو تتوسَّلون بجاههم، هذا لا ينفعكم شيئًا.

ويوم القيامة يقول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧] كلٌّ مشغول بنفسه؛ حتىٰ إن عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- يقول: ربِّ، لا أسألك مريم التي ولدتني، نفسي نفسي.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

المسالة الثامنة والتسعون:

افتخارهم بصنائعهم على من دونهم في ذلك

الافتِخَارُ بِالصَّنَائِعِ كفِعلِ أَهلِ الرّحلَتَينِ عَلَىٰ أَهلِ الحَرثِ.

الشَّرح

الافتخار بالصنائع، التاجر يفتخر بتجارته علىٰ الحرفي، وعلىٰ النجار وعلىٰ الحدَّاد، والموظف يفتخر بوظيفته علىٰ مَنْ دونه من الموظفين.

المسلم لا يحتقر مَنْ هو دونه، بل لا يحتقر الناس عمومًا، فكيف يحتقر المسلمين لأجل حرفهم، وأنها دون حرفته، هذا من أمور الجاهلية، كما ذكر الله علىٰ قريش في الرحلتين، فالله ﷻ أنعم علىٰ قريش بالرحلتين التجاريتين؛ رحلة الشتاء إلىٰ اليمن، ورحلة الصيف إلىٰ الشام؛ للتجارة، فهم يفتخرون علىٰ الناس بأنهم أصحاب الرحلتين، ويفتخرون علىٰ مَنْ دونهم من المزارعين، وأهل الحَرْث.

وهذا يتناول كلُّ من افتخر بصنعته، أو وظيفته علىٰ مَنْ دونه، فالإنسان لا يستكبر.

ومن ذلك: تنقُّصهم لأن حِرَفُهُم وصنائعهم ليست مثل حِرَف أشرافهم، كالحدَّادين والنجارين، وهذه خصلة لا تزال موجودة في بعض الناس.

ومن هذا الباب: الذين يحتقرون أئمَّة المساجد والمؤذنين، مع أن وظيفة الإمام هي أفضل الوظائف، وهي عمل الرسول ﷺ، وكذلك وظيفة المؤذن، فأشرف وظيفة هي وظيفة الإمام والمؤذن، فهما أشرف من عمل الوزير، وأشرف من جميع الأعمال.

المسألة التاسعة والتسعون:

نظرتهم إلى الدنيا نظرة إعجاب

عَظَمَةُ الدُّنيَا فِي قُلُوبِهِم؛ كَقَولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: عظمة الدنيا في نفوسهم، فالذي عنده دنيا هو العزيز عندهم، والذي ليس عنده دنيا ذليل محتقر عندهم، حتىٰ في الرسالة - التي هي من اختيار الله - جل وعلا- - يرون أنها يجب أن تكون في الأغنياء، ولا تكون في الفقراء ويقولون: الله ما وجد إلا يتيم أبي طالب ليرسله؟! يعنون: محمدًا ﷺ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] القريتان: مكة والطائف، وهذا الرجل هذا هو الوليد بن المغيرة في مكة، أو حبيب بن عمرو الثقفي، -وقيل: عروة بن مسعود- في الطائف، يقولون: لو كانت الرسالة في أحد هذين الرجلين؛ لكان هذا أليق بالرسالة، أما أن تذهب ليتيم فقير، وهو محمد ﷺ، فهذا غير لائق عندهم.

قال تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: يتدخلون في أعمال الله - جل وعلا-، ويريدون أن يقسموا رحمة الله، ولا يثقون بقسمة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

المسألة المائة:

الاستدراك والاقتراح على الله

التَّحَكُّمُ عَلَىٰ اللّه كَمَا فِي الآيَة.

الشَّرح

التحكم على الله يعني: الاقتراح على الله، كما في الآية: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] كأن الله -جل وعلا- لا يعلم ما في نبيِّه من الصلاحية وهم يعرفون الصلاحية، فهذا -والعياذ بالله- استدراك على الله، كما قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]ويقترحون على الله، ويقولون: كيف يُفرِّق الله القرآن وينزله مُنجمًا، ولم يُنزِّله جُمْلة واحدة؟! يتدخلون فيما لا يُعنيهم وفيما لا عِلْم لهم به.

ثم بين سبحانه الحِكْمة في إنزال القرآن مُفرَّقًا، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] وأيضًا لأجل التسهيل لوقت العمل به، ولو نُزِّل القرآن جُمْلة واحدة ما استطاع الناس العمل به وكذلك الله نزَّله منجمًا على حسب الوقائع؛ لأجل أن يُبيِّن حُكْم كلِّ نازلة، أو كلِّ حادثة فيوقِّتها، هذه هي الحِكْمة في تنزيل القرآن مفرَّقًا.

ولا يخلو الزمان الآن ممَّن هم على هذه الشاكلة، يتدخلون في النصوص، ويقترحون على الله ورسوله، أنه لو كان النصُّ كذا، أو كان الحديث كذا وكذا، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]لا تقترحوا على الله وعلى الرسول، عليكم بالإيمان بالله، والعمل بما أنزل الله، دون الاقتراحات والاعتراضات.

المسألة الحادية بعد المائة:

احتقارهم للفقراء

ازدِرَاءُ الفُقَرَاءِ، فَأَتَاهُم بِقولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢].

الشرح

هذا سبق لها نظير، وهو أنهم يتركون اتباع الأنبياء؛ لأن الفقراء هم الذين اتبعوهم، ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] أي: الفقراء والذين لا شأن لهم في المجتمع، وهذا من دِين الجاهلية، حتىٰ إنهم طلبوا من النبيِّ ﷺ أن يمنع هؤلاء أن يجلسوا معهم عنده؛ تكبرًا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فلو طردهم -عليه الصلاة والسلام- لكان من الظالمين.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٣، ٥٤] فمَنِ اتبع الحقَّ -ولو كان فقيرًا- فهو الكريم عند الله ﷻ، وهو الذي يستحقُّ أن يُقابل بالمقابلة الحسنة ويُفسح له في المجلس، وأما مَنْ أعرض عن الحقِّ واستكبر عنه فهذا لا يستحقُّ التكريم؛ لأنه هو الذي أهان نفسه، فيستحق الإبعاد والإقصاء والهَجْر.

المسالة الثانية بعد المائة:

اتهامهم لأهل الإيمان في نياتهم ومقاصدهم

رَميُهم أَتبَاعَ الرُّسلِ بِعَدَم الإخلَاصِ، وَطَلَب الدُّنيَا، فَأَجَابَهُم بِقَولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآيَةَ [الأنعام: ٥٢]. وَأَمثَالَهَا.

الشَّرْح

من أعمال أهل الجاهلية: أنهم يرمون الفقراء بأنهم ما آمنوا إلا من أجل أن يحصلوا علىٰ شيء من مطامع الدنيا، كما قال آل فرعون لموسىٰ -عليه الصلاة والسلام- هو وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال قوم نوح: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يرمون الأنبياء بأنهم يُريدون شرف الرئاسة، ويرمون فقراء المؤمنون بأنهم يريدون الغِنىٰ والثروة باتباعهم الرسول ﷺ، فالله -جل وعلا- قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فهذا ردٌّ عليهم بقولهم في المؤمنين: إنهم يريدون الدنيا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فأثبت لهم الإخلاص.

المسألة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة بعد المائة:

كفرهم بأصول الدين

الكفرُ بِالمَلَائِكَةِ، الكُفر بِالرُّسلِ، الكُفرُ بِالكُتُبِ، الإعرَاضُ عَمَّا جَاءَ عَنِ اللّهِ، الكُفرُ بِاليَومِ الآخِرِ، التكذِيبُ بِلِقَاءِ اللّه.

الشَّرح

كلُّ هذه المسائل من أمور الجاهلية، فهم لا يؤمنون بالكتب ولا يؤمنون بالرسل، ولا يُؤمنون بالملائكة، ولا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يؤمنون بلقاء الله؛ لأن هذه من أمور الغيب، وهم لا يؤمنون بالغَيْب، وإنما يؤمن بهذه الأمور مَنْ يؤمن بالغيب، فلذلك كفروا بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، ولهذا أثنىٰ الله علىٰ الذين يؤمنون بالغيب في أول القرآن فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢، ٣] ويدخل في ذلك الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، والكتب، والوحي، والإيمان باليوم الآخر، كلُّ ذلك يدخل في الإيمان بالغيب، وأهل الجاهلية لا يؤمنون بالغيب، فلذلك يكفرون بهذه الأمور، ويكفرون بلقاء الله يوم القيامة.

المسألة التاسعة بعد المائة:

تكذيبهم لبعض ما أخبرت به الرسل

التَّكذِيب بِبَعضِ مَا أَخبَرَت بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اليَومِ الآخِرِ كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٠٥]؛ وَمنهَا: التَّكذِيبُ بِقَولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وَقَولِهِ: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وَقَولِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦].

الشَّرْح

منهم مَنْ يكفر باليوم الآخر جُمْلة ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]، ومنهم مَنْ يؤمن باليوم الآخر، ولكن يجحد بعض الأمر التي تكون فيه، كأن يجحد الحساب أو وزن الأعمال، أو الجنة أو النار، فمنهم مَنْ يكفر به جملة، ومنهم مَنْ يكفر ببعض ما يكون فيه، فالذي يكفر ببعضه كالذي يكفر به كلِّه، لا فَرْق؛ لأنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]، ومنهم مَنْ يُكذِّب بالحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، فالدِّين هنا هو الحساب، وهم يُكذِّبون به، وبالجزاء علىٰ الأعمال، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وهذا اليوم هو يوم الدِّين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] إذا لم يكن معك عمل صالح يوم القيامة فإنه لا حِيلة لك في ذلك اليوم في النجاة، فلا تجد أعمالًا تُباع فتشتريها كما يشتري الإنسان الحوائج في الدنيا، ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ فإذا لم تجد أحدًا يبيع لك في الدنيا، فيمكن أن يكون لك صديق تذهب إليه، فيعطيك ما عنده، ولكن لا توجد خُلَّة يوم القيامة، ولن

ينفعك أحد ولو كان صديقك، ولكن ربما يشفع لك أحد، ويتوسَّط لك كما في الدنيا، وهذا أيضًا غير موجود يوم القيامة ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

إذا تقطَّعت عنك كلُّ الوسائل يوم القيامة، وليس لك حِيلة، إلا إذا كان معك عمل صالح قدَّمته لنفسك، وأعظم ذلك: التوحيد والسلامة من الشرك؛ ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي قال: لا إله إلا الله، في الدنيا، ومات عليها، ولا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، بل لابد أن يعلم معناها، ولذلك قال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فلا يكفي مجرد اللفظ من غير فَهْم للمعنىٰ، ولا يكفي اللفظ ومعرفة المعنىٰ بدون العمل بمقتضاها؛ لأن العِلْم وسيلة للعمل، فإذا لم يكن مع العلم عمل فلن تنفعك لا إله إلا الله.

المسالة العاشرة بعد المائة:

اعتداؤهم على دعاة الحق

قَتلُ الَّذِينَ يَأمُرُون بِالقِسطِ مِنَ النَّاسِ.

الشَّرْح

من جملة أعمال اليهود القبيحة: قَتْل الأنبياء، وقَتْل الدُّعاة إلىٰ الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

وكذلك مَنْ قام في وجه الحقِّ وصدَّ عن سبيل الله، وقتل الدُّعاة إلىٰ الله، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فإن الآية الكريمة تتناوله؛ لأنه سلك مسلك أهل الجاهلية، فيكون حُكْمُه حُكمَهم.

المسالة الحادية عشرة بعد المائة:

الإيمان بالباطل

الإِيمَانُ بِالجِبتِ وَالطَّاغُوتِ.

الشَّرْح

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء: ٥١]، والجِبْت، قيل: هو السِّحْر، وقيل: الشيطان، والطاغوت: مَنْ تجاوز حدود الله.

وسبب نزول الآية: أن اليهود الذين كانوا بالمدينة لما هاجر النبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة، وعقد معهم المعاهدة علىٰ ألَّا يقاتلوا المسلمين، وأن يدافعوا عن المدينة مَنْ قصدها، وأعطوا العهد علىٰ ذلك، فلما ضاقوا بالنبيِّ وبأصحابه ذَرْعًا، ورأوا إن الإسلام ينتصر وينمو، ذهب سادتهم إلىٰ قريش بمكة يستنجدون بهم علىٰ الرسول ﷺ، ويردون منهم أن يذهبوا معهم لقتال النبيِّ ﷺ، فألهم الله قريشًا أن يسألوا هؤلاء وقالوا لهم: أنتم أهل كتاب، فأيُّنا علىٰ الحق، محمد ﷺ أم نحن؟!

قالوا: ماذا أنتم عليه؟! قالوا: نحن نُكرم الضيف، ونصل الأرحام، ونسقي الحَجِيج، وكذا وكذا، وأما محمد فإنه سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وخالف دِين أجداده، وقطَّع أرحامنا و... و... و...، فقالوا لهم: أنتم علىٰ الحق، ومحمد علىٰ باطل، وهم يعلمون أن محمدًا علىٰ حقٍّ، وهو رسول الله، وأن هؤلاء عبدة أصنام وأوثان، فقال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[النساء: ٥١]، ولاحظوا كيف أن الله قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ مع أن الأمر موافقة في الظاهر فقط، وسمَّاه

إيمانًا، فدلَّ علىٰ أن الموافقة للكفار علىٰ ما هم عليه من غير إكْرَاه إيمان بما هم عليه، ولو لم يعتقد بقلبه.

وهناك أُناس الآن يقولون: إن الإنسان لا يكفر ولو قال الكفر حتىٰ يعتقده بقلبه، فلو قال كلام الكُفْر من غير إكراه، وفعل أفعال الكفار، وسبَّ الله ورسوله، وفعل ما فعل، فإنه لا يكفر عنه هؤلاء حتىٰ يعلم ما في قلبه. وهذا مذهب غُلَاة المرجئة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالله وصف هؤلاء بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] مع أن ما حصل منهم هو موافقة في الظاهر، وهم في قلوبهم يعتقدون أنهم خاطئون، وأن محمدًا ﷺ علىٰ الحقِّ، لكن حملهم الكِبْر والحسد، وعداوة الرسول أن يُوافقوهم في الظاهر، وكفَّرهم الله بذلك.

وهذه دقيقة عظيمة من مسائل التكفير، وفيها ردٌّ علىٰ مَنْ يقول: لا يكفر الإنسان مهما قال، ومهما فعل، ومهما أتىٰ من الكُفْر، ولو سبَّ الله ورسوله، حتىٰ يعلم أنه في قلبه يوافق علىٰ هذا الشيء! نسأل الله العافية من هذا الضلال.

المسألة الثانية عشرة بعد المائة:

تفضيلهم الكفر على الإيمان

تَفضِيلُ دِينِ المُشرِكِينَ عَلَىٰ دِينِ المُسلِمِينَ.

الشَّرْح

كما حصل من اليهود مما جاء ذِكْره في المسألة السابقة.

وهذا يتناول كلُّ مَنْ فضَّل دين الكُفْر علىٰ دين المسلمين، أو ساوىٰ بينهما، ومن ذلك الذين يحاولون التقريب بين الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام، ويقولون: كلُّها أديان سماوية، يجب التآخي بين أصحابها والتعاون فيما بينهم.

المسألة الثالثة عشرة بعد المائة:

خلط الحق بالباطل ليُقبل الباطل

لَبسُ الحَقِّ بالبَاطِلِ.

الشَّرْح

من عادة الكفار وأهل الجاهلية: من اليهود والنصارىٰ وغيرهم: لَبْسُ الحقِّ بالباطل، واللبس: هو الخَلْط، فهم يخلطون الحقَّ والباطل؛ من أجل أن يروج الباطل؛ لأنه لو كان الباطل وحده ما قبله أحد، لكن إذا لُبِّسَ بالحق فإن الأغرار من المؤمنين وقاصري النظر يقبلونه، ويقولون: هذا فيه حقٌّ، فيقبلونه كلُّه، أما لو أنهم قبلوا الحقَّ منه فقط وردُّوا الباطل، كان حسنًا، ولكن إذا قبلوه كلَّه فهذا هو الخطأ، فالواجب علىٰ أهل النظر وأهل العقول السليمة أنهم لا يقبلون الأشياء علىٰ عواهنها، بل يمحصونها ويختبرونها، فيقبلون ما كان فيها من حقٍّ، ويردُّون ما كان فيها من باطل.

فالكفار قد يذكرون الحقَّ لا رغبة في الحق، ولا محبة له، وإنما يذكرونه من أجل ترويج الباطل به، والواجب التنبُّه لهذا الأمر، وهو تمييز الأشياء، وعدم التسرُّع في قبولها لما يظهر فيها من بريق الحقِّ، حتىٰ تُختبر وتُمحَّص، ويُؤخذ ما فيها من حقٍّ، ويردُّ ما فيها من باطل، وهذا إنما يعلمه أهل العِلْم وأهل البصيرة، وأما العوامُّ والجُهَّال -وقاصرو النظر- فينخدعون في مثل هذه الأمور، وتنطلي عليهم، لكن الواجب عليهم أن يسألوا أهل العلم، ويستشيروا أهل النظر قبل قبولها، حتىٰ يسلموا من التَّمويه.

المسألة الرابعة عشرة بعد المائة:

كتمان الحق مع العلم به

كتمَانُ الحَقِّ مَعَ العِلمِ بِهِ.

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: من اليهود والنصارىٰ والوثنيين، وغيرهم من طوائف الكُفْر: كتمان الحقِّ مع العلم به، وهذا يظهر في أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ أكثر؛ فإنهم يعلمون الحقَّ، ولكنهم يكتمونه، ولا يُبيِّنونه للناس، من أجل مصالحهم الدنيوية، أو من أجل إرضاء الناس، وأعظم الكتمان أنهم علموا أوصاف محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وعلموا صِحَّة رسالته وما جاء به، ومع هذا كتموا ذلك، وأنكروا رسالة محمد ﷺ، كما ذكر الله تعالىٰ ذلك عنهم في مواضع من القرآن، ومن ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧] وهذه الآية في سياق تحويل القِبْلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة المشرفة، يعلمون أن رسول الله ﷺ ستكون قِبْلته الكعبة المشرفة، قبلة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، يعلمون هذا في كتبهم، ومع هذا أنكروا تحويل القِبْلة، وكتموا ما عندهم من العلم في ذلك.

وكذلك كل مَنْ كتم حقًّا وهو يعلمه من غير اليهود والنصارىٰ، حتىٰ من المسلمين، مَنْ كتم الحقَّ ولم يُبيِّنه للناس، فإنه علىٰ طريقة اليهود والنصارىٰ، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

شرط في قبول توبتهم: البيان لما كتموه، فلا تكفي التوبة المجملة، ولكن لا بد من البيان، فيجب علىٰ مَنْ علم الحقَّ أن يُبيِّنه للناس، ولا يشتري به ثمنًا قليلًا، فيكتمه من أجل أن يحصل علىٰ مصلحة من مصالح الدنيا، أو من أجل أن يُرْضي الناس، فالله أحقُّ أن يخشاه عَزَّوَجَلَّ وأن يرضيه، فلا يجوز كتمان الحقِّ لمَنْ قدر علىٰ بيانه وإظهاره، أما مَنْ لم يقدر، أو يخاف بالبيان فِتْنة أكبر، فإنه معذور، لكن مَنْ لم يكن عنده مانع من البيان، وإنما كتم الحقَّ من أجل رغبته هو ومصلحته هو، فهذا يلعنه الله ويلعنه اللاعنون.

فهذه صفة اليهود، وهي منطبقة علىٰ كلِّ مَنْ كتم الحقَّ، من أجل اتباع الهوىٰ، ولم يُبيِّنه للناس، وإذا سُئل عن حُكْم مسألة أجاب بغير الحقِّ وهو يعرف الجواب الصحيح، فهذا من كتمان الحقِّ، والله -جل وعلا- أمر بقول الحقِّ ولو علىٰ النفس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، فيجب بيان الحقِّ في الشهادات، وفي غيرها.

وأشدُّ من كتمان الشهادة: كتمان العِلْم، الذي هو حياة الناس وهدايتهم إلىٰ الصراط المستقيم، فالواجب بيان الحقِّ، وعدم المداهنة، ومن ذلك: إذا رأىٰ الناس علىٰ باطل أو خُرَافات أو شِرْك، فإنه لا يسكت، بل يجب عليه أن يُبيِّن، ولا يترك الناس يقعون في عبادة القبور، وعبادة الأضرحة، ومزاولة البدع المُضلّة، ويسكت ويقول: ليس لي شأن بالناس، أو يرىٰ الناس يتعاملون بالمعاملات المحرَّمة ويسكت، فهذا كتمان للعلم وخيانة للنصيحة، فالله لم يعطك هذا العلم من أجل أن تسكت عليه، وإنما حملك إياه من أجل أن تُبيِّنه للناس، وأن تدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وأن تحاول إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور.

فلا يسوغ للعلماء أن يسكتوا، وهم يقدرون علىٰ البيان لاسيما إذا رأوا الناس في

ضلال وشِرْك وبدع وخُرَافات، فلا يسعهم السكوت، فإن سكتوا فإن هذا مع كتمان العلم الذي عاب الله به اليهود والنصارىٰ، فكيف إذا قال بخلاف الحقِّ وهو يعلمه، وأفتىٰ بخلافه متعمِّدًا من أجل إرضاء الناس، أو من أجل تمشية الأمور، أو من أجل أن يُساير الناس علىٰ ما هم عليه؟! فالحقُّ أحقُّ أن يُتبع، فأنت تُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تُرضي الناس وهم علىٰ باطل، وفي الحديث: «**مَنِ التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومَنِ التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤١٩)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٩٧).

المسالة الخامسة عشرة بعد المائة:

القول على الله بغير علم

قَاعِدَةُ الضَّلَالِ، وَهِيَ: القَولُ عَلَىٰ اللّه بِلَا عِلمٍ.

الشَّـرْح

قاعدة الضلال، أي: أصل ضلال العالِم ومنشؤه، القول علىٰ الله بغير عِلْم.

والقول علىٰ الله بلا عِلْم أعظم من الشرك، ولذلك قال الله -جل وعلا-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فجعل القول علىٰ الله فوق الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز لأحد أن يقول علىٰ الله بغير عِلْم، كأن يقول: إن الله حرم كذا، أو: إن الله أباح كذا، أو: إن الله شرَّع كذا، وهو غير مشروع، هذا قول علىٰ الله بغير عِلْم -والعياذ بالله-، أو يُفتي وهو لا يعلم، بل يتخرَّص، وهذا خطير جدًّا، وهذا كذبٌ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فلا يجوز القول علىٰ الله بلا عِلْم.

والرسول ﷺ إذا سُئل عن شيء لم ينزل عليه فيه وحيٌ يُؤجِّل الإجابة حتىٰ ينزل عليه الوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف بغيره؟! والعالِم يخفي عليه أشياءُ كثيرة، فإذا لم يكن عندك وضوح في المسألة ودليل من الكتاب والسنة، فقل: لا أدري، ولا ينقص هذا من عِلْمك وقَدَرك، بل يزيد هذا من قَدَرك عند الله سبحانه، فقد سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أربعين مسألة، فأجاب عن بعضها، وقال عن أكثرها: لا أدري، قال له السائل: أنا جئتك من بلاد بعيدة، وتحملت سفرًا، وتقول: لا أدري، فقال له الإمام مالك: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقُلْ للناس: سألت مالكًا، وقال: لا أدري.

وهكذا أهل العلم وأهل الخشية من الله عَزَّوَجَلَّ .

وحتى في التأليف: فالإنسان لا يُؤلِّف وهو ليس عنده أهْلية للتأليف، فليتنا سلمنا من كثير من المؤلَّفات والرسائل، ولم تبق لنا إلا الكتب الصحيحة الموافقة للكتاب والسنة، والمُشْكل أن هذه الكتب والرسائل ستبقىٰ وتُضْلل أجيالًا بعدك، وتكون أنت المسؤول عنها، الإنسان يتقي الله في فتواه، وفي كتابه، وفي كلامه، وفي حديثه، وفي محاضرته، فلا يقول إلا ما يغلب علىٰ ظنِّه أنه صواب، وأنه موافق للكتاب والسنة.

المسألة السادسة عشرة بعد المائة:

تناقض أقوالهم وتضاربها

التَّنَاقُضُ الوَاضِحُ لَمَّا كَذَّبُوا بِالحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥].

الشَّرْح

التناقض هو: تضارب الأقوال واختلافها، فمَنْ ترك الحقَّ فإنه يُبتلىٰ بالتناقض وتضارب أقواله؛ لأن الضلال يتشعب، ولا حدَّ لشُعَبه، وأما الحقُّ: فإنه شيء واحد لا يتشعب ولا يختلف، والله -جل وعلا- يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس: ٣٢] ، فمَنْ ترك الحقَّ وقع في الضلال، والضلال متاهة -والعياذ بالله-، فتجد أصحابه مختلفين فيما بينهم؛ بل تجد الواحد منهم مختلفة آراؤه؛ لأنه ليس عنده هُدًىٰ يسير عليه، وإنما يتخبط، تارة يقول كذا، وتارة يقول كذا.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[ق: ٥] يعني: مختلف، فأهل الباطل يختلفون فيما بينهم، ويتعادون ويُضلل بعضهم بعضًا، أو يُكفِّر بعضهم بعضًا، أما أهل الحقِّ المتمسكون بالحقِّ فإنهم لا يختلفون، وإن اختلفوا عن اجتهاد فإنهم لا يتعادون ولا يتقاطعون، إذا تبين لهم الصواب رجعوا إليه، تركوا أقوالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ: ١٠] ، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] .

وتجدون الخلاف بين الأئمة الأربعة وبين الفقهاء، ولا أحد منهم ضلَّل الآخر، أو كفَّر الآخر، كلٌّ يعمل بحسب ما يظهر له من الدليل، وإذا ظهر أنه مخالف رجع إلىٰ الحقِّ، أما أهل الضلال فليس لهم مَرْجع يرجعون إليه، وإن مرجع كلَّ منهم إلىٰ هواه، والأهواء تختلف.

المسالة السابعة عشرة بعد المائة:

الإيمان ببعض ما أنزل دون بعض

الإِيمَانُ بِبَعضِ المُنزَّلِ دونَ بَعضٍ.

الشَّـرْح

الإيمان ببعض المنزَّل من عند الله عَزَّوَجَلَّ دون بعض سمة اليهود والنصارىٰ، قال الله تَعَالَىٰ لما حرم الله عليهم أن يقتل بعضهم بعضًا، وأن يخرجوهم من ديارهم وأن يفادوا أسراهم، فعملوا بواحدة من هذه الخصال الثلاث وتركوا البقية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٣-٨٥]، تؤمنون ببعض الكتاب، وهو فداء الأسير، وتكفرون ببعضه، وهو القَتْل والإخراج من الديار فتستحلُّونه ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦].

هذا جزاء مَنْ يُؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الآخر؛ لأن الواجب الإيمان بالكتاب كلِّه، ولا يأخذ الإنسان ما يوافق هواه ويترك ما يخالف هواه ورغبته، وهذه صفة اليهود ومَنْ حَذَا حذوهم من كلِّ مَنْ يأخذ من الكتاب ما يوفق هواه، ويترك ما يخالف هواه.

وفي الآية الأخرى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] أي: إذا جاءهم الرسول بما يوافق أهواءهم قبلوه، وإذا جاءهم بما يخالف أهواءهم رفضوه، ثم يكون موقفهم مع هذا الرسول الذي جاءهم بما لا يهوونه: إما أن يُكذِّبوه، وإما أن يقتلوه -والعياذ بالله.

وفي هذه عِظَة للمسلمين ألَّا يفعلوا مثل فِعْلهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

المسالة الثامنة عشرة بعد المائة:

الإيمان ببعض الرسل دون بعض

التفرِيقُ بَينَ الرُّسُلِ.

الشَّـرح

التفريق بين الرسل بالإيمان ببعضهم، والكُفْر بالبعض الآخر من صفة أهل الكتاب خاصة، أما الوثنيون والمشركون فلا يؤمنون بالرسل أصلًا، بل يكفرون بالرسل جميعًا، أما اليهود فإنهم كفروا بعيسىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ، وكفروا بمحمد ﷺ، والنصارىٰ كفروا بمحمد ﷺ، ومَنْ كفر بنبيٍّ واحد فهو كافر بالجميع؛ لأن الرسل طريقتهم واحدة، ودينهم واحد، وهم إخوة، فمَنْ كفر بواحد منهم، فقد كفر بالجميع، فالحُجَّة التي مع الرسول الذي كفر به هي الحُجَّة التي مع الرسل الذين آمن بهم؛ فلا يُفرِّق بينهم، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

لا نُفرِّق بين أحد من رسله، فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة، التي جاءت في حديث جبريل، لما سُئِلَ رسول الله ﷺ، فقال: أخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه**»[1]، ولا يكفي الإيمان ببعضهم؛ بل لا بد من الإيمان بهم جميعًا، وإلا فمَنْ كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع؛ لهذا يقول -جل وعلا-: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] مع أنهم ما كذبوا إلا نبيَّهم، فلما كذبوا نبيَّهم كانوا مُكذِّبين لجميع الرسل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠).

المسالة التاسعة عشرة بعد المائة:

المحاجّة فيما ليس لهم به علم

مُخَاصَمَتُهم فِيمَا لَيسَ لَهُم بِهِ عِلم.

الشَّرح

أي: أن أهل الجاهلية يجادلون ويخاصمون فيما ليس لهم به عِلْم. والواجب أن الإنسان لا يجادل إلا بعِلْم، أما ما لا يعلمه فإنه يسكت عنه، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]يعني: حقيقته التي يؤول إليها.

وهذا يتضمن ناحيتين:

الناحية الأولى: أن الإنسان لا يدخل فيما لا يعلم، ولا ينكر ما لا يعلم، بل يقول: الله أعلم؛ ولهذا يقول الله لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فالإنسان لا يدعي أنه أحاط بالعلم، بل يتقاصر، ويعرف قَدْر نفسه، ولو كان عنده عِلْم كثير، فما خفي عليه أكثر، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ الله تعالى.

الناحية الثانية: أنه لا ينكر الشيء الذي يعمله غيره، فإذا كان عند غيرك عِلْم خفي عليك، فلا تنكر ما عند غيرك، فما أحد من البشر أُعطي العلم كلَّه، ولهذا يقول العلماء: هذه العِبَارة التي يكررونها دائمًا: «**مَنْ حفظ حُجَّة علىٰ مَنْ لم يحفظ**».

والدَّهْريون والمشركون ومُعطِّلة الصِّفات وسائر أهل الضلال، أنكروا ما أنكروه؛ لجَهْلهم به، وكونه لا تدركه عقولهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، وبنوا مذاهبهم علىٰ القياس الفاسد، فضلُّوا علىٰ سواء السبيل.

المسالة العشرون بعد المائة:

تناقضهم في اتباعهم لغيرهم

دَعوَاهُمُ اتِّبَاعَ السَّلَفِ مَعَ التَّصرِيحِ بِمُخَالَفَتِهِم.

الشَّـرْح

عامة اليهود والنصارىٰ، وأهل الضلال من المنتسبين إلىٰ الإسلام، كلُّهم يدعون أنهم يتبعون مَنْ سبقهم من المؤمنين قبلهم، فاليهود يدعون أنهم من أتباع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ومَنْ آمن به، والنصارىٰ يدعون أنهم يتبعون المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَنْ آمن به، وأهل الضلال من هذه الأُمة يدعون أنهم يتبعون سَلَف الأُمة من الصحابة والتابعين وأتباعهم، وأن ما هم عليه هو مذهب السلف.

وما كل مَنِ ادَّعىٰ أنه علىٰ مذهب السلف، أو علىٰ منهج السلف تكون دعواه صحيحة؛ حتىٰ يُعْرِض ما عنده علىٰ منهج السلف الصالح، فإن طابق فهو علىٰ منهج السلف، وإن خالف فإنه ليس علىٰ منهج السلف، وإن ادعىٰ هذا. كلُّ الطوائف الضالة الآن تدعي أنها علىٰ مذهب السلف، ولكنهم ليسوا علىٰ منهج السلف؛ لأنهم لا ينطبق عليهم قول الرسول ﷺ - في ضابط مذهب السلف -: «**مَنْ كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**»[1] . هذا الذي يكون علىٰ منهج السلف، أما مَنْ خالف هذا فإنه ليس علىٰ منهج السلف، وإن ادَّعىٰ ذلك، والعِبْرة ليست بالدعوىٰ، وإنما العِبْرة بالحقيقة، فالذين يدَّعون السلفية كثيرون، لكن لا بد من عَرْض ما هم عليه علىٰ منهج السلف الصالح، فإن طابق هذا فحقٌّ، وإن خالف فإنه ليسوا علىٰ منهج السلف الصالح.

وكذلك الذين ينتسبون إلىٰ المذاهب الأربعة وهم يخالفون الأئمَّة في الاعتقاد، فانتسابهم غير صحيح؛ لأنهم خالفوهم في أهمِّ الأشياء وهو العقيدة.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٥، ٢٦٤٦)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٨٢، ١٠٨٣).

المسالة الحادية والعشرون بعد المائة:

الصد عن سبيل الله

صَدُّهُم عَن سَبِيل اللّه مَن آمنَ بِهِ.

الشَّرح

الصدُّ عن سبيل الله هو: صَرْف الناس عن الدخول في دين الله، وهذا عمل الكفار قديمًا وحديثًا، من يهود ونصارىٰ ومشركين، فمن مناهج الجاهلية في كلِّ زمان ومكان: الصدُّ عن سبيل الله، والفِرَق الضالة الآن علىٰ هذا النهج، تحاول تضليل المسلمين، وجَلْبهم إلىٰ نِحَلهم الباطلة، وكذلك اليهود والنصارىٰ، لا يزالون يحاولون في المسلمين صدَّهم عن الإسلام، ويقولون: تعالوا نتحاور فيما بيننا، ويقولون بحرية الأديان. هذا من الصدِّ عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، هل نحن علىٰ شكٍّ من صحة ديننا وبطلان دينكم حتىٰ نتحاور معكم؟! لسنا علىٰ شيء من ديننا، وبُطْلان ما أنتم عليه.

فهؤلاء يريدون من هذه الدعايات الحوار بين الأديان، والتعاون بين الأديان، يريدون به الصدَّ عن سبيل الله، هذا مُرادهم، وهذا مقصدهم، ولا يزال الكفار إلىٰ الآن يحاولون إضلال المسلمين، ويقتلونهم، ويُشرِّدونهم، ويُعذِّبونهم، من أجل دينهم وصدِّهم عنه.

وهم الذين يقولون: نتحاور فيما بيننا، ويقولون بحرية الأديان والمعتقدات، لكنهم يقصدون أديانهم ومعتقداتهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩]، لكنهم يريدون لَبْس الحقِّ بالباطل، ومساواة الدين الباطل بالدِّين الحقِّ، ثم لا يثبتون علىٰ هذا، بل يريدون إزالة الإسلام، فهم يقتلون المسلمين ويُشرِّدونهم من أجل أن يُصْرفوهم عن دينهم، ويريدون ألَّا يبقىٰ علىٰ وَجْه الأرض مسلم، هذه أمنيتهم، وهذا قَصْدهم.

المسالة الثانية والعشرون بعد المائة:

موالاة الكفار

مُوَدَّتُهُم الكُفرَ وَالكَافِرِينَ.

الشَّرح

من مسائل الجاهلية: أنهم يودُّون الكُفْر والكافرين، كما ذكر الله ﷻ ذلك عن بني إسرائيل: أنهم اتخذوا الكفار أولياء، قال تعالىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٨٠].

وقد حرَّم الله موالاة الكفار، فقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] نهىٰ الله المسلمين أن فعلوا مثل ما فعل اليهود من موالاة الكفار، ومحبة الكفار، ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] الأمر واضح في هذا، وأنه تجب مُعادَاة الكُفَّار والبراءة منهم ومن دِينهم، والولاء والبراء من أعظم الواجبات في الإسلام.

المسالة الثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة والعشرون بعد المائة:

اعتمادهم على الخرافات

العِيَافَةُ، وَالطَّرْقُ، وَالطِّيَرَة، وَالكِهَانَةُ، وَالتَّحَاكُمُ إِلَىٰ الطَّاغُوتِ، وَكَرَاهَةُ التَّزوِيجِ بَينَ العَبدَينِ.

الشَّرح

من خِصَال الجاهلية هذه الأمور الباطلة ومزاولتها والعمل بها وهي :

العيافة والطيرة وهما: زَجْر الطير، وكذلك الطِّيرة؛ لأنهم في الجاهلية كانوا يتشاءمون بالطيور، فإذا رأوها تطير علىٰ شَكْل يكرهونه تراجعوا عما عزموا عليه من أسفارهم وغيرها.

والله -جل وعلا- أمرنا بالتوكُّل عليه وَحْده، والمُضي فيما فيه مصلحة للإنسان، وإذا أُشْكل عليه شيء من أموره، أو تردَّد في شيء، فإنه يُصلِّي صلاة الاستخارة، ويدعو بعدها أن يهديه الله للصواب. وكذلك يستشير أهل الخبرة والمعرفة.

والطَّرْقُ: الخَطُّ، يخطُّ بالأرض، وهذا إنما يكون عند المشعوذين الذين يخطُّون في الرَّمْل، ويقولون: سيحصل كذا، سيحدث كذا، وهذا من فِعْل الجاهلية؛ لأنه من ادِّعاء عِلْم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وهو خَرْصٌ وتخمين، ولكنه قد يقع ما قالوا؛ من باب الفِتْنة والاستدراج للناس، فالواجب تجنُّب هؤلاء والابتعاد عنهم.

والكِهَانة: وهم دعاء علم الغَيْب بواسطة استخدام الشياطين الذين يسترقُّون السمع وقد حرَّم الله الكِهَانة، وحرَّم الذهاب إلىٰ الكُهَّان وتصديقهم، فقال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ أتىٰ كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل علىٰ محمد ﷺ»**.

والتحاكم إلى الطاغوت هو: التحاكم إلىٰ غير كتاب الله تعالىٰ وسُنة رسوله

ﷺ ، من القوانين الوضعية، وحكم العوائد؛ عوائد البادية وسوالفها، أو عِلْم الكلام والقواعد المنطقية.

وكانوا في الجاهلية يتحاكمون إلىٰ الطاغوت، وهو مشتقٌّ من الطُّغيان، وهو: مجاوزة الحدِّ، والمراد به هنا: الحُكْم بغير ما أنزل الله.

والواجب علىٰ المسلمين التحاكم إلىٰ كتاب الله وسُنة رسوله، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾[النساء: ٥٩] .

وكراهة التزويج بين العيدين: عيد الفِطْر وعيد الأضحىٰ، هو من التشاؤم بالأيام المنهيِّ عنه، وهو نوعٌ من الطَّير، وقد شرَّع الله التزويج في جميع الأوقات، ما عدا حالة الإحرام بحجٍّ أو عُمْرة، ولا دخل للأيام في نجاح التزويج أو فشله، وإنما هذا بيد الله سبحانه وتعالى .

وَالله تَعَالَى أَعلَمُ

وَصَلَّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ.

محتويات الكتاب

شرح
فضل الإسلام

للإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب
ت ١٢٠٦هـ رحمه الله تعالى

شرح

فضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

بابُ فَضْلِ الإسلام

وَقَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيَةُ [يونس:١٠٤].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُكُم وَمَثَلُ أَهلِ الكِتَابَينِ كَمَثَلِ رَجُلٍ استَأجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَن يَعمَلُ لِي مِن غُدوَةٍ إِلَىٰ نِصفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ**».

ثُمَّ قَالَ: «**مَن يَعْمَلُ لِي مِن نِصفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ العَصرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ**».

ثُمَّ قَالَ: «**مَن يَعمَلُ لِي مِن صَلَاةِ العَصرِ إِلَىٰ أَن تَغِيبَ الشَّمسُ عَلَىٰ قِيرَاطَينِ؟ فَأَنتُم هُم، فَغَضِبَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، وَقَالُوا: مَا لَنَا أَكثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ أَجرًا؟!**».

قَالَ: «**هَل نَقَصتُكُم مِن حَقِّكُم شَيئًا؟** قَالُوا: لَا، قَالَ: «**ذَلِكَ فَضلِي أُوتِيهِ مَن أَشَاءُ**»[١].

وَفِيهِ أَيضًا عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**أَضَلَّ اللّهُ عَنِ الجُمُعَةِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٨).

مَن كَانَ قَبلَنَا؛ فَكَانَ لليَهُودِ يَومُ السَّبتِ، وَللنَّصَارَىٰ يَومُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللّه بِنَا فَهَدَانَا لِيَوم الجُمُعَةِ، وَكَذَلِكَ هُم تَبَع لَنَا يَومَ القِيَامَةِ، نَحنُ الآخِرُونَ مِن أَهلِ الدُّنيَا، وَالأَوَّلُون يَومَ القِيَامَةِ».

وَفِيهِ تَعلِيقًا عَنِ النَّبي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَىٰ اللّهِ: الحَنِيفِيةُ السَّمحَةُ**» انتَهَىٰ.

وَعَن أُبَيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «عَلَيكُم بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ لَيسَ مِن عَبدٍ عَلَىٰ سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ اللّه فَفَاضَت عَينَاهُ مِن خَشيَةِ اللّه فَتَمَسّهُ النَّارُ، وَلَيسَ مِن عَبدٍ عَلَىٰ سَبِيلٍ وَسُنَّة ذَكَرَ الرَّحمَنَ فَاقْشَعَرَّ جِلدُهُ مِن مَخَافَةِ اللّهِ إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَبِسَ وَرَقُهَا، فَبَينَمَا هِيَ كَذَلِكَ إِذ أَصَابَتهَا الرِّيحُ فَتَحَاتَّ عَنهَا وَرَقُهَا؛ إِلَّا تَحَاتَّت عَنهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحَاتُّ عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقتِصَادًا فِي سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ خَيرٌ مِنَ اجتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلِ اللّه وَسُنَّتِهِ، فَانظُرُوا أَعمَالَكُم، فَإِنْ كَانَتِ اجتِهَادًا أَو اقتِصَادًا أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مِنهَاجِ الأَنبِيَاءِ وَسُنَّتِهِم».

وَعَن أَبِي الدَّردَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا حَبَّذَا نَومُ الأَكيَاسِ وَإِفطَارُهُم، كَيفَ يُعِيبُونَ سَهَرَ الحَمقَىٰ وَصَومَهُم، وَلَمِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن بِرٍّ مَع تَقوَىٰ وَيَقِينٍ أَعظَمُ وَأَفضَلُ وَأَرجَحُ مِن عِبَادَةِ المُغتَرِّينَ».

الشَّرْح

❑ **قوله: بابُ فَضْل الإسْلَام.**

■ الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب التوحيد»، وكتاب «أصول الإيمان»، وكتاب «فضل الإسلام»، وكتاب «الكبائر» درج علىٰ ما درج عليه المحدِّثون، في أنه في هذه الكتب، يأتي التراجم ويسوق بعدها الآيات والأحاديث، فهو

يأتي بالترجمة التي تتضمن ما تفيده النصوص التي يسوقها بعدها، وهذه طريقة المحدِّثين؛ كالإمام البخاري وغيره، فهو لا يأتي بكلام من عنده، وإنما يأتي بما دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، لا كما يقوله أعداؤه إنه أتىٰ بمذهب خامس يسمونه المذهب الوهابي؛ تنفيرًا عنه، وعن دعوته.

وقد كان عالِم من علماء الهند، كلما فرغ من درسه رفع يديه، وجعل يدعو علىٰ الشيخ محمد بن عبد الوهاب فسمعه بعض الناصحين، فجاء علىٰ مؤلَّف الشيخ «كتاب التوحيد» ونزع غلافه الذي فيه اسم الشيخ، وقدمه إليه يسأله: مَنْ هو مؤلِّف هذا الكتاب؟ فتأمله ذلك العالِم وجاء من الغد، وقال للرجل الذي قدَّمه إليه: هذا من مؤلَّفات الإمام البخاري، فردَّ الرجل غلافه عليه، وقال له: هذا هو ابن عبد الوهاب الذي تدعو عليه، فندم العالِم، وجعل يدعو للشيخ محمد بعد كل درس.

وهو في هذا الكتاب بيَّن أولًا أصول الإيمان، ثم فضل الإسلام، وذلك لأن الدين يتكون من ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الإسلام.

المرتبة الثانية: الإيمان.

المرتبة الثالثة: الإحسان. كما جاء في حديث أبي هريرة، قال: «كان رسول الله ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث**». قال: ما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتُقيم الصلاة، وتُؤدِّي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**». قال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». إلىٰ آخر الحديث [(١)].

فهذه مراتب الدين؛ المرتبة الأولىٰ: الإسلام، ثم فوقها: الإيمان، ثم فوقها: الإحسان، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُبيِّن الإسلام والإيمان في هذا الكتاب «أصول الإيمان».

والباب الأول من أبواب هذا الكتاب، هو: «باب فضل الإسلام» ثم أتبعه بأبواب

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٧ و ٩ و ١٠).

أخرىٰ، مثل: باب وجوب الإسلام، وباب تفسير الإسلام... إلخ.

❑ **قوله:** وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة:٣].

■ لما كان النبي ﷺ واقفًا في عرفة في حجَّة الوداع، نزلت عليه هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. الآية، وهي من آخر ما نزل علىٰ الرسول ﷺ من القرآن الكريم، أو هي آخر ما نزل؛ لأنه عاش بعدها مدة يسيرة، بعد أن رجع إلىٰ المدينة بعد الحج.

فدلَّ هذا علىٰ أن الرسول ﷺ ما تُوفي حتىٰ أكمل الله به الدِّين، وفي هذا ردٌّ علىٰ المبتدعة الذين يُحدِثون أشياء وينسبونها إلىٰ الدِّين وهي ليست منه، فأيما إنسان يأتي بزيادة في الدين فهي مردودة، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»(١).

وفيه ردٌّ علىٰ الذين ينتقصون الإسلام، ويقولون: إنه لا يصلح لكل زمان ومكان، مثل ما ينادي به الآن الذين يقولون: إن الإسلام لأجيالٍ مَضَتْ، ولفترة مضت، فلا يصلح لآخر الزمان، مع أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. يدل علىٰ أنه صالح لكل زمان ومكان، وإذا قَصُرَت أفهام بعض الناس عن فهم الإسلام، فالعيب ليس في الإسلام، إنما العيب في فهمهم له: وإلا فالدِّين كامل وشامل لمصالح العباد إلىٰ أن تقوم الساعة.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بهذا الدِّين، فهذا الدِّين هو أعظم نعمة أنعم الله بها علىٰ البشرية، لكن مَنْ قَبِلَ هذه النعمة استفاد منها، ومَنْ لم يقبلها فإثمه وضرره عليه؛ لأنه هو الذي رفض هذه النعمة.

ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ الإسلام: هو الدِّين الذي قال الله فيه أوَّل هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾، فالله سبحانه أكملهُ ورضيهُ لنفسه، ورضيه لعباده، ولا يرضىٰ دينًا سواه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

[آل عمران: ١٩]. فسائر الأديان بعد مجيء دين محمد كالنصرانية واليهودية كلها باطلة، لا يرضاها الله ﷻ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥].

ففي هاتين الآيتين ردٌّ علىٰ الذين يقولون من أهل زماننا: إن الأديان الثلاثة؛ اليهودية، والنصرانية، والإسلام كلها حق، وكلها توصل إلىٰ الله، فهذا كذب وافتراء، فليس هناك دين حقٍّ بعد مجيء هذا الدين إلا الإسلام، فبعد بعثة الرسول ﷺ ومجيء الإسلام نُسِخَتْ اليهودية والنصرانية، فسائر الأديان؛ إما محرَّف ومبدَّل، وإما منسوخ ومُنْتهٍ أجله.

فلم يبق دِين يرضاه الله إلا الإسلام، فمَنْ أراد دخول الجنة؛ فليتمسك بهذا الإسلام، ومَنْ أراد دينًا غيره فليس له إلا النار، لأنه رَفَضَ دين الله الذي رضيه الله ﷻ لعباده، فاليهودية غير المحرَّفة التي هي دين موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت في وقتها دينًا صحيحًا مقبولًا، وكذلك النصرانية غير المحرفة؛ لكن بعد مجيء الإسلام نُسخت، ولم يبق إلا الإسلام، والواجب اتباع ما أمر الله به في كل زمان وفي كل مكان، وقد أمر الله باتباع الإسلام: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[آل عمران: ٣١، ٣٢].

❑ **قوله**: وَقَوله تَعالَىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **الآيَةُ** [يونس: ١٠٤].

■ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين، والآية الثانية: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. خطاب للمشركين، ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميع البشر ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. فهذا هو دِين الرسول ﷺ عبادة الله، وتَرْك ما سواه ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ عند نهاية آجالكم، وينقلكم من هذه الدار إلىٰ دار الجزاء، فالله هو المستحقُّ للعبادة؛ لأنه إليه المرجع والمصير، أما هذه الأصنام

فليس لها من الأمر شيء، لا تُحيي ولا تُميت ولا تُجازي أحدًا؛ لأنها مخلوقات لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، فكيف تملك لغيرها؟!

هذا من العجائب واستخفاف العقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الأعراف: ١٩٤] . ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] . فهذا مخاطبة للعقول.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾. فالعبادة حقٌّ لله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالرسول ﷺ مأمور، وهو يمتثل أمر الله ﷻ، ويبلغه للناس.

ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٥-١٠٩] . آيات عظيمة، فيها مفاصلة بين الحق والباطل، ليس فيها لَبْس ولا غموض، الرسول ﷺ يعبد الله، وهؤلاء يعبدون غير الله؛ بل يعبدون مخلوقات، ليس بيدها شيء، ولا تملك شيئًا، فهذه مفاصلة بين التوحيد والشرك، الرسول ﷺ ما جاء بشيء جديد، ولا دعا إلىٰ عبادة نفسه، وإنما دعا إلىٰ عبادة الله ﷻ.

إذن فالإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ هو أن يُعبَد الله وتُترك عبادة ما سواه.

❑ **قوله**: وَقَوله تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

■ الآية الأولىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...﴾. خطابٌ للمؤمنين، والآية الثانية:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ...﴾. خطابٌ للمشركين والوَثَنيين، وهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ خطابٌ لأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾. يعني: محمدًا ﷺ.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أجر الإيمان بالرسل السابقين، وأجر الإيمان بمحمد ﷺ، فالمؤمن من أهل الكتاب يُؤتىٰ أجرَهُ مرتين؛ أجر الإيمان بالكتاب السابق، وأجر الإيمان بالكتاب المتأخر، وهذا فَضْل عظيم، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ نورَ البصيرة ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ تُميِّزون به بين الحقِّ والباطل، والهُدىٰ والضلالِ؛ لأن هذا الدين نورٌ، فالقرآنُ نورٌ، والسُّنةُ نورٌ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. فالذي يمشي علىٰ هَدْي القرآن يمشي علىٰ النور، والذي يمشي علىٰ غير هَدْي القرآن يمشي في ظُلْمةٍ -والعياذُ بالله- وإن زُيِّن وزُخرِف له ما هو عليه، فهو باطلٌ وضلال. والإيمانُ بالرسولِ ﷺ سببٌ لهذا النور الحقيقي الذي يسيرُ عليه الإنسان.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. مزايا عظيمة يُرغِّبُ فيها أهلُ الكتاب في أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، الذي جاء بما جاءَ به إخوانُهُ النبيون، ودعا إلىٰ ما دَعَوا إليه، وهو إخلاصُ العبادةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وتَرْكُ عبادةِ ما سواه، فكان من العجيب أن يعصوه ويخالفوه، مع أنه ما جاءَ بشيءٍ يخالفُ ما عليه أنبياؤهم ورسُلُهم، فدلَّ علىٰ أن الإسلامَ هو الإيمانُ بهذا الرسولِ ﷺ بعد بعثته، وأن مَنْ لم يؤمن بهذا الرسولِ فليس علىٰ الإسلام، وإنما هو علىٰ الكُفر.

ودلَّتْ هذه الآية علىٰ فَضْل مؤمني أهلِ الكتاب الذين مَنَّ الله عليهم فقبلوا الحقَّ، وأنَّ الله سيُعطيهم الأجرَ مرَّتين ويُعطيهم مزايا عظيمةً.

☐ قوله: وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَثَلُكُم وَمَثَلُ أَهلِ الكِتَابَينِ كَمَثَلِ رَجُلٍ استَأجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَن يَعمَلُ لِي مِن غُدوَةٍ إِلَىٰ نِصفِ

النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ».

ثُمَّ قَالَ: «مَن يَعْمَلُ لِي مِن نِصفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ العَصرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ».

ثُمَّ قَالَ: «مَن يَعْمَلُ لِي مِن صَلَاةِ العَصرِ إِلَىٰ أَن تَغِيبَ الشَّمسُ عَلَىٰ قِيرَاطَينِ؟ فَأَنتُم هُم، فَغَضِبَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، وَقَالُوا: مَا لَنَا أَكثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ أَجرًا؟!».

قَالَ: «هَل نَقَصتُكُم مِن حَقِّكُم شَيئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ فَضلِي أُوتِيهِ مَن أَشَاءُ»[1].

■ هذا الحديثُ فيه فضلُ الإسلام، وأنَّ أهلَهُ أعظمُ أجرًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، من أهل الأديان السابقة، وهذا مثلٌ ضربَهُ النبيُّ ﷺ يوضحُ ذلك.

«فذلكَ فَضْلِي أُوتيهِ مَن أشاءُ». لا حَجْرَ علىٰ الله تَعَالَى، فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيم، لكنه لا يظلمُ أحدًا، ولا يبخسُهُ من حقِّهِ شيئًا؛ لأن الله حَكَمٌ عادلٌ، يُجَازي علىٰ العمل الصالح، ويزيدُ، وهذه الزيادةُ فضلٌ من الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فهذا فضلُ الله تَعَالَى، فلا اعتراضَ علىٰ الله في تفضيله هذه الأُمَّة علىٰ غيرها من الأمم؛ لأنه أعلمُ تَعَالَى بمواقع فضله، ومَنْ يستحق الفضلَ، وأعلمُ بخَلْقِهِ تَعَالَى، فالجزاءُ علىٰ العملِ عدلٌ، والزيادةُ علىٰ الجزاءِ فضلٌ.

وهذا الحديث فيه فضلُ الإسلام علىٰ غيره من الأديان.

❑ **قوله**: وَفِيهِ أَيضًا عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَن كَانَ قَبلَنَا؛ فَكَانَ لليَهُودِ يَومُ السَّبتِ، وَللنَّصَارَىٰ يَومُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّه بِنَا فَهَدَانَا لِيَوم الجُمُعَةِ، وَكَذَلِكَ هُم تَبَع لَنَا يَومَ القِيَامَةِ، نَحنُ الآخِرُونَ مِن أَهلِ الدُّنيَا، وَالأَوَّلُونَ يَومَ القِيَامَةِ»[2].

■ وهذا أيضًا فيه فضلُ الإسلام، وأنَّ أهلَهُ أفضلُ الأممِ يومَ القيامةِ، والنبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٨٥٦).

وضَّح ذلك بيوم الجمعةِ، فالله -جلَّ وعلا- جعل للأمم يومًا من الأُسبوعِ يتفرَّغُونَ فيه للعِبادةِ، فاليهودُ اختاروا يومَ السبت، وقالوا: إنه اليوم الذي استراح الله فيه بزعمهم بعدما تعبَ من خَلْقِ السموات والأرض؛ حيث خلقها في ستةِ أيامٍ، بدايتها يومُ الأحد، ونهايتها يومُ الجمعة، قالوا: ويوم السبت تفرَّغ الله فيه واستراح، فاعتبروه يومًا لعبادتهم، وقد كذبوا على الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. أي: من تعب، وفي هذا ردٌّ علىٰ زعمهم الباطل؛ بأنَّ الله استراحَ يوم السبت.

أما النصارىٰ، فاختاروا يومَ الأحدِ، قالوا: لأنَّهُ اليومُ الذي ابتدأ الله -جلَّ وعلا- فيه الخَلْق، فهو اليومُ الأولُ من الأيام الستةِ، فاختاروا لهذا السبب.

وأمَّا هذه الأُمةُ، فالله -جلَّ وعلا- هو الذي اختار لها يومَ الجمعة؛ لأنه أفضلُ الأيام، فيه تكامل الخَلْق، وفيه خُلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه أُخرِجَ مِنَ الجنة، وفيه تقوم الساعة، فهو يوم عظيم، فاختارَهُ الله لهذه الأُمةِ.

فاليهود والنصارىٰ حَسَدوا المسلمين علىٰ هذا، ولم يحسدُوهم علىٰ شيء مثلما حسدُوهم علىٰ يوم الجمعة الذي اختصَّ الله به المسلمين، وأضلَّ عنه اليهود والنصارىٰ.

فهذا فيه فضلُ هذه الأُمةِ، وفيه فضلُ يوم الجمعة، وأنَّ الله تعالىٰ اختارَ لهم يومَ الجمعة لعلمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هذا اليومَ هو أفضلُ الأيام.

❑ **قوله**: وَفِيهِ تَعلِيقٌ عَنِ النَّبِي ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَىٰ اللّهِ: الحَنِيفِيةُ السَّمحَةُ»(١). انتَهَىٰ.

■ قوله: «وفيه» أي: في «صحيح البخاري»، «تعليقًا» المعلَّق: هو الذي يذكره البخاري بدون سند، وهو علىٰ قسمين: معلَّقٌ: مجزومٌ به، أي: علىٰ سبيل الجزم، ومُعلَّقٌ غيرُ مجزوم به. وقد حَصَرَ الإمامُ ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعلَّقات التي في «البخاري»

---

(١) علَّقه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدين يُسْرٌ، قبل الحديث رقم (٣٩).

وذكر أسانيدها في كتاب أسماه: «تغليق التعليق» أي: ذكر الأسانيد التي علَّقها البخاريُّ ولم يذكرها.

«عن النبي ﷺ أنه قال» هذا من التعليق المجزوم به.

«**الحنيفية السَّمحة**»: الحنيفيةُ يعني: ملَّةَ إبراهيم، والسمحة يعني: السهلة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٥].

فالحنيفُ هو: المُقبِلُ علىٰ الله، المُعرضُ عمَّا سواهُ، فإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مُقْبلًا علىٰ الله، مُعرضًا عمَّا سِواهُ من الخَلْقِ.

والحَنِيفيَّةُ: ملَّةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي ملَّةُ محمد ﷺ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. اليهود ادَّعَوا أن إبراهيم يهوديٌّ، مع أن التوراةَ ما أُنزلتْ إلا من بعدِهِ، فقد أُنزلتْ علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبينه وبينَ إبراهيمَ مدةٌ طويلةٌ.

وكذلك النصارىٰ، قالوا: إن إبراهيمَ كان نصرانيًّا، وما جاءت اليهودية والنصرانية إلا من بعده، فالله ﷻ ردَّ عليهم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

فالحَنِيفيَّةُ مِلَّةُ إبراهيم -عليه الصلاةُ والسلام-، وهي أحبُّ الأديان إلىٰ الله، فدلَّ علىٰ أنَّ الإسلامَ هو أحبُّ الأديان إلىٰ الله ﷻ.

☐ **قوله**: وَعَنْ أُبَيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ لَيسَ مِن عَبدٍ عَلَىٰ سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ اللَّه، فَفَاضَتْ عَيناهُ مِن خَشيَةِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، وَلَيسَ مِن عَبدٍ عَلَىٰ سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ الرَّحمَنَ فَاقْشَعَرَّ جِلدُهُ مِن مَخَافَةِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَبِسَ وَرَقُهَا، فَبَينَمَا هِيَ كَذَلِكَ إِذ أَصَابَتهَا الرِّيحُ فَتَحَاتَّ عَنهَا وَرَقُهَا؛ إِلَّا تَحَاتَّت عَنهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحَاتُّ عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقتِصَادًا فِي سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ خَيرٌ مِنَ اجتِهَادٍ

فِي خِلَافِ سَبِيلِ اللّٰه وَسُنَّتِهِ، فَانظُرُوا أَعمَالَكُم، فَإِنْ كَانَتِ اجتِهَادًا أَو اقتِصَادًا أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مِنهَاجِ الأَنبِيَاءِ وَسُنَّتِهِم»(١).

■ هذا الأثرُ، عن أُبي بن كعب في فضل الإسلام.

يقول: إنَّ الإنسانَ إذا كان علىٰ سبيلٍ صحيح وعلىٰ سُنَّةٍ ثابتة عن النبي ﷺ، فهذا إذا بكىٰ من خشية الله فإنها لا تمسُّهُ النارُ؛ لأنه خشي الله ﷻ، وهو علىٰ سبيل وسُنَّةٍ، أي: علىٰ طريقٍ صحيح.

أما لو خشي الله، وهو علىٰ غير سُنَّةٍ، أي: علىٰ بدعةٍ، فهذا لا ينفعُهُ بكاؤُه ولا خشوعُه ولا خشيتُه، وكثيرٌ من النصارىٰ يبكونَ، ويخشعونَ لكنهم علىٰ غيرِ هُدًىٰ؛ بل علىٰ ضلالٍ، وكثيرٌ من القُبوريِّين والمُبتدعةِ يبكونَ بكاءً شديدًا، ولكن لا يُؤجَرون علىٰ هذا البُكاءِ، ولا يَنفعُهم عند الله؛ لأنَّهم ليسوا علىٰ سُنة، فليستِ العِبْرةُ أن يبكي الإنسانُ ويخشَعَ، وإنما العِبرةُ بما هو عليه.

ثم قال أُبي بن كعب في آخر الكلمة: «إن اقتصادًا في سُنةٍ؛ خيرٌ من اجتهادٍ في خلاف سبيل الله وسُنَّتِه». هذا كلام عظيم، فالعملُ اليسيرُ وهو علىٰ سُنَّةٍ فيه خيرٌ كثيرة، أما الاجتهادُ الكثير، وهو علىٰ بدعة، فهذا لا ينفع صاحبَهُ، ولو اجتهد الليلَ والنهارَ؛ لأنه علىٰ غير طريق السنة، فليستِ العِبرَةُ بكثرة العمل، ولا بكثرةِ البُكاءِ وإنما العِبْرةُ في الطريق الذي عليه الإنسان، العبرةُ باتباع الكتاب والسُّنَّةِ ولو كان العملُ قليلًا، فهذا يكون علىٰ خيرٍ كثيرة وعلىٰ سبيلِ النجاةِ، وبكاؤُهُ وخشوعُهُ وخشيتُه تكون نجاةً له من النار.

❑ **قوله**: وَعَن أَبِي الدَّردَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: «يَا حَبَّذَا نَومُ الأَكيَاسِ وَإِفطَارُهُم، كَيفَ يُعِيبُونَ سَهَرَ الحَمقَىٰ وَصَومَهُم، وَلَمِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن بِرٍّ مَع تَقوَىٰ وَيَقِينٍ أَعظَمُ وَأَفضَلُ وَأَرجَحُ مِن عِبَادَةِ المُغتَرِّينَ»(٢).

■ أثرُ أبي الدَّرداءِ يُشبه أثر أُبي بن كعب في معناه تمامًا، أن صاحبَ العقيدةِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حليلة الأولياء» (١/ ٢١١).

الصحيحةِ، وإن كان نائمًا، فهو خيرٌ من صاحب العقيدةِ الفاسدةِ وإن كان قائمًا يصلِّي النافلة، وصاحبَ السُّنَّةِ في نومِهِ وفي إفطارِهِ هو علىٰ خير، وصاحبَ البدعةِ وفي سَهَرِهِ وفي صومِهِ هو علىٰ شرٍّ؛ لأنه يَسيرُ علىٰ غير هُدًىٰ.

بَابُ الدخُولِ فِي الإسلام

وَقَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «السُّبُلُ: البِدَع وَالشّبُهَاتُ».

وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**مَن أَحدَثَ في أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهو رَدٌّ**». أَخرَجَاهُ.

وَفِي لَفظٍ: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدّ**».

وَللبُخَارِيِّ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَىٰ**». قِيلَ: وَمَن يَأبَىٰ؟! قَالَ: «**مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَد أَبَىٰ**».

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**أَبغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللّهِ ثَلاثَةٌ: مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبتَغٍ فِي الإِسلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيةِ، وَمُطَّلِب دَمَ امرِئٍ بِغَيرِ حَقٍّ لِيُهرِيق دَمَهُ**». رواه البُخَارِيُّ.

قَالَ ابنُ تَيمِيةَ: قَولُهُ: «سُنَّةَ الجَاهِلِيةِ» يَندَرِجُ فِيهَا كُلُّ جَاهِلِيةٍ مُطلَقَةٍ أَو مُقَيَّدَة، أَي: فِي شَخصٍ دُونَ شَخصٍ، كتَابِيةٍ، أَو وَثَنِيةٍ، أَو غَيرِهِمَا مِن كُلِّ مُخَالِفٍ لِمَا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا مَعشَرَ القُرَّاءِ، استَقِيمُوا، فَقَد سَبَقتُم سَبقًا بَعِيدًا، فَإِن أَخَذتُم يَمِينًا وَشِمالًا لَقَد ضَلَلتُم ضَلالًا بَعِيدًا».

وَعَن مُحَمَّدِ بنِ وَضَّاحٍ: أَنَّهُ كَانَ يَدخُلُ المَسجِدَ فَيَقِفُ عَلَىٰ الحِلَقِ فَيَقُولُ...

فَذَكَرَهُ، وَقَالَ: أَنبَأَنَا سُفيَانُ بنُ عُيينَةَ، عَن مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعبِيِّ، عَن مَسرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبدُ اللّه -يَعني: ابنَ مَسعُودٍ-: «لَيسَ عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعدَهُ أَشَرُّ مِنهُ، لا أَقُولُ: عَامٌ أَمطَرُ مِن عَامٍ، وَلا عَامٌ أَخصَبُ مِن عَامٍ، وَلا أَمِيرٌ خيرٌ مِن أَمِيرٍ، لَكِن ذَهَابُ علَمَائِكُم وَخِيَارِكُم، ثُمَّ يَحدُثُ أَقوَامٌ يَقِيسُونَ الأُمُورَ بِآرَائِهِم فَيُهدَمُ الإِسلَامُ وَيَنْثَلِمُ».

الشَّـرح

❑ **قوله**: بَابُ الدخُولِ فِي الإسلام.

وَقَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

■ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «باب: الدخولُ في الإسلام»، لما ذكَرَ فضلَ الإسلام ذَكَرَ الترغيبَ في الدُّخولِ فيه، فالإسلامُ الذي هذه مزاياهُ وهذه فضائلُهُ لا يليقُ بعاقلٍ أن يرفضَهُ، وألَّا يدخلَ فيه إذا كان يريدُ النجاةَ لنفسه.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾. فالذين يقولون: إنهم علىٰ دينٍ وإنهم يعرفونَ الله، ويعبدون الله، من اليهود والنصارىٰ، ويأبَونَ الدخولَ في الإسلام، ليسوا علىٰ دين؛ لأنهم علىٰ دينٍ منسوخٍ انتهىٰ العملُ به، فلا يفيدُهم شيئًا، لا يفيدُهم إلا الدخولُ في الإسلام، فقد قال ﷺ: «**والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأُمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسلتُ به إلا كانَ مِنْ أصحابِ النار**»[(١)].

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**كُلُّ أُمتي يدخلون الجنَّةَ إلا مَنْ أبَىٰ**». قالوا: ومَنْ يأبىٰ يا رسول الله؟ قال: «**مَنْ أطاعني دخل الجنةَ، ومَنْ عصاني فقد أبَىٰ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾. أما غيرُه فليس دِينًا عند الله؛ لأنه بعد مجيء الإسلام لم يبق دينٌ يقبلُهُ الله ﷻ من عبادِهِ؛ لأن الإنسان عبدٌ، والعبدُ يطيعُ ربه عَزَّوَجَلَّ فيما أَمَرَهُ به، والله أمرَكَ أن تدخل في الإسلام، فيجبُ عليك الدخولُ في الإسلام طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الواجبَ اتباعُ الأمر لا اتباع الهوىٰ، فهذا عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قَبَّل الحجرَ الأسود قال: «والله، إني لأعلمُ أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ رسولَ الله يقبلُكَ ما قبلتُكَ»(١).

فتقبيل الحجر ليس عبادةً للحجر، وإنما هو عبادةٌ لله تعالىٰ، والطوافُ بالكعبة ليس عبادةً للكعبة، وإنما هو امتثالُ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وعبادة له، فالشأنُ يدورُ مع أمرِ الله وشرعِهِ، ولا اعتراضَ علىٰ ذلك، فقد اعترضَ إبليسُ علىٰ أمر الله، فكان مصيرُه الطردُ والإبعادُ واللعنة والغضبُ -والعياذُ بالله.

❑ قوله: وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «السُّبُلَ: البِدَع وَالشُّبُهَاتُ».

■ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾. الصراطُ: هو الطريق، والمراد به هنا: الإسلام، فهو صراطُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو مستقيمٌ ليس فيه اعوجاجٌ ولا انحراف، وإنما معتدلٌ، لا إفراطَ ولا تفريط.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. لا تتبعوا دِينًا غيرَ هذا الدِّين، ولا تتبعوا سُنَّةً غيرَ سنةِ الرسولِ ﷺ، فإن هذا صراطي، وهو سبيلي.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. تأمَّلْ، سبيلُ الله واحدة، وصراطٌ واحد، وأما غيرُ سبيلِ الله فهي سُبُلٌ كثيرةٌ، حبُّ الأهواء، وحبُّ الشهواتِ، كلٌّ له طريق، كلٌّ له سبيل، كلٌّ له مذهب، والنهايةُ الخسارة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. أما مَنْ سارَ علىٰ هذا الطريق الواحد، فإنه ينجو عند الله ﷻ، فهذا فيه الأمر بسلوك سبيل

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الله، وتَرْكِ ما سواهُ من النِّحَلِ والبدَعِ والمذاهبِ والفِرَقِ، فكلُّها تؤدي إلىٰ الهلاكِ.

قال مجاهد: «السُّبُل: البِدَع والشُّبهات». البدع والشبهات هي من السُّبُل التي تتفرقُ بأصحابها، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. وهذا من تمام العقوبة، أن الإنسان يفرحُ بالباطلِ، فإذا فرحَ بالباطل فلن يتركه.

أما الذي يسيرُ علىٰ باطل ولم يفرح به، فهذا ربَّما يبحثُ عن الحق ويهتدي إليه؛ لكن إذا سارَ مُقتنعًا، وفرح بالباطل فهذا لا يهتدي أبدًا.

❏ **قوله**: وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهو رَدٌّ»[(١)]. أَخرَجَاهُ.

وَفِي لَفظٍ: «مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدّ».

■ **«مَنْ أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليسَ منه فهو رَدٌّ»**. يعني: مردودًا عليه، لا يُقبَلُ عندَ الله، وقوله: «مَنْ أحدثَ في أمرنا». أي: أضافَ إلىٰ الدين إضافةً جديدةً لم يأتِ بها الرسولُ ﷺ، وقال: إن هذا خيرٌ، نقول له: بل هذا باطلٌ؛ لأن الدِّين كامل، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلا تُقبلُ في الإسلام الإضافاتُ والزياداتُ والاستحسانات؛ لأن الدِّين توقيفي، إذَنْ: البدعُ كلُّها ليست من الإسلام، وإن كان أصحابُها يتقربون بها إلىٰ الله، ويظنُّون أنَّ فيها أجرًا، لكنها ليس فيها أجرٌ ولا تُقرِّبُ من الله، بل تُبعدُ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

❏ **قوله**: وَللبُخَارِيِّ[(٢)] عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَىٰ». قِيلَ: وَمَن يَأبَىٰ يَا رَسُول الله؟! قَالَ: «مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَد أَبَىٰ».

■ وهذا، فيه الحثُّ علىٰ الدخولِ في الإسلام، فالذي يريدُ الجنةَ يدخل في

---

(١) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، واللفظ الأخير هو لفظ البخاري.

(٢) برقم (٧٢٨٠).

الإسلام، والذي لا يريدُ الجنةَ لا يدخل في الإسلام، بأن يتبع المذاهبَ الأخرىٰ والأديان الأخرىٰ، ومآلُهُ إلىٰ النار، فليس للجنةِ طريقٌ إلا الإسلام الذي جاء به هذا الرسول ﷺ.

ومعلوم أن الذي يتمسكُ بالإسلام يلقىٰ أذىٰ ومشقة من الناس؛ لكن عليه أن يصبر، وخصوصًا في آخر الزمان إذا كَثُرَت الفتن، فالمتمسكُ بالدِّين يكون كالقابضِ علىٰ الجمر، لشدة ما يلقىٰ في سبيل ذلك من المشقة والأذىٰ.

أما البِدع فليس فيها تعب؛ لأنها توافق الأهواء والشهوات؛ ولأن الناس لا يعترضون عليها، وصاحبها ولو تعِبَ فإنه يتلذَّذُ؛ لأن الشيطانَ يزيِّنُ له هذا الشيء؛ لكن مآلها إلىٰ النار.

❑ **قوله**: وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَبغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللَّهِ ثَلاثَةٌ: مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبتَغٍ فِي الإِسلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِب دَمَ امرِئٍ بِغَيرِ حَقٍّ لِيُهرِيق دَمَهُ». رواه البُخَارِيُّ[1].

قَالَ ابنُ تَيمِيَةَ: قَولُهُ: «سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ» يَندَرِجُ فِيهَا كُلُّ جَاهِلِيَّةٍ مُطلَقَةٍ أَو مُقَيَّدَة، أَي: فِي شَخصٍ دُونَ شَخصٍ، كتَابِيَةٍ، أَو وَثَنِيَةٍ، أَو غَيرِهِمَا مِن كُلِّ مُخَالِفٍ لِمَا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ.

■ قوله: «**أبغض الناسِ**». فيه إثبات البُغْض لله تعالىٰ، فهو -جلَّ وعلا- يُبغِضُ أهلَ الشَّرِّ، وأهلَ الكفر، ويحبُّ أهلَ الخير، وأهلَ الإيمان.

«**مُلحدٌ في الحرم**» **الإلحادُ**، هو: المَيلُ، والمرادُ به: الميلُ عن طاعة الله إلىٰ معصيته. والإلحاد محرمٌ في كلِّ وقت، وفي كل مكان؛ ولكن الإلحادَ في الحَرَم أشدُّ، فهو حَرَمُ الله عَزَّوَجَلَّ، الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن يُحترَم، وأن يؤمَّنَ الناسُ فيه، ولا يُعتدَىٰ علىٰ أحد، حتىٰ الطيور والصَّيد لا تُنفَّر، وحتىٰ الخلا الذي هو العُشبُ لا يُقطعُ، وكذلك الشجر لا يُقطَعُ في الحرم، فكيف بدماءِ الآدميين والاعتداء عليهم؟!

---

(١) برقم (٦٨٨٢).

وأشدُّ من ذلك الشِّركُ في الحرم، ودعاءُ غيرِ الله عَزَّوَجَلَّ، والبدعُ والمحدَثاتُ في الحرم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].
فمجرَّدُ الإرادة لو نوىٰ في قلبه أنه يريدُ أن يُنفِّذَ شيئًا في الحرم، فإنَّ الله يُذيقُهُ العذابَ الأليم، حتىٰ ولو ما نَفَّذَ، فكيف إذا نفَّذَ؟! فالأمرُ أشدُّ، والعياذ بالله؛ لأن الحرامَ أمرُهُ عظيم.

والمرادُ بالحرم: ما كان داخلَ الأميال المحيطة بمكةَ من جميعِ الجوانب، وهو الذي لا يُنَفَّرُ صيدُه، ولا يُختلىٰ خلاؤه، ولا تُلتَقَطُ لُقَطَتُهُ إلا لمُنْشِدٍ، ولا يُعتَدَىٰ فيه علىٰ أحد، لا في عِرْضِهِ ولا في دَمِهِ، ولا في مالِهِ؛ لأن مَنْ دخَلَهُ كان آمنًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

كان الناس في الجاهلية -وهم أهلُ شرٍّ وأهلُ قتالٍ وغاراتٍ ونهبٍ وسلبٍ- إذا دخلوا الحرمَ آمِنُوا، حتىٰ إن أحدهم كان يلقىٰ قاتلَ أبيه فلا يُهيِّجُهُ حتىٰ يخرج من الحرم. هذا وهم أهل جاهلية، فكيف بأهل الإسلام؟! فمن اعتدىٰ في الحرم، فإن الله -جلَّ وعلا- توعَّدَه بالعذاب الأليم.

«ومبتغٍ في الإسلام سُنَّة الجاهلية». وهذا هو محلُّ الشاهد، فالذي يأتي بعادات الجاهلية، ويجعلها من الإسلام، هذا يبغضه الله أشدَّ البغض.

والمراد بالجاهلية: ما قبل الإسلام، وهو زمن الفترة من الرسل. سُمِّي بالجاهلية؛ لأنه ليس فيه كتاب ولا رسول.

«ومطَّلِبُ دم امرئ مسلم بغير حقٍّ ليهريق دمه». هذه هي الجريمةُ الثالثةُ التي يُبغضُ الله أصحابَها، وهي جريمة الاعتداء علىٰ الأبرياء، الذين يعتدون علىٰ الأبرياء ليقتلوهم، سواء كان هؤلاء الأبرياء مسلمين، أو معاهدين من الذين عصَم الله دماءَهم، فمَنْ أراد أن يقتلَ معصومَ الدم الذي أمَّنَهُ الإسلام وأعطاه الأمان واعتدىٰ عليه، فإن الله يُبغضُه أشدَّ البغض، وعقوبته عند الله أشد؛ لأن الله حرَّم قتل الأنفس بغير حقٍّ، قال

تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قتَلَ مُعاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة**»[١]. فالدمُ المعصوم لا يجوزُ الاعتداءُ عليه، وهذا من أكبر الجرائم.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٦٨-٧٠].

قوله: «قال ابن تيمية...»: يعني: شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر سُنَّةَ الجاهلية، فبيَّن أنَّ هذا عامٌّ في الجاهليةِ العامةِ والجاهلية الفردية؛ لأنَّ الجاهليةَ العامةَ والجاهليةَ الفردية؛ لأن الجاهليةَ قد تكون في مجتمعٍ وقبيلةٍ، وقد تكونُ في فردٍ من الأفراد، فلما عيَّر رجلٌ من الصحابةِ رجلًا آخر بسوادِهِ، وأنه ابنُ سوداء أو ابن مملوكةٍ، فقال له يا بنَ السوداء، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «**عيَّرتَهُ بأُمِّهِ؟! إنَّكَ امرؤٌ فيك جاهليةٌ**»[٢].

مع أنَّ هذا الرجل الذي قال ذلك، هو أبو ذر من أفاضل الصحابة؛ لكن لما قال هذه الكلمة عدَّها النبيُّ ﷺ من أُمور الجاهلية؛ لأنَّ المسلمين إخوة: «**لا فضلَ لعربيٍّ علىٰ أعجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأحمرَ علىٰ أسودَ ولا لأسودَ علىٰ أحمرَ إلَّا بالتقوىٰ**»[٣].

«قوله: سُنة الجاهلية: يندرجُ فيها كلُّ جاهليَّةٍ مطلَقَةٍ أو مُقيَّدة» مطلقة: يعني عامة في قبيلة، أو في بلد، أو مقيدة بشخص.

«كتابية، أو وثنية، أو غيرهما»: هذا تفسيرٌ للجاهلية، أنها كلُّ ما عليه الكفارُ قبل

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٢).

البعثة، سواءٌ كانوا من اليهود، أو من النصارىٰ، أو من المجوس، أو من الوثنِّيين.

❑ **قوله**: وَفِي الصَّحِيحِ عَن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا مَعشَرَ القُرَّاءِ، استَقِيمُوا، فَقَد سَبَقتُم سَبقًا بَعِيدًا، فَإِن أَخَذتُم يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَد ضَلَلتُم ضَلالًا بَعِيدًا»(١).

■ هذا الأثرُ، عن حذيفةَ بن اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان يدخل المسجد، ويقفُ علىٰ حِلَقِ التدريس، أي: علىٰ الذين يتعلمون القرآن في المسجد، فيقول لهم: «إن استقمتُم سَبَقْتُم سَبْقًا بعيدًا». أي: إن استقمتُم علىٰ القرآن الذي تدرسونه بالعمل له؛ لأنَّ المقصودَ هو التمسكُ بالقرآن والعملُ به، أما الذي يقرأُ القرآنَ ولكنَّهُ يتخلَّقُ به، فهذا قد انحرفَ عن القرآن، فالقرآنُ هو الصراطُ المستقيمُ الذي مَنْ تمسَّكَ به نجا، ومَنْ حادَ عنهُ هلَكَ وضَلَّ.

وهذا الأثرُ فيه التذكيرُ من حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقراء أنهم لا يقصرون في قراءة القرآن علىٰ جَودةِ التلاوةِ وحُسْنِ الصوت دون نظَرٍ إلىٰ تدبره والعمل به، والتخلُّقِ بأخلاقِهِ، فمَنْ فعل ذلك لا يُعتبر من أهل القرآن.

أما الذي يتخلقُ بالقرآن ويتأدَّبُ بآدابه من أهل القرآن، ولو كان عاميًّا لا يقرأ القرآن.

❑ **قوله**: وَعَن مُحَمَّدِ بنِ وَضَّاح: أَنَّهُ كَانَ يَدخُلُ المَسجِدَ فَيَقِفُ عَلَىٰ الحِلَقِ فَيَقُولُ... فَذَكَرَهُ، وَقَالَ: أَنبَأَنَا سُفيَانُ بنُ عُيَينَةَ، عَن مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعبِيِّ، عَن مَسرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبدُ اللّه -يَعني: ابنَ مَسعُودٍ-: «لَيسَ عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعدَهُ أَشَرُّ مِنهُ، لا أَقُولُ: عَامٌ أَمطَرُ مِن عَامٍ، وَلا عَامٌ أَخصَبُ مِن عَامٍ، وَلا أَمِيرٌ خيرٌ مِن أَمِيرٍ، لَكِن ذَهَابُ عُلَمَائِكُم وَخِيَارِكُم، ثُمَّ يَحدُثُ أَقوَامٌ يَقِيسُونَ الأُمُورَ بِآرَائِهِم فَيُهدَمُ الإِسلَامُ وَيَنْثَلِمُ»(٢).

■ «محمدُ بن وضَّاحَ» من العلماء الذين صنَّفُوا في بيان البدع، فله كتاب مطبوع، اسمه: «البدع والنهي عنها».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢١٠)، وعزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٨٣) للبيهقي.

وهذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من رواية محمد بن وضَّاح، أنه أخبرَ أن الناسَ لا يزالونَ في نقصٍ، كلُّ عامٍ يكون أنقصَ من الذي قبله، وهذا كما جاء في حديث أنس لما جاءوا يشكون إليه الحجاجَ، وما يلقون من الظلم، قال: «**اصبروا، فإنه لا يأتي عامٌ إلا والذي بعدَهُ شرٌّ منه سمعتُه من نبيكم** ﷺ»[١]. فكلما تأخَّر الوقت زاد الشَّرُّ، وهذا يقتضي أن يكون الإنسان علىٰ حذر من الفتن والشرور.

ثم أخبرَ في آخر الأثر أنه إذا مات العلماءُ والأخيار، يأتي من بعدهم أناسٌ جُهّالٌ يحكِّمون عقولَهم ومقاييسَهم؛ لأنه ليس عندهم علمٌ، وهذا يضلِّلُ الأُمة ويسببُ هلاكَها؛ لأن هؤلاء الجُهَّال لا يُحسنون الرجوع إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، إذ هما الأساسُ في التشريع.

وكما جاءَ في الحديث: «**إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُهُ من العباد؛ ولكن العلمَ بقَبْضِ العلماء، حتىٰ إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ الناسُ رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغيرِ علم فضلُّوا وأضلُّوا**»[٢].

فوجود العلماء علامةُ خير، وفقدانُهم علامةُ شَرٍّ، ووجودُ أُناسٍ في هذا الزمان يزهِّدون بالعلماء، ويُحقِّرونهم، ويتكلمون في أعراضهم، هذا من علامات الساعة، ومن علامات النقص من الإسلام.

❁❁❁

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بَابُ تفسير الإسلام

وَقولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فقل أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾[آل عمران:٢٠] الآيَة.

وَفي الصَّحِيح عَن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ قَالَ: «**الإِسلَامُ: أَنْ تَشهَدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللّهِ، وَتُقِيمَ الصلاَةَ، وَتؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِن استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلًا**».

وَفِيهِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعًا: «**المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

وَعَن بَهزِ بنِ حَكِيم، عَن أَبِيهِ، عَن جَدِّهِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللّه ﷺ عَنِ الإِسلَامِ، فَقَالَ: «**أَن يُسلِمَ قَلبُكَ للّهِ، وَأَن تُولِّيَ وَجهَكَ إِلَىٰ اللّهِ، وَأَن تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ المَكتُوبَةَ، وَتُؤدِّيَ الزَّكَاةَ المَفرُوضَةَ**». رواه أحمَدُ.

وَعَن أَبِي قِلَابَةَ، عَن عَمرِو بنِ عَبَسَةَ، عَن رَجُل مِن أَهلِ الشَّامِ، عَن أَبِيهِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللّه ﷺ: مَا الإِسلَامُ؟ قَالَ: «**أَن تُسلِمَ قَلبَكَ للّه** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وَيَسلَمَ المُسلِمُونَ مِن لِسَانِكَ وَيَدِكَ**». قَالَ: أَيُّ الإِسلَامِ أَفضَلُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ**».

قَالَ: وَمَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**أَن تَؤمِنَ بِاللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكتبِهِ وَرُسُلِهِ وَالبَعثِ بَعدَ المَوتِ**».

الشَّرح

❑ **قوله**: بَابُ تَفسِيرِ الإِسلَام.

وَقَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران:٢٠] الآيَة.

■ «باب تفسير الإسلام» بعدما أوردَ الأبوابَ السابقة في الحثِّ علىٰ الإسلام، والدخولِ فيه، والتمسُّكِ به، أراد أن يبيِّن ما هو الإسلام؛ لأن كونك تمدح الشيءَ، ولا تُبينُه لا يحصل المقصودُ، فلابدَّ أن يُبيِّن ما هو الإسلام؛ لكي لا يدَّعي أحدٌ أنَّ ما هو عليه هو الإسلام، وهو مخالف للإسلام.

فكلُّ الفِرَق تدعي كلٌّ واحدة منها أنها على الإسلام، وأن غيرها ليس هو على الإسلام، ولو تركنا الأمر لهؤلاء؛ لهلكت الأُمة، لكن من فَضْلِ الله سبحانه أن جعل الإسلام واضحًا بيِّنًا، فليس الإسلام بالدعوى، والانتماءِ والانتساب؛ ولكن المسلم مَنْ تمسَّك بالإسلام الحقيقي، فلابدَّ أن تعرفَ الإسلام مما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنة نبيه ﷺ، لا من غيرهما.

«وقول الله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾. الآية». أي: النصارىٰ، وهذا فيه بيانٌ لمعنىٰ الإسلام، أنه إسلام الوَجْهِ لله، إخلاصُ النِّيةِ له سبحانه، والبراءةُ من الشرك.

أما مَنْ كان عنده شيءٌ من الشرك، كدعوةِ الأمواتِ والقبورِ، ويقول: أنا مسلم! فهذا ليس بمسلم؛ لأنه ما أسلم وجهه لله؛ بل أسلم وجهَهُ لغير الله، يدعو غيرَ الله، يذبحُ لغير الله، ينذرُ لغير الله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[البقرة: ١١٢]. فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: هذا التوحيد، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. أي: متبعٌ للرسول ﷺ؛ لأن متابعة الرسول ﷺ بها يتحقق الإسلام، فالإسلام، هو: الإخلاصُ لله، والمتابعةُ للرسول ﷺ.

❑ **قوله: وَفِي الصَّحِيح عَن عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللّه** ﷺ **قَالَ: «الإِسْلَامُ: أَنْ تَشهَدَ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللّهِ، وَتُقِيمَ الصلَاةَ، وَتؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البيتَ إِن استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلًا»**(١).

■ ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديثَ، عن رسول الله ﷺ؛ لأنه يُفسِّر فيه الإسلام بأنه الإتيان بهذه الأركان الخمسة.

«الإسلامُ: أن تشهدَ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله». وليس معنىٰ ذلك التلفظ فقط، لا؛ بل باللفظ، وبالنيَّةِ، وبالعمل، فلابد من التلفظ بالشهادة، ومن العلمِ بمعناها والعمل بمقتضاها، حتىٰ تكون شهادة صحيحة، فشهادة أن لا إله إلا الله،

(١) أخرجه مسلم (٨) ضمن حديث جبريل في الإسلام، والإيمان، والإحسان.

تعني: الإخلاصُ لله، وتركُ الشرك، وشهادةُ أنَّ محمدًا رسول الله، تعني: المتابعة للرسول ﷺ، وتركَ البدع والمحدثات، فالرسولُ ﷺ هو القدوةُ، فلا يُتبعُ غيرُه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أما المنافقون فهم يشهدون أن محمدًا رسولُ الله بألسنتهم؛ لكن يكفرون به في قلوبهم وأفعالهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١، ٢]. أيمانهم يعني: الشهادة، فسماها يمينًا، ﴿جُنَّةً﴾. أي: سُترة يتستَّرون بها، وهم لا يؤمنون بأنه رسولُ الله في قلوبهم، وإن كانوا يتلفَّظون بذلك في ألسنتهم، فدلَّ علىٰ أن المطلوب ليس هو اللفظ فقط؛ بل اللفظ والاعتقاد والعمل.

«**وتقيم الصلاة**». الصلاةُ هي: الركنُ الثاني من أركان الإسلام، فالذي يشهدُ أن لا إله الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله؛ لكن لا يُقيمُ الصلاةَ؛ بل هو تاركٌ لها متعمِّدًا، فهذا ليس بمسلم.

«**وتؤتي الزكاة**». كذلك لابدَّ مع الصلاةِ من أداءِ الزَّكاةِ؛ لأن الزكاةَ قرينةُ الصلاة، فمن فرَّق بين الصلاةِ والزكاة، أي: أنه يصلي؛ لكنه لا يؤدِّي الزكاة، هذا ليس بمسلم، فقد قاتَلَ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مانعي الزكاة، وقال: «والله لأُقاتلنَّ مَن فَرَّق بين الصلاةِ والزَّكاة»[(١)].

«**وتصوم رمضان**». هذا هو الركن الرابع، وهو صيام شهر رمضان، فالذي يترك الصيام، ويقول: إنه ليس بلازم، فهذا ليس بمسلم.

«**وتحج البيت إن استطعتَ إليه سبيلًا**». فمَنْ كان عنده استطاعة للحج ولم يحجَّ، ويقول: إنه ليس بلازم، فهذا يكفر، ولهذا قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. أما إذا اعترفَ بوجوب الحجِّ، ولكنه لم يحجَّ تكاسلًا، فهذا يُلزِمُهُ وليُّ الأمر بالحج.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة.

❑ **قوله:** وَفِيهِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ مَرفُوعًا: «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١).

■ أي: ليس الإسلامُ مقصورًا علىٰ هذه الأركان، بل هذه الأركان هي الأساسات، فالإسلامُ هو كلُّ الطاعات التي أمَرَ الله بها، أو أمَرَ بها رسولُه ﷺ، وهذه الأوامرُ منها ما هو واجبٌ، ومنها ما هو مستحبٌّ.

فكلّها من الإسلام، منها ما يزول الإسلامُ بتركه، ومنها ما لا يزول الإسلام بتركه، وإنما ينقص، يعني: منها ما يُكمِّلُ الإسلامُ الكمالَ الواجب، ومنها ما يكمِّلُ الإسلام الكمالَ المستحبَّ.

فالواجبات من الطاعات، تكمِّلُ الإسلام الواجب، والمستحبَّات تكمِّل الإسلام الكمال المستحب، ولهذا قال: «**المسلمُ مَنْ سَلِم المسلمونَ من لسانه ويده**». فالذي يكفُّ أذاهُ عن الناس فهو مسلم كامل الإسلام، أما الذي يؤذي الناس بلسانه أو بيده، لا نقولُ إنه كافر، ولكنه مسلمٌ ناقص الإسلام.

❑ **قوله:** وَعَن بَهزِ بنِ حَكِيم، عَن أَبِيهِ، عَن جَدِّهِ: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللّه ﷺ عَنِ الإِسلَامِ فَقَالَ: «أَن يُسلِمَ قَلبُكَ للّهِ، وَأَن تُولِّيَ وَجهَكَ إِلَي اللّهِ، وَأَن تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ المَكتُوبَةَ، وَتُؤدِّيَ الزَّكَاةَ المَفرُوضَةَ»(٢).

■ هذا معقولٌ من قوله ﷺ: «**الإسلامُ: أن تشهدَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وتُقيم الصلاة**». فذكر هنا أهمَّ أركان الإسلام، وهي الشهادتان وإقامُ الصلاة.

وكما جاء في معاذِ بن جبل لما بعثه النبيُّ ﷺ إلىٰ اليمن، قالَ له: «**فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فإنْ هم أجابوكَ لذلك**

---

(١) حديث أبي هريرة ليس في الصحيح، وإنما أخرجه أحمد (٨٩٣١)، والترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٨/ ١٠٥، ١٠٤) بإسناد قوي، أما حديث الصحيح، فهو عن عبد الله بن عمرو بن العاص عند البخاري (١٠)، ومسلم (٤١)، وعن جابر بن عبد الله عند مسلم (٤٠).

(٢) في «مسنده» برقم (٢٠٠٢٢).

فأعلِمُهم أنَّ الله افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أجابوكَ لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم وتردُّ في فقرائهم»(١). فذكر أهم أركان الإسلام الخمسة، وهي هذه الثلاثة.

❏ **قوله**: وَعَن أَبِي قِلَابةَ، عَن عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ، عَن رَجُلٍ مِن أَهلِ الشَّام، عَن أَبِيهِ: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللّه ﷺ: مَا الإِسلَامُ؟ قَالَ: «أَن تُسلِمَ قَلبَكَ للّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وَيَسلَمَ** المُسلِمُونَ مِن لِسَانِكَ وَيَدِكَ». قَالَ: أَيُّ الإِسلَامِ أَفضَلُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ».

قَالَ: وَمَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَن تَؤمنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكتبِهِ وَرُسُلِهِ وَالبَعثِ بَعدَ المَوتِ»(٢).

■ قوله: «**أن تُسلمَ قلبَك لله**». هذا كما في الآية: ﴿**فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ**﴾ [آل عمران: ٢٠]. وكما في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. وهذا فيه إخلاصُ العبادة لله، وتركُ عبادةِ ما سِواهُ، وهذا هو أساس الإسلام.

«**ويسلمُ المسلمونَ من لسانِك ويدكَ**». كما مرَّ في الحديث: «**المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويده**».

«قال: أيُّ الإسلام أفضلُ؟ قال: **الإيمانُ**». لأن الرسولَ ﷺ في حديث جبريل جعل الإيمانَ فوقَ الإسلام، وأخصَّ.

«قال: وما الإيمانُ؟ قال: أن تؤمن بالله...». الحديث، وهذه -كما في حديث جبريل المتقدم- تسمىٰ أركانَ الإيمان، فكما أن الإسلام له أركان، فكذلك الإيمان له أركان، والإيمانُ أوسعُ من الإسلام، والإيمان له مكمِّلاتٌ واجبةٌ ومستحبَّةٌ، ولهذا قال ﷺ: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضْعٌ وستون شعبةٌ، أعلاها: قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث عبد الله بن عباس.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٠٢٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠١٠٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) بتمامه، من حديث أبي هريرة.

فالطاعاتُ كلها من الإيمان، القوليةُ والفعلية، وليس هو التصديق بالقلب فقط - كما يقوله المرجئة-، بل الإيمانُ: نطقٌ باللسانِ، وتصديقٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ.

بَابُ: قول الله تعَالَى:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**تَجِيءُ الأَعمَالُ يومَ القِيَامَةِ: فَتَجِيءُ الصَّلاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلاةُ، فَيَقُولُ: إِنَكِ عَلَىٰ خيرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خيرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خيرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الأَعمَالُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خيرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الإِسلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنتَ السَّلامُ، وَأَنَا الإِسلَامُ، فَيَقُول: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيرٍ، بِكَ اليَوم آخُذُ وَبِكَ أُعطِي، قَالَ اللّه تَعَالَىٰ فِي كتَابِهِ:** ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]».

وَفِي الصَّحِيحِ عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلِيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

الشَّـرح

❑ **قوله**: بَابُ قولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

■ هذا البابُ فيه بيانُ أن الإسلامَ هو الدينُ الوحيدُ الذي لا يقبلُ الله من أحدٍ سواه.

والإسلام، هو: ما جاء به الرسُلُ -عليهم الصلاةُ والسلام- في كلِّ وقت بحَسَبِهِ، لكن لما بُعِثَ محمدٌ ﷺ صار الإسلام، هو ما جاءَ به محمد ﷺ.

فالإسلامُ، معناهُ: الانقيادُ لله بالطاعةِ، والبراءَةُ من الشركِ، وعبادتِهِ حسبَ ما شُرِعَ في كلِّ وقت، أما بعد بعثة محمد ﷺ فإنه صار الإسلامُ هو ما جاء به محمد ﷺ، ولا يسعُ أحدًا أن يخرج عن طاعته ﷺ، حتىٰ الأنبياء السابقين، لو وُجد أحدٌ منهم بعد بعثة محمد ﷺ، فإنه لا يسعهُ أن يخرجَ عن طاعةِ محمدٍ ﷺ، ولهذا قال الله -جلَّ

وعلا-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾. يعني: محمدًا ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: ٨١، ٨٢] .

فبعد بعثة محمد ﷺ انتهت الأديانُ السابقة، وانتهىٰ العملُ بها، ووجبَ العملُ بما جاءَ به محمد ﷺ ؛ لأن الأمرَ لله -جلَّ وعلا-، وليس الأمر لشخص معيَّن، ولا للأهواء والشبهات والرغبات، فالله أمركم وأمرَ الأنبياءَ كلَّهم أن يُطيعوا محمدًا ﷺ إذا بُعث، حتىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا نزل في آخر الزمان فإنه سيتبع محمدًا ﷺ ، ويحكم بشريعة محمد ﷺ ، ولهذا قال ﷺ : **«لو كان أخي موسىٰ حيًّا بين أظْهُرِكم، ما حَلَّ له إلا أن يَتْبَعني»**[(١)] .

فالذين يدَّعون في هذا الزمان أن اليهوديةَ والنصرانيةَ والإسلامَ كلها أديانٌ صحيحة، ويُنكرون علينا تفكيرَ اليهود والنصارىٰ؛ لأنهم عندهم علىٰ أديانٍ صحيحة، ويتبعون الأنبياء، هؤلاء نقولُ لهم: كذبتُم، هم الآن لا يتبعون الأنبياء، فلو كانوا يتبعونَ الأنبياء، لاتبعوا محمدًا ﷺ ؛ لأن الذي يكفُر بمحمدٍ ﷺ فإنه كافرٌ بجميع الأنبياء، ولم يَبْقَ معه دينٌ، وليس تابعًا لأحدٍ من الأنبياء.

فاليهود الآن ليسوا أتباعًا موسىٰ، ولا النصارىٰ أتباعًا لعيسىٰ؛ لأنَّ فترةَ الأنبياء انتهت ببعثة محمدٍ ﷺ ، فالذي يبقىٰ علىٰ اليهودية أو النصرانية فإنه كافر؛ لأنه عصىٰ موسىٰ، وعصىٰ عيسىٰ، وعصىٰ محمدًا -عليهم الصلاة والسلام-، ولا يمكن أن يكون علىٰ الحق؛ لأن موسىٰ وعيسىٰ يأمرانه باتباع محمد ﷺ ، ولم يفعل.

❑ **قوله**: وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : «تَجِيءُ الأَعمَالُ يَومَ القِيَامَةِ: فَتَجِيءُ الصَّلاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلاةُ، فَيَقُولُ: إِنَكِ عَلَىٰ خَيرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خَيرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤٦٣١)

رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الأَعمَالُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خَيرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الإِسلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنتَ السَّلَامُ، وَأَنَا الإِسلَامُ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيرٍ، بِكَ اليَوم آخُذُ وَبِكَ أُعطِي، قَالَ اللّه تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]». رواه أحمدُ(١).

وَفِي الصَّحِيحِ عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». رواه أحمدُ(٢).

■ حديثُ أبي هريرةَ واضحٌ بأنه لا يُحتسبُ عند الله يومَ القيامةِ إلا الإسلامُ، وما عداهُ من الأديانِ، فهو باطلٌ مردودٌ، ولا ينفعُ أصحابَهُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالذين ماتوا قبل بعثة محمد ﷺ وهم يتبعونَ أنبيائهم، فهم علىٰ الإسلام، لكن بعد بعثِ محمد ﷺ فليس الإسلامُ إلا ما جاء به ﷺ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

وكذلك حديث عائشة: «**من عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**». فإنه يبيِّنُ أنه لا دِينَ إلا ما جاء به الرسولُ ﷺ، وأنَّ مَنْ عَمِلَ عملًا مخالفًا للنبي ﷺ، أو لم يأتِ به النبيُّ ﷺ، فهو مردودٌ، فالذي يعملُ علىٰ اليهوديةِ، أو يعملُ علىٰ النصرانيةِ، أو يُحْدِثُ أشياءَ وبدعًا من عنده ويعملُ بها علىٰ أنها قرباتٌ وطاعات، دون دليل من كتاب الله، وسُنة رسوله ﷺ، فهو مردودٌ علىٰ صاحبه كائنًا مَنْ كان، يهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو مبتدعًا مسلمًا.

فالإسلامُ، فقط هو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ

---

(١) في «مسنده» برقم (٨٧٤٢).

(٢) في «مسنده» برقم (٢٥٤٧٢)، وأخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، وقد سلف هذا الحديث في باب وجوب الإسلام.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فدل على أن الذين لا يتبعون محمدًا ﷺ لا يُفلحون أبدًا، وأنهم خاسِرون.

❀❀❀

بَابُ وجُوبِ الاستِغنَاءِ بِمُتَابَعتهِ ﷺ عَن كُلِّ مَا سِوَاهُ

وَقَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

رَوَىٰ النَّسَائِيُّ وَغيرُهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **أَنَّهُ رَأَىٰ فِي يَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وَرَقَةً مِنَ التَّورَاةِ**، فَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ يَا بنَ الخَطَّابِ؟! لَقَد جِئتُكُم بِهَا بَيضَاءَ نَقِيةً، لَو كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا وَاتَّبَعتُمُوهُ وَتَرَكتُمُونِي ضَلَلتُم**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَو كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلا اتِّبَاعِي**».

فَقَالَ عُمَرُ: رَضِيتُ بِاللّهِ رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا.

الشَّرح

❏ **قوله**: بَابُ وجُوبِ الاستِغنَاءِ بِمُتَابَعتِهِ ﷺ عَن كُلِّ مَا سِوَاهُ.

وَقَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

■ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: القرآن والسنة، والخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وهذا فيه أن القرآنَ كلامُ الله منزَّلٌ، وليس مخلوقًا كما تقولُه الجهميَّةُ، فهو لم يقل: ما خلقنا لك الكتابَ، بل قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾. يعني: القرآن.

﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فالله -جلَّ وعلا- بيَّن فيه الدِّين الذي يقبلُهُ من عبادِه، ولا يقبل منهم سواه، كما أنه بيَّن فيه أيضًا الدِّين الذي لا قبله ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ من أمور الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٣] . فهو هُدًىٰ ورحمة للمؤمنين، أما الذين لا يؤمنون فليس هو رحمة لهم، وإنما هو حُجَّةٌ عليهم.

❏ **قوله**: رَوَىٰ النَّسَائِيُّ وَغيرُهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ رَأَىٰ فِي يَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وَرَقَةً مِنَ التَّورَاةِ، فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ يَا بنَ الخَطَّابِ؟! لَقَد جِئتُكُم بِهَا بَيضَاءَ نَقِيةً، لَو كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا وَاتَّبَعتُمُوهُ وَتَرَكتُمُونِي ضَلَلتُم».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَو كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا اتِّبَاعِي».

فَقَالَ عُمَرُ: رَضِيتُ بِاللّهِ رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا[١].

■ يقول ﷺ لأُمته: لو كان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا واتبعتموه، مع أنه رسول الله وكليمه؛ لكن فترته انتهت -عليه الصلاة والسلام-، فلو اتبعتموه بعد بعثة محمد ﷺ لضللتم، سبحان الله! يضلُّون وهم متبعون رسولًا! نعم؛ لأن هذا الرسول قد انتهىٰ فترته، وجاءت فترة رسول آخر، وهو محمدٌ ﷺ .

والإنسان يدور مع أمر الله عَزَّوَجَلَّ حيث كان، فالله عَزَّوَجَلَّ نسخ الشرائع السابقة بشريعة محمد ﷺ ، فيجب العمل بالناسخ، ولا يجوز العمل بالمنسوخ، فلو أن واحدًا الآن صلَّىٰ إلىٰ بيت المقدس، وقال: بيت المقدس قِبْلة، والكعبة، وكلها مساجد، فإننا نقول له: صلاتك هذه باطلة لا تصح؛ لأن استقبال بيت المقدس نُسِخَ وأُمرتَ باستقبال الكعبة، فعليك أن تدور مع أمر الله، ولا تدر مع هواك، فإن الشيء إذا نُسخ لا يجوز العمل به.

وكذلك بقيةُ الدِّين، فلا يجوز لأحد أن يقول: أنا أعمل بالتوراة، مع أن التوراة نُسِخَت، وقد حُرِّفت؛ لكن لو قُدِّر أنه ليس فيها تحريفٌ، فلا يجوز العمل بها؛ لأنها منسوخة، فالتوراة؛ إما محرَّفة، وإما منسوخة، فلا يجوز العمل بها، وكذلك الإنجيل؛ إما محرَّف وإما منسوخ، ولم يبقَ إلا العمل بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ ، والدِّين لله وما هو بالأهواء، والشهوات، والرغبات.

نعم، «**لو كان موسىٰ حيًّا**»: وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو كليمُ الله، لو كان حيًّا وقتَ بعثة محمد ﷺ ما وَسِعَه إلا اتباع الرسول، ولا يبقىٰ علىٰ شريعته؛ لأنها نُسخت وانتهت، والأمر لله -جلَّ وعلا-: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد: ٣٩].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله، و(١٨٣٣٥) من حديث عبد الله بن ثابت، وفيه تمام تخريجه.

«فقال عمر: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا»: هذا هو الواجب؛ أن الإنسان إذا تَبيَّن له الحقُّ ألَّا يجادلَ فيه، ولا يُماطل، فهذا عمر ﷺ، كان يدور مع الحق، فهو ظنَّ أن هذه الورقة من التوراة فيها حقٌّ فأعجبته؛ ولكن لما بيَّن له الرسول ﷺ، هذا البيان اقتنع، فقال: «رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا». هذا هو الواجب، أن الإنسان إذا تبيَّن له الحق يجب عليه المبادرةُ إلىٰ قَبُوله، فإن تأخَّر عن قبوله فحَرِيٌّ أن يزيغ قلبه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. فهذه فيه بطلان اتباع غير القرآن من الكتب السابقة؛ لأنها منسوخة بالقرآن.

بابُ مَا جَاءَ فِي الخُرُوجِ عَن دعوَى الإسلام

وَقولِهِ تَعَالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ...﴾ [الحج:٧٨].

عَنِ الحَارِثِ الأَشعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آمرُكُم بِخَمسٍ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالجِهَادِ، وَالهِجرَةِ، وَالجَمَاعَةِ، فَإِنَّهُ مَن خَالَفَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبرٍ فَقَد خَلَعَ رِبقَةَ الإِسلَامِ مِن عُنُقِهِ إِلَّا أَن يَرجِعَ، وَمَن دَعَا بِدَعوَىٰ الجَاهِلِيةِ فَإِنَّهُ مِن جُثَا جَهَنَّمَ».

فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَإِن صَلَّىٰ وَصَامَ؟ قَالَ: «وَإِن صَلَّىٰ وَصَامَ، فَادعُوا بِدَعوَىٰ اللّه الَّذِي سَمَّاكُمُ المُسلِمِينَ المُؤمِنِينَ عِبَادَ اللّهِ». رَوَاهُ أَحمَدُ والتِّرمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَن صَحِيح.

وَفي الصَّحِيحِ: «مَن فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيد شِبرٍ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّه».

وَفِيه: «أَبِدَعوَىٰ الجَاهِلِيةِ وَأَنَا بَينَ أَظهُرِكُم؟!».

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ: «كُلُّ مَا خَرَجَ عَن دَعوَىٰ الإِسلَامِ وَالقُرآنِ مِن نَسَب أَو بَلَدٍ أَو جِنسٍ أَو مَذهَبٍ أَو طَرِيقَةٍ، فَهُوَ مِن عَزَاءِ الجَاهِلِيةِ، بَل لَمَّا اختَصَمَ مُهَاجِرِيٌّ وَأَنصَارِيٌّ، فَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلمُهَاجِرِينَ! وَقَالَ الأَنصَارِيُّ: يَا لَلأَنصَارِ!

قَالَ ﷺ: «أَبِدَعوَىٰ الجَاهِلِيةِ وَأَنَا بَينَ أَظهُرِكُم؟!» وَغَضِبَ لِذَلِك غَضَبًا شَدِيدًا».

الشرح

❏ قوله: بابُ: مَا جَاءَ فِي الخُرُوجِ عَن دعوَىٰ الإسلام.

وَقولِهِ تَعَالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ...﴾ [الحج:٧٨].

■ هذا الباب أن هناك من يتسمىٰ بالإسلام؛ ولكنه يخرج منه بسبب أنه يرتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فيظن أنه مسلم، وهو غير مسلم.

مثال ذلك: الذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلّي ويصوم، هذا مسلم؛ لكنه إذا دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو ذبح لغير الله، فقد أشرك بالله، وخرج من الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. هذا هو الإسلام.

فإذا عَمِلَ عملًا، أو قال قولًا، أو اعتقد اعتقادًا يخالف الإسلام، فإنه لا يكون مسلمًا، ولو كان ينتسب إلىٰ الإسلام، وما أكثر ما يحصل هذا، وهذا مما يجب علىٰ المسلم أن يحذره، وأن يتعلم ما هو الإسلام الصحيح، وما هي مبطلات الإسلام ونواقضه، حتىٰ يتجنبها.

أما إذا كان يجهل هذا، فإنه قد يقع فيه، ويخرج من الإسلام وهو لا يشعر، يقول الله -جلَّ وعلا-: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[الحج: ٧٨] . ما هي ملّة أبينا إبراهيم؟ هي التوحيد، والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ ، والبراءة من الشرك وأهله، هذه ملة أبينا إبراهيم، وما خالفها فإنه كُفْر وشِرْك بالله عَزَّوَجَلَّ .

هذه دعوة الرسل كلهم من أوّلهم إلىٰ آخرهم، يدعون إلىٰ الانقياد بالعبادة وترك عبادة ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦] ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥] .

❑ **قوله**: عَنِ الحَارِثِ الأَشعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آمرُكُم بِخَمسٍ، اللّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالجِهَادِ، وَالهِجرَةِ، وَالجَمَاعَةِ، فَإِنَّهُ مَن خَالَفَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبرٍ فَقَد خَلَعَ رِبقَةَ الإِسلَامِ مِن عُنُقِهِ إِلَّا أَن يَرجِعَ، وَمَن دَعَا بِدَعوَىٰ الجَاهِلِيةِ فَإِنَّهُ مِن جُثَا جَهَنَّمَ».

فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَإِن صَلَّىٰ وَصَامَ؟ قَالَ: «وَإِن صَلَّىٰ وَصَامَ، فَادعُوا

بِدَعوَىٰ اللّه الَّذِي سَمَّاكُمُ المُسلِمِينَ المُؤمِنِينَ عِبَادَ اللّهِ». رَوَاهُ أحمَدُ والتِّرمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَن صَحِيح[١].

■ هذا حديثٌ فيه: أن النبي ﷺ، قال: «آمركم بخمسٍ»:

الأولى: السمع والطاعة لولي أمر المسلمين؛ لأنه لا يستقيم الأمر إلا بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين، فالمسلمون لا يصلح أن يبقوا متفرقين مختلفين، لابد أن يجتمعوا، ويتوحَّدُوا، ولا يجتمعون إلا علىٰ إمام، أو ولي أمر؛ ولا تحصل الإمامة وولاية الأمر إلَّا بالسمع والطاعة؛ لكن في غير المعصية، كما قال ﷺ: **«لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»**[٢].

فيجب السمع والطاعة لولي الأمر، وإلا لا يتم اجتماع المسلمين، ولا تتوحَّد كلمتهم، ولا يكون لهم جماعة ينضوون تحتها، فالذي لا يسمع لوليِّ الأمر، ولا يطيع، هذا ليس من الجماعة، هذا خرج من الجماعة، ومَنْ خرج من الجماعة، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، هذا وعيدٌ شديدٌ.

الأمر ليس بالهيِّن، أن ينعزل الإنسان عن المسلمين، ويتخلف عن المسلمين باجتهاده، ورأيه، فلابد من الاجتماع من أجل أن تتوحَّد كلمةُ المسلمين، وتتمَّ مصالحهم، ويقوم أمرهم.

الثانية: الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، فالله -جلَّ وعلا- أمر بالدعوة أولًا، دعوة الكفار والمشركين إلىٰ الإسلام؛ لأنه هو دِين الله عَزَّوَجَلَّ، وما عداه فهو باطل، فلابد من الدعوة إلىٰ هذا الدين، ثم مَن استجاب، وقَبِلَ الدعوةَ فالحمد لله، ومَنْ أبىٰ فلا بد من الجهاد وهو القتال؛ لإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحو الشرك من الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فلا ينبغي أن يكون الدِّين بعضه لله، وبعضه لغير الله؛ لأن الله هو الخالق

(١) أحمد (٢٢٩١٠)، والترمذي (٢٨٦٣).
(٢) رواه أحمد (٣٨٨٩).

الرازق المحيي المميتُ المدبِّر، فهو المستحقُّ للعبادة، ولا دينَ إلا دين الله -جلَّ وعلا-: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي: انقاد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. فجميع المخلوقات منقادةٌ لله؛ إما طوعًا باتباع الشرع، وطاعة الرسل، أو كرهًا، أي: ينقاد كرهًا لقدر الله وقضائه، فإن قدر الله وقضاءه يقعان علىٰ الكفار والمسلمين، ويخضع العبد الكافر لله كرهًا لا طوعًا.

فالدينُ، هو دين الله -جلَّ وعلا- لا دين سواه، ولا يقبل الله من أحدٍ سواه يوم القيامة، وما دام الأمر كذلك فلا مجال لبقاء دين غير دين الإسلام، فلابد من الجهاد لتوحيد العبادة لله عَزَّوَجَلَّ التي خلق الله الخَلْق من أجلها، وأرسل الرسل لبيانها، وأمر العباد بها.

الجهاد في سبيل الله هو القتال، أي: قتال المشركين إذا أبوا أن يقبلوا الإسلام، والجهاد فرض علىٰ المسلمين حسب الاستطاعة، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالجهاد فرضٌ؛ ولكن علىٰ حسب الاستطاعة، فإذا كان عند المسلمين قوة وقدرة علىٰ تكوين الجيوش، وغزو الكفار، فإنه يجب عليهم ذلك، ولابد من وجود الجهاد، فوجوده فَرْض كفاية، إذا قام به مَنْ يكفي سقط الإثم عن الباقين وبقي في حق البقية سُنة من أفضل العبادات، وإذا لم يقم به مَنْ يكفي أثم الجميع.

فالجهاد فرض كفاية لابد منه، أما إذا كان المسلمون ليس عندهم استطاعة، فإنهم ينتظرون إلىٰ أن يصبح عندهم قوة، فالنبي ﷺ مكث في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة مقتصرًا علىٰ الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يؤمر بالجهاد؛ لأن المسلمين لا يقدرون في تلك الفترة علىٰ الجهاد، ولما هاجر ﷺ إلىٰ المدينة، وصار له أنصار وأعوان فرض الله عليهم الجهاد؛ لأنهم صاروا يقدرون عليه، هذه هي المسألة الثانية.

الثالثة: الهجرة، والهجرة مأخوذة من الهَجْر: وهو الترك، ترك الشيء، قال تعالىٰ:

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. والرجز: هو الأصنام، وهجرها: تركها هذا في اللغة.

وأما في الشرع فالهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام فرارًا بالدين، فالمسلم لا يبقىٰ مع الكفار، وهو يقدر علىٰ الهجرة إلىٰ بلاد المسلمين؛ لأنه إذا بقي عند الكفار فإنهم يؤثِّرون عليه فيتأثر بهم، أو يمنعونه من عبادة الله ﷻ، ويجبرونه علىٰ الكفر، فلابد من الهجرة عند القدرة.

والله توعَّد الذين لم يهاجروا وهم يقدرون علىٰ الهجرة شُحًّا بوطنهم أو بأموالهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. أي: إذا كنتم مستضعفين في هذه الأرض لا تقدرون علىٰ إظهار دينكم، فلماذا لم تنتقلوا إلىٰ الأرض تكونون أقوياء فيها: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠]. بدلًا من أن يكون مُضيَّقًا عليه في هذه البقعة، فإنه يجد أرضًا واسعة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]. فإذا مات وهو في الطريق، فقد كتب الله له أجر الهجرة، وهذا فضل عظيم.

والحاصل: أن الجرة لابد منها وهي قرينة الجهاد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]. فالهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله، وفيها فضل عظيم.

الرابعة: الجماعة، وهي أن تلزم جماعة المسلمين، ولا تشذ عنهم؛ لأن الجماعة عصمة؛ ولأن كونك مع الجماعة فيه قوة وعصمة لك.

أما كونك تنعزل، فهذا فيه خطر عليك، وعلىٰ دينك، فكن مع جماعة المسلمين، ومع إمام المسلمين، ولا تشذ عنهم.

أما الذي يخرج عن الجماعة، وعن السمع والطاعة، فهذا قد خلع ربْقَة الإسلام من عنقه كما في الحديث، وفي الحديث الآخر: «**مَنْ فارَقَ الجماعةَ شِبرًا فمات؛ فَمِيتةٌ جاهليةٌ**» [١].

فيجب علىٰ المسلم أن يكون مع المسلمين، ولا يشذ عنهم، أن يكون معهم ببدنه، ويكون معهم برأيه، وقوله وفعله، أما أن يكون معهم ببدنه؛ ولكنه يخالفهم في رأيه بأن يكون له رأي آخر، فهذا لا يجوز.

وأشدُّ من ذلك إذا حمل السلاح علىٰ المسلمين، فإنه إذا حمل السلاح فقد نقض البيعة، وخرج عن جماعة المسلمين، أي: صار من الخوارج، فيجب قتاله والأخذ علىٰ يده، أما إذا رأىٰ رأي الخوارج وصوَّبه؛ لكنه لم يحمل السلاح، فهذا يُكف عنه؛ ولكنه يعتبر من الخوارج.

«فإنه مَنْ فارقَ الجماعةَ قِيْدَ شِبرٍ فقد خَلَعَ ربْقَةَ الإسلام من عُنُقه، إلا أن يرجع»: أي: إلا أن يتوب إلىٰ الله، هذا فتحُ مجَال لمَنْ سوَّلت له نفسه، أو زيَّن له دعاةُ الضلال الخروجَ عن الجماعة، فالله جعل له فرصة أن يتوب ويرجع، ومَنْ تاب تاب الله عليه.

الخامسة: «ومَنْ دعا بدعوىٰ الجاهلية، فإنه جُثا جهنم»: الواجب علىٰ المسلم أن يتبرأ من أمور الجاهلية، ولا يتشبه بأهل الجاهلية؛ لأن الجاهلية كفر وضلال فلا يتخلّق بأخلاق أهل الجاهلية.

والجاهلية، هي: ما كان قبل بعثة النبي ﷺ، فمن حملته النخوة والعصبية علىٰ مفارقة الجماعة، فهو علىٰ خصلة من خصال الجاهلية.

هذه هي الجاهلية، ثم لما بُعث رسول الله ﷺ زالت الجاهلية العامة، وجاء العلم والقرآن والسُّنة، فزالت الجاهلية العامة، ولله الحمد؛ لكن قد يبقىٰ هناك جاهليات في بعض الأشخاص، أو في بعض البلدان، أو في بعض القبائل، فالجاهلية العامة زالت بالإسلام ولله الحمد، ولهذا قال ﷺ: «**أربعٌ في أُمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن:**

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس.

الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت»[١].

فمَنْ فعل شيء من هذه الخصال، فقد فعل شيئًا من الجاهلية، أي: يكون فيه جاهلية، ولما عيَّر أحد الصحابة أخًا له بأمه، فقال له: يا بن السوداء، قال له رسول الله ﷺ: **«أعيَّرتَه بأمِّه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية»**[٢]. يعني: فيك صفة من صفات الجاهلية.

فالفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت، هذه كلها من أمور الجاهلية، فيجب علىٰ المسلمين أن يتركوها، وكذلك العصبية القبلية، أن يتعصب الإنسان لقبيلته، فالمسلمون كالجسد الواحد، ليس هناك فرق بين مسلم وآخر، ولا يتميَّز بعضهم عن بعض بنسب ولا بحسب، كلهم مسلمون، وهم يدٌ واحدة، وبنيان واحد، وحسبهم واحد، فلا يتعصب أحدٌ لقبيلته، أو لرئيسه، أو لشيخه هذه من أمور الجاهلية.

أما المؤمن، فإنه يرجع إلىٰ الحق مهما كان، ويقبل الحق مع مَنْ كان، وينقاد له، وسواء كان الحق مع رئيسه، أو مع قبيلتهن أو جماعته، أو مع غيرهم من المسلمين.

وفي إحدىٰ الغزوات تشاجر شخص من الأنصار مع شخص من المهاجرين، فاقتَتَلا -يعني: تضاربا-، فقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار. فسمع النبي ﷺ ذلك، فقال: **«أبدعوىٰ الجاهلية، وأنا بين أظهُرِكم، دعوها فإنها مُنتنة»**[٣].

فلا يجوز للإنسان أن يتعصب لقبيلته، أو يحتمي بقبيلته خاصة؛ بل يحتمي بالمسلمين عمومًا، فالنبي ﷺ عدَّ هذه الدعوىٰ من أمر الجاهلية، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣]، ويقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[الفتح: ٢٦]. حمية الجاهلية، وتبرج

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله.

الجاهلية، ودعوىٰ الجاهلية والقومية العربية، وحكم الجاهلية، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. كلها مرفوضة، نحن مسلمون أعزَّنا الله بالإسلام كما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «نحن أمةٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلَّنا الله». فالعزة إنما هي بالإسلام ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

هذه هي أمور الجاهلية، فالواجب رفضها وتركها والابتعاد عنها، والشيخ -كما تعلمون- له رسالة، اسمها: «مسائل الجاهلية» ذكر فيها عدةَ أمور من أمور الجاهلية للتحذير منها، ففيها أكثر من مائة مسألة أو أكثر من مائة وعشرين مسألة، كلها من مسائل الجاهلية، يجب علىٰ المسلم أن يتجنبها، ويتجنب غيرها من أمور الجاهلية.

قال: «**وَمَنْ دعا بدعوىٰ الجاهلية، فإنه من جُثا جهنم**»:

هذا وعيد شديد؛ لأنه يكون من أهل النار بسبب أنه دعا بدعوىٰ الجاهلية، والواجب أن يكون المسلم يدعو بالإسلام، لا بدعوىٰ الجاهلية.

«فقال رجلٌ: يا رسول الله، وإنْ صلىٰ وصام. قال: **وإن صلَّىٰ وصام، فادعُوا بدعوىٰ الله الذي سمَّاكم المسلمين، والمؤمنين عبادَ الله**».

يعني: يكون من جُثا جهنم، وإن صلَّىٰ وصام، أي: يُعذَّب بهذه الخصلة، والمؤمن قد يُعذَّب في النار، وإن لم يكفر، فإنه قد يُعذَّب بكبيرة في النار، ويخرَج منها بعد ذلك.

❑ **قوله**: وَفِي الصَّحِيحِ: «مَن فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبرٍ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»[١].

■ هذا أيضًا في الحثِّ علىٰ لزوم الجماعة، «**مَن فارق الجماعة قيد شبر**»: أي: ولو قليلًا، أو أدنىٰ مفارقة للجماعة، مات علىٰ هذا ولم يتب، وهذا فيه فتح مجال لمن ابتُلي بشيء من الشذوذات والمخالفات بأن يتوب قبل الموت، أما إذا مات قبل أن يتوب فإنه يموت ميتة جاهلية -يعني: يموت ومعه خصلة من خصال الجاهلية.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

❑ قوله: وَفِيه: «أَبِدَعوَىٰ الجَاهِلِيةِ وَأَنَا بَينَ أَظهُرِكُم؟!»[^1].

■ هذا، في القصة التي ذُكرت سابقًا، في إحدىٰ الغزوات، لما اقتتل شابان، أحدهما من المهاجرين، والآخر من الأنصار، وكلٌّ منهما دعا جماعته، فالمهاجريُّ دعا المهاجرين، والأنصاري دعا الأنصار، وهذا من دعوىٰ الجاهلية، وهؤلاء مسلمون لا يجوز أن يدعوا بدعوىٰ الجاهلية.

❑ قوله: وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ: «كُلُّ مَا خَرَجَ عَن دَعوَىٰ الإِسلَامِ وَالقُرآنِ مِن نَسَب أَو بَلَدٍ أَو جِنسٍ أَو مَذهَبٍ أَو طَرِيقَةٍ فَهُوَ مِن عَزَاءِ الجَاهِلِيةِ».

■ **قال أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **-مُبيِّنًا ما هي الجاهلية-:** «الجاهلية: كلُّ ما خرج عن الإسلام والقرآن». فالواجب علىٰ المسلم أن ينتسب إلىٰ الإسلام والقرآن، ولا ينتسب إلىٰ القبيلة أو البلد من باب الحمية والافتخار، فلا يجوز أن يعتزَّ بالقبيلة، بل يعتزّ بالإسلام، ولا يعتز بالبلد، فبلاد المسلمين كلها سواء، لا مزية لبعضها علىٰ بعض، إلا ما ميَّزها الله عن غيرها كمكة والمدينة.

أما بقية بلاد المسلمين فكلها سواء، سواء كانت في المشرق أو في المغرب، وكذلك لا يعتدُّ المسلم بالنسب أو بالبلد أو بالجنس، فيقول: أنا عربي وأنت أعجمي هذا لا يجوز، ما دام الآخر مسلمًا فهو أخوك ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. عرب وعجم، جنّ وإنس، كلهم إخوة بالإيمان والإسلام.

«أو مذهب» من مذاهب العلماء؛ الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والظاهري وغيرها، لا يجوز أن نتعصب لها، إنما نأخذ بالدليل، ما وافق الدليل أخذنا به، سواء كان قول إمامنا أو قول غيره، وكل العلماء أئمة -ولله الحمد-، كل علماء أهل السنة أئمة، فأبو حنيفة إمام لنا، والشافعي ومالك وأحمد أئمة لنا، لا نفرق بين أنا حنفي وأنت حنبلي، وكذا وكذا، نحن نتبع الدليل، إذا لاح لنا الدليل؛ سواء كان مع إمامي أو إمامك فهو المتَّبع، ولا نتعصب لرأي إمام أو مذهب إمام، بل نتمسَّك بالحق.

[^1]: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

«أو طريقة» من طرق الصوفية، فالصوفية لهم طرق، كل طائفة لها طريقة ولها شيخ، وهم يتعصبون لهذه الأشياء، كالنقشبندي، التيجاني، البرهاني، القادري، إلىٰ غير ذلك، لهم طرق كثيرة، والإسلام ليس فيه انقسامات، الإسلام هو إسلام واحد، والمسلمون إخوة، ليس هناك نقشبندي وقادري وبرهاني وغير ذلك، كل هذه من كيد الشيطان للمسلمين، الواجب علىٰ المسلمين أن يكونوا جماعةً واحدةً، وأن يعملوا بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وبما عليه سلفهم الصالح.

«فهو من عزاء الجاهلية» كل هذه الأمور يقول شيخ الإسلام: إنها من عزاء الجاهلية، و«من تعزّىٰ بعزاء الجاهلية، فأعِضُّوه بِهَنِ أبيه، ولا تَكْنُوا»[(١)].

❑ **قوله**: بَل لَمَّا اختَصَمَ مُهَاجِرِيٌّ وَأَنصَارِيٌّ، فَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلمُهَاجِرِينَ! وَقَالَ الأَنصَارِيُّ: يَا لَلأَنصَارِ!

قَالَ ﷺ: «أَبِدَعوَىٰ الجَاهِلِية وَأَنَا بَينَ أَظهُرِكُم؟!» وَغَضِبَ لِذَلِك غَضَبًا شَدِيدًا.

■ مع أن لفظ المهاجرين لفظ شرعي، ولفظ الأنصار لفظ شرعي أيضًا، لكن لا يجوز أن نتعزّىٰ بالأنصار والمهاجرين، فالمهاجرون والأنصار إخوة، وهم جماعة، لا نفرِّق بينهم فننتسب بعضهم ونترك الآخر، كلهم إخواننا.

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٣٦) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه.

بَابُ وجُوبِ الدُّخُول فِي الإسلامِ كُلِّه وتَرك مَا سِوَاهُ

وَقولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[البقرة:٢٠٨].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾[النساء:٦٠].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[الأنعام: ١٥٩].

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران:١٠٦]: «تَبيَضُّ وُجُوهُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالائتِلافِ، وَتَسودُّ وُجُوهُ أَهلِ البِدَعِ وَالاختِلافِ».

عَن عَبدِ اللّه بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**لَيَأتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسرَائِيلَ حَذوَ النَّعلِ بِالنَّعلِ، [حَتَّىٰ إِن كَانَ مِنهُم مَن أَتَىٰ أُمَّهُ عَلانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مَن يَصنعُ ذَلِكَ]، وَإِنَّ بَنِي إِسرَائِيلَ تَفَرَّقَت عَلَىٰ ثِنتَينِ وَسَبعِينَ مِلَّةً**»، وَتَمَامُ الحَدِيثِ قَوله: «**وَتَفتَرِق هذه الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُم فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**». قَالُوا: مَن هِيَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي**». رواه التِّرمِذِيُّ.

فَليَتَأَمَّلِ المُؤمِنُ الَّذِي يَرجُو لِقَاءَ اللّهِ كَلامَ الصَّادِقِ المَصدُوقِ فِي هَذَا المَقَامِ، خُصُوصًا قَولَهُ: «**مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي**».

يَا لِهَذِهِ المَوعِظَةِ لَو وَافَقَت مِنَ القُلُوبِ حَيَاةً!

وَرَوَاه أَيضًا مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ وَصَحَّحَهُ؛ وَلَكِن لَيسَ فِيهِ ذِكرُ النَّارِ، وَهُو فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ عِندَ أَحمَدَ وَأَبِي دَاودَ، وَفِيه: «**إِنَّهُ سَيَخرُجُ مِن أُمَّتِي قَوم تَتَجَارَىٰ بِهِم تِلكَ الأَهوَاءُ كَمَا يَتَجَارَىٰ الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، فَلا يَبقَىٰ مِنهُ عِرقٌ وَلا مِفصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**».

وَقَد تَقَدَّمَ قَولُهُ: «**وَمُبتَغٍ فِي الإِسلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيةِ**».

الشَّرح

❑ قوله: بَابُ: وجُوبِ الدُّخُولِ فِي الإِسلام كُلِّهِ وَتَرْكِ مَا سِوَاهُ.

وَقَولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨].

■ «باب الدخول في الإسلام كله» بمعنىٰ: أنك تقبل الإسلام كله، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾. أي: في الإسلام، واقبلوه كله، ولا تأخذوا بعضه، وتتركوا البعض الآخر، فإن مَن فعل ذلك فإنه كافر بالإسلام.

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾[النساء:١٥٠، ١٥١].

الذي يؤمن ببعض الرسل أو ببعض الكتاب أو ببعض الإسلام ويكفر بالبعض الآخر، فهو كافر بالجميع: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[البقرة:٨٥].

فالواجب علىٰ المسلم أن يقبل الإسلام كله، فيعمل بما يستطيع منه؛ لكن يؤمن به كله، أما أن يؤمن ببعض ويكفر بالبعض الآخر، فهذا لا يجوز ولا يكفي، أو أن يأخذ من الإسلام ما وافق هواه، وما خالف هواه تركه، فهذا أيضًا لا يجوز ولا يكفي، فيجب أن يُقبل الإسلام جميعه، ويؤمن بالإسلام كله.

(وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾) كافة، يعني: جميع الإسلام، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه حسب هواك ورغبتك، أو تأخذ الذي يُرضيك، الإسلام كله وحدة متكاملة.

❑ قوله: وَقَولِه تَعالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [النساء:٦٠].

■ من الدخول في الإسلام كافة تحكيمُ الشريعة، فهذه من أمور الإسلام، فالذي يدَّعي أنه مسلم، ولكنه يعزل الشرعية عن الحكم، ويحكِّم القوانين، فهذا ليس مسلمًا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾. قال: يزعمون، والزعم أكذب الحديث، فدلَّ علىٰ أن دعواهم ليست صحيحةً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]. فلابد من الحكم بما أنزل الله، أما أن يُقصىٰ الحكم بما أنزل الله نهائيًّا، ويجعل محلَّ ذلك القوانين، هذا ليس بمسلم ولو كان يزعم أنه مسلم، وهذا في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾. انظر: «يريدون» وهو عبارة عن نية في القلب فقط، فكيف إذا نفَّذ، فالأمر أشد، إذا نوىٰ بقلبه فهو ليس بمؤمن، فكيف إذا نفَّذ.

❑ قوله: وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

■ هذا فيه النهي عن التفرق في الدِّين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. أي: أحزابًا وجماعات، هذا ذم وتحذير فالمسلمون جماعة واحدة وحزب واحد، هم حزب الله وجند الله، فلا ينقسمون إلىٰ أحزاب وجماعات، وكلٌّ يدعو إلىٰ حزبه أو إلىٰ جماعته، ويضلل الآخرين وينتقص الآخرين، هذا لا يجوز بين المسلمين، هذا من أمور الجاهلية، المسلمون يدٌ واحدةٌ وجماعة واحدة، وحزبٌ واحدٌ، وإذا اختلفوا يرجعون إلىٰ الكتاب والسنة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فالواجب علىٰ المسلمين أن يكونوا جماعة واحدة وحزبًا واحدًا، وإذا اختلفوا يتحاكمون إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فلا يقول كل واحد منهم: نبقىٰ علىٰ ما نحن عليه، ولا نرجع عما نحن عليه، هذا من أمور الجاهلية.

وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. هذا براءة، برَّأ الله رسوله ﷺ من الذين فرَّقوا دينهم، وكانوا شيعًا، يعني: جماعات، فالمسلمون جماعة واحدة لا انقسام ولا تفرُّق، والنزاع والخلاف سيحصل، ولكن يُحسم بالتحاكم إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فمَنْ كان معه الصواب رجعنا إليه، ومَنْ كان علىٰ خطأ يرجع عن خطئه، ولا يتعصب لرأيه أو حزبه أو جماعته، هذا شأن المسلمين.

❑ **قوله**: وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]: «تبيَضُّ وُجُوهُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالائتِلافِ، وَتَسودُّ وُجُوهُ أَهلِ البِدَعِ وَالاختِلافِ».

■ هذه الآية بعد قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٣]. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾. حبل الله: هو القرآن والإسلام، والرسول ﷺ ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾. إلىٰ جماعات وأحزاب، نهىٰ عن التفرُّق.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥]. نهىٰ عن التفرق، في أول الآيات.

ثم قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، ثم نهىٰ عن التشبُّه بالأمم السابقة الذين تفرقوا في دينهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾. اختلفوا وتفرقوا، وعندهم الوحي المنزَّل، ولم يتحاكموا إليه؛ بل كلٌّ

يتعصَّب لرأيه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الذين اختلفوا، وتفرقوا وتركوا ما أنزل الله، لم يرجعوا لحَسْم الخلاف إلىٰ كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، بل كلٌّ بقي علىٰ مذهبه، وتركوا الكتاب المنزَّل، واكتفوا بمناهجهم ومذاهبهم وأقوالهم: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل الفُرْقة والاختلاف». هذا مآلُهم يوم القيامة، فالذين يبقون علىٰ اختلافهم ويتعصبون لآرائهم تسودُّ وجوههم يوم القيامة، والذين اجتمعوا علىٰ الحق، وحسموا نزاعهم بالدليل، هؤلاء تبيضُّ وجوههم يوم القيامة.

❑ **قوله**: عَن عَبدِ اللّه بنِ عَمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «لَيَأتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسرَائِيلَ حَذوَ النَّعلِ بِالنَّعلِ، [حَتَّىٰ إِن كَانَ مِنهُم مَن أَتَىٰ أُمَّهُ عَلانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مَن يَصنعُ ذَلِكَ]، وَإِنَّ بَنِي إِسرَائِيلَ تَفَرَّقَت عَلَىٰ ثنتَينِ وَسَبعِينَ مِلَّةً»، وَتَمَامُ الحَدِيثِ قَوله: «وَتَفتَرِق هذه الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُم فِي النَّارِ إلا مِلَّةً وَاحِدَةً». قَالُوا: مَن هِيَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي». رواه التِّرمِذِيُّ[1].

■ هذا تحذير من هذا الذي سيقع في آخر الزمان، تحذير للأُمة، وهذا من حرصه ﷺ علىٰ أُمته، وشَفَقَته عليهم؛ أنه أخبرهم عمَّا سيحصل، وبيَّن لهم كيف النجاة منه.

فبنو إسرائيل تفرَّقوا واختلفوا: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

هذا في بني إسرائيل، فما دام أن هذا حدث في بني إسرائيل، فسيحدثُ في هذه الأُمة عند مَن يقلِّدهم، وقد حدث؛ لكن عند حدوثه يجب علىٰ المسلم ألَّا يتعصب وإنما يحرص علىٰ الدليل، واتباع الكتاب والسنة حتىٰ ينجو من هذه الفتنة، وهذا الشرِّ، وهذا الاختلاف، فهذا خبر معناه: التحذير، وهو من معجزاته ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وقال: حديث حسن غريب، ويشهد له حديث معاوية عند أحمد (١٦٩٣٧)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وسنده حسن، وحديث أنس بن مالك عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وسنده جيد، وحديث عوف بن مالك عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، فالحديث صحيح بمجموع هذه الطرق.

أخبر أنه سيوجد مَن يتشبَّه باليهود والنصارىٰ حتىٰ في أتْفَه الأشياء، أو أقبحها وأشنعها، حتىٰ لو كان في اليهود والنصارىٰ مَن يأتي أُمَّه، يعني: يُجامع أُمه، لوُجِدَ في هذه الأُمة مَنْ يفعل ذلك تقليدًا لهم؛ لأنه يعتبر ما هم عليه هو الكمال، ولو كان أقبح الأشياء وأشنعها، فالزنا عمومًا فاحشة وساء سبيلًا، والزنا بالأم أقبح أنواع الزنا، ولو فعله الكفار صار عند بعض مستحسنًا.

وفي الحديث الآخر: «**حتىٰ لو دخلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتموه**»(١). هذا فيه التحذير من التشبُّه باليهود والنصارىٰ، وأنه خطر عظيم علىٰ المسلمين.

«**وإن بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثِنتَين وسبعين مِلَّةً، وتفترقُ أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملةً، كلهم في النارِ إلا ملة واحدة**». قالوا: مَنْ هي يا رسولَ الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**». أخبر ﷺ أن في هذه الأُمة مَن يتشبَّه باليهود والنصارىٰ، وأن اليهود والنصارىٰ افترقوا، فاليهود افترقوا علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، والنصارىٰ علىٰ ثنتين وسبعين، وستفترق هذه الأُمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة تقليدًا لهم، وكلها في النار إلا واحدة، وهي التي بقيت علىٰ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

فلا نجاة من النار إلا باتباع الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح، ومَنْ لم يكن كذلك، فهو في النار؛ إما لكُفْره، وإما لضلاله، فليست كُلُّ الفرق كافرةً، بعضها كافر، وبعضها دون الكفر؛ لكنها كلها متوعَّدة بالنار؛ لكفرها أو لضلالها.

❑ قوله: فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ كَلَامَ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، خُصُوصًا قَوْلَهُ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

▪ ليتأمل المسلم الناصح لنفسه، كلامَ الصادق المصدوق، وهو الرسول ﷺ، فهو الصادق فيما أخبر به، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]. المقصود، أي: المصدَّق من الله تعالىٰ، فالله هو الذي أخبره بذلك، فهو صادق وهو مصدوق.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

صادق فيما أخبر به، ومصدوق فيما أُخبر به من قبل الله -عليه الصلاة والسلام- وليتأمَّل المسلم اللَّبيب العاقل هذا الأمر، وأنه لا بد أن يحدث، ولا نجاة منه إلا بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

وهذا يستدعي منَّا أن نتعلَّم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما أن كُلًّا يدَّعي أنه علىٰ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وهو جاهل بما كان عليه الرسول وأصحابه، أو يدري؛ ولكنه تعمَّد الخطأ، فهذا لا يصح أبدًا ولا يجوز، فلابد أن نتعلَّم ونعرف ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، حتىٰ نتمسَّكَ به، ولا نلتفت إلىٰ سواه.

❑ قوله: يَا لِهَذِهِ المَوعِظَةِ لَو وَافَقَت مِنَ القُلُوبِ حَيَاةً!

■ هذه موعظة الرسول ﷺ ، لو وافقت من القلوب حياة لكان للقلوب معها شأنٌ بالاعتبار والامتثال والحرص علىٰ معرفة الحق والعمل به، وألَّا يكون الإنسان إمَّعةً يكون مع الناس أينما كانوا؛ بل يكون مع الحق دائمًا وأبدًا، ولو خالفه الناس، ولا يقلِّد بغير هُدًىٰ تقليدَ الأعمىٰ، عليه أن يعرف الحق أولًا، ثم يعمل به ويدعو إليه، هذا هو الواجب علىٰ كل مسلم.

أما أن تقول: «دعوا الناس علىٰ ما هم عليه»؛ عملًا بمقولة: «حرية الرأي»، «الرأي والرأي الآخر»، «لا تحجروا علىٰ الناس، وتضيقوا عليهم». هذا كلام باطل، هذا كلام أهل الضلال -والعياذ بالله- هذا مخالف لقول الرسول ﷺ .

فالواجب أن ندعو الناس إلىٰ الصواب وإلىٰ الحق، ولا نقرهم علىٰ ضلالهم، ولا علىٰ ما هم عليه، ونقول: حرية الرأي، ليس هناك شيء اسمه حرية رأي، وإنما الواجب اتباع الكتاب والسنة، لو كان هناك حرية رأي لم نحتج إلىٰ الرسل، ولا إلىٰ الكتب؛ بل كل يتبع رأيه وعقله.

فالرأي إذا خالف الوحي يجب أن يُترك، أما إذا وافق الوحي فالحمد لله.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «لو كان الدين بالرأي؛ لكان أسفلُ الخفِّ أولىٰ

بالمسح من أعلاه، وقد رأيت النبي ﷺ يمسح علىٰ أعلىٰ الخفِّ»(١). فالدين ليس بالرأي، وإنما بالاتباع.

يقول سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أيها الناس، اتّهموا رأيكم علىٰ دينكم، فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أردَّ أمرَ رسول الله ﷺ لرددتُه»(٢).

وهذه قصة الحديبية، لما تمَّ الصلح بين النبي ﷺ والمشركين، وكان بنوده: «أن مَنْ جاء من الكفار إلىٰ المسلمين مسلمًا يردُّه المسلمون إليهم، ومَنْ ذهب من المسلمين إلىٰ الكفار لا يردّونه». فشقَّ هذا علىٰ سهل؛ لأنه لا يعرف العواقب، والنبي ﷺ، يقول: «**مَنْ ذهب منا إليهم فلا خير فيه**». يعني: مَنْ ذهب من المسلمين إلىٰ الكفار لا خير فيه فلا يرجع، ومَنْ جاء من المشركين إلىٰ المسلمين، وردُّوه فسيجعل الله له فرَجًا ومخرجًا، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ثم بعد ذلك تبيَّن الحق، وأن هذا الصلح في غاية المصلحة للمسلمين؛ لأنه كفَّ أذىٰ الكفار عن المسلمين، وسمحوا للمسلمين بالهجرة، وكَثُرَ المهاجرون، ووضعت الحرب أوزارها، وصار المسلمون يدعون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعترضهم أحد، فسمَّاه الله فتحًا مبينًا، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. هذا هو صلح الحديبية.

❑ **قوله:** وَرَوَاه أَيضًا مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ وَصَحَّحَهُ؛ وَلَكِن لَيسَ فِيهِ ذِكرُ النَّارِ، وَهُو فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ عِندَ أَحمَدَ وَأَبِي دَاودَ، وَفِيه: «إِنَّهُ سَيَخرُجُ مِن أُمَّتِي قَوم تَتَجَارَىٰ بِهِم تِلكَ الأَهوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَىٰ الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، فَلا يَبقَىٰ مِنهُ عِرقٌ وَلا مِفصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ».

وَقَد تَقَدَّمَ قَولُهُ: «وَمُبتَغٍ فِي الإِسلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَةِ».

■ الله -جلَّ وعلا- نهىٰ عن اتِّباع الأهواء، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢-١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨١ و٧٣٠٨)، ومسلم (١٧٨٥).

عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾[الجاثية: ٢٣] .

فالذي يبلغه الحق، ولا يقبله يكون متبعًا لهواه، ويُعاقب بأن الله يختم علىٰ قلبه، فلا يقبل الحق بعد ذلك -والعياذ بالله- عقوبةً له، فاتباع الهوىٰ شرٌّ.

والواجب علىٰ المسلم أن يتبع الحق، سواء وافق هواه أو خالفه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[المؤمنون: ٧١] . فاتباع الهوىٰ شرٌّ، وفي آخر الزمان تكثر الأهواء في الناس، وتتجارىٰ بهم -بمعنىٰ: أنها تدخل في عروقهم- كما يتجارىٰ الكلب -وهو مرضٌ يصيب الإنسان من عضَّة الكلب المصاب بالسُّعار- بصاحبه، إذا عضَّ الكلب الإنسان، فإن ريقه يدخل في جسم الإنسان، وفي عروقه وفي جسمه كله، ويتجارىٰ في جسمه كله، والأهواء تتجارىٰ في الناس مثل داء الكَلَب.

باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر

لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وَقولِهِ تعَالَىٰ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[النحل: ٢٥].

وَفي الصَّحِيحِ: أَنَّه ﷺ قَالَ فِي الخَوارج: «أَينَمَا لَقِيتُمُوهُم فَاقتُلُوهُم».

وَفِيهِ أَنَّهُ ﷺ نَهَىٰ عَن قَتلِ أمُرَاءِ الجَورِ مَا صَلَّوا.

وَعَن جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا تَصدَقَ بِصَدَقَةٍ، ثُمَّ تَتابعَ النَّاسُ، فَقَالَ ﷺ: «مَن سَنَّ فِي الإِسلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجرُهَا وَأَجرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن بَعدِهِ مِن غَيرِ أَن يَنقُصَ مِن أَجُورِهِم شَيءٌ، وَمَن سَنَّ فِي الإِسلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيهِ وِزرُهَا وَوِزرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن غَيرِ أَن يَنقُصَ مِن أَوزَارِهِم شَيءٌ». رواه مُسلِمٌ.

وَلَهُ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه وَلَفظُهُ: «مَن دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ...». ثُم قَالَ: «مَن دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ...».

الشرح

قوله: باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر.

■ البدعة، لغة: هي الشيء المُحدَث علىٰ غير مثالٍ سابقٍ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١٧]. أي: أن الله -جلَّ وعلا- خلق السموات والأرض وأوجدهما من عدَمٍ. فالبدعة هي الشيء المحدَث هذا في اللغة.

وأما البدعة في الشرع: فهي إحداثُ شيءٍ في الدِّين ليس له أصلٌ في كتاب الله، ولا في سُنَّة رسوله ﷺ.

كإحداث عبادة ليس لها أصل؛ لأن العبادات توقيفية؛ فلابد لها من دليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وما ليس عليه دليل، فإنه بدعة مذمومة مردودة؛ لأن الله أكملَ هذا الدين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. فأخبر سبحانه أنه أكملَ الدينَ قبل وفاة النبي ﷺ.

فما تُوفِّي رسول الله ﷺ إلا وقد أكمل الله الدِّينَ للأمة، فأي شيء بعد ذلك يُحدَث فإنه مردود، كما قال ﷺ: «**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[1]. وفي رواية: «**من عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»[2]. مردودٌ عليه، فمن أحدث في أمر النبي ﷺ، أو عمل عملًا ليس عليه أمر الرسول ﷺ، فإنه لا يقبل عند الله، وهو مردودٌ علىٰ صاحبه، وإن كان صاحبه حسن النية، ويريد الأجر، فهذا لا يسوغ البدعة، ولو حَسُن قَصْدُ صاحبها، أو نوىٰ بها التقرُّب إلىٰ الله، وقال: هذه زيادة خير، نقول له: هذا زيادة شرٍّ، وليست خيرًا.

الخير؛ فيما جاء به رسول الله ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «**إن خيرَ الحديثِ: كتابُ الله، وخيرَ الهدي: هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور: محدثاتُها**»[3]. هذا دليل علىٰ أن البدعة شرٌّ، وإن كان صاحبُها يظن أنها خير.

«**وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**». كل بدعة ضلالة، ليس هناك بدعة حسنة، كما يقول مَنْ يقوله من المبتدعة الذين يروِّجون البدع بأنها بدع حسنة، وليس بدعًا سيئة، فالرسول ﷺ أخبر أن كل بدعة فهي ضلالة، وليس هناك بدعة هداية أو خير، فلو كانت هذه الأعمال خيرًا لشرعها الله -جلَّ وعلا- لعباده، فإن الله -جلَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)(١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (١٧١٨) (١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧)، والنسائي (١٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وعلا- لم يترك شيئًا فيه خيرٌ للعباد إلَّا شرَّعه لهم، والرسول ﷺ لم يترك شيئًا من الدِّين إلَّا بيَّنه، ولم يكتم منه شيئًا، فقد بلَّغ البلاغَ المبين -عليه الصلاة والسلام-.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**عليكُم بسُنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعيد، تمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجِذِ، وإياكم ومحدثات الأمور**». هذا فيه تحذير، «**فإنَّ كل محدثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة**».

فليس في البدع شيء حسن؛ بل كلها ضلالة بشهادة الرسول ﷺ ، فالذي يأتي بعبادة أو علم يتقرَّب به إلىٰ الله، ولم يكن معه دليل من كتاب الله، ولا سُنَّة رسوله، فإنه بدعة، وهو ضلالة وشرٌّ، وليس فيه خير، كما يزعم المبتدعة الذين يُحدِثون أشياء من الأذكار، أو العبادات، أو الصيام، أو الصلوات، أو الأدعية، أو الأعياد أو غير ذلك، ويظنون أنه يقرِّبهم إلىٰ الله، وأنه مشروع.

هذا باطلٌ مردودٌ علىٰ صاحبه، فالبدع لا خير فيها، ولا حدثت بدعةٌ إلا رُفِعَ مثلُها من السُّنة، والدين كاملٌ ولله الحمد.

والبابُ مفتوحٌ لكل مَنْ يريد الخير علىٰ طريقة الرسول ﷺ ، أما أن يأتي بأشياء ليس لها أصل في كتاب الله، ولا في سُنَّة رسوله فهذه مردودة.

ولهذا اهتمَّ العلماء -رحمهم الله- بالتحذير من البدع وألَّفوا في ذلك مؤلَّفات كثيرة، مطوَّلة ومختصرة، ومن ذلك كتاب «الاعتصام» للإمام الشاطبي، و«اقتضاء الصراط المستقيم»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«البدع والنهي عنها» لمحمد بن وضاح، و«الباعث علىٰ إنكار البدع والحوادث» لأبي شامة، وغير ذلك من الكتب المطوَّلة والمختصرة، وكما جاء في شروح الأحاديث النبوية بيانُ البدع والتحذير منها.

فالبدعُ شرٌّ، وأهلُها أهلُ ضلال، وهي تحارب السُّنن، ولذلك تجدُ المبتدعة يُبغضون السُّنن ويُحبون البدع، وينشطون في إحياء البدع، وإذا جاءت السنة تكاسلوا وثَقُلت عليهم السنن، هذا شيء معروف عن المبتدعة أنهم لا ينشطون إلا في البدع ومواسم البدع، أما السنن فإنهم من أكسل الناس عنها، وهذا عقوبة لهم من الله ﷻ ؛

لأن مَن ترك الحق ابتُلي بالباطل.

فالبدعُ لا يُتساهَلُ في شأنِها أبدًا؛ لأنها خطر علىٰ الدِّين وخطر علىٰ المسلمين، وبها يزول الدين شيئًا فشيئًا، وتحلُّ محلَّه البدع، وهذا ما يريده الشيطان لبني آدم، يريد أن يُزَحزِحَهم عن الشريعة إلىٰ البدع، وهذا ما يُريده شياطين الإنس والجن، أن يُزَحزِحوا الناس عن السنن إلىٰ البدع.

ثم إن بعضَهم أو كثيرًا منهم له مطامعُ في هذه الأمور؛ لأنه يعيش من ورائها ويأكل بها، لهم مطامع دنيوية، ولهم بها رئاسة يترأسون بها علىٰ الناس، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[التوبة: ٥٩] . لأعزَّهم الله، ولأغناهم الله، فلا شك أن العزَّ والرِّفعة في الدنيا والآخرة هي بالتمسُّك وترك البدع، هذا باب عظيم، ينبغي العناية به.

ولهذا قالرَحِمَهُ اللَّهُ : «باب: ما جاء أن البدعة أشدُّ من الكبائر».

الكبائر، هي: الذنوب الكبار؛ لأن الذنوبُ تنقسم إلىٰ قسمين: كبائر وصغائر.

فالكبائر ضابطُها: كلُّ معصية أوجَبَ الله عليها حدًّا في الدنيا، كحد الزنا، وحد السرقة، والقصاص، وحدُّ الشُّرب، هذه كبائر، أو ما عليه وعيدٌ في الآخرة، كالتوعُّد بالنار علىٰ مَنْ فعل كذا، أو باللعنة أو بالغضب، هذا ضابط الكبيرة، وما رُتِّب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة، أو خُتِمَ بغضبٍ أو لعنةٍ، أو تبرَّأ الرسولُ ﷺ من فاعله، مثل: ليس منا مَنْ فعل كذا.

أما ما جاء النهي عنه، ولم يُرتَّب عليه شيء من ذلك، وإنما هو نهيٌ فقط، فهذه ذنوب صغائر.

وأكبر الكبائر: الشركُ باللهعَزَّوَجَلَّ ؛ لأن الله أخبر أنه لا يغفر لصاحبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨] . وأما الكبائر التي دون الشرك هذا تحت المشيئة: إن شاء الله غفر لصاحبها، وإن شاء عذَّبه بها، قال تعالىٰ:

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ومرتكبُ الكبيرة دون الشرك لا يكفر عند أهل السنة والجماعة، وإنما يكون ناقصَ الإيمان فيكون فاسقًا، أما الخوارج والمعتزلة فيرون أن مرتكب الكبيرة خارج من الإسلام، والجهمية، والمرجئة، لا تضر عندهم المعاصي.

فالخوارج يُكفِّرون صاحبها، ويُخلِّدونه في النار، والمعتزلة يقولون: هو في المنزلة بين المنزلتين، لا هو بمسلم ولا بكافر، فإن مات ولم يتب فهو مخلَّد في النار، كما تقوله الخوارج.

والمرجئة، يقولون: الإيمان بالقلب، ولا تضر معه معصية.

أما أهل السنة والجماعة، فيقولون: مرتكبُ الكبيرة التي دون الشرك ناقص الإيمان، وهو تحت المشيئة، ليس بكافر؛ ولكنه ناقص الإيمان، أو فاسق، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته؛ لكنه لا يخرج من الإسلام، وهو متعرِّض للوعيد الذي توعَّد الله به.

فالبدعة أشدُّ من الكبائر من وجه أن البدعة إحداثٌ في الدين لم يشرعه الله، فصاحبها يظن أنها من الدِّين، أما مرتكب الكبيرة فلا يدّعي أن ما فعله من الدين، بل يعترف أنه عاصٍ وأنه مخالف؛ ولكن قادَتْه الشهوةُ فوقع في المعصية، ولا يدّعي أن هذا دين، بخلاف المبتدع فهو يظنُّ أن هذا من الدين، فلذلك صارت البدعةُ أشدَّ من الكبيرة.

وكذلك صاحب الكبيرة يعرف أنه مخطئ، ويُريد أن يتوب، بخلاف صاحب البدعة، فإنه لا يعترف أنه مخطئ؛ بل يرىٰ أنه مُصيب، وأن عمله هذا صحيح، ولذلك قلَّ أن يتوب المبتدع؛ لأنه يرىٰ أنه علىٰ حقٍّ، بخلاف العاصي وإن كان مرتكبًا لكبيرة فإنه يرىٰ أنه مخطئ ويخاف من العقوبة، وكثيرًا ما يتوب أصحاب الكبائر، هذا وجه كوْن البدعة أشد من الكبيرة.

▭ **قوله:** لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

■ البدعة، قد تكون شركًا، وقد تكون دون ذلك، وهي أقسام، منها: بدعة شركية تُخرج من الدين، كدعاء غير الله، والاستغاثة بالأموات، والذبح للقبور، فهذه بدعة شركية لا يغفر الله إلا بالتوبة، فإذا مات الإنسان عليها فهو مخلَّد في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾. والشركُ ابتداعٌ؛ لأن الله -جلَّ وعلا- خلق الخَلْق لعبادته، فإذا عبدوا معه غيره فقد أحدثوا في دين الله ما ليس منه، وهذا أعظم البدع، فالشِّرْك أعظم البدع -والعياذ بالله- لأنه شرعُ دينٍ لم يأذن به الله، ولا يرضىٰ به.

❑ **قوله**: وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

■ ومن وجوه كون البدعة شرًّا من الكبيرة أن المبتدع يفتري علىٰ الله الكذبَ، ويقول: هذا شرع، هذا دين، وهذا فيه أجرٌ وثواب، فهو يفتري علىٰ الله الكذب، بخلاف العاصي، فإنه لا يدّعي أن هذا دِين؛ لأنه يعرف أنه عاصٍ.

أما المبتدع فهو يفتري علىٰ الله الكذب؛ حيث يقول: إن هذا من الدِّين، وإن هذا يقرِّب من الله ﷻ ثم إن العاصي لا يُقتدىٰ به، بل الناس يذمُّونه، بخلاف المبتدع، فإنه يقتدي به الناس ويتعبَّدون ببدعته، فهو شرٌّ من مرتكب الكبيرة ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾؛ لأنهم يتبعونه، خصوصًا إذا كان له نصيبٌ من العلم، أو عنده عبادة وتُقىٰ وورع.

فالناس يغترُّون به، ويقتدون به في بدَعِه، بخلاف الزاني، وشارب الخمر، فهذه كبائر، والناس لا يقتدون بفاعلها، بل يمقتونه ويذمُّونه، فهذا أيضًا من وجوه كون البدعة شرًّا من الكبيرة.

❑ **قوله**: وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

■ وكذلك المبتدع يتحمل وِزْرَه، ووِزْرَ من اقتدىٰ به يوم القيامة؛ لأنه قدوة يقتدي به الناس، يظنون أنه علىٰ حقٍّ، وأن فِعلَه عملٌ طيب، خصوصًا إذا كان يدعو إلىٰ البدعة

ويُحسِّنها، فإنه يتحمَّل وِزْرَه ووزِرَ مَن اقتدىٰ به واتبعه، وهذا خطر عظيم، وهو خطر البِدَع والمُحدثات، وكم من بدعة انتشرت في الناس وتوارثوها جيلًا بعد جيل بسبب المُبتدع الأول الذي اخترعها، فيكون عليه نصيبٌ من آثام كلِّ مَن اتبعه، أي: عليه مثل أوزارهم، فالمبتدعة يحملون أوزارهم كاملةً يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون، نسأل الله العافية.

فهذا فيه التحذير من البدع، وأنه يلحق صاحبَها إثمٌ كبير أكبر من إثمه في نفسه؛ بل كلُّ مَنْ عمل بهذه البدعة، فإنه يلحق صاحبَها الأولَ إثمُ مَنْ عمل بها، ولهذا جاء في الحديث: «**ما قُتلت نفسٌ ظلمًا إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها**»[1]. لأنه أول مَن سَنَّ القتل؛ لأنه قتل أخاه ظلمًا وعدوانًا، فهو أول مَنْ سنَّ القتل، لذلك كلُّ من قتل نفسًا بغير حقٍّ يلحق ابنَ آدم الأول كِفلٌ أي نصيب كبير من دمها -والعياذ بالله.

❑ **قوله**: وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّه ﷺ قَالَ فِي الخَوارج: «أَينَمَا لَقِيتُمُوهُم فَاقتُلُوهُم»[2].

■ ومن البدع المستقبحة: بدعةُ الخوارج، والخوارج، هم: الذين يخرجون علىٰ وُلاة أمور المسلمين، فيخلعون السمع والطاعة، ويخرجون عليهم بالسيف، ويُكفِّرون المسلمين بالكبائر التي دون الشرك هؤلاء هم الخوارج

وقد أمر النبي ﷺ بقتلهم لكفِّ شرِّهم والقضاءِ علىٰ بدعتهم؛ لأن السُّنة والشرعية يحثان علىٰ السمع والطاعة لوُلاة أمور المسلمين؛ لِمَا يترتب علىٰ ذلك من المصالح العظيمة، واجتماع الكلمة، وحقَن الدماء، والحكم بالشريعة، وإقامة الحدود والجهاد، وغير ذلك من المصالح العظيمة، فإذا انْتَقَضَ الأمرُ ضاعت هذه المصالح، وانتشرت الفوضىٰ، وسُفكت الدماء، ونُهبت الأموال، وانتهكت الأعراض، وعُطِّلت الحدود، إلىٰ غير ذلك من الأمور، فالاجتماع والسمع والطاعة لولاة أمور المسلمين فرضٌ علىٰ المسلمين من أجل قيام مصالح الدنيا ومصالح الدين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٧)، ومسلم (١٠٦٦)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٧)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أما مَنْ خرج عن هذا فقد ابتدع في دين الله ما ليس منه، وإن كانوا يظنون أنهم يُنكرون المنكر، ويجاهدون في سبيل الله، فإنه في الحقيقة مبتدعةٌ وخارجون عن شرع الله عَزَّوَجَلَّ والذين ارتكبوه من المنكر أشدُّ من المنكر الذي يزعمون أن وليَّ الأمر فعله، أو الذي وقع منه بالفعل، فإنه حتىٰ لو كان فعله، فالخروج عليه أشدُّ مفسدةً من مفسدة ترك الإنكار عليه علانية، فيجب السمعُ والطاعةُ.

وأول بذرة الخوارج كانت في عهد النبي ﷺ حينما قال ذو الخُوَيصِرة للرسول ﷺ: «اعدِل، فإنك لم تعدل. فقال الرسول ﷺ: «**ويلك!! ومَنْ يعدل إذا لم أعدل**».

فلما ذهب الرجل، قال: **يخرجُ من ضِئْضِئِ هذا، قومٌ تَحقِرون صلاتَكم إلىٰ صلاتكم، وعبادَتَكم إلىٰ عبادتهم، يَمرُقُون من الدِّين كما يمرقُ السَّهمُ من الرميَّة، فأينما لَقِيتُموهم فاقتُلوهم**»[1]. وفي رواية: «**لئن أدركتُهم لأقتُلَنَّهم قَتْلَ عادٍ**»[2]. عادٌ: الأُمة المعروفة وهم قوم هود، وقد قتلهم الله شرَّ قِتْلة، بأن سلَّط عليهم الرِّيحَ العقيم: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. تنزِعُ الناس، أي: تحمل الناس إلىٰ عنان السماء، ثم تُنكسهم علىٰ رؤوسهم، فتندقُّ أعناقهم، ولكِبَرِ أجسامهم كأنهم أعجاز نخل، أي: جذوع النخل المجتث؛ لأن لهم أجسادًا كبيرة طويلة.

فالخوارج أمر النبي ﷺ بإيقاع العقوبة الرادعة عليهم كعقوبة قوم عاد، لشرِّهم وفسادهم، ونشر الشرَّ بسبب مذهبهم وخروجهم، فهم فئة ضالَّة وفيها خطرٌ علىٰ الأُمة، وليس الخطر علىٰ وُلاة الأمور فقط؛ بل علىٰ الأمة عمومًا، ولذلك يجب علىٰ وليِّ أمر المسلمين وعلىٰ المسلمين معه أن يقتلوهم، كفًّا لشرهم، ولذلك قاتلهم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقتل منهم مَقْتَلةً عظيمةً في (النَّهروان)، نصره الله عليهم، وخفض شوكتهم، ومازال ولاةُ الأمور والمسلمون يقاتلونهم كلَّما خرج منهم طائفة، وفي الحديث: «**كلما ظهر منهم قرنٌ قُطِعَ**»[3]. والحمد لله، فهم فئة خطيرة علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٧)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٤) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المسلمين، مذهبهم أنهم يرون خَلْعَ السمع والطاعة، والخروجَ علىٰ وليِّ الأمر بالسلاح، وتكفير ولي الأمر، وتكفير المسلمين، ويستحلُّون دماءهم.

وفي الحديث: «**أنهم يَقتُلون أهلَ الإسلام، ويَدَعُونَ أهلَ الأوثان**»(١). هذا تاريخُ الخوارج، لم يُذكر أنهم قاتلوا الكفار أبدًا، وإنما يقتلون المسلمين، ويستحلُّون دماءهم وأموالهم، نسأل الله العافية.

❏ **قوله:** وَفِيهِ أَنَّهُ ﷺ نَهَىٰ عَن قَتلِ أُمَرَاءِ الجَورِ مَا صَلَّوا.

■ قوله: «وفيه» أي: في الصحيح، وهذا في «صحيح مسلم»(٢): أن النبي ﷺ نهىٰ عن قتل أُمراء الجَوْر؛ يعني: الأمراء، الذين يجورون في الحكم، ويظلمون الناس، ولو كانوا فسّاقًا، فإنها لا تنخلع طاعتهم، وفسقهم ضررُه عليهم.

وأما فعل الخروج فضرره علىٰ المسلمين، وهذا من ارتكاب أخفِّ المفسدتين؛ لدفع أعلاهما، لا شكَّ أن المعصية ضررٌ أكثر، وفي قوله: «ما صلُّوا» هذا دليل علىٰ مكانة الصلاة في الإسلام، وأن مَنْ ترك الصلاة فقد كفر، بخلاف الذين يقولون: الدِّين ليس هو الصلاة، وأن الإنسان مسلم، ولو لم يصلِّ.

فالرسول ﷺ منع من القتل، ومنع من الخروج علىٰ ولي الأمر ما دام يصلي، وإن كان عنده مخالفات ومعاصٍ دون الكفر فإنه يُصبَرُ عليه لما في ذلك من المصلحة العظيمة التي تربو علىٰ مفسدة معصيته في نفسه، فإن معصيته ضررها قاصر عليه هو، أما شقُّ عصا الطاعة والخروجُ فضرره علىٰ الإسلام والمسلمين.

والحديث أصله أن النبي ﷺ قال: «**خيارُ أئمتكم الذين تحبُّونهم ويُحبُّونكم، وتُصلّون عليهم، ويُصلُّون عليكم، وشرارُ أئمتكم الذين تُبغضُونهم ويُبغضُونكم، وتلعَنُونهم ويَلعَنُونكم**». قيل: يا رسول الله، ألا نُنابِذُهم. قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (١٨٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٥) من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❑ **قوله:** وَعَن جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، فَقَالَ ﷺ: «مَن سَنَّ فِي الإِسلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجرُهَا وَأَجرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن بَعدِهِ مِن غَيرِ أَن يَنقُصَ مِن أُجُورِهِم شَيءٌ، وَمَن سَنَّ فِي الإِسلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيهِ وِزرُهَا وَوِزرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن غَيرِ أَن يَنقُصَ مِن أَوزَارِهِم شَيءٌ»(١).

■ **سبب هذا الحديث:** أنه جاء قومٌ من مُضَر إلىٰ النبي ﷺ بَدَا عليهم الفقرُ والحاجة، وملابسهم رِثَّة، فَرَقَّ النبيُّ ﷺ لهم؛ لأنه كان -عليه الصلاة والسلام- نبيَّ الرحمة، فلما رأىٰ حالهم وبؤسهم وفقرهم رقَّ لهم ﷺ، فنادىٰ بالصلاة، ثم اجتمع الناسُ، ثم خَطَبَ ﷺ وحثّ علىٰ الصدقة، ورغَّب فيها، فجعل الناس يتصدقون، هذا يتصدق بالقبضة من الطعام، وهذا يتصدق بكذا وكذا.

حتىٰ جاء رجلٌ معه صُرَّة من الذهب، كادت يده أن تعجِزَ عنها ووضعها بين يدي الرسول ﷺ، فتهلَّلَ وَجْه الرسول ﷺ وسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، وتتابع الناسُ لما رأوا هذا الرجل فنشطوا علىٰ الصدقة، وتتابعوا عليها، حتىٰ اجتمع شيءٌ كثيرٌ من الصدقات عند الرسول ﷺ، فقال: «**مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرها، وأجر مَنْ عمل بها**». لأن هذا الرجل سنّ سنة حسنة واقتدىٰ به الناس وتصدقوا.

ومعنىٰ «سَنَّ في الإسلام سُنةً حسنةً»: يعني: أَحيا سنةً؛ لأن الصدقة سُنَّة، فهذا الرجل أحياها، وأتىٰ بمالٍ كثير، فتشجَّع الناسُ وتتابعوا للصدقة فكان هو السبب في هذا، فله أجرُها وأجر من عمل بها، وهذا عامٌّ.

وأما سبب الحديثُ فهو هذه القصة؛ لكن العِبْرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الحديث عامٌّ في كل مَنْ فعل خيرًا، واقتدىٰ به الناسُ في ذلك الخير، أيًّا كان هذا الخير إذا اقتدىٰ الناس به فيه، أصبح قُدْوةً حسنة، فله أجرُ عمله، وأجر من اقتدىٰ به.

«ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئة». هذه هي البِدْعة، أي: أحدثَ بدعةً ليس لها

---

(١) برقم (١٠١٧).

أصل «فعليه وِزرُها ووزرُ مَنْ عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيء». فهذا فيه التحذيرُ من البدع، وفيه الحثُّ علىٰ إحياء السُّنن؛ لأن الرسول ﷺ أثنىٰ علىٰ هذا الذي أحيا هذه السنة.

وفيه التحذير من إحياء البدع، وإحداث البدع، وأن شرَّها لا يقتصر علىٰ مَنْ فعلها؛ بل يذهب قسطٌ منه إلىٰ مَنْ أحدث هذه البدعة، طال الزمنُ أم قَصُر، فهذا فيه التحذير من البدع، وأنها سُنن سيئة، والمراد بالسنة في اللغة: الطريقة.

❑ **قوله**: وَلَهُ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَفظُهُ: «مَن دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ...»، ثُم قَالَ: «مَن دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ...»[1].

■ في هذا الحديث أن: **«مَن دعا إلىٰ هُدىٰ كان له من الأجر مثل أُجور مَنْ تبعه لا ينقصُ من أجورِهم شيئًا، ومَنْ دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم، مثلُ آثام مَنْ تبعه، لا ينقص من آثامِهم شيئًا»**.

هذا فيه فضلُ الدعوة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الأجر لمَنْ فعل ذلك، أنه يحصل له أجره، ويحصل له مثل أجور من اقتدَوْا به، وساروا علىٰ منهجه إلىٰ يوم القيامة، فالله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. فالدعوة إلىٰ الله فضلُها عظيم وخيرها كثيرة، وهي سُنَّة الرسول ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

أما الذي يدعو إلىٰ الضلال والبدع والمحدثات كالذي يدعو إلىٰ عبادة القبور والأضرحة فإنه يدعو إلىٰ ما يخالف الدِّين، مثلما هو حاصلٌ الآن من الترغيب في البدع والمعاصي والمخالفات، فمَنْ فعل ذلك فعليه إثمُه، وإثمُ من اقتدىٰ به وسَلَك منهجه إلىٰ يوم القيامة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

وهذا فيه التحذيرُ من دُعاة الضلال، ويدخل في هذا الدُّعاةُ إلىٰ البِدْعة؛ لأن البدعة ضلالةٌ، كما قال النبي ﷺ: «**فإن كلَّ مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1].

فالذي يدعو إلىٰ البِدَع، يدعو إلىٰ الضَّلالة، ويكون عليه إثمُه، وإثمُ من اقتدىٰ به.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اللَّهَ احتَجَزَ التَوبَةَ عَلَى صَاحِبِ البِدعَةِ

هَذَا مَرويٌّ مِن حَدِيثِ أَنَسٍ وَمن مَراسِيلِ الحَسَنِ.

وَذَكَرَ ابنُ وَضَّاحٍ عَن أَيُّوبَ قَالَ: كَانَ عِندَنَا رَجُل يَرَىٰ رَأيًا فَترَكَهُ، فَأَتَيتُ مُحَمَّدَ بنَ سِيرِينَ، فَقُلتُ: أَشَعَرتَ أَنَّ فُلانًا تَرَكَ رَأيَه؟ قَالَ: انظُر إِلَىٰ مَاذَا يَتَحَوَّلُ؟ إِنَّ آخِرَ الحَدِيثِ أَشَدُّ عَلَيهِم مِن أَوَّلِهِ: «**يَمرُقُونَ مِنَ الإِسلَامِ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيهِ**».

وَسُئِلَ أَحمَدُ بنُ حَنبَل عَن مَعنَىٰ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: لا يُوفَّقُ لِلتَّوبَةِ.

الشَّرح

❑ **قوله**: بَابُ مَا جَاء أَنَّ اللهَ احتَجَزَ التَوبَةَ عَلَىٰ صَاحِبِ البِدعَةِ.

■ هذا في بيان الوجوه التي تكون فيها البدعةُ شرًّا من الكبيرة، فمن الوجوه: أن صاحبها لا يُوفَّق للتوبة، ويُصرُّ علىٰ بدعته، هذا هو الغالب؛ لأنه يَرَىٰ أنه علىٰ حقٍّ، وأنه مصيبٌ، وأن ما عمله من الدِّين، وأنه خيرٌ، فلا يُفكِّر أن يترك البدعة، بخلاف العاصي، فإنه يعرف أنه مخطئٌ وأنه مخالف، ويخاف من الله ويتوقع العقوبة، فلذلك سرعانَ ما يتوب العاصي ويخجل، بخلاف المبتدع فإنه لا تظهر عليه الندامة؛ ولكنه مسرورٌ ببدعته، ويدعو إليها، فهذا من مساوئ البدع: أن صاحبها يقعُ فيها، ويدعو إليها، ومن مساوئ البدع: أن صاحبها لا يوفَّق للتوبة بخلاف مرتكب الكبيرة فإنه كثيرًا ما يوفق للتوبة.

❑ **قوله**: هَذَا مَرويٌّ مِن حَدِيثِ أَنَسٍ وَمن مَراسِيلِ الحَسَنِ.

■ يعني: هذا الأثر: «إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة». هذا مرويٌّ عن الرسول ﷺ مرفوعًا[1]، ومرسلًا عن الحسن.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٣٨).

❑ **قوله**: وَذَكَرَ ابنُ وَضَّاح عَن أَيُّوبَ قَالَ: كَانَ عِندَنَا رَجُل يَرَىٰ رَأْيًا فَتَرَكَهُ، فَأَتَيتُ مُحَمَّدَ بنَ سِيرِينَ، فَقُلتُ: أَشَعَرتَ أَنَّ فُلانًا تَرَك رَأيه؟ قَالَ: انظُر إِلَىٰ مَاذَا يَتَحَوَّلُ؟ إِنَّ آخِرَ الحَدِيثِ أَشَدُّ عَلَيهِم مِن أَوَّلِهِ: «يَمرُقُونَ مِنَ الإِسلَام، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيهِ»[1].

■ هذا رجلٌ كان علىٰ بدعة الخوارج، فتركها، فسُرَّ الذي رآه وفرح، وذهب لمحمد بن سِيرين وهو من أئمة التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبَشَّره أن فلانًا تحول عن رأيه، فما سُرَّ ابنُ سرين بذلك، بل قال له: انظر إلىٰ ماذا يتحوَّل؛ لأنه ليس بتاركٍ البدعةَ إلىٰ السنة؛ ولكن إلىٰ بدعة ثانية، هذا من فِقْه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لماذا؟ لأن الرسول ﷺ، قال: «يمرقونَ من الدِّين، ثم لا يعودُون إليه».

فابن سيرين لم يتوقع منه التوبةَ البدعة؛ ولكن توقع منه أن يخرج من بدعته إلىٰ بدعةٍ شرٍّ منها؛ لقوله ﷺ: «يمرُقون من الدِّين، كما لا يَعودُون إليه». وهذا هو الغالبُ عليه، وهذا مشاهد في خوارج اليوم إذْ لم تنذرهم ليلًا ونهارًا، وتحذِّرهم وتنذرهم ما تحوَّلوا عن بدعتهم أبدًا، هذا شيء مُشاهَد؛ لأنهم يرون أنهم علىٰ حقٍّ، وعلىٰ صواب، ويُزيِّن لهم الشيطان هذا، ولا يَرَوْنَ أنهم إلا علىٰ حق، فالإنسان إذا لم يعترف بالخطأ، فإنه يُبتلَىٰ بما هو أشد.

وهذا شأن المبتدعة، وهذا من فِقْه الإمام محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يتوقع أن الخارجي يتوب من البدعة؛ لكن توقَّع منه أن يذهب إلىٰ بدعة أشدّ، وذلك أخذًا من قول الرسول ﷺ: «يمرقون من الدين، ثم يعودون إليه». فالرسول لا ينطق عن الهوىٰ، ولابد أن يقع ما أخبر به ﷺ.

❑ **قوله**: وَسُئِلَ أَحمَدُ بنُ حَنبَل عَن مَعنَىٰ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: لا يُوَفَّقُ لِلتَّوبَةِ.

■ سُئل عن قوله ﷺ: «يمرقون من الدِّين، لا يعودون إليه». يعني: لا يُوفَّقون للتوبة؛ لأن التوبة هي الرجوع، يُقال: تاب إذا رَجَعَ، تاب أو أناب: إذا رجع عن خطئه، فهم لا يتوبون.

---

(١) أخرج الحديث بنحوه البخاري (٧٥٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (١٠٦٧) من حديث أبي ذر.

بَـابُ

قَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧]. وَقَولِهِ: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وَفِيهِ حَدِيثُ الخَوَارِجِ، وَقَد تَقَدَّمَ.

وَفِيهِ: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيسُوا لِي بِأَولِيَاءَ؛ إِنَّمَا أَولِيَائِي المُتَّقُونَ**».

وَفِيهِ أَيضًا عَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ بَعضَ الصَّحَابَةِ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَلا آكُلُ اللَّحمَ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَلا أَنَامُ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَلا أُفطِرُ.

فَقَالَ ﷺ: «**لَكِنَّنِي أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَآكُلُ اللَّحمَ؛ فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي**».

فَتَأَمَّل إِذَا كَانَ بَعضُ الصَّحَابَةِ لَمَّا أَرَادُوا التَّبَتُّلَ لِلعِبَادَةِ قِيلَ فِيهِ هَذَا الكَلَامُ الغَلِيظُ، وَسُمِّيَ فِعلُهُ رُغُوبًا عَنِ السُّنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيرِ هَذَا مِنَ البِدَعِ، وَمَا ظَنُّكَ بِغَيرِ الصَّحَابَةِ؟!!

الشَّـرح

❑ **قوله**: بَابُ قَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧].

■ أهل الكتاب، هم: اليهود والنصارىٰ، لما دعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ الإسلام، وقال: إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض، قالوا: لا نتبعك، نحن علىٰ دِين إبراهيم، فالله -جلَّ وعلا- ردَّ عليهم، وقال: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]. ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]. يعني: أن كلًّا

منكم يدّعي أن إبراهيم علىٰ دينه، فاليهود يقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا، والنصارىٰ تقول: إن إبراهيم كان نصرانيًّا، يا سبحان الله! التوراة والإنجيل متىٰ أُنزلت، لم تنزل إلا بعد إبراهيم بمدة طويلة، فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا، هذا يكذبه الواقع: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

هذا لا يقوله عاقل، أن المتقدم يتبع المتأخر، بل العكس هو الصحيح: المتأخر يتبع المتقدم، فليس إبراهيم بيهودي؛ لأن التوراة ما أُنزلت إلا بعده، ولا بنصراني، فالإنجيل نزل بعده علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهذا من العبث بالعقول، والتضليل المكشوف.

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ [آل عمران: ٦٧]. أي: مُخلِصًا لله عَزَّ وَجَلَّ في العبادة ﴿مُّسۡلِمٗا﴾. يعني موحِّدًا، فالإسلام هو التوحيد وهو دينُ جميع الأنبياء، وهو إفرادُ الله -جلَّ وعلا- بالعبادة، وإن اختلفت شرائعهم، فكل شريعة كانت لحاجة تلك الأُمَّة، حسبَ مصلحتها.

فالإسلام هو: عبادة الله وحده لا شريك له، بما شرعه في كل وقت بحَسَبِه، فالذين آمنوا بالتوراة وعملوا بها في وقت العمل به كانوا مسلمين، والذين آمنوا بالإنجيل وعملوا به في وقت العمل به كانوا مسلمين، والذين آمنوا بالقرآن وعملوا به في وقته هم مسلمون؛ لأن الجميع موحِّدون، فالتوحيد هو دِين جميع الرسل، والإسلام هو دين جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

☐ **قوله**: وَقَولِهِ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: ١٣٠].

■ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾. يعني: مَنْ يتركها، فالرغبةُ عن الشيء: تركُه، أما الرغبة في الشيء فإنها طَلَبه.

وملة إبراهيم هي التوحيد والإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾.

والسَّفَه، هو: الخِفَّة في العقل، فهو سفيه في نفسه، وهو يزعم أنه عاقل، وأنه حكيم، ومدركٌ للأمور؛ ولكنه في الحقيقة سِفيهٌ، فالذي يترك مِلَّة إبراهيم ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾. يعني: اخترنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أخلص دينَه لله عَزَّوَجَلَّ، وترك عبادة الأوثان والأصنام، وكسَّرها وحطَّمها، وتبرَّأ من أهلها، وحصل له ما حصل من الإيذاء علىٰ ذلك ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أسلم: يعني: انقد لرب العالمين عَزَّوَجَلَّ، ولا تنقد لغيره.

❑ **قوله**: وَفِيهِ حَدِيثُ الخَوَارِجِ، وَقَد تَقَدَّمَ.

■ أي: في هذا الباب الحديث الذي في أول الباب الذي قبله: «**يَمرُقونُ من الدِّين، كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّة، ثم لا يَعُودون إليه**». هذه بدعة الخوارج.

❑ **قوله**: وَفِيهِ: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيسُوا لِي بِأَولِيَاءَ؛ إِنَّمَا أَولِيَائِي المُتَّقُونَ»(١).

■ «**ليسوا لي بأولياءَ**». من الوَلاية، وهي المحبة، أما الوِلاية -بالكسر-، فهي: المُلْكَ والسُّلطة، فالرسولُ ﷺ يتبرأ ممَّن ليس علىٰ دِين التوحيد، ولو كان من أقاربه في النسب، فإنه لا يحبه، وليسوا له بأولياء، يعني: لا يحبُّهم ما داموا علىٰ غير دِينه ﷺ، ولكن أولياء الرسول هم المتقون، سواء كانوا من أقاربه أو من غيرهم.

فسلمانُ الفارسيُّ، وبلال بن رَبَاح الحَبَشيُّ، وصُهيبٌ الرُّومي، هؤلاء ليسوا من أقاربه، وإنما هم من الموالي، ومع هذا صاروا أقرب الناس إلىٰ الرسول ﷺ، وأحبُّهم إليه؛ لأنهم مؤمنون، بينما أبو لهبٍ عدوٌّ له ﷺ، وهو عمَّه أخو أبيه، ومع هذا فقد تبرَّأ منه ﷺ، فليست المسألة مسألةَ قرابة، ولا شرفَ للقرابة من الرسول ﷺ بدون الدِّين.

أما إذا كان علىٰ دين الرسول ﷺ فله شرفُ القرابة وشرفُ الدِّين، فيجتمع له

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه عندهما: «**إنما وليي الله وصالح المؤمنين**».

الشرفان، أما إذا لم يكن عنده دين، فلا تنفعه صلة القرابة أبدًا مع مخالفة الدِّين، ولهذا تبرأ ﷺ من آل أبي فلانٍ، فقال: «**ليسوا لي بأولياء**». فإن أولياءَهُ المتَّقُون، من أيِّ جنسٍ كانوا.

فهذا فيه البراءة من المشركين، ولو كانوا من قرابة الرسول ﷺ، وفي الحديث: «**مَنْ بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(١).

❑ **قوله**: **وَفِيهِ أَيضًا عَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ بَعضَ الصَّحَابَةِ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَلا آكلُ اللَّحمَ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَلا أَنَامُ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَلا أُفطِرُ.**

فَقَالَ ﷺ: «لَكنني أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَآكلُ اللَّحمَ؛ فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي»(٢).

■ هذا الحديثُ في الصحيح، هؤلاء جماعة من الصحابة يَرغَبُون في الخير والعبادة والطاعة، فجاءوا يسألون عن عبادة الرسول ﷺ؛ لأجل أن يَقتَدُوا به، فلما أُخبروا عن عبادته ﷺ فكأنهم تَقالُّوها، ثم قالوا: الرسول ﷺ ليس مِثلَنا، فالرسولُ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، وما تأخَّر، فهو ليس بحاجة إلىٰ العبادة.

فلما بلغ ذلك الرسولَ ﷺ غضب واشتدَّ غضبُه، وقال: «**ما بالُ أقوامٌ يقولون: كذا وكذا، أمَا إني أخوفُكم لله، وأتقاكم له، وإني أصلِّي وأنامُ وأصومُ وأُفطر، وأتزوَّجُ النساء، وآكلُ اللحمَ، فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي، فليس منِّي**».

فهذا فيه التحذير من الغلوِّ في العبادة، وهو الزيادة والتشديد علىٰ النفس، فالدِّين وسطٌ -ولله الحمد-، واعتدال، فلا تَشُقُّ علىٰ نفسك وتُحمِّلها ما لا تطيق، والرسول ﷺ حذَّر من الغلوّ في أحاديث كثيرة، وهي الزيادة في العبادة؛ بل عليك أن تَرفُق بنفسك، والإنسان إذا اقتصد في العبادة، وتوسَّط فيها، فإنه يداوم عليها.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

أمَّا إذا اشتدَّ في العبادة، فإنه يَمَلُّ ويتركها، هذا شيء معروف، قال ﷺ: «**إن المُنبتَّ لا أرضًا قطعَ ولا ظهرًا أبقَىٰ**»(١).

والإنسانُ بشرٌ لا يتحمل، فإذا شدّد علىٰ نفسه لم يستطع، وفي النهاية يترك العمل، وهذا مشاهد معروف، فهناك أناسٌ رأيناهم يتشدَّدون، ثم في النهاية انحلُّوا من الدِّين، كان هؤلاء عُرِفَ عنهم التشدُّدُ والغلوُّ، وفي النهاية أصبحوا منحرفين عن الدِّين، هذه آفة الغلوِّ -والعياذ بالله-.

أما الاعتدالُ والتوسطُ، فهذا سبيلٌ إلىٰ الاستمرار والثبات، وهذه هي سنةُ الرسول ﷺ، وهذا فيه الحثُّ علىٰ الاقتصاد في العبادة، والاقتداء بالرسول ﷺ، وترك الغلوّ والتشدّد؛ لأن هذا بِدْعة مخالفة لسُنَّة الرسول ﷺ.

وقوله: «**مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي، فليس منِّي**». هذا كقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ**﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقد تبرَّأ الرسول ﷺ منه، فهذا فيه التحذير من بدعة الغلوِّ وبدعة التشدُّد، والحثُّ علىٰ الاعتدال والتوسط في الأمور كلّها، والدين وسطٌ ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. هذا هو السبيل الصحيح، وهو طريقة الرسول ﷺ، فلا يتقالُّ الإنسانُ المسلم عملَ الرسول ﷺ؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- هو القُدْوة ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١]. فهذا ليس تساهلًا ولا غلوًّا، ولكنه توسط، لا إفراط ولا تفريط، ودِين الله بين الغالي والجافي.

الغالي المتشدِّد، والجافي المنحلّ الذي يقول: إن الدِّين ليس بالصلاة والعبادة، الدين بالقَلْب، ويترك الأعمال، هذا جافٍ، وكذلك الذي يتشدد في العبادات ويشقُّ علىٰ نفسه، فهو غالٍ، والدين هو الوسط والاعتدال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟**﴾ [هود: ١١٢]. الطغيان هنا التشدد والغلو -والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٣/ ١٨ و١٩) من حديثي جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

❑ **قوله**: فَتَأَمَّلْ إِذَا كَانَ بَعضُ الصَحَابَةِ لَمَّا أَرَادُوا التَّبَتُّلَ للعِبَادَةِ قِيلَ فِيه هَذَا الكَلَامُ الغَلِيظُ، وَسُمِّيَ فِعلُهُ رُغُوبًا عَنِ السُّنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيرِ هَذَا مِنَ البِدَعِ، وَمَا ظَنُّكَ بِغَيرِ الصَّحَابَةِ؟!!

■ إذا كان هؤلاء الصحابة، والصحابة هم خيرُ القرون، ولمّا همُّوا بهذه الهَمّة، أَنكر عليهم النبي ﷺ، وغَلّظَ عليهم وهم صحابة، فكيف بغيرهم من متأخِّري القرون الذين تجاوزوا الحدودَ في الغلوِّ والتطرف، أو في التساهل والمُيُوعة، فدين الله جل علا وسطٌ واعتدالٌ وصراط مستقيم، ليس فيه مَشَقَّة علىٰ النفوس، وليس فيه تساهل وضياع، وإنما هو دِين سَمْحٌ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فالله عَزَّوَجَلَّ لا يريد أن يجعل عليكم من حرج.

فالدِّين ليس فيه حرج، ولا تشدّد، ولا غلوٌّ، كما أنه ليس فيه تساهل، وإنما هو وسط بين الطرفين، هذه مِلَّةُ محمد ﷺ، الاعتدالُ دائمًا وأبدًا، ولا يبقىٰ الإنسان علىٰ الدِّين بهذه الطريقة؛ لأنه إذا تساهل خرج من الدِّين، وإذا تشدَّد خرج من الدين أيضًا، ولا يثبت إلّا إذا كان علىٰ الوسطية والاعتدال.

بَابٌ

قَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وَقَولهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وقولهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاةً مِنَ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ وَلِيِّي أَبِي إِبرَاهِيمُ وَخَلِيلُ رَبِّي**»، ثُمَّ قَرَأَ: «﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]». رواه التِّرمِذيُّ.

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللّهَ لا يَنظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُم وَأَموَالِكُم، وَلَكِن يَنظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُم وَأَعمَالِكُم**».

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «**أَنَا فَرَطُكُم عَلَىٰ الحَوضِ، وَلَيُرفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنكُم حَتَّىٰ إِذَا أَهوَيتُ لأناوِلَهُمُ اختُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَي رَبِّ، أَصحَابِي! يَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدرِي مَا أَحدَثُوا بَعدَكَ**».

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**وَدِدتُ أَنَّا قَد رَأَينَا إِخوَانَنَا**».

قَالُوا: أَوَلَسنَا إِخوَانَكَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟!

قَالَ: أَنتُم أَصحَابِي، وَإِخوَانُنَا هُمُ الَّذِينَ لَم يَأتُوا بَعدُ.

قَالُوا: فَكَيفَ تَعرِفُ مَن لَم يَأتِ بَعدُ مِن أُمَّتِك يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: «**أَرَأَيتَ لَو أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَينَ ظَهرَي خَيلٍ دُهمٍ بُهمٍ أَلا يَعرِفُ خَيلَهُ؟**».

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**فَإِنَّهُم يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُم عَلَىٰ الحَوضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَن حَوضِي كَمَا يذادُ البَعِيرُ الضَّالُّ؛ فَأُنَادِيهِم: أَلَا هَلُمَّ، فَيقالُ: إِنَّهُم بَدَّلُوا بعدكَ، فَأَقُولُ: سُحقًا سُحقًا**».

وَللبُخَارِيِّ: «**بَينَمَا أَنَا قَائِم إِذَا زُمرةٌ، حَتَّىٰ إِذَا عَرَفتُهُم خَرَجَ رَجُل من بَينِي وَبَينِهِم**»، فَقَالَ: هَلمَّ، فَقَلت: «**أَينَ؟**»، قَالَ: إِلَىٰ النَّار. قلت: «**وَمَا شَأنهم؟**» قَالَ: إِنَّهُم ارتَدّوا بَعدَكَ عَلَىٰ أَدبَارِهِمُ القَهقَرَىٰ، ثُمَّ إِذَا زُمرَةٌ... فَذَكرَ مِثلَهُ... قَالَ: «**فَلا أُورَاهُ يَخلُصُ مِنهم إِلا مِثل هَمَلِ النَّعَمِ**».

وَلَهُمَا مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٧، ١١٨]».

وَلَهُمَا عَنهُ مَرفُوعًا: «**مَا مِن مَولُودٍ يُولَدُ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُنَصِّرَانِهِ، أَو يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنتَجُ البَهِيمَةُ؛ بَهِيمَةً جَمعَاءَ هَل تُحِسُّون فِيهَا مِن جَدعَاءَ حَتَّىٰ تَكُونُوا أَنتُم تَجدَعُونَهَا**». ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَعَن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يَسأَلُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ الخَيرِ، وَكُنْتُ أَسأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَن يُدْرِكَني، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّة وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيرِ، فَهَل بَعدَ هَذَا الخَيرِ مِن شَرٍّ؟

قَالَ: «**نَعَم**».

فَقُلتُ: وَهَل بَعدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِن خَيرٍ؟

قَالَ: «**نَعَم، وَفِيهِ دَخَنٌ**».

قُلتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟

قَالَ: «**قَومٌ يَستَنُّونَ بِغَيرِ سُنَّتِي وَيَهتَدُونَ بِغَيرِ هَدِيي، تَعرِفُ مِنهُم وَتُنكِرُ**».

قُلتُ: فَهَل بَعدَ ذَلِكَ الخَيرِ مِن شَرٍّ؟

قَالَ: «نَعَم، فِتنَةٌ عَمياءُ، وَدُعَاةٌ عَلَىٰ أَبوَابِ جَهَنَّمَ، مَن أَجَابَهُم إِلَيهَا قَذَفُوه فِيهَا».

قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفهُم لَنَا؟

فَقَالَ: «هُم مِن جِلدَتِنَا ويَتَكَلَّمُونَ بِألسِنَتِنَا».

قُلتُ: فَمَا تَأمُرُني إِنْ أَدركني ذَلِكَ؟

قَالَ: «تلزَمُ جَمَاعَةَ المُسلِمِينَ وَإِمَامَهُم».

قُلتُ: فَإِن لَم يَكُن لَهُم جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟

قَالَ: «فَاعتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَو أَن تَعَضَّ عَلَىٰ أَصلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يدرِكَكَ المَوتُ وَأَنتَ عَلَىٰ ذَلِكَ». أَخرَجَاهُ.

وَزَادَ أَبُو دَاود: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «يَخرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهرٌ وَنَارٌ، فَمَن وَقَعَ فِي نَارِه، وَجَبَ أَجرُهُ وَحُطَّ عَنهُ وِزرُهُ، وَمَن وَقَعَ فِي نَهرِهِ وَجَبَ وِزرُهُ وَحُطَّ أَجرُهُ».

قَالَ: قُلتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثمَّ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ».

قَالَ أَبو العَالِيَةِ: «تَعَلَّمُوا الإِسلَامَ، فَإِذَا تَعَلَّمتُمُوهُ فَلا تَرغَبُوا عَنهُ، وَعَلَيكُم بِالصِّرَاطِ المُستَقِيم فَإِنَّه الإِسلَامُ، وَلا تَتَحَرَّفُوا عَنِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالًا، وَعَلَيكُم بِسُنَّة نَبِيِّكم، وَإِيَّاكُم وَهَذِهِ الأَهوَاءَ».

تَأَمَّلْ كَلَامَ أَبِي العَالِيَةِ هَذَا، مَا أَجَلَّهُ! وَاعرِف زَمَانَه الَّذِي يُحَذِّرُ فِيهِ مِنَ الأَهوَاءِ الَّتِي مَنِ اتَّبَعَهَا فَقَد رَغِبَ عَنِ الإِسلَام، وَتَفسِيرَ الإِسلَامِ بِالسُّنَّةِ، وَخَوفَه عَلَىٰ أَعلَامِ التَّابِعِينَ وَعُلَمَائِهِم مِنَ الخُرُوجِ عَنِ السُّنَّةِ وَالكِتَابِ، يَتَبَيَّنْ لَكَ مَعنَىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

وَقَولِه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

وَأَشبَاهُ هذه الأُصُولِ الكِبَارِ الَّتِي هِيَ أَصلُ الأُصُولِ وَالنَّاسُ عَنهَا فِي غَفلَةٍ، وَبِمَعرِفَتِهِ يَتَبَيَّنُ مَعنَىٰ الأَحَادِيثِ فِي هَذَا البَابِ وَأَمثَالِهَا، وَأَمَّا الإِنسَانُ الَّذِي يَقرَؤُهَا

وَأَشبَاهَهَا وَهُوَ آمِنٌ مُطمَئِنٌّ أَنَّهَا لا تَنالُهُ، وَيَظُنُّهَا فِي قَومٍ كَانُوا فَبادُوا: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللّه ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللّهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَن يَمِينِه وَعَن شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنهَا شَيطَانٌ يَدعُو إِلَيهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]». رواه أحمَدُ وَالنَّسَائِيُّ.

الشَّرْح

❑ **قوله**: بَابُ قَولِ اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

■ باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم: ٣٠-٣٢].

يأمر الله -جلَّ وعلا- نبيَّه بهذه الأمور في هذه الآية الكريمة، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد بذلك أن يذكر ما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من الأحاديث النبوية والآثار المروية؛ يأمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾. أي: أخلِصْ عملَكَ؛ فإقامة الوجه وإسلام الوجه معناه: إخلاص العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ١١٢].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: يعني: أخلَصَ عملَه من الشِّرك ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. أي: متَّبع للرسول ﷺ، وأخلَصَ عملَهُ أيضًا من البِدَع والمحدثات؛ فإذا اجتمع هذان الشرطان: الإخلاص لله بالنية، والاتباع للرسول ﷺ في العمل، انتفىٰ عن العمل الشركُ، وانتفىٰ

عنه الابتداع في الدِّين، هذا هو الذي يقبله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ الدِّين الذي أمَرَكَ الله به، وهو عبادة الله وحده لا شريك به، والدِّين هو التوحيد، وهو العمل وهو الصلاة والصيام، وجميع ما شرعه الله من العبادات، فهذا هو الدِّين ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ هذا وصفٌ للدين، أي: المعتدل، الذي ليس فيه غلوّ، وليس فيه تساهُل؛ بل هو دين قيِّم معتدل بين طرفي الإفراط والتفريط.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. مستقيمًا، يعني: معتدلًا بين الإفراط والتفريط، وبين الغلوّ والجفاء، هذا هو الدِّين الذي بعث الله به رُسُله، وخاتمهم محمد ﷺ.

فقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ والحنيف معناه: المقبل علىٰ الله، المُعْرِض عمّا سواه، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]. والحنيف والقيِّم معناهما واحد، وهو المقبل علىٰ الله، المُعْرِض عمَّا سواه، فلا دعوة مع الله أحد، ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. أي: أن هذا الدين، وهذا الإسلام هو الفطرة التي خلق الناس عليها، فالفطرة هي دين الإسلام، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**كلُّ مولودٌ يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»[(١)].

فالأصل في الإنسان أنه مسلمٌ، وأنه مفطورٌ علىٰ الإسلام، وهو إخلاص الدين لله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الأصل فيه، فإذا انحرف، فالانحراف طارئ عليه بسبب التربية السيئة التي يربيه عليها والداه.

يهوِّدانه: يجعلانه يهوديًّا، أو ينصرانه: يجعلانه نصرانيًّا، أو يُمجِّسانه: يجعلانه مجوسيًّا، علىٰ أن الإنسان مفطورٌ علىٰ الإسلام في الأصل، وهو إخلاص العمل والعبودية لله عَزَّوَجَلَّ، ولو سلم من التربية السيئة والوالدين الكافرين لاتَّجه إلىٰ دين الإسلام، واتبع الرُّسُلَ؛ ولكنه ينحرف بسبب الدُّعاة إلىٰ الضلال.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾. لا أحد يخلق إنسانًا علىٰ الشِّرْك أبدًا، ولا يستطيع أحد أن يخلق إنسانًا علىٰ الشرك؛ بل الله خلقه علىٰ التوحيد، ولا يستطيع أن يغيِّر هذا الخَلْق، وإنما يغيِّر المخلوق، ليس هناك إنسان يخلق إلّا علىٰ دين الإسلام.

ولهذا جاء في الحديث: «**فأبواه يهوّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترىٰ فيها جدعاء**»(١). أي: كالشاة التي تولد، تولد كاملة الخِلْقة، سليمة الأطراف، سليمة من العيوب، لها أذنان، ثم أهلها يجدعونها، يعني: يشقون أذنها، فلا توجد شاة تُولد مشقوقة أذان؛ بل تخلق كاملة الخِلْقة، ثم أهلها يجدعونها أي: يشقون أذنيها، يغيّرونها بعد الخَلْق، يغيرون الخلوق، ولا يغيرون الخَلْق أبدًا، فخَلْق الله لا يتغيَّر.

فالشاة تُولد كاملة بآذانها وقرونها وأظْلَافها وأطرافها، فإن حصل عليها عَرَجٌ أو جدعٌ في قرنها أو أذنها، فإن هذا من تصرف الإنسان، هكذا ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾. التبديل إنما هو للمخلوق، وأما الخَلْق خاصٌّ بالله عَزَّوَجَلَّ، لا أحد يتدخل في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. ذلك الذي أوحاه الله إليك، وهو إفراد الله -جلَّ وعلا- بالعبادة، وترك عبادة ما سواه ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا غُلوّ ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. يجهلون هذا الدين.

ولذلك يقعون فيما يقعون فيه من الضلال والانحراف، وإلا فالدِّين قيِّم مستقيم، وإن حصل انحراف فهو تصرّف الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾. انظر إلىٰ قوله: ﴿أَكْثَرَ﴾: فهو يفيد أنه لا يحتجُّ بالكثرة إذا كانت علىٰ ضلال وعلىٰ خطأ، وإنما يحتج بمَنْ كان علىٰ الحق، ولو كان قليلًا، ولا يحتج بمَنْ كان علىٰ الباطل، ولو كان عددهم كثيرًا: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون الدِّين القيم، ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من الإخلال بهذا الدين والانحراف عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

❑ **قوله**: وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

■ **ووصّىٰ بها أي**: بكلمة التوحيد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيه إسماعيل وإسحاق، ويعقوب -وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم هو إسرائيل -وصّي بها بنيه أيضًا، وصّاهم بكلمة التوحيد، كلمة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والتوصية: معناها: أن الموصي عند موته يُوصي ذريته، أو مَنْ حوله بتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والوصية عند الفقهاء: الإذن بالتصرف بعد الموت، هذه الوصية تكون بالأموال، وتكون في الدِّين، وذلك بالحثِّ علىٰ التمسك بالدِّين.

فإبراهيم ويعقوب -إبراهيم الذي هو أبو الأنبياء، ويعقوب الذي هو أبو بني إسرائيل- كلاهما أوصىٰ ذريّته بكلمة التوحيد، والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والدِّين الحق، وهكذا يجب علىٰ الوالد أن يُربِّي أولاده علىٰ طاعة الله، وأن يُوصِّيهم -إذا حضره الموت- بالثبات علىٰ الدِّين، والبقاء علىٰ التوحيد، وهذا من حرص الأبوين الكريمين إبراهيم ويعقوب علىٰ ذريتهما.

﴿يَـٰبَنِىَّ﴾: هذا نداء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾: أي: اختيار التوحيد لكم؛ لأنهم أولاد الأنبياء، ومن ذرية الأنبياء، فهم أولىٰ أن يتمسكوا بهذا الدين، وأن يكونوا قدوةً للناس ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

هذه وصية بالتمسك بالدِّين إلىٰ الممات، وذلك بالعمل به، والثبات عليه، والحذر مما يخالفه من البِدَع، والشرك، والدعوة إلىٰ الضلال، فمادام الإنسان علىٰ قيد الحياة، فإنه عُرْضة للانحراف، واتباع دُعَاة الضلالة إن لم يثبته الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا فيه دليل علىٰ أن العِبْرة بالخاتمة، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. مسلمون لله بالتوحيد.

فالإسلام يُراد به التوحيد، وهو دين جميع الرسل، وكل الرسل جاءوا بالتوحيد، وهو إسلام الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، والإخلاص، والابتعاد عن الشرك ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. هذا حثٌّ علىٰ الثبات علىٰ هذا الدِّين، وعدم الالتفات إلىٰ ما خالفه، وفيه

أن العِبْرة بالخواتيم، وأن الإنسان بحسب ما يختم له من خيرٍ أو شرٍّ.

وفي الحديث الصحيح: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**»(١).

العِبْرة بالخاتمة التي يموت الإنسان عليها؛ ولكن علىٰ الإنسان أن يعمل أعمالًا تكون سببًا لحُسْن الخاتمة، ويبتعد عن الأعمال التي تكون سببًا لسوء الخاتمة، والأعمال كثيرة، والإنسان مادام علىٰ قيد الحياة، فهو مُعرَّض للانحراف والفتنة، وقد ينحرف ويموت علىٰ غير الإسلام.

هذا الحديث فيه الحثُّ علىٰ دين الإسلام، والثبات عليه، وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ حُسْن الختام.

❑ **قوله**: وقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

■ ذكر الله -جلَّ وعلا-: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: يعني: قدوة ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾: القنوت: المراد به المداومة علىٰ طاعة الله، أي: مداومًا علىٰ طاعة الله ﴿حَنِيفًا﴾: يعني مُقبلًا علىٰ الله في عبادته، مُعْرِضًا عن عبادة ما سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: كان بريئًا من المشركين، أي: تبرأ منهم، كما تبرّأ من أبيه، وقومه.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: شاكرًا لأنعم ربِّه عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله ذكر في هذه السورة «سورة النحل» النِّعم، وعدّدها، ولذلك تسمَّىٰ سورة النحل بسورة (النِّعم)؛ لأن الله عدّد فيها النعم ليشكرها العباد، وذكر عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان شاكرًا لأنعم الله عَزَّوَجَلَّ،

(١) أخرجه البخاري (١١٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وشُكْر النعمة هو التحدث فيها ظاهرًا، والاعتراف بها باطنًا، وصرفها في طاعة مُسْديها ومُولِيها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: هذا خطابٌ لنبينا محمد ﷺ: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾. ولما وصف الله إبراهيم بهذه الصفات العظيمة التي ذُكرت، أمر نبيه محمدًا ﷺ، أن يتبع مِلَّته، أي: دينه، ودين محمد ﷺ هو دين إبراهيم، وهو دين الحنيفية السمحة، دين التوحيد والعبادة، والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

❑ **قوله**: وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاةً مِنَ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ وَلِيِّي أَبِي إِبراهِيمُ وَخَلِيلُ رَبِّي»، ثُمَّ قَرَأَ: «﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]». رواه التِّرمِذيُّ[(١)].

■ فالأنبياء -عليه الصلاة والسلام- يتولىٰ بعضهم بعضًا بالمحبة، والاقتداء، والاتباع، فهم سلسلة واحدة من أوَّلهم إلىٰ آخرهم، يبشِّر أولهم بآخرهم، ويقتدي آخرهم بأولهم، ويتبع بعضهم بعضًا، هكذا هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ونبيّنا محمد ﷺ هو أولىٰ الناس بإبراهيم، وهذا ردّ علىٰ اليهود والنصارىٰ، فاليهود يقولون: كان إبراهيم يهوديًّا، والنصارىٰ يقولون: كان إبراهيم نصرانيًّا، والله ردّ عليهم، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وأنتم أيها النصارىٰ لم تتبعوه، فأنتم بعيدون عنه، فالنصارىٰ يعبدون الصليب، واليهود يعبدون عُزيرًا، ويقولون: عُزير ابن الله، ويعبدون العِجْل كما ذكر الله تعالىٰ عنهم، ويعبدون شهواتهم هكذا هو دين اليهود.

فإبراهيم بريء منهم؛ بريء من اليهود والنصارىٰ، وهم لم يتبعوا إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فهم بعيدون عنه، إنما أقرب الناس إلىٰ إبراهيم: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من اليهود والنصارىٰ، لا الذين خالفوه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: وهو محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ

---

(١) برقم (٢٩٩٥).

ﱡﭐ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فالله وليُّهم ينصرهم ويؤيدهم ويحبُّهم ويتولَّاهم، فهو وليُّ المؤمنين خاصة، ولاية نصرٍ وتأييد وحِفْظ وإعانة.

وهناك ولاية عامَّة لجميع الخَلْق، قال تعالىٰ: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]. يعني: ربَّهم ومالكهم، والمتصرف فيهم، هذه ولاية عامَّة، لجميع الخَلْق، بمعنىٰ الملك والتدبير والرزق، أما الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين الذين اتبعوا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأولاهم بذلك هذا النبي محمد ﷺ وأُمته، فهذا فيه ردّ علىٰ اليهود والنصارىٰ الذين يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم وهم كذبة، ليسوا علىٰ دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وإنما هم علىٰ الشِّرْك، ودين الانحراف والتغيير والتبديل.

هذا فيه دليل علىٰ أنه لا يكون وليًّا للنبي ﷺ إلا من اتبعه، ليس هناك وليٌّ للنبي ﷺ، ولا لإبراهيم إلا من اتبعهما، والذين يزعمون أنهم يحبون محمدًا ﷺ، وهم يخالفونه، ويحدثون البدع والمحدثات، ويزعمون أنهم يحبون النبي ﷺ، هذا كذب، لو كانوا يحبون النبي ﷺ لاتبعوه، وتركوا البِدَع والمحدثات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فالذي يحبُّ النبي ﷺ حقيقة هو الذي يتبعه، وهم الذين ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. العِبْرة بالاتباع وليست بالدعوىٰ والدعوىٰ إذا لم يكن عليها دليل فهي باطلة.

❑ **قوله**: وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِنَّ اللّهَ لا يَنظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُم وَأَموَالِكُم، وَلَكِن يَنظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُم وَأَعمَالِكُم»(١).

■ هذا فيه أن العِبْرة ليست بالمظاهر وصور الأجسام وجمالها، ولا في كثرة الأموال والثروات والغنىٰ، وإنما النظر إلىٰ شيئين، هما: القلوب والأعمال، فإذا كانت القلوب صحيحة سليمة مخلصة لله عَزَّوَجَلَّ، وكانت الأعمال مستقيمة علىٰ شرع الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤).

ودينه، فهذا الذي ينظرُ الله إليه ويتقبَّلُه ويُثيب عليه.

أما مجرد جمال الصورة وكثرة الثروة، فهذا ليس عند الله له اعتبار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]. فهؤلاء هم الذين ينظرُ الله إليهم نظر اعتبار وقبولٍ ورحمةٍ.

❑ **قوله**: وَلَهُمَا عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُم عَلَىٰ الحَوضِ، وَلَيُرفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنكُم حَتَّىٰ إِذَا أَهوَيتُ لأناوِلَهُمُ اختُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَي رَبِّ، أَصحَابِي! يَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدرِي مَا أَحدَثُوا بَعدَكَ»[(١)].

■ في هذا الحديث يقول ﷺ: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض**». **الفَرَط، هو**: الذي يسبق إلىٰ الماء؛ ليسقي قومه، فالنبي ﷺ يوم القيامة يكون علىٰ حوض، طوله مسافة شهر، وعرضه مسافة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وآنيته عدد نجوم السماء، مَنْ يشرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبدًا[(٢)].

تَرِد الأمة يوم القيامة علىٰ حوض النبي ﷺ وهم عِطَاشٌ من شدة الحرّ وطول المُقام، وهم بحاجة إلىٰ الماء، فيسقيهم ﷺ بيده إلَّا مَنْ كان قد غيَّر دينه، فإنه يُصرف عن الحوض، فيقول النبي ﷺ: «**أي ربِّ أصحابي؟!**». فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، يعني: ما غيَّروا، فهذا فيه دليلٌ علىٰ أن من ابتدع في دِين الله وغيَّر؛ فإنه لا يرد الحوض علىٰ النبي ﷺ، ولا يَرِده إلا أهل التوحيد والاتباع، أهل التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والاتباع للرسول ﷺ، الذين لم يبدّلوا ولم يغيّروا؛ بل كانوا كما تركهم ﷺ، علىٰ البيضاء، ليلها كنهارها، هؤلاء هم الذين يَرِدون الحوض، ويشربون منه، يسقيهم رسول الله ﷺ منه.

أما مَنْ غيَّر وبدَّل فإنه -وإن انتسب إلىٰ الإسلام، وإلىٰ اتباع الرسول ﷺ- في هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧).

(٢) انظر: أحاديث صفة الحوض في «جامع التحصيل» لابن الأثير (١٠/ ٤٦١-٤٦٧)، الأحاديث (٧٩٨٤-٧٩٩٢).

الموقف يُصرف عن الحوض، فهذا فيه التحذير من البدع، والانحراف والتغيير في دين الله، والضلال.

وفيه الحثُّ علىٰ التمسُّك بالدِّين الصحيح، والثبات عليه، والصبر عليه إلىٰ الموت، حتىٰ يَرِد علىٰ النبي ﷺ، وحتىٰ يضرب من حوضه.

والاختلاج: الأخذ بسرعة، والمنع والطرد، يطردون عن الورود.

❑ **قوله**: وَعَن أَبِي هُرَيرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «وَدِدتُ أَنَّا قَد رَأَينَا إِخوَانَنَا». قَالُوا: أَوَلَسنَا إِخوَانَكَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟!

قَالَ: «أَنتُم أَصحَابِي، وَإِخوَانُنَا هُمُ الَّذِينَ لَم يَأتُوا بَعدُ».

قَالُوا: فَكَيفَ تَعرِفُ مَن لَم يَأتِ بَعدُ مِن أُمَّتِك يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: «أَرَأَيتَ لَو أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَينَ ظَهرَي خَيلٍ دُهمٍ بُهمٍ أَلَا يَعرِفُ خَيلَهُ؟».

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللّهِ. قَالَ: «فَإِنَّهُم يَأتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُم عَلَىٰ الحَوضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَن حَوضِي كَمَا يُذادُ البَعِيرُ الضَّالُّ؛ فَأُنَادِيهِم: أَلَا هَلُمَّ، فَيقَالُ: إِنَّهُم بَدَّلُوا بَعدَكَ، فَأَقُولُ: سُحقًا سُحقًا»[1].

■ هذا مثل الحديث الذي قبله في أن أُمَّة محمد ﷺ هم الذين لم يبدلوا ولم يغيّروا، يأتون ولهم سمات وعلامات بارزة، يعرفهم بها رسول الله ﷺ، من بين الخلائق، وهي آثار الوضوء للصلاة، وفضل الطهارة، وأن آثاره تبقىٰ نورًا يتلألأ يوم القيامة علىٰ أطراف المسلمين، يعرفهم النبي ﷺ من بين الخَلْق، فهذا فيه فضل الوضوء، وفيه علامة هذه الأُمَّة يوم القيامة من بين الأمم، وفيه أن أناسًا يُذادُون عن الحوض، يأتون مع الورّاد إلىٰ الحوض بصفة أنهم يدَّعون الإسلام؛ لكنهم يُمنعون، ويُذادُون كما يُذاد البعير الضال، يمنعون من الوصول إلىٰ الحوض، فيسأل النبي ﷺ: لماذا؟ فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فيقول ﷺ: «**سحقًا سحقًا**». لمَنْ بدَّل

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٩).

وغيَّر، أو كما قال ﷺ، هذا مثل الحديث الأول إلَّا أن فيه زيادة: أن النبي ﷺ يعرف أُمَّته بسيما الغرّة والتحجيل من آثار الوضوء.

وأول الحديث فيه: أن النبي ﷺ قال: «**وددت أنا قد رأينا إخواننا**». يتمنىٰ ﷺ أن يرىٰ إخوانه من المؤمنين الذين يأتون من بعده، قال الصحابة -رضوان الله عليهم-: أولسنا إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي**». هذه صفة خاصَّة في الذين صحبوا النبي ﷺ، الذين لقوا النبي ﷺ وآمنوا به، هؤلاء يُقال لهم: الصحابة، ولهم فضل عظيم، وهم خير القرون، والإخوان هم الذين يأتون في آخر الزمان، ويتبعون هذا الرسول ﷺ، مع ما بينهما من طول الزمان، فهذا فيه الفَضْل العظيم في آخر هذه الأُمَّة التي تتمسك بدِين الرسول ﷺ وهي لم تره.

الصحابة رأوا النبي ﷺ، وجالسوه وجاهدوا معه؛ لكن يأتي أُناس لم يروا النبي ﷺ، ولكنهم يؤمنون به، وهم لم يروه، يؤمنون به بموجب كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، يُصدِّقون به، وهذه فضيلة عظيمة، فالصحابة لهم فضل الصُّحْبة، وهؤلاء لهم فضل التمسك والاتباع وهم لم يروا النبي ﷺ، كلٌّ له فضيلة خاصة به.

❑ **قوله**: وَلِلبُخَارِيِّ: «بَينَمَا أَنَا قَائِم إِذَا زُمرةٌ، حَتَّىٰ إِذَا عَرَفتُهُم خَرَجَ رَجُل من بَينِي وَبَينِهِم، فَقَالَ: هَلمَّ، فَقَلت: أَينَ؟ قَالَ: إِلَىٰ النَّار. قلت: وَمَا شَأنهم؟ قَالَ: إِنَّهُم ارتَدّوا بَعدَكَ عَلَىٰ أَدبَارِهِمُ القَهقَرَىٰ، ثُمَّ إِذَا زُمرَةٌ...». فَذَكرَ مِثلَهُ... قَالَ: «فَلا أَرَاهُ يَخلُصُ مِنهم إِلا مِثلَ هَمَلِ النَّعَمِ»[(١)].

■ هذا مثل الحديث السابق أنه ﷺ يكون في خَلْق كثير يوم القيامة، ثم ينادَون إلىٰ النار من عند الرسول ﷺ، فيسأل الرسول لماذا؟ قالوا: إنهم لا يزالون مرتدِّين من بعدك.

هذا فيه أن من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فإنه سيلقىٰ هذا المصير، إلا إذا تاب إلىٰ الله قبل الموت، فهذا مما يؤكد علىٰ الإنسان أن يعرف نواقض الإسلام،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويتجنبها؛ لئلا يكون مع هؤلاء الناس يوم القيامة، وهو يزعم أنه مسلم.

قد يعيش الإنسان مرتدًّا ويزعم أنه مسلم، لماذا؟ لأنه يعيش علىٰ ناقضٍ من نواقض الإسلام، ونواقض الإسلام كثيرة، وأسباب الرِّدة كثيرة، يجب العناية بمعرفتها، وسؤال الله الثبات علىٰ الدين، فلا يكفي مجرد الانتساب أو أن يكون الإنسان إمَّعة مع الناس أساءوا أو أحسنوا؛ بل لابد أن يعرف الحقَّ؛ لأجل أن يعمل به، ويسأل الله الثبات، فهذا فيه أن من ارتدّ عن دين الإسلام، فإنه يكون من أهل النار، ولو كان في أول أمره من هذه الأُمَّة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]. لذلك يجب علينا أن نعرف ما هي أنواع الردّة، وما هي نواقض الإسلام حتىٰ نتجنبها، وأكثر الناس هملٌ لا يدرون ولا يعرفون نواقض الإسلام، ويقعون فيها وهم لا يدرون، بسبب الجهل الذي لا يعذرون به؛ لأنه لا يعذر في الجهل مَنْ يعيش بين العلماء، وفي بلاد الإسلام؛ لأنه بإمكانه أن يسأل وأن يتعلَّم، ويحرص علىٰ التعلُّم.

أما الذي لا يبالي، فإنه لا يهتم بالعلم، ولا بالتعلُّم، ويكتفي بمسمَّىٰ الإسلام فقط، ويجاري الناس علىٰ ما هم عليه، ثم يوم القيامة يصبح من الخاسرين.

فهذا فيه الحدث علىٰ معرفة نواقض الإسلام؛ حتىٰ يتجنبها المسلم؛ لئلا يكون مع هؤلاء يوم القيامة.

❑ **قوله**: وَلَهُمَا(١)، مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]».

■ يقول ﷺ عند ذلك، أي: عند هذا المشهد الهائل حينما يُذادُون إلىٰ النار من

---

(١) البخاري (٦٥٢٦)، ومسلم (٢٨٦٠) (٥٨).

عند الرسول ﷺ يقول كما قال العبد الصالح -وهو عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام- يوم القيامة، إذا قال الله له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦].

هذا فيه فَضْح للنصارىٰ، الذين يقولون: إن المسيح ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو يقولون: إن المسيح هو الله، أو إن الله هو المسيح ابن مريم، يقول الله له يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾. هذا تنزيله لله عَزَّوَجَلَّ من القول ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾. لأن العبادة حقٌّ لله، ليست حقًّا للمسيح، ولا لأُمِّه، ولا لغيرهما من المخلوقين، العبادة حقٌّ لله -جلَّ وعلا-: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾؛ لأن هذا حق الله -جلَّ وعلا- في الألوهية، والعبادة حقٌّ لله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة: ١١٦]. هذا برهان آخر علىٰ أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقل هذه المقالة، أنه لو قال هذا لعلمه الله -جلَّ وعلا-؛ لأن الله يعلم كل شيء، فهذا دليل علىٰ أنه لم يقل هذا لهم؛ لأنه لو قاله لعلمه الله تَعَالَىٰ: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾. فصار المسيح عبدًا، وليس ربًّا كما تقوله النصارىٰ.

﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ في حياته -عليه الصلاة والسلام-، كان يدعوهم إلىٰ التوحيد، وينهاهم عن الشرك لم يأمرهم بالشرك أبدًا، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا أحد يقول هذا من الأنبياء، ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هذا الذي يقوله النبي ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا﴾ من دون الله، ليس هناك نبيٌّ يأمر بهذا أبدًا ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ٧٩، ٨٠].

فالنبيُّ لا يأمر بالكفر أبدًا، ولا يتصوّر هذا أن النبي يدعو إلىٰ الشرك، وإلىٰ الكفر ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٧]. فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ توفّي حين رُفع، والوفاة هنا هي القبض، فقُبِض وهو حيٌّ -عليه الصلاة

والسلام-، لم تفارق روحه جسده، وإنما قُبض -عليه الصلاة والسلام- بروحه وجسده، ورُفع إلىٰ السماء ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ثم في آخر الزمان يتوفىٰ الوفاة الكبرىٰ، وهي مفارقة الروح للجسد ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]. هذا في آخر الزمان، يموت -عليه الصلاة والسلام- ويُدفن كما دُفن الأنبياء في القبر، في آخر الزمان.

❑ **قوله**: وَلَهُمَا عَنهُ[١] مَرفُوعًا: «مَا مِن مَولُودٍ يُولَدُ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُنَصِّرَانِهِ، أَو يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنتَجُ البَهِيمَةُ؛ بَهِيمَةً جَمعَاءَ، هَل تُحِسُّون فِيهَا مِن جَدعَاءَ حَتَّىٰ تَكُونُوا أَنتُم تَجدَعُونَهَا». ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

■ هذا الحديث يفسر الآية السابقة التي في أول الباب، في أن الله فطر الناس علىٰ الإسلام، أي: فطرهم علىٰ التوحيد، فلو أنهم سلموا من دُعاة الضلال، لبقيت فطرتهم قابلة للحق، ولاتبعوا الرسل، فالفطرة وحدها لا تكفي، لابد من اتباع الرسل -عليه الصلاة والسلام- ففطرتهم صالحة مثل التربة الطيبة الصالحة للنبات، فالتربة إذا بقيت ولم تلوث، تبقىٰ صالحة، وإذا غيَّرت وسبخت وعلتها الملوحة والماء، فسدت وصارت غير صالحة للإنبات.

كذلك الإنسان إذا غُيِّرت فطرته فإنها لا تقبل الخير؛ لأنها انحرفت وتغيرت، كالتربة إذا فسدت، وضرب النبي ﷺ لذلك مثلًا بالشاة الجدعاء التي قُطعت أُذنها وكُسر قرنها، تُولد جَمْعَاءَ، أي: سليمة ليست مجدوعة، كاملة القرنين والأذنين، ثم إن أهلها هم الذين يجدعونها.

وكذلك المولود يُولد علىٰ الفطرة كاملًا، فإن غُيِّرت الفطرة، فهذا من تصرف المربِّين الذين يُحرِّفون الفطرة، ويغيِّرونها، مثل الذين يفسدون التربة الصالحة للبذر فلا تُنبت.

---

(١) أي: عن أبي هريرة، أخرجه البخاري (٤٧٧٥ و٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

❑ **قوله**: وَعَن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يَسأَلُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ الخَيرِ، وَكُنْتُ أَسأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَن يُدْرِكَني، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّة وَشَرٍّ، فَجَاءنَا اللّهُ بِهَذَا الخَيرِ، فَهَل بَعدَ هَذَا الخَيرِ مِن شَرٍّ؟

قَالَ: «نَعَم».

فَقُلتُ: وَهَل بَعدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِن خَيرٍ؟

قَالَ: «نَعَم، وَفِيهِ دَخَنٌ».

قُلتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟

قَالَ: «قَومٌ يَستَنُّونَ بِغَيرِ سُنَّتِي وَيَهتَدُونَ بِغَيرِ هَدِيي، تَعرِفُ مِنهُم وَتُنكِرُ».

قُلتُ: فَهَل بَعدَ ذَلِكَ الخَيرِ مِن شَرٍّ؟

قَالَ: «نَعَم، فِتنَةٌ عَميَاءُ، وَدُعَاةٌ عَلَىٰ أَبوَابِ جَهَنَّمَ مَن أَجَابَهُم إِلَيهَا قَذَفُوه فِيهَا».

قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفهُم لَنَا؟

فَقَالَ: «هُم مِن جِلدَتِنَا ويَتَكَلَّمُونَ بِألسِنَتِنَا».

قُلتُ: فَمَا تَأمُرُني إِنْ أَدرَكَني ذَلِكَ؟

قَالَ: «تلزَمُ جَمَاعَةَ المُسلِمِينَ وَإِمَامَهُم».

قُلتُ: فَإِن لَم يَكُن لَهُم جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟

قَالَ: «فَاعتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَو أَن تَعُضَّ عَلَىٰ أَصلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يدرِكَكَ المَوتُ وَأَنتَ عَلَىٰ ذَلِكَ». أَخرَجَاهُ[١].

■ هذا، لاشك أنه مطلوب، أن تسأل عن الخير، وأن تتعلّم ما فيه الخير والصلاح؛ لكن لا تقتصر عليه؛ بل عليك أن تعرف ضده عليك أن تعرف الشرَّ، وهو ضد الخير؛ لئلا تقع فيه، فيجب عليك أن تتعلق الأمرين، الخير والأعمال الصالحة، وكل ما يؤدي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧٦)، وقوله: «فتنة عمياء». ووردت عند أحمد في «المسند» (٢٣٢٨٢)، وليست عند البخاري ومسلم.

إلىٰ الخير؛ من الأعمال والأقوال والعقائد وغير ذلك.

ولابد من أن تعرف ما يضادُّ ذلك، وما يخالفه حتىٰ يسلم لك هذا الخير؛ لأنك إذا اقتصرت علىٰ تعلّم الخير، ولم تتعلم ما يخالفه ويضاده، فربما أنك تقع في أشياء تذهب بهذا الخير وأنت لا تدري.

فمثلًا: إذا تعلمت التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، فلابد أن تتعلّم ما هو الشرك الذي هو ضد التوحيد، وهو عبادة غير الله، وكيف تكون عبادة غير الله؛ لأن الإنسان قد يعبد الله ويكثر من العبادة؛ ولكن لا يتجنب الشرك، خصوصًا وأن كثيرًا من الناس يقعون في الشرك، وهناك دُعاة إلىٰ الشرك، فربما أنه يقع في شيء من الشرك يظنه خيرًا؛ لأنه لُبِّس عليه، فهذا الشرك يُبطل عمله وهو لا يدري، فلابد أن تتعلم الخير، وإلىٰ جانبه تتعلم ما يضادُّه ويخالفه.

وهذا بخلاف ما يُنادي به اليوم الكثير من الجهّال والمضلّلين والمغرضين الذين يقولون: علِّموا الناس التوحيد، وعلّموهم الصلاة، وأفعال الخير؛ لكن لماذا تُعلِّمونهم نواقض الإسلام، والشرك، وتعلّمونهم عقائد الجهمية، والمعتزلة، ومَنْ نحا نحوَهم، لماذا لا تقتصرون علىٰ العقائد الصحيحة، وتتركون بيان العقائد الفاسدة؟!

وهذا جهل أو تضليل؛ لأنه لا يكفي تعلُّم العقائد الصحيحة؛ بل لابد أن نعرف أيضًا العقائد الفاسدة والباطلة من أجل أن نتجنبها ونجنِّبها أولادنا وإخواننا، ولذلك ردّ العلماء علىٰ الجهمية والمعتزلة والمخالفين، وهذا شيء موجود، فلو أنهم سكتوا عن أهل الضلال، ولم يردُّوا عليهم، لراجت أفكارهم وشُبَهاتهم.

لم يقل العلماء: نقتصر علىٰ معرفة الخير فقط، بل عرَّفوا الناس الشر من أجل أن يجتنبوه، وتجد الآن في كتب العقائد -خصوصًا الموسَّعة- بيان العقيدة الصحيحة، وبيان ما يضادُّها، وإيراد الشُّبهات التي يُدلي بها أهل الشَّرِّ من أجل الردِّ عليها؛ لئلَّا يغترَّ بها مَنْ لا يعرفها، وإن كان من أهل الخير؛ لأن الذي يجعل الشيء يوشك أن يقع فيه، ولهذا يقول الشاعر:

عرفتُ الشرَّ لا للـشرِّ لكــن لِتوقِّيــهِ ... ومَنْ لا يعرفِ الشر من الخير يقع فيه

فلابد من هذا الأمر، وهذا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو صحابيٌّ جليل، كان يسأل النبي ﷺ عن الشرِّ ولم ينهه الرسول ﷺ، لم يقل له: اجتنب هذا، ولا تسأل عنه؛ بل أقرّه الرسول ﷺ، وبيَّن له عمَّا سأله من الفِتن، بيَّن له ﷺ الفِتن، وأن الدِّين دُولٌ. تارة يأتي خير، وتارة يأتي شرٌّ، ويتعاقب هذا وهذا علىٰ الناس للابتلاء والامتحان.

فلابد أن يكون المسلمون علىٰ استعداد لمقاومة الشرِّ؛ لئلا يروج الشرُّ عليهم؛ لأن الشر له دُعاة، حريصون علىٰ رواجه، ويُزيِّنونه بزخرف القول، وبالعبارات الرنّانة، ويُسمُّونها بأسماء مغرية، فلو لم تعرفوا هذه الشُّبهات، وهذه الدعوات الضالَّة لأوشك أن يروج هذا عليكم، فتقبلونه، فهذه هي الحِكْمة من أننا نتعلم الخير ونتعلم الشرَّ، يعني: نتعلم ما يضادُّ الخير ويُخالفه، حتىٰ نسلم منه، وهذا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث الصحيح، وأقرَّه النبي ﷺ ولم يقل له: لماذا تسأل عن الشر؟

فالإنسان علىٰ خطر، لا يُزكِّي نفسه، ولا يقول: أنا عرفت الخير ويكفي؛ بل لابد أن يعرف هذه الأمور لخطرها، وتكررها علىٰ الناس، والدعوة إلىٰ الانحراف والضلال مستمرة لا تنقطع، الآن هناك مَنْ يدعو إلىٰ مذهب الجهمية، وإلىٰ مذهب المعتزلة، وإلىٰ القبورية، وإلىٰ الصوفية، وإلىٰ غير ذلك من الدعوة إلىٰ الانحراف، فلو لم نتعلم الردّ علىٰ هؤلاء، ونعرف شُبَهاتهم؛ لراجت هذه الأمور، ولذهبت السُّنة، فلابد من المقاومة، ولابد من معرفة المرض، ومعرفة علاجه.

فالنبي ﷺ أخبر حذيفة بما يكون، وهذا من علامات النبوة؛ حيث إنه ﷺ يخبر عن الشيء قبل ولوعه؛ لأن الله أطلع رسوله علىٰ ما يكون في المستقبل، من أجل أن يُنبِّه الناس، ويحذِّر الناس من هذه الأمور إذا حدثت، وقد قال ﷺ: «**إنه مَنْ يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢ و٤٣)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد في «المسند» (١٤٤) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ﷺ : **«مَنْ دعا إلىٰ هُدًىٰ كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه، لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئًا، ومَنْ دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**(١) .

كل ذلك من أجل أن يكون الناس علىٰ معرفة وبصيرة إذن حدثت هذه الأُمور، فيكون عندهم استعداد لمقاومتها، والتحذير منها، وألّا يغتروا بها.

فحديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النهاية سأل الرسول ﷺ إذا أدركه هذا، ماذا يفعل؟ قال له: **«أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»**. هذه هي العصمة من الفتن، أي: أن تكون مع الجماعة.

والنبي ﷺ يُوصي بالتزام **جماعة** المسلمين، ويقول: **«يدُ الله علىٰ الجماعة، ومَنْ شذَّ، شذَّ في النار»**(٢) .

ويقول ﷺ : **«مَنْ خالف الجماعة، فقد خلع رِبقة الإسلام»**(٣) . والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: **«إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي؛ كتاب الله، وسُنتي»**(٤) . وسيأتي في الأحاديث حالة الغرباء في آخر الزمان، وما لهم من الأجر، فملازمة جماعة المسلمين فيها العصمة.

وأمَّا مَنْ شذّ عن جماعة المسلمين، فهو علىٰ خطأ، وعلىٰ شفير **الهلاك**، عليك أن تلزم جماعة المسلمين وإمام المسلمين، يعني: بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٥)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥٨) وهو من زيادات عبد الله بن أحمد في «المسند» (٢١٥٦٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣١) من حديث أبي هريرة، وحديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، والحديث أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٠٠) بلاغًا.

والجماعة لا تكون إلَّا بإمام، لابد من الإمام، ولا تكون جماعة بدون إمام يقودهم ويحميهم ويدير شئونهم، فلابد من إمام يرجعون إليه.

عليك أن تلزم جماعة المسلمين، وإمام المسلمين، هذا فيه نجاةٌ من الفتن، وهذا إذا تأملته وجدته مطابقًا لزماننا هذا، والله أعلم بما يأتي بعده، الآن الفِتن كثيرة وشديدة، والدعايات المضلَّة كثيرة، ووسائل نَشْر الشرِّ توفرت ونشطت، وصار الشر يروّج، ويُدْعىٰ إليه، ودُعاة الضلالة علىٰ قدم وساق، في الفضائيات، وعلىٰ الإنترنت، وفي الكتب يروِّجون الشرّ والضلال ويحرِّضون علىٰ الفُرْقة والاختلاف، ويدعون إلىٰ حرية الرأي، وحرية الكلمة، وما أشبه ذلك؛ يريدون أن يفككوا أوصال المسلمين، فإذا لم يكن عندك خبرة في هذا الأمر، وقعت في الهلاك إلَّا مَنْ رحمه الله.

فعليك أن تلزم جماعة المسلمين، والحمد لله أنت في هذه البلاد السعودية في دولة مسلمة، ومع جماعة من المسلمين لهم إمام، هذا من نِعم الله ﷻ، فنحن في نعمة عظيمة؛ لكن لا تنسوا أن الأعداء يحفرون لهذه الدولة، ولهذه الجماعة، يُريدون أن يزيلوها من الوجود حتىٰ تكون مثل البلاد الأخرىٰ، فلا يبقىٰ أمامهم شيء يمنعهم، فلنكن علىٰ حَذَرٍ من هذا، ألم يجندوا من أبنائنا مَنْ يفجّرون، مَنْ ينتحرون، فما الغرض من هذا؟

الغرض من هذا إشعال نار الفتنة وتفريق هذه الجماعة، وإزالة هذه النعمة، هذا هو الغرض الذي يريدونه، يسمّون هذا بالجهاد، يسمّونه استشهادًا في سبيل الله، هذا من زخرف القول والترويج للباطل، فهذه أمور علّمنا النبي ﷺ وحذّرنا منها قبل وقوعها، كُلَّما حدث شيء من هذا يكون عندنا منه خبر ومعرفة، وكيف نقاومه وكيف نسلم مَنْ شرَّه.

فالرسول ﷺ أرشد أن السلامة من الفتن إذا حدثت تكون بلزوم جماعة المسلمين وأمامهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وما دام المسلمون

علىٰ طريقة صحيحة، وعلىٰ سبيل الهدىٰ، فكن معهم، فإذا خرجت عن ذلك، فأنت متوعَّد بأن يصليك الله جهنم وساءت مصيرًا.

قال حذيفة: فإن لم يكن لهم جماعة، ولا إمام ماذا أفعل؟ إلىٰ أين ألجأ، أين أذهب؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرَق كلها**». لا تدخل مع هذه الفرق، ومع هذه الجماعات الضالة، لا تنخدع بها، ابق وحدك، وتمسك بكتاب ربِّك وسُنَّة نبيك ولو أنك وحدك، اعتزل تلك الفِرَق كلها «**ولو أن تعضَّ علىٰ أصل شجرة، حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**».

- **الحاصل**: أن هذا فيه التحذير من اتِّباع الفرق الضالة المنحرفة، فإن وجدت جماعة للمسلمين وإمامًا لهم، فكن معهم، فإن لم تجد، فعليك أن تعتزل هذه الفِرَق كلها، وذكر ﷺ فيما ذكر أنها تكون فتنة عمياء، شديدة -والعياذ بالله- مظلمة، ودعاةٌ علىٰ أبواب جهنم، مَنْ أطاعهم قذفوه فيها، لا يقولون لهم: تعالوا إلىٰ جهنم، تعالوا إلىٰ النار، يقولون: تعالوا إلىٰ الجنة وإلىٰ الخير، نحن مجاهدون، نحن ندعو إلىٰ الله، لكنهم في الواقع دعاةٌ إلىٰ جهنم، مَنْ أطاعهم قذفوه فيها.

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «صِفْهم لنا يا رسول الله، قال: **هم من جلدَتنا، ويتكلمون بألسنتنا**». لا يأتون من الخارج، أو من الدول الأجنبية، هم من أبنائنا، ويتكلمون بألسنتنا أي باللغة العربية؛ لأنهم منَّا، وهذه أشد، لو كان الداعية إلىٰ الضلال قادم من الخارج، أو من دول كافرة، عرفه الناس، ولم يثقوا به، ولكن المشكلة إذا كان من أبناء المسلمين، ويتكلم باللغة الفصحىٰ، لغة العرب، فعند ذلك تعظم المصيبة، هذا تفصيل من الرسول ﷺ واضح، وفيه تحذير من هذه الفتنة، وهذه الشرور، وأن تلزم ما عليه جماعة المسلمين وإمامهم، ولا تلتفت إلىٰ هذا الفتن ودُعَاتها؛ ولكن احذر منها.

فإذا كان هناك جماعات متعدّدة، وهنا جماعة علىٰ الحق، فكن مع الجماعة التي علىٰ الحق، ولهذا قال ﷺ «**تفترق أُمَّتي علىٰ ثلاث وسبعين مِلَّة، كلها في النار إلا مِلَّة**

واحدة». قيل: ومَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[(١)].

هذه الفرقة الناجية، واثنتان وسبعون فرقة كلها في النار، وواحدة هي الناجية وهي الثالثة والسبعون، واحدة فقط، وهذه الواحدة هي ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، هي الناجية، فإذا كنت تريد النجاة فابق مع هذه الفرقة ولا تغترَّ ببقية الفِرَق.

❑ **قوله**: وَزَادَ أَبُو دَاود: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «يَخرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهرٌ وَنَارٌ، فَمَن وَقَعَ فِي نَارِه، وَجَبَ أَجرُهُ وَحُطَّ عَنهُ وِزرُهُ، وَمَن وَقَعَ فِي نَهرِهِ وَجَبَ وِزرُهُ وَحُطَّ أَجرُهُ».

قَالَ: قُلتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثمَّ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ»[(٢)].

■ من الفِتن الشديدة، ظهور المسيح الدجال في آخر الزمان، وخروجه من علامات الساعة الكبرىٰ، وسُمّي بالدجال، من الدجل: وهو الكذب، لكثرة كذبه، وهذا الرجل يظهر في اليهود، وهو المَهْدي الذي ينتظره اليهود، يخرج فيهم ومعه فِتنة عظيمة، معه صورة جنة وصورة نار، فالنار التي معه هي الجنة، والجنة التي معه هي النار.

هذا دليل علىٰ أن الإنسان يجب عليه ألّا يغترَّ بالزُّخرف، فهذا الدجَّال يصوِّر أن ما معه جنة وهو في الحقيقة نار، ويصوّر ما معه بأنه نار، وهو جنة، فهذا فهي التحذير من السَّحَرة المشعوذين الذين يُسمُّون سِحْرهم السيرك أو الفن وهو السِّحْر التخييلي المُسمَّىٰ (بالقمرة) وفيه التحذير من الدعايات المضللة، وألّا يزهد الإنسان بالحق، ولو أن الحق لُبِّس عليه ووصف بالتأخر والرجعية، والجمود وكذا وكذا، الحق هو الحق، والباطل هو الباطل، ولو وصف بالتقدم والحضارة والرّقي هو باطل، الدجال يأتي في آخر الزمان، معه فِتن عظيمة، ويغتر به كثير من الناس، وينخدعون بما معه من الفِتن، ولا يسلم من شرِّه إلا القليل، ولهذا كان النبي ﷺ، والأنبياء كلهم يحذِّرون من المسيح الدجال.

وأشدّهم تحذيرًا نبيّنا محمد ﷺ لقُرْب زمان خروجه، ولذلك أمرنا ﷺ أن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٤٤)، وأحمد في «المسند» (٢٣٤٢٩)، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نستعيذ بالله من أربع في كل صلاة في التشهد الأخير، بأن نقول: «**أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»(١).

❑ **قوله**: قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: «تَعَلَّمُوا الإِسلَامَ فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرغَبُوا عَنهُ، وَعَلَيكُم بِالصِّرَاطِ المُستَقِيمِ فَإِنَّه الإِسلَامُ، وَلا تَتَحَرَّفُوا عَنِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالًا، وَعَلَيكُم بِسُنَّةِ نَبِيِّكُم وَإِيَّاكُم وَهَذِهِ الأَهوَاءَ»(٢).

▪ أبو العالية الرِّياحي، هو: رُفيع بن مهران الرياحي، من أئمة التابعين، يُوصي بوصايا عظيمة:

أولُها: تعلَّموا الإسلام، أي: اعرفوا الإسلام ما هو، ولا يكفي أن تقول أنا مسلم، وأنت لا تعرف الإسلام، لابد أن تعرف ما هو الإسلام، وما هي أركانه، وما هي نواقض الإسلام، حتىٰ تكون علىٰ بصيرة، أن تعرف معناه وتعرفه، وتعرف أركانه، وتعرف مكملاته ومناقضاته ومنقصاته حتىٰ تكون علىٰ بصيرة، وهذا فيه الحثُّ علىٰ تعلُّم العلم النافع؛ لأنه هو الحياة وهو النجاة بإذن الله، هذه واحدة.

الثانية: فإذا تعلَّمتموه، وعرفتموه عليكم بالتمسك به، لا يكفي أن يكون الإنسان عالمًا؛ بل يجب عليه أن يعمل بعلمه، وإلّا فالكثير من العلماء أهل الضلال؛ أي: ضلّوا وهم عندهم عِلْم، فاليهود عندهم عِلْم، وقد ضلُّوا وكفروا، فلا يكفي مجرد العلم، لابد من التمسك بالحق، والثبات والصبر عليه مع العلم، فهو (علم وعمل) أوصي أولًا بالعلم، ثم أوصي بالعمل والثبات عليه.

الثالثة: أن تلزم الصراط المستقيم، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. فالصراط الطريق، والمستقيم هو المعتدل الذي ليس فيه مَيَلان وانحراف، هذا هو الصراط المستقيم، أمرنا الله بأن نتبعه، وأمرنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط، أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢١٨).

يعرفنا به، وأن يثبتنا عليه.

أما الوصية الرابعة: فهي أنك إذا وفقك الله لمعرفة الصراط المستقيم وسِرْت عليه، فلا تنسَ دُعاة الضلالة الذين يريدون أن يُحرِّفوك علىٰ الصراط المستقيم، ولهذا قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] والرسول ﷺ ضرب لهذا مثلًا.

❑ **قوله:** تَأَمَّلْ كَلَامَ أَبِي العَالِيَةِ هَذَا، مَا أَجَلَّهُ! وَاعرِف زَمَانَه الَّذِي يُحَذِّرُ فِيهِ مِنَ الأَهوَاءِ الَّتِي مَنِ اتَّبَعَهَا فَقَد رَغِبَ عَنِ الإِسلَام، وَتَفسِيرَ الإِسلَام بِالسُّنَّةِ، وَخَوفَه عَلَىٰ أَعلَامِ التَّابِعِينَ وَعُلَمَائِهِم مِنَ الخُرُوجِ عَنِ السُّنَّةِ وَالكِتَابِ، يَتَبَيَّن لَكَ مَعنَىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

وَقَولِهِ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠].

وَأَشبَاهُ هذه الأُصُولِ الكِبَارِ الَّتِي هِيَ أَصلُ الأُصُولِ وَالنَّاسُ عَنهَا فِي غَفلَةٍ.

■ **يقول الشيخ** رَحِمَهُ اللهُ: تأمل كلام أبي العالية هذا، وما فيه من الفوائد العظيمة، وزمان أبي العالية متىٰ؟ إنه زمان التابعين، فكيف بزماننا هذا؟! أبو العالية خاف علىٰ التابعين فكيف بزماننا هذا؟! إنه أشدّ خطرًا.

«وتفسير الإسلام بالسنة» أي: السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ.

«وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب». إذا كان قد خاف علىٰ أعلام التابعين، فكيف بنا نحن؟! الخوف علينا أشد.

«يتبين لك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾». قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

استجاب لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وأسلم نيته وقصده وعمله لله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الإسلام، الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والانقياد لله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقله عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «الأصول الثلاثة»: الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

«﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]» هذه وصية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووصية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، كلٌّ منهما وصَّىٰ ذريته بالتمسك بالإسلام، وأنتم من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالوصية شاملة لكم، ولمَنْ يأتي بعدكم إلىٰ أن تقوم الساعة.

ووصىٰ بها يعقوب بني إسرائيل الذين هم اليهود، فالله وصّىٰ بها العرب والعجم، وصاهم جميعًا علىٰ لسان إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾: أي: اختاره لكم هذه نعمة عظيمة، بينما أكثر البشر علىٰ الضلال، وأنتم أنعم الله عليكم بهذا الدِّين العظيم، وبعث إليكم هذا الرسول الكريم محمدًا ﷺ، أفضل الرسل، ودينكم أفضل الأديان، هذه نعمة عظيمة.

﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. هذه هي المهمة، معناه: أن تثبت علىٰ هذا الدين، حتىٰ يأتيك الموت، فإذا جاءك الموت، وأنت علىٰ هذا الدِّين فأنت من السُّعداء، أما إن جاءك الموت وأنت منحرف عن هذا الدِّين فأنت من الأشقياء، فالعِبْرة بالخاتمة، التي تموت عليها ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. أي: اثبتوا. هذا فيه الحثُّ علىٰ الثبات علىٰ الدِّين حتىٰ يأتيك الموت وأنت عليه لا تتركه أبدًا.

«﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]» ومَنْ يرغب، استفهامٌ إنكاري، أي: لا يرغب أحد، يعني: لا يترك أحد ملة إبراهيم إن كان يريد النجاة لنفسه، فلا يترك ملة إبراهيم التي بُعث بها نبينا محمد ﷺ ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ

نَفۡسَهُۥ﴾. السَّفه معناه: خفة العقل، وضياعه، فمَنْ ترك ملة إبراهيم فقد خسر نفسه، وأهلكها، وأعزُّ شيء عند الإنسان نفسه، فإذا خسر نفسه خسر أعزَّ شيء عنده ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]. فكيف يخسر الإنسان نفسه؟ إذا ترك مِلَّة إبراهيم خسر نفسه.

«وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول، والناس عنها في غفلة» أشباه هذه النصوص، وهذه الآثار التي فيها هذه الوصايا العظيمة، وأكثر الناس في غفلةٍ عنها لا يقرءونها ولا يتعلمونها، وإذا تعلّموها فقليل مَنْ يعمل بها، وإذا عملوا بها، فقليل مَنْ يثبت عليها، فالأمر يحتاج إلىٰ استعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، وإلىٰ اهتمام، ولا يثق الإنسان بنفسه ويأمن من الفتن؛ بل يخاف من الفتن ويتجنبها، ولا يكون إمعة مع الناس، بل يكون مع الحقِّ دائمًا وأبدًا، فإذا بلغه شيء فإنه يعرضه علىٰ الحقِّ، فإن وافقه فالحمد لله، وإن خالفه فإنه يتركه.

❑ **قوله**: وَبِمَعرِفَتِهِ يَتَبَيَّنُ مَعنَىٰ الأَحَادِيثِ فِي هَذَا البَابِ وَأَمثَالِهَا، وَأَمَّا الإِنسَانُ الَّذِي يَقرَؤُهَا وَأَشبَاهَهَا وَهُوَ آمِنٌ مُطمَئِنٌّ أَنَّهَا لا تَنَالُهُ، وَيَظُنُّهَا فِي قَومٍ كَانُوا فَبَادُوا: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

■ الذي يقرأ هذه النصوص وأمثالها، ويتفقه بها، ويعمل بها، يكون علىٰ طريق النجاة، طريق السلامة، وأما الذي لا يلتفت إليها، أو يقرؤها؛ ولكن لا يتأملها ولا يتفقه فيها، أو يأمن علىٰ نفسه من الفِتن والانحراف، فهذا حريٌّ أن يكون مع الهالكين؛ لأنه لم يأخذ بأسباب النجاة، وعلىٰ الإنسان ألَّا يغترَّ بنفسه ولا بعِلْمه، ولا يغترَّ بدينه؛ لأن الإنسان بشر، وهو عُرضة للفتن، والإنسان ضعيف، ولهذا كان نبيُّنا ﷺ يكثر من قوله: «**يا مُقلِّبَ القلوبَ ثبّت قلبي علىٰ دينك**»[١].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾[آل عمران: ٧، ٨]. الراسخون في العلم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وهو في «مسند الإمام أحمد» (١٢١٠٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يخافون من الزيغ، لذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. فالإنسان يكون علىٰ خوف، وإذا خاف فإنه يبحث عن النجاة.

أما إذا أمن فإنه يقع في الهلاك، وهو لا يدري، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. فالله -جلَّ وعلا- يمكر بأهل الشرِّ، بمعنىٰ: أنه يستدرجهم، عقوبةً لهم فمكره -جلَّ وعلا- بحقٍّ، وهو إيصال العقوبة إلىٰ مَن يستحقها، بطريق خفي لا يتنبه له، وهو من الله محمود؛ لأنه جزاء وعدل، لا يمكر بأحد إلا وهو يستحق، لا يمكر بالصالحين، إنما يمكر بأهل الشرِّ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والجزاء من جنس العمل، فلما مكروا بعباد الله، ومكروا بالرسول ﷺ يريدون قتله، أو سجنه، أو طرده، مكر الله لرسوله، وأخرجه من بينهم، وهم لا يشعرون، وخرج ﷺ إلىٰ الغار واختفىٰ فيه، ولما انقطع الطلب، ذهب إلىٰ المدينة، ووجد الأنصار والمسلمين، وقامت دولة الإسلام.

فالله مكر بالكفرة، من حيثُ لا يشعرون.

❑ **قوله:** وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللّه ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَن يَمِينِه وَعَن شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنهَا شَيطَانٌ يَدعُو إِلَيهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]». رواه أحمَدُ وَالنَّسَائِيُّ(١).

■ يقول تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقد فسَّر الرسول ﷺ هذا بمثال محسوس، بأن خطّ خطًّا مستقيمًا، وخطَّ خطوطًا عن يمينه، وعن شماله، فقال عن المستقيم: «**هذا سبيل الله**». وقال عن بقية الخطوط: «**هذه سُبل متفرقة، علىٰ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». وهذا يذكرنا بالدُّعاة الذين مرّ ذكرهم في حديث حذيفة: «**دُعاة علىٰ أبواب جهنم**»[١]. هم هؤلاء علىٰ كل سبيل شيطان منهم يدعو إليه؛ ليخرج الناس من الصراط المستقيم إلىٰ هذه السُّبُل، هؤلاء هم دُعاة الضلال، هم الذين من جِلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

بَابُ مَا جَاءَ فِي غُربَةِ الإِسلامِ وَفَضلِ الغُرَبَاءِ

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ﴾ [هود:١١٦] الآيَةُ. وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفُوعًا: «**بَدَأَ الإِسلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَىٰ للغُرَبَاءِ**». رَوَاهُ مُسلِمٌ.

وَرَوَاهُ أَحمَدُ مِن حَدِيثِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيهِ: قِيلَ: مَنِ الغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «الَّذِينَ يَصلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ».

وَرَوَاهُ أَحمَدُ مِن حَدِيثِ سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَفِيهِ: «فَطُوبَىٰ يومَئِذٍ للغُرَبَاء إِذَا فَسَدَ النَّاسُ».

وَللتِّرمِذِيِّ مِن حَدِيثِ كَثِيرِ بنِ عَبدِ اللَّه، عَن أَبِيهِ، عَن جَدِّهِ: «فَطُوبَىٰ للغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصلِحُونَ مَا أَفسَدَ النَّاسُ مِن سُنَّتِي».

وَعَن أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: سَأَلتُ أَبَا ثَعلَبَةَ الخُشَنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥].

قَالَ: أَمَا وَاللَّه لَقَد سَأَلتَ عَنهَا خَبِيرًا؟ سَأَلتُ عَنهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**بَلِ ائتَمِرُوا بِالمَعرُوفِ وَتَنَاهُوا عَنِ المُنكَرِ حَتَّىٰ إِذَا رَأَيتُم شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنيَا مُؤثَرَةً، وَإِعجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ بِرأيِهِ، فَعَلَيكَ بِنَفسِكَ، وَدعَ عَنكَ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِن وَرَائِكُم أَيَّامًا الصَّبرُ فِيهِنَّ مِثلُ القَبضِ عَلَىٰ الجَمرِ، للعَامِلِ فِيهِنَّ مِثلُ أَجرِ خَمسِينَ رَجُلًا يَعمَلون مِثل عَمَلِكُم**».

قِيلَ: منَّا أَم مِنهُم؟ قَالَ: «**بَل مِنكُم**». رواه أَبُو دَاودَ وَالتِّرمِذِيُّ.

وَرَوَىٰ ابنُ وَضَّاحٍ مَعنَاهُ مِن حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَلَفظُهُ: «إِنَّ مِن بَعدِكُم أَيَّامًا للصَّابِرُ فِيهَا المُتَمَسِّكُ بِمِثلِ مَا أَنتُم عَلَيهِ اليَومَ لَهُ أَجرُ خَمسِينَ مِنكُم».

ثُمَّ قَالَ: أَنبَأَنَا مُحَمَّدُ بنُ سَعِيدٍ، أَنبَأَنَا أَسَدٌ قَالَ: أَنبَأَنَا سُفيَانُ بنُ عُيَينَةَ، عَن أَسلَمَ البَصرِيِّ، عَن سَعِيدِ بن أَبِي الحَسَنِ قَالَ: قُلتُ لِسُفيَانَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: «**إِنَّكُم اليَومَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبكُم، تَأمُرُون بِالمَعرُوف وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَلَم يَظهَر فِيكُم السَّكرَتانِ: سَكرَةُ الجَهلِ، وَسَكرَةُ حُبِّ العَيشِ، وَسَتُحَوَّلُونَ عَن ذَلِكَ؟ فَالمُتَمَسِّكُ يَومَئِذٍ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُ أَجرُ خَمسِينَ**». قِيلَ: مِنهُم، قَالَ: «**بَل مِنكُم**».

وَلَهُ بِإِسنَادٍ عَن المُعَافِرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : «**طُوبَىٰ لِلغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِكِتَابِ اللّه حِينَ يُترَكُ، وَيعمَلُونَ بِسُنَّتِي يَومَ تُترَكُ**».

الشَّرح

❑ **قوله**: بَابُ ما جَاءَ فِي غُربَةِ الإِسلامِ وَفَضلِ الغُرَبَاءِ.

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ [هود:١١٦] الآيَةُ.

■ بدأ الإسلام غريبًا، فأول ما قام الرسول ﷺ بمكة لما بعثه الله، وقال له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]. قام وحده ﷺ، ثم انضم إليه أبو بكر الصديق، وبلال، ولهذا لما سُئل ﷺ مَنْ معك علىٰ هذا الأثر؟ قال ﷺ : «**حرٌّ وعبد**»(١). ما معه إلا اثنان فقط، ثم تتابع المسلمون واحدًا واحدًا وهم علىٰ خوف وامتحان وابتلاء، وتكوّن معه ﷺ جماعة في مكة، وهم يُؤذَون ويُبتلون علىٰ أن أذن الله لهم بالهجرة إلىٰ المدينة، هذا معنىٰ قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا**». والغريب هو النادر، وهو الإنسان الذي يكون في بلدٍ غير بلده، أو يكون مع أُناس ليسوا من جنسه، كما قال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا غريبًا، أو عابر سبيل**»(٢).

فالغربة، هي: الشيء النادر، وكذلك الغريب الشيء النادر القليل، فالإسلام بدأ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

أول الأمر غريبًا، يعني: قليلًا أهله، ثم تكاثروا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فالزرع أول ما يظهر يكون ضعيفًا قليلًا، ثم ينمو ويصبح له فراخ، والحبة الواحدة يتكون منها عدة قصبات، كقوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾. يعني: فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾. يعني: قواه، فالزرعة إذا خرّجت تقوىٰ، يصبح للنبتة جذع، وغصون، فتقوىٰ، فمن قصبة واحدة أصبحت عدة قصبات متجاورة قوية ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾: أي: كان ضعيفًا فقوي ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: ارتفع عليها، والسُّوق: جمع ساق وهي القصبات.

هذا مثل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾. يغيظ بالصحابة الكفار، ومن هنا أخذ بعض العلماء أن مَنْ يسب الصحابة يكفر؛ لقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾. فقالوا: هذا دليل علىٰ أن مَنْ أبغض الصحابة، وسبَّهم وتنقّصهم أنه كافر.

نعم بدأ الإسلام غريبًا، فأول ما نشأ الإسلام كان غريبًا، وفي آخر الزمان يعود غريبًا، ويكون المتمسكون به غرباء، مثلما كانوا في مكة في أول البعثة.

«وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ﴾ الآية» ﴿فَلَوْلَا﴾. معناه: هلّا، أي: هلا كان من القرون، يعني: من الأمم من قبلكم، لما ذكر سبحانه هلاك الأمم في سورة (هود)، قال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فما هلكت هذه الأمم إلا لأنها لم يكن فيها مَنْ يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: دلَّ هذا علىٰ أن مَنْ يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ينجو إذا جاء العذاب.

وأما الذي لا يأمر ولا ينهىٰ فإنه يهلك ولو كان من الصالحين، لكن يبعثه الله يوم القيامة علىٰ نيَّتهن كما جاء في الحديث(١)، فإذا وقع العذاب لا ينجو إلا الذين يأمرون

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٧٠٢) عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يغزو جيش البيت حتىٰ إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف الله بهم**». قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت المُكرَه منهم؟ قال: «**يبعث علىٰ نيته**».

بالمعروف وينهون عن المنكر، فقوله: ﴿قَلِيلًا﴾: هؤلاء هم الغرباء، هذا وجه سياق المصنف للآية في غربة الإسلام.

❑ **قوله**: وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعًا: «بَدَأَ الإِسلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَىٰ للغُرَبَاءِ». رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)].

وَرَوَاهُ أَحمَدُ مِن حَدِيثِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيهِ: قِيلَ: مَنِ الغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ»[(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «الَّذِينَ يَصلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[(٣)].

وَرَوَاهُ أَحمَدُ مِن حَدِيثِ سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَفِيهِ: «فَطُوبَىٰ يَومَئِذٍ للغُرَبَاء إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[(٤)].

وَللتِّرمِذِيِّ[(٥)] مِن حَدِيثِ كَثِيرِ بنِ عَبدِ اللّه، عَن أَبِيهِ، عَن جَدِّهِ: «فَطُوبَىٰ للغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصلِحُونَ مَا أَفسَدَ النَّاسُ مِن سُنَّتِي».

■ هذا خبر من الرسول ﷺ معناه: التحذير من الضلال، والحَثُّ علىٰ التمسك بالإسلام، ولو كان أهله قليلين.

وقوله: «**فطوبىٰ للغرباء**»: هذا ترغيب في أن يكون المسلم مع الغرباء في آخر الزمان، ولا يزهّده في الإسلام قلة أهله.

وطوبىٰ، قيل: هي شجرة في الجنة. **وقيل**: هي الجنة نفسها يُقال لها: طوبىٰ، وقيل: هي كلمة طيبة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾[الرعد: ٢٩].

«ورواه أحمد من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قيل: من الغرباء، قال: **النُّزاع من القبائل**» النزاع: جمع نزيع، ونازع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته، أي:

---

(١) برقم (١٤٥).
(٢) أحمد في «المسند» (٣٧٨٤).
(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائده» علىٰ «المسند» (١٦٦٩٠).
(٤) أحمد في «المسند» (١٦٠٤).
(٥) برقم (٢٦٣٠).

الذين يخرجون عن الأوطان لإقامة سُنن الدين، والقليل من الناس مَنْ يهجر وطنه وعشيرته من أجل علاء كلمة الحق، ومن أجل نَشْر دين الله الحق، وهو الإسلام، في أرجاء المعمورة.

وفي رواية: «**الذين يصلحون ما أفسد الناس**». يعني: جاء في وصفهم ثلاثة أوصاف: النزاع من القبائل، يعني: الأفراد الذين يهجرون أوطانهم في سبيل إقامة سُنن الدِّين، وهذا دليل علىٰ أن الإسلام في آخر الزمان سيصير غريبًا.

الوصف الثاني: الذين يصلحون إذا فسد الناس، يصلحون، أي: يصبرون علىٰ الدِّين، ولا ينظرون لفساد الناس، ولا يقولون: نحن مثل الناس، لا نصبح بين الناس منفردين، نتابع الناس، نتابع المجتمع، نتابع البلد... لا، هؤلاء يصبرون، ولو كانوا قليلين، ولو خالفهم الناس، يصلحون إذا فسد الناس، ولا يَفسدون مع الناس، ولكن كونهم يصلحون بين الناس هذا يحتاج إلىٰ صبر وثبات وثقة ومعرفة.

الوصف الثالث: يصلحون ما أفسد الناس يعني: يكونون صالحين في أنفسهم، ويصلحون ما أفسد الناس بالدعوة إلىٰ الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الخير، يصلحون ما باستطاعتهم، ولا يسكتون.

ورواه أحمد من طريق سعد بن أبي وقاص، وفيه: «**فطوبىٰ يومئذٍ للغرباء إذا فسد الناس**»: أي: إذا فسد الناس لا يثبت علىٰ الحق إلَّا مَنْ كان عنده إيمان، ويقين وقوة وإلَّا فإنه ينجرف مع الناس، فضعيف الإيمان أو مزعزع الإيمان أو قليل الفِقْه والعلم ينجرف مع الناس.

وللترمذيِّ من حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدِّه: «**فطُوبىٰ للغرَباء الذين يُصلِحون ما أفسَدَ الناسُ من سُنَّتي**». يصلحون ما أفسد الناس، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. لم يقل صالحون، بل قال: مصلحون، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وينشرون الخير.

أما إذا كانوا صالحين في أنفسهم، وساكتين فإنهم يهلكون مع الهالكين، تعمُّهم العقوبة في الدنيا؛ لكن يوم القيامة يبعثهم الله علىٰ نيّاتهم.

❑ **قوله**: وَعَن أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: سَأَلتُ أَبَا ثَعلَبَةَ الخُشَنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المَائدة:١٠٥].

قَالَ: أَمَا وَاللّه لَقَد سَأَلتَ عَنهَا خَبِيرًا؟ سَأَلتُ عَنهَا رَسُولَ اللّهِ ﷺ، فَقَالَ: «بَلِ ائتَمِرُوا بِالمَعرُوفِ وَتَنَاهُوا عَنِ المُنكَرِ حَتَّىٰ إِذَا رَأَيتُم شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنيَا مُؤثَرَةً، وَإِعجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ بِرأيِهِ، فَعَلَيكَ بِنَفسِكَ، وَدعَ عَنكَ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِن وَرَائِكُم أَيَّامًا الصَّبرُ فِيهِنَّ مِثلُ القَبضِ عَلَىٰ الجَمرِ، للعَامِلِ فِيهِنَّ مِثلُ أَجرِ خَمسِينَ رَجُلًا يَعمَلون مِثل عَمَلِكُم».

قِيلَ: منَّا أَم مِنهُم؟ قَالَ: «بَل مِنكُم». رواه أَبُو دَاودَ وَالتِّرمِذِيُّ[١].

■ هذا حديثٌ عظيمٌ، يفسر قوله تعالىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ**﴾ [المائدة: ١٠٥] لأنه قد يفهم منها بعض الناس أو كثير من الناس أنك إذا كنت صالحًا في نفسك، فلا تأمر بالمعروف، ولا تَنْهَ عن المنكر، فيفهم من الآية أن معناها: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تعتني بنفسك فقط، وهذا خطأ.

ليس هذا هو تفسير الآية، وإنما تفسير الآية هو أنه إذا فسد الناس فلا تفسد أنت، هذا هو المقصود من الآية، ولا تقلّد الناس.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو باقٍ لا يسقط، قال ﷺ: «**مَن رأىٰ منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»[٢]. فلابد من إنكار المنكر في كل زمان إلىٰ أن تقوم الساعة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤)، والترمذي (٣٠٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فليس معنىٰ الآية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكن معناها: أنك تصلح أنت ولا تنظر إلىٰ فساد الناس، ومع صلاحك تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، ولهذا يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها في غير مواضعها، وإنا سمعنا النبي ﷺ، يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمُّهم الله بعقاب**»[(١)]. فليس معناها إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الشر، وإنما معناها: أن علىٰ الإنسان ألّا ينجرف مع الناس.

وقوله: «**فإن من وراءكم أيامًا، الصبر فيهن مثل القبض علىٰ الجمر**». هذا في آخرِ الزمان عند غُرْبة الإسلام، يحتاج المسلم إلىٰ الصبر، وإلّا فإنه سيلقىٰ من الناس التعب والمشقة؛ لأنه يعيش بين أُناسٍ يخالفونه في كل شيء، فعليه بالصبر وألَّا يزهد بالحق، ولا ينجرف مع الناس، وهذا يحتاج إلىٰ صبر؛ لأنهم سيذمونه ويعيّرونه، أو ربما يؤذونه ويضربونه أو يهدِّدونه؛ ولكن عليه أن يصبر؛ لأنه علىٰ الحق حتىٰ لو قتلوه؛ لأنه علىٰ حقٍّ، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، سُحب في الأسواق وضُرب، حتىٰ أُغمي عليه وسُجن رَحِمَهُ اللَّهُ، ولم يعبأ بهذه الأمور.

وقوله: «**للعامِل فيهنَّ أجرُ خمسين رجلًا يعملون مِثلَ عملكم**». هذه مسألة مشكلة فالرسول ﷺ قال: «**إن الذي يتمسَّك بالدين في آخر الزمان عند الفتن له أجر خمسين رجلًا من الصحابة**». قالوا: منا أو منهم. قال: «**بل منكم**». لماذا؟

لأن الصحابة مع الرسول ﷺ والدِّين عزيز في ذلك الوقت، والمسلمون كثيرون، أما هذا فهو غريب، ومع هذا تمسك بالدين، ودافع عن الدين مع أنه ليس له أنصار، ولا أعوان، ولذلك حاز علىٰ هذا الأجر، وأصبح في هذه المسألة أفضل من الصحابة، وهي مسألة خاصة.

والصحابة أفضل منه في أمور أخرىٰ في الصُّحْبة والجهاد في سبيل الله مع رسول الله

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٢١٦٨)، وهو في «مسند الإمام أحمد» (١).

ﷺ، وفي الهجرة، هي أفضل منهم في خصلة واحدة، وهم أفضل منه في خصال كثيرة، فليس معنىٰ هذا أنه يأتي في آخر الزمان من هو أفضل من الصحابة مطلقًا؛ لا بل أفضل من الصحابة في نقطة واحدة فقط، والصحابة عندهم فضائل كثيرة ليست عن هذا، ويقولون: إن الفضيلة الخاصة لا تقضي علىٰ الفضيلة العامة، ينبغي معرفة هذا، فالصحابة لا أحد أفضل منهم أبدًا.

❏ **قوله**: وَرَوَىٰ ابنُ وَضَّاحٍ مَعنَاهُ مِن حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَلَفظُهُ: «إِنَّ مِن بَعدِكُم أَيَّامًا للصَّابِرُ فِيهَا المُتَمَسِّكُ بِمِثلِ مَا أَنتُم عَلَيهِ اليَومَ لَهُ أَجرُ خَمسِينَ مِنكُم».

ثُمَّ قَالَ: أَنبَأَنَا مُحَمَّدُ بنُ سَعِيدٍ: أَنبَأَنَا أَسَدٌ قَالَ: أَنبَأَنَا سُفيَانُ بنُ عُيَينَةَ، عَن أَسلَمَ البَصرِيِّ، عَن سَعِيدِ بن أَبِي الحَسَنِ قَالَ: قُلتُ لِسُفيَانَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: «إِنَّكُم اليَومَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبكُم، تَأمُرُون بِالمَعرُوف وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَلَم يَظهَر فِيكُم السَّكرَتانِ: سَكرَةُ الجَهلِ، وَسَكرَةُ حُبِّ العَيشِ، وَسَتُحَوَّلُونَ عَن ذَلِكَ؟ فَالمُتَمَسِّكُ يَومَئِذٍ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُ أَجرُ خَمسِينَ». قِيلَ: مِنهُم، قَالَ: «بَل مِنكُم»[١].

■ ابن واضح، هو الإمام الحافظ، مُحَدِّث الأندلس، محمد بن وضاح بن بزيع، له كتاب اسمه «الحوادث والبدع» مطبوع.

روىٰ ابن وضاح معنىٰ حديث أبي ثعلبة الخُشَني، ولكن من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظه: «**إن من بعدكم أيامًا للصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم أجرُ خمسين منكم**».

هذه الأيام التي تشتد فيها غُرْبة الإسلام، وقلة الأنصار والأعوان، وكثرة الأعداء والمخذّلين والمُرجِفين، كما تعلمون الآن، والله أعلم يأتي زمان أشد من هذا، فالذي يثبت علىٰ دينه، ويثبت علىٰ جهاده ودعوته، فهذا يكون كالقابض علىٰ الجمر، ومن شدة ما يلقىٰ من الناس يحتاج إلىٰ صبر شديد.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤٩) من حديث أنس بن مالك، وحديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«إن من بعدكم أيامًا للصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم»: **«بمثل ما أنتم عليه»**. يعني: الصحابة، الذين يثبت علىٰ الدِّين، وعلىٰ طريقة الرسول ﷺ وأصحابه يكون من الفِرْقة الناجية، هذا معناه؛ لأنه يصبر حينما يتزلزل كثير من الناس، حينما ينجرف كثير من الناس، يصبر هو علىٰ الحق، ويصبر علىٰ مخالفة الناس، ولوم الناس وذمَّهم؛ بل يصبر علىٰ ما يناله منهم في نفسه، وفي جسمه، فقد يُضرب، وقد يُسجن، وقد يُقتل، يصبر لأنه علىٰ الدين، فما دام علىٰ الدِّين، وعلىٰ الحقِّ، فلا يهمُّه ما يصيبه في هذه الدنيا؛ لأنه لحظة وينتهي.

ثم قال: «أنبأنا محمد بن سعيد، أنبأنا أسد، قال: أنبأنا سفيان بن عُيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد بن أبي الحسن يرفعه، فقال: قلت لسفيان: عن النبي ﷺ ؟ قال: نعم».

يعني: هل هذا الذي ترويه ورد عن النبي ﷺ ؟ قال: نعم، يعني: ليس أثرًا عن غير النبي ﷺ ، وإنما هو مرفوع للنبي ﷺ .

والسكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حبِّ الحياة، والجهل داء قاتل، وليت الجاهل يسكت علىٰ جهله، ولكنه جاهل يتكلم في أمور الدين ويُفتي، هذه المصيبة.

أما الجاهل الذي يعترف بجهله، ويقصر شرَّه عن الناس، هذا أخفُّ من الجاهل الذي يتكلم في أمور الدين، ويُحلِّل ويحرّم، ويُفتي وهو علىٰ جهل، فهذا يحدث في آخر الزمان حينما يقلّ الفقهاء، ويُكثر القُرَّاء، ويتخذ الناس رؤوسًا جهّالًا يفتون بغير عِلْم، ويَضلون ويُضلون، هذه سَكْرة الجهل.

والثانية: حبُّ العيش وحب الدنيا، فإذا أحب الدنيا، نسي الآخرة وصار يعمل للدنيا، فالذي يحب شيئًا يعمل له، فيعمل للدنيا ولا يعمل للآخرة، هذا يصيب كثيرًا من الناس في آخر الزمان، جهل وتعلَّق بالدنيا ونسيان للآخرة، الآن يقولون: لا تذكروا الجنة والنار في الخطب وتخوفون الناس، هذا إرهاب، وأنتم أُناس متزمتون، عندكم قنوط.

يقولون هذا الآن، لحُبِّهم للدنيا، ولا يريدون ذِكْر الجنة والنار، والقبر وعذاب القبر، يقولون: أنتم تكدّرون علىٰ الناس عيشهم ولذتهم، فالناس يريدون أن يسرحوا ويمرحوا، وأنتم تقولون لهم: هناك جنة ونار وعذاب قبر وحساب، يقولون: لا تعرضوا هذا في الخُطب، فهذا من الفِتن -والعياذ بالله- وهذا ظهر في الناس، وكتبوه في الصحف وقالوه في مجالسهم، وذمّوا الخطيب الذي يعظ الناس ويُذكّرهم بالله، ويقولون: هذا تيئيس للناس وتكدير لهم، فسبحان الله.

❑ **قوله:** وَلَهُ بِإِسنَادٍ عَن المُعَافِرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «طُوبَىٰ لِلغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِكِتَابِ اللّه حِينَ يُترَكُ، وَيعمَلُونَ بِسُنَّتِي يَومَ تُترَكُ».

■ هذا، كما سبق أنه ﷺ سُئل: «من الغرباء؟ قال: **الذين يصلحون إذا فسد الناس**»[(١)]. وفي رواية: «**يصلحون ما أفسد الناس**»[(٢)].

وهذا الحديث يقول فيه: «**طوبىٰ للغرباء الذين يتمسكون بكتاب الله**». هم يتمسكون بأنفسهم، ويُمسِّكون غيرهم بكتاب الله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعلِّمون دين الله، ويدعون إلىٰ الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. فلا شك أن الذي يثبت علىٰ الدِّين عند الفِتن والشرور وانقلاب الناس ضده، أن هذا يُرجىٰ له خير كثير؛ لكن هذا نادر، فأكثر الناس لا يصبرون، ولو أنهم يحبون الخير لصبروا.

والشيخ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة قيمة في هذا الموضوع، في مسألة الغُرْبة، عنوانها: «كشف الكُرْبة في وصف حال أهل الغُرْبة» مطبوعة، شرح فيها حديث: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**».

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده علىٰ «المسند» (١٦٦٩٠) من حديث عبد الرحمن بن سنّة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ التَّحذيرِ مِنَ البِدَعِ

عَنِ العِربَاضِ بنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللّه ﷺ موعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ وَذَرَفَت مِنهَا العُيُونُ، قُلنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ، كَأَنَّهَا موعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تعهَدُ إلَينَا؟ قَالَ: «**أُوصِيكُم بِتقوَىٰ اللّهِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِن تَأَمَّرَ عَلَيكُم عَبدٌ؛ فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم فَسَيَرَىٰ اختِلافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِن بَعدِي، عَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَة**». قَالَ التِّرمِذِيُّ: حَدِيث حَسَن صَحِيح.

وَعَن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كُلُّ عِبادَةٍ لا يَتَعَبَّدُهَا أَصحَابُ مُحَمَّدٍ** ﷺ **فَلَا تَعَبَّدُوهَا**، فَإِنَّ الأَوَّلَ لَم يَدَع لِلآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللّه يَا مَعشَرَ القُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَن كَانَ قَبلَكُم». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ.

وَقَالَ الدَّارِميُّ: أَخبَرَنَا الحَكَمُ بنُ المُبَارَكِ، أَنبَأَنَا عَمرُو بنُ يَحيَىٰ قَالَ: سَمِعت أَبِي يُحَدِّثُ عَن أَبِيهِ قَالَ: كنَّا نَجلِسُ عَلَىٰ بَابِ عَبدِ اللّه بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبلَ صَلَاةِ الغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَينَا مَعَهُ إِلَىٰ المَسجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَىٰ الأَشعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيكُم أَبُو عَبدِ الرَّحمَنِ بَعدُ؟ قلنَا: لَا، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّىٰ خَرَجَ، فَلَمَّا خرَجَ قُمنَا إِلَيهِ جَمِيعًا، فقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَىٰ: يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، إِنِّي رَأَيتُ آنِفًا فِي المَسجِدِ أَمرًا أَنكَرتُهُ وَلَم أَرَ -وَالحَمدُ للّهِ- إِلَّا خيرًا، قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إن عِشتَ فَستَرَاهُ... قَالَ: رَأَيتُ فِي المَسجِدِ قومًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنتَظِرونَ الصَّلاةَ، فِي كُل حَلقَةٍ رَجُل وَفِي أَيدِيهِم حَصًىٰ، فيَقُول: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُون مِائَةً، فيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً.

قَالَ: فَمَاذَا قُلتَ لَهُم؟ قَالَ: مَا قُلتُ لَهُم شَيئًا انتِظَارَ أَمرِكَ -أَوِ انتِظَارَ رَأيِكَ-. قَالَ: أَفَلَا أَمَرتَهُم أَن يَعُدُّوا لسَيِّئَاتِهِم وَضَمِنتَ لَهُمْ أَلَّا يَضِيعَ مِن حَسَنَاتِهِم شَيءٌ؟ ثُمَّ مَضَىٰ وَمَضَينَا مَعَهُ حَتَّىٰ أَتَىٰ حَلقَةً مِن تِلكَ الحِلَقِ.

فَوَقَفَ عَلَيهِم، فَقَالَ: مَا هَذَا الذِي أَرَاكُم تَصنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، حَصًىٰ نَعُدُّ بِهِ التَّكبِيرَ وَالتَّهلِيلَ وَالتَّسبيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُم، فَأَنَا ضَامِنٌ أَلَّا يَضِيعَ مِن حَسَنَاتِكُم شَيءٌ، وَيحَكُم يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَسرَعَ هَلَكَتَكُم، هَؤلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُم ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَم تَبلَ، وَآنِيَتُهُ لَم تُكسَر، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّكُم لَعَلَىٰ مِلَّةٍ هِيَ أَهدَىٰ مِن مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَو مُفتَتِحو بَابَ ضَلَالَةٍ.

قَالُوا: وَاللَّه يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، مَا أَرَدنَا إِلَّا الخَيرَ.

قَالَ: وَكَم مِن مُرِيدٍ لِلخَيرِ لَن يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَومًا يَقرَءونَ القُرآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، وَايمُ اللَّه مَا أَدرِي لَعَلَّ أَكثَرَهُم مِنكُم، ثُمَّ تَوَلَّىٰ عَنهم.

فَقَالَ عَمرُو بنُ سَلِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَينَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الخَلْقِ يُطَاعِنُونَنَا يَومَ النَّهرَوَانِ مَعَ الخَوَارِجِ.

وَاللَّهُ المُستَعَانُ وَعَلَيهِ التُّكلَانُ.

وَصَلَّىٰ اللَّه وَسَلَّمَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ.

الشَّرح

❑ **قوله**: بَابُ: التَّحذيرِ مِنَ البِدَعِ.

■ **البدع، جمع بدعة، وهي**: ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه، عبادة، أو ذِكْر أو غير ذلك، من أمور الدِّين، فالدِّينُ كاملٌ، ولله الحمد؛ لأنه ما تُوفي الرسول ﷺ إلّا والدِّين كاملٌ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فلا يحتاج إلىٰ أحدٍ يأتي ويضيف إلىٰ الدِّين شيئًا جديدًا ولو كانت نيته صالحة، فلا يجوز هذا، فهذا مبتدع، ولو كانت نيته صالحة، فالدِّين لا يقبل الزيادة والإضافة، لأن الله أكمله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فهذه هي البدعة.

وقد قال ﷺ: «**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»(١). وفي رواية: «مَنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»(١).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**عليكم بسُنتي، وسُنة الخلفاء المهديين الراشدين** -كما يأتي في حديث العرباض بن سارية- **تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ**».

ولما حثَّ علىٰ التمسك بالسُّنة، نهىٰ عن البدع، فقال: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**». وقال ﷺ: «**إن خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد** ﷺ**، وشرَّ الأمور محدثاتُها**»(٢). الواجب الاتباع، وترك الإحداث والاستحسانات، والتقليد الأعمىٰ للمبتدعة.

❑ **قوله:** عَنِ العِربَاضِ بنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللّه ﷺ مَوعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ وَذَرَفَت مِنهَا العُيُونُ، قُلنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ، كَأَنَّهَا موعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعهَدُ إِلَينَا؟ قَالَ: «أُوصِيكُم بِتَقوَىٰ اللّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِن تَأَمَّرَ عَلَيكُم عَبدٌ؛ فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم فَسَيَرَىٰ اختِلافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِن بَعدِي، عَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَة». قَالَ التِّرمِذِيُّ: حَدِيث حَسَن صَحِيح.

■ أمر الله رسوله ﷺ أن يعظ الناس، فقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [الفاتحة:١]. فاليوم لو أتىٰ أحد ليعظ، يقولون: هذا معقّد متشائم... لا يفتح للناس البسمة والسرور والفرح.

فالرسول ﷺ وعظ أصحابه، وفي هذا دليل علىٰ أن العالِم يعظ الناس، فقد كان ﷺ يتخوَّل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة(٣)، يعني: يعظهم يومًا بعد يوم، لا يداوم علىٰ الوعظ، إنما يتخوّلهم يومًا بعد يوم، أو بعد يومين أو ما شاء الله، لا يداوم علىٰ ذلك، فيملّل الناس، إنما يتخوّلهم.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨) (١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي هذا الحديث قال العرباض بن سارية: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون»، فهذا رسول الله ﷺ، وهو أعظم الخَلْق بالله عَزَّوَجَلَّ وبما يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، وبما ينقذ الناس من الشرِّ، هو أعلم الخَلْق ﷺ، وهو يعِظ، وليست موعظة يسيرة؛ ولكنها موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون.

وقد ذكروا أن هذا بعد صلاة الفجر. قالوا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع، فهموا منها أنها وصية من الرسول ﷺ، وأن حياته علىٰ وَشْك النهاية، كأنها وصية مودّع.

ومن عادة المودِّع يعني: الذي يريد أن يسافر أو حضره الموت، أن يُوصي أولاده، أو من حوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣]. هذه سُنَّة الأنبياء أنهم يوصون أُممهم وذراريهم.

«قال: **أوصيكم بتقوىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ، **والسمع والطاعة**».

أوصيكم بتقوىٰ الله، هذه كلمة جامعة لخِصال الخير، يدخل فيها فعل الواجبات، وتَرْك المحرَّمات؛ لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله، فأتىٰ بكلمة جامعة، ثم فصّل عليه -عليه الصلاة والسلام-: «**أوصيكم بتقوىٰ الله**». ومن تقوىٰ الله: السمع والطاعة لوُلاة الأمور المسلمين؛ لأنه بالسمع والطاعة يحصل لهم اجتماع الكلمة، وقوة الأُمة، وتمام الأمر، واندفاع الشرور والفِتن، وإقامة الحدود، وإنصاف المظلومين من الظَّلَمة إلىٰ آخر المصالح التي في الولاية.

فهذا فيه وجوب نصب الوالي ووجوب الطاعة -بالسمع والطاعة-، إلا إذا أمر بمعصية فلا يُطاع في تلك المعصية، قال ﷺ: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق**»[1].

أما ما عدا المعصية فيُطاع فيه، الأعداء الآن يريدون أن يُضعفوا المسلمين، وألَّا تبقىٰ لهم ولاية، ولا يبقىٰ سمع ولا طاعة، وإنما يعطون الناس الحرية بما يريدون من الشرور والشهوات وأن ينحلَّ الأمر.

---

(١) رواه أحمد (٣٨٨٩) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالإسلام لا يصلح إلا بجماعة، والجماعة لا تقوم إلا بالولاية، والولاية لا تقوم إلا بالسمع والطاعة، لابد من هذا، فالأعداء يريدون ألَّا يبقىٰ للمسلمين جماعة، ولا إمامة حتىٰ يسهل انقيادهم للأعداء.

قال: «والسمع والطاعة، وأن تأمَّر عليكم عبد». يعني: ولي الأمر يطاع لمنصبه، ولمكانته، ولا ينظر إلىٰ شخصه وهيئته وإنما ينظر إلىٰ منصبه العظيم الذي يتولَّاه، لا ينظر إلىٰ أبَّهته وإلىٰ جماله، هذا من باب الحثِّ والتأكيد، فليست المسألة مسألة منظر أو أبّهة: المسألة مسألة منصب ومقام، فلا يُطاع لأجل رغبته هو أو منفعته هو، وإنما يُطاع لمنفعة المسلمين، ومصلحة المسلمين.

«فإنه مَنْ يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا»:

هذا خبر معناه: التحذير، فإن مَنْ طالت حياته فسيرىٰ اختلافًا، هذا في عصر الصحابة، فكيف بعد تطاول الزمن، فإنه يكثر الاختلاف والفِرَق والأحزاب.

فالواجب عند ذلك التمسُّك بسُنة الرسول ﷺ فالعصمة من الاختلاف، والعصمة من الخطر هو التمسك بسُنة الرسول ﷺ، ولو كلَّفك هذا ثمنًا باهظًا فاصبر.

والمراد بـ: «سنتي»: طريقته ﷺ.

«وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ».

والخلفاء الراشدون: هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي هؤلاء هم الخلفاء الراشدون؛ لأن عملهم توطيد لسُنة الرسول ﷺ وتثبيت لها.

وقوله: «عضُّوا عليها بالنواجذ». هذا من شِدَّة الحرص، شبَّه الواقع في الفِتن، كالواقع في اللَّجة، لا ينجو منها إلَّا بحبل يعتصم به، ويمسك الحبل، فلو أن الحبل انفلت منه غرق، فهو من حرصه علىٰ الحبل يعضُّ عليه بأضراسه، لا يكتفي بإمساكه بيديه، بل يعضُّ عليه بأضراسه، هذا من شِدَّة الخطر، وشِدَّة الحرص علىٰ النجاة.

«وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

«وإياكم ومحدثات الأمور». فما خالف سُنة الرسول ﷺ وسُنة الخلفاء، فإنه من

محدثات الأمور، حذَّر منه الرسول ﷺ، وإن كان أصحابه يحسّنونه، ويقولون: هذا طاعة لله، وتقرُّب إليه، فإنه لا ينفع، ولا تتقرب إلىٰ الله إلا بما شرَّع، أتتقرب إلىٰ الله بشيء لم يشرَّعه؟

هذه بدعة لا تتقرب إلىٰ الله إلا بما شرع، فالعمل له شرطان:

الأول: الإخلاص لله.

والثاني: العمل بالسُّنة وتجنب البدع، فإن كل العمل فيه شِرْكٌ فلا يقبل، وإن كان مبتدعًا، لا يقبل أيضًا.

«فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»: هذا فيه ردٌّ علىٰ مَنْ يقسمون البدعة إلىٰ بدعة حسنة، وبدعة سيئة، قالوا: إن الرسول ﷺ، قال: «**مَنْ سنّ في الإسلام سُنَّة حسنة...**»[1].

نقول: لم يقل ﷺ: من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة، حتىٰ تقولوا هناك بدعة حسنة، ومعنىٰ سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، أي: عمل بالسُّنة عند تَرْك الناس لها؛ لأن سبب الحديث في هذا بادر بالصدقة فاقتدىٰ به الناس، وقدَّموا صدقاتهم والصدقة سُنة، وليست بدعة.

فيقتدون به إذا عمل بالسُّنة، وله أجرها وأجر مَنْ عمل بها، وهذا فيه الدعوة إلىٰ السُّنة إذا تركها الناس.

❑ **قوله**: وَعَن حُذَيفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «**كُلُّ عِبَادَةٍ لا يَتَعَبَّدُهَا أَصحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَا تَعَبَّدُوهَا، فَإِنَّ الأَوَّلَ لَم يَدَع لِلآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللّه يَا مَعشَرَ القُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَن كَانَ قَبلَكُم**». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ.

■ الأصل سُنة الرسول ﷺ، ومَنْ هم أعرف الناس بسُنة الرسول؟ هم صحابته، وهم الذين يُبيِّنون سُنَّة الرسول ﷺ، يروونها ويعملون بها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالأخذ بما يعمل به الصحابة، أخذٌ بسُنة الرسول ﷺ؛ لأنهم أقرب الناس إلىٰ الرسول ﷺ، وهم تلاميذه وتعلَّموا منه، وهم يحبون سُنَّته عَلَيْهِ السَّلَامُ، والله -جلَّ وعلا- أمر بذلك بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾: يعني: بإتقان، من غير إفراط ولا تفريط ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إجماعهم حُجَّة، فإذا عملوا عملًا، فهو من سُنة الرسول ﷺ، وأما مَنْ جاء بعدهم فإنه يخطئ ويصيب.

«فاتقوا الله، يا معشر القُرَّاء وخذوا طريق مَنْ كان قبلكم».

يا معشر القراء، يريد العلماء؛ لأنه في ذلك الوقت، القُرَّاء هم العلماء، وليس المراد مجرد مَنْ يحفظون القرآن بالتجويد لا، فالمراد بالقُرَّاء في الزمان الأول: العلماء؛ لأنهم ما كانوا يتجاوزون عشر آيات؛ حتىٰ يتعلموا معانيهن ويعملوا بهن، لم يكونوا يحفظون فقط.

أما القرَّاء الذين في آخر الزمان فأولئك ليسوا فقهاء، مجرد قُرَّاء يقرءون القرآن؛ ولكن لا يتفقهونه، ويقرءون في الأحاديث، ولا يتفقهون فيها، أو يُفسِّرونها بفهمهم القاصر، أو بأهوائهم الضالَّة.

❑ **قوله**: وَقَالَ الدَّارِميُّ[(١)]: أَخبَرَنَا الحَكَمُ بنُ المُبَارَكِ، أَنبَأَنَا عَمرُو بنُ يَحيَىٰ، قَالَ: سَمِعت أَبِي يُحَدِّثُ عَن أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا نَجلِسُ عَلَىٰ بَابِ عَبدِ اللّه بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبلَ صَلَاةِ الغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَينَا مَعَهُ إِلَىٰ المَسجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَىٰ الأَشعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيكُم أَبُو عَبدِ الرَّحمَنِ بَعدُ؟ قلنَا: لا، فَجَلَس مَعَنَا حَتَّىٰ خَرَجَ، فَلَمَّا خرَجَ قُمنَا إِلَيهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَىٰ: يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، إِنِّي رَأَيتُ آنِفًا فِي المَسجِدِ أَمرًا أَنكَرتُهُ وَلَم أَرَ -وَالحَمدُ للّهِ- إِلَّا خَيرًا، قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِن عِشتَ فَسَتَرَاهُ... قَالَ: رَأَيتُ فِي المَسجِدِ قَومًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنتَظِرونَ الصَّلاةَ، فِي كُل حَلقَةٍ

---

(١) في «سننه» (٢١٠).

رَجُل وَفِي أَيدِيهِم حَصًىٰ، فَيَقُول: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُون مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً.

قَالَ: فَمَاذَا قُلتَ لَهُم؟ قَالَ: مَا قُلتُ لَهُم شَيئًا انتِظَارَ أَمرِكَ -أَوِ انتِظَارَ رَأيِكَ-. قَالَ: أَفَلا أَمَرتَهُم أَن يَعُدُّوا لسَيِّئَاتِهِم وَضَمِنتَ لَهُمْ أَلَّا يَضِيعَ مِن حَسَنَاتِهِم شَيءٌ؟ ثُمَّ مَضَىٰ وَمَضَينَا مَعَهُ حَتَّىٰ أَتَىٰ حَلقَةً مِن تِلكَ الحِلَقِ.

فَوَقَفَ عَلَيهِم، فَقَالَ: مَا هَذَا الذِي أَرَاكُم تَصنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، حَصًىٰ نَعُدُّ بِهِ التَّكبِيرَ وَالتَّهلِيلَ وَالتَّسبِيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُم، فَأَنَا ضَامِنٌ أَلَّا يَضِيعَ مِن حَسَنَاتِكُم شَيءٌ، وَيحَكُم يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَسرَعَ هَلَكَتَكُم، هَؤلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُم ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَم تَبلَ، وَآنِيَتُهُ لَم تُكسَر، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّكُم لَعَلَىٰ مِلَّةٍ هِيَ أَهدَىٰ مِن مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَو مُفتَتِحو بَابَ ضَلَالَةٍ.

قَالُوا: وَاللّه يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، مَا أَرَدنَا إِلَّا الخَيرَ.

قَالَ: وَكَم مِن مُرِيدٍ لِلخَيرِ لَن يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَومًا يَقرَءونَ القُرآنَ، لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، وَايمُ اللّه مَا أَدرِي لَعَلَّ أَكثَرَهُم مِنكُم، ثُمَّ تَوَلَّىٰ عَنهم.

فَقَالَ عَمرُو بنُ سَلِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَينَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الخَلْقِ يُطَاعِنُونَنَا يَومَ النَّهرَوَانِ مَعَ الخَوَارِجِ.

■ **هذه قصةٌ عظيمةٌ، وعجيبةٌ، حصلت من ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تدل علىٰ فِقْهه وقوته في الحقِّ.**

وهذا فيه تقدير السلف لأهل العلم، كانوا يحرصون علىٰ أخذ العلم عنهم، والمشي معهم، ومجالستهم خلافًا للذين يقولون الآن: العلماء متحجِّرون، والعلماء نفعيون، والعلماء أصحاب وظائف، ويُحذِّرون من العلماء.

قال: «فإذا خرج مشينا معه إلىٰ المسجد، فجاءنا أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ابن مسعود كان مفتيًا في الكوفة، ومعلمًا، وأبو موسىٰ كان أميرًا علىٰ الكوفة، فهما صحابيان جليلان؛ أحدهما كان أميرًا والآخر كان مفتيًا ومُعلِّمًا.

«فقال: أخرجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعدُ؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتىٰ خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسىٰ: يا أبا عبد الرحمن، أني رأيت آنفًا في المسجد أمرًا أنكرتُه، ولم أرَ -والحمد لله- إلا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه. قال: رأيت في المسجد، قومًا حِلقًا جلوسًا، ينتظرون الصلاة، في كل حلقةٍ رجل، وفي أيديهم حصًىٰ، فيقول: كبِّروا مائة، فيُكبِّرون مائة، فيقول: هلِّلوا مائة، فَيُهلِّلون مائة، فيقول: سبِّحوا مائة، فيسبِّحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا؛ انتظارَ رأيك».

أصل التسبيح والتهليل والتكبير مشروع؛ لكن جعله علىٰ هذه الصفة، يتحلقون حِلَقًا، ومعهم رجل، ومعهم حَصَىٰ، يقول لهم: كبِّروا مائة فيُكبِّرون، ويُعدّدون مائة بالحصىٰ، ثم يقول: هلّلوا مائة، فيهللون بالحصىٰ، إلىٰ آخره.

هذه الصورة فيها بدعة، أما التسبيح والتهليل والتكبير فهذا مشروع، أما الصورة فهي بدعة، ما أمر بها رسول الله ﷺ، ولا فعلها، وهذه تئول إلىٰ شرٍّ كما يأتي في آخر القصة.

«قال: أفلا أمرتهم أن يعدَّوا سيئاتهم، وضمنت لهم ألَّا يضيع من حسناتهم شيء».

يقول: عليك أن تعدَّ سيئاتك، وتتوب منها، أما الحسنات فاعملها ولا تعدها، تقول: أنا سبحت مائة وألفًا أو عشرين ألفًا، وما أشبه ذلك، هذا من الرياء، وهذه بدعة.

«ثم مضىٰ، ومضينا معه، حتىٰ أتىٰ حلقة من تلك الحِلَق، فوقف عليهم. فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟! فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًىٰ نعد بها التكبير، والتهليل، والتسبيح. قال: فعدّوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ ألَّا يضيع من حسناتكم شيء، ويحَكم يا أمة محمد!! ما أسرع هَلَكَتكُم! هؤلاء صحابة محمد ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تُبْلَ، وآنيتُه لم تُكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلىٰ مِلَّة هي أهدىٰ من مِلَّة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة. قالوا: والله، يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير».

فمجرد النية وإرادة الخير لا تسوغ البدعة، فالبِدْعة بِدعة، وهي شرٌّ وإن كانت نية

صاحبها حسنة، وقصده حسنًا.

قال: «وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا: **أن قومًا يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم**».

أتىٰ بحديث الخوارج الذين يغلُّون في الدِّين، ويعملون من غير دليل وفِقْه، وإنما يقرءون القرآن من غير فَهْم له، ويجتهدون من عند أنفسهم، وبآرائهم من غير أن يتفقهوا في دين الله، هذه طريقة الخوارج، فتوقَّع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم سيكونون من الخوارج؛ لأن البدعة تجرُّ إلىٰ الشرِّ، وأما السُّنة فتجر إلىٰ الخير.

« وايمُ الله، ما أدري لعلَّ أكثرهم منكم، ثم تولَّىٰ عنهم، فقال عمرو بن سَلمة: رأينا عامَّة أولئك الخَلْق يطاعنونا يوم النَّهروان مع الخوارج».

كما توقَّع ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رآهم مع الخوارج، يقتلون المسلمين في النهروان، والنهروان موقعة جرت بين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والخوارج، فنصر الله أمير المؤمنين عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكانت وقعة النهروان في العراق، فهؤلاء الذين أخذوا هذه البدعة جرَّتهم إلىٰ الخوارج وصاروا معهم، وقتلوا معهم -والعياذ بالله-.

فهذا فيه التحذير من البِدَع، وأنها تجرُّ إلىٰ شرٍّ، ولو كانت نية أصحابها حسنة، أو مقاصدهم طيبة؛ لأن ليس المدار علىٰ النية والقصد، وإنما المدار علىٰ الدليل من كتاب الله، أو من سُنَّة الرسول ﷺ، فالدِّين كامل، ولله الحمد ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يأمر به الرسول ﷺ، ولم يفعله، ولم يقرَّ أحدًا عليه، فإنه ليس من الدِّين، وإنما هو من البِدَع.

❑ **قوله**: وَاللَّهُ المُستَعَانُ وَعَلَيهِ التُّكلَانُ.

وَصَلَّىٰ اللَّه وَسَلَّمَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ.

▪ ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب بهذا الدُّعاء والله المستعان، وعليه التكلان، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

مُحتويات الكتاب